# البرتغاليون في بحر عُمان

## أَحداث في حوليات

من ١٤٩٧م إلى ١٧٥٧م

المجلد الثاني

الدكتور سلطان بن محمد القاسمي

منشورات القاسمي

# البرتغاليون في بحر عُمان

## أَحداث في حوليّات

من ١٤٩٧م إلى ١٧٥٧م

# البرتغاليون في بحر عُمان

# أَحداث في حوليّات

## من ١٤٩٧م إلى ١٧٥٧م

المجلد الثاني

الدكتور سلطان بن محمد القاسمي

منشورات القاسمي

اسم الكتاب :
البرتغاليون في بحر عُمان ، أحداث في حوليات ، من ١٤٩٧م إلى ١٧٥٧م ، المجلد الثاني .
الدكتور سلطان بن محمد القاسمي (الإمارات) .
..........................................
اسم الناشر : منشورات القاسمي ، الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة .
سنة الطبع : ١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة

التوزيع : منشورات القاسمي
ص . ب : ٦٤٠٠٩ الشارقة ، دولة الإمارات العربية المتحدة
هاتف : ٠٠٩٧١٦٥٠٩٠٠٠٠ — براق : ٠٠٩٧١٦٥٥٢٠٠٧٠
البريد الإلكتروني : Info@aqp .ae
..........................................
الفهرسة الوصفية أثناء النشر :
مكتبة الشارقة العامة ، هيئة الشارقة للكتاب ، الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة :
٩٥٣،٠٧٥٣
ق س . ب
القاسمي ، سلطان بن محمد بن صقر ، حاكم الشارقة ، ١٩٣٩م- البرتغاليون في بحر عُمان : أحداث في حوليات ١٤٩٧م — ١٧٥٧م / سلطان بن محمد القاسمي . - الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي ، ٢٠٢٥م .
٢١ مج . ؛ ص : ٤٨٦ ؛ ١٥,٥ X ٢٣,٥ سم .
يشتمل على هوامش .
تدمك : ١-٩٠-٧٢١-٩٩٤٨-٩٧٨
١- عُمان (السلطنة) — تاريخ — العصر الحديث — الاحتلال البرتغالي ٢ - عُمان (السلطنة) — تاريخ — عصر اليعاربة ٣ — دول الخليج العربي — تاريخ — الاحتلال البرتغالي أ — العنوان
..........................................
الترقيم الدولي : ١-٩٠-٧٢١-٩٩٤٨-٩٧٨
إذن طباعة رقم ٤٥٨٣٢٩٤-MC-٠٣-٠١ بتاريخ ١٨/٠٢/٢٠٢٥م ،
مكتب تنظيم الإعلام ، وزارة الثقافة والشباب ، الإمارات العربية المتحدة
الطباعة : AL Bony Printing Press — Sharjah، UAE
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"

# المحتويات


**مقدمة المجلد الثاني** ٧

- أحداث عام ١٥٠٧م ٩

**دليل الباحثين** ٤٧٧

**هوامش المجلد الثاني** ٤٨٣

# مقدمة المجلد الثاني

يضم هذا المجلد بين دفتيه أحداث عام ١٥٠٧م . كانت التجارة التي ينقلها البرتغاليون على أساطيلهم مكلفة ، لبعد المسافة من الهند إلى أوروبا عبر "رأس الرجاء الصالح" ، يضاف إلى ذلك أخطار ظاهرة "النو" وهي شدة هبوب الريح واضطراب البحر في المحيطات ، بينما الطرق الأخرى ، عبر الخليج العربي والبحر الأبيض المتوسط وكذلك البحر الأحمر ، ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط ، وهي أهدأ من المحيطات ، إلى جانب ذلك ، فالمسافة إلى أوروبا أقصر منها عبر "رأس الرجاء الصالح" .

كانت البضائع التي تمر عبر الخليج العربي والبحر الأحمر أثمانها أرخص من التي تمر عبر "رأس الرجاء الصالح" ، فكسدت بضائع البرتغاليين ، لذلك أمر ملكُ البرتغال القائدَ "أفونسو دي البوكيرك"

"Afonso de Albuquerque" ، أن يقوم باحتلال مداخل تلك الطرق ، وهي مضيق هرمز مدخل الخليج العربي ، وباب المندب مدخل البحر الأحمر .

قام القائد "أفونسو دي البوكيرك" بالمهمة ، وفي عام ١٥٠٧م ، قام باحتلال هرمز على مدخل الخليج حيث نجح في ذلك ، بينما فشل في احتلال باب المندب .

يضم هذا المجلد (الثاني) الصراعات والمعارك التي دارت بين البرتغاليين والمدن التي على ساحل عُمان الشرقي وهرمز على الساحل الفارسي ، وفي شهر سبتمبر عام ١٥٠٧م ، وقّع "أفونسو دي البوكيرك" اتفاقية مع ملك هرمز على أن يكون تابعاً لملك البرتغال .

**الدكتور سلطان بن محمد القاسمي**

# أحداث عام ١٥٠٧م

**في ذلك العام أبحر رئيس الضباط "أفونسو دي البوكيرك" "Afonso de Albuquerque" مع أسطوله من "سوقطرة" إلـى هرمز وصولاً إلـى مكان يسمى "قلهات" "Kalhat" ، وما الذي فعله هناك ، جاء ذلك في كتاب: أحداث الهند "Lendas da India" ، الفصل الثاني :[(١)]**

عندما غادر "أفونسو دي البوكيرك" سوقطرة أخذ معه ثلاثة من مرشدي السفن المسلمين ، وكانـوا مجـهزين من قبل ملك "مالندي" ، والذي كان يعرف الساحل الممتد إلى هرمز ، ولقد قدّم أحد المرشدين إلى "أفونسو لوبيز دا كوستا" "Afonso Lopez da Costa" والآخر إلى "أنطونيو دو كامبو" "Antonio de Campo" ، ولقد أمر بأن يتم إسكان والتعامل مع المرشدين جيداً ، ولأن المسلمين يبحرون

(١) رقم الوثيقة والهامش.

بواسطة مواقع النجوم ليلاً ، فإنه يجب عليهم أن يصلوا في كل ليلة إلى الساحل الذي رأوه والطريق الذي كانوا يسلكوه ، ويجب التأكد من أن كل شيء متفق عليه ، وبعد ذلك يجب عليهم أن يقوموا بالحساب بواسطة موقع الشمس للتأكد من أنهم على حق ، وكيلا يضلهم المسلمون .

مع الإبحار بحذر شديد ويقظة ، وصلوا بنظرهم إلى رأس الحد ودخلوا إلـى الخليج ، وبمرورهم بامتداد الساحل وصلوا أولاً إلى مكان يسمى "قلهات" ، والتي كانت عبارة عن منازل من الصخور والطمي ، ومعظمها مكونة من أسقف من القش ، مبعثرة وغير محمية جيداً ، وخارج المدينة على جهة اليمين يوجد بستان من نخيل التمور حيث توجد آبار لمياه الشرب .

تقع المدينة على امتداد الساحل ، ويوجد خلفها سلسلة كبيرة من الجبال الصخرية ، وعلى الشاطئ يوجد "زامبوكو" وسفن تأتي لتحميل شحنات من الخيول والتمور والأسماك المملحة وسياف البحر وسمك "البينيت" ، والذي يوجد منه الكثير على امتداد الساحل .

يستلم ملك هرمز عائدات ضخمة من هذه ؛ لأن المدينة تخصه ، وله هناك ضابط وجنود لوقت السلام والحرب ، ويوجد محصلو ضرائب تم تعيينهم بواسطة "خواجا عطّار" ، حاكم مملكة هرمز ، والذي يوجد له محصلو ضرائب وخدامهم في كل مدينة . إن كل الموظفين المسؤولين في المملكة مخصيون وهم يعتقدون أن هذه منزلة مرتفعة .

إن كافة السفن التي تأتي من الهند تأتي إلى هنا ؛ لأنه أول مكان تصل إليه . يُبقي ملك هرمز دائماً أسطولاً ضخماً هنا يضم نوعاً من المراكب تسمى "تيراداس" ، وهي مراكب كبيرة مأهولة جيداً بالأفراد وبها أشرعة ومجاديف ، ولا يوجد أي أسلحة بها ، بل يوجد أعداد كبيرة من الرماة أصحاب الأقواس التركية ، وللملك حوالي أربعمائة منها ، ويوجد عشرة رجال على متن كل منها .

عندما تبحر السفن إلى هرمز في فترة الرياح الموسمية ، وأيضاً عندما يبحرون إلى الهند ، فإنه يتم حمايتهم حتّى يعبروا هذا الرأس ، وإلّا سيفقد الملك الكثير من عوائده .

لا تجرؤ أي سفينة على القدوم إلى هرمز ؛ لأنه يوجد على الساحل في الخلف مقابل هذا الرأس أُناس يُطلق عليهم القراصنة ، والذين كانوا تحت سيادة ملك "ريسبوتو" "Respoto" كان يشترك في حدوده مع "كامباي" "Campay" . كان هؤلاء القراصنة يعيشون على امتداد الساحل ، حيث يوجد العديد من المداخل ومصبات الأنهار والتي يعد الإبحار فيها خطراً جداً ، ولقد انطلقوا في سفن "تيراداس" خفيفة ، بواسطة أشرعة ومجاديف ، والمجدفون جميعهم من رماة السهام ويحملون معهم أقواساً وسهاماً .

كانوا يقومون بالتجديف ، ولكنهم كانوا يتركون المجاديف أحياناً ويقومون عندما تستدعي الحاجة إلى ذلك ويستخدمون الأقواس لإطلاق سهمين أو ثلاثة مرة واحدة ، وكانوا يحملونها بين أصابعهم ،

وكانوا بارعين وماهرين في الإطلاق . إن السهام ثلاثية الشفرات عندما يتم غرزها تسقط قصبة الرمح .

اتفق القراصنة مع أصحاب الأراضي التي يسكنون فيها على أن يعطوهم جزءاً من الأشياء التي يأخذونها ، وأن يشترك معهم الكثيرون من كافة أنحاء الدولة ، وأن يشكلوا أسطولاً كبيراً وأن يأتوا إلى ساحل "قلهات" ، حيث توجد رياح خفيفة وسكون لسرقة السفن المتجهة لـ هرمز .

لحق القراصنة بهم وداروا حول المركب ، وقاموا بإطلاق العديد من السهام حتّى تمكنوا من التغلب عليهم وسرقتهم ، وإلّا فإنه على السفن أن توافق على إعطائهم مبلغاً معيناً ، وإن لم يستطيعوا أن يأخذوا السفينة فإنهم يتجهون إلى مؤخرتها ، مع إطلاق وابل من السهام ، وربط الحبال بالدفة وسحبها حتّى تجنح السفينة إلى الشاطئ ، وتركها حتّى يهلكوا على اليابسة .

بسبب الأضرار التي سببها هؤلاء القراصنة امر ملك هرمز أسطوله بالدفاع عن هذه السفن وحمايتها ، ولقد هرب منهم القراصنة ؛ ذلك لأن مقاتلي "البارسيس" أفضل منهم .

تحمل السفن أحياناً المدافع والتي تمنعهم من ربط دفات السفينة ، ويقوم بعد ذلك القراصنة بحيلة أخرى: فهم يأخذون حبالاً طويلة يحملونها معهم لهذا الغرض ، ويوزعون أنفسهم على العديد من سفن "التيرادوس" على كل جانب ويمررون الحبل تحت السفينة

حتّى يمسك بالدفة ، وبالتالي يحركون السفينة ، ونظرا لأن السفن تمكن الغواصين من الوصول إلى الأسفل وقطع الحبال ، فقد قام القراصنة بلف الحبال بسلاسل من حديد ، والتي لا يمكنهم قطعها .

إن السفن تواجه هذه الصعوبات ؛ لأنه يجب أن يكون لديها دفات طويلة تصل إلى نصف متر أسفل سفينة الكيلة وتكون مبنية بطريقة لا يمكنهم من خلالها توجيه السفينة إلى اتجاه آخر .

فإن لم يتمكن ملك هرمز من حماية سفن التجار بواسطة أُسطوله فإنه سيفقد الكثير من العوائد التي يدفعونها لهم في الميناء بالإضافة إلى مستحقات الجمارك .

عندما وصل رئيس الضباط "أفونسو دي البوكيرك" إلى الميناء بسفنه التي كانت تتطاير عليها الأعلام ، كان هناك العديد من التجار القاصدين هرمز ، يذهبون جميعهم في قوارب لزيارة رئيس الضباط ، ويأخذ كل واحد منهم له هدية من النقود وبعض المأكولات ، ويخبرونه بأنهم تجار كانوا يعبرون البحر ببضائعهم للبيع والشراء من دون يلحقوا الضرر بأي أحد ، وأنهم يضعون أنفسهم تحت يديه لتنفيذ كل ما يطلبه منهم .

يرد الملك عليهم عبر "جاسبار رودريجوس" "Gaspar Roderiques" ، اللغوي ، والذي كان يعرف جميع اللغات جيداً ، قائلاً بأنه لن يؤذيهم بما أنهم قد جاؤوا للخضوع للعلم ، وهو علم ملك البرتغال ، صاحب كل البحار في العالم ، إن لم يبدوا خضوعهم فإنّه قد يأمر بإحراق

سفنهم ، ولهذا السبب كانوا في أمان ، ولأنهم كانوا في الميناء العائد لملك هرمز والذي كان سيبرم معه معاهدة للسلام والصداقة .

قد قال بأنهم يجب أن يعودوا للبلاد ، وأن يخبروا الشيخ بأن يثق به وأن يأتي ويتحدث معه ، وأن يبرموا معاهدة للصلح والصداقة كالتي كانت ستكون مع ملك هرمز ، وإذا لم يتوصلوا إلى شروط ، فإنه سيعود بالتأكيد إلى البلاد ، وإذا لم يثق الشيخ في عهوده ولم يأت ، فإنه سيحرق المدينة وكافة السفن في الميناء .

ارتعد المسلمون جداً لذلك ، وذهبوا إلى الشيخ وسلموه رسالة رئيس الضباط ، ملقين بأنفسهم تحت قدميه متوسلين له بأن يعقد الصلح مع رئيس الضباط وأن ينقذ سفنهم ، فأرسل الشيخ إلى رئيس الضباط هدايا من أكياس الأرز والتمر والماعز ، مع رسالة يقول له فيها بأنه مستعد للقيام بأي شيء يريده .

سرّ رئيس الضباط بالهدايا ؛ لأنها كانت عبارة عن مؤن ، وقبل أن يرسل الرد أمر بدفع مقدار قيمة كل شيء مرتين ، ولكن الرسل لن يأخذوا المدفوعات ، وبعد ذلك أمر بأن يرد كل شيء إلى الشاطئ ؛ لأنه لن يقبل أي هدايا إلّا من الأصدقاء ، لذلك يجب أن يأخذ الرسل الأجر .

بعد ذلك أعطى رئيس الضباط إجابته ، بأنه جاء مع هذا الأسطول ، والذي ينتمي إلى ملك البرتغال ، من أجل طلب ملك هرمز بأن يكون

تابعاً وأن يدفع له جزية ؛ لأنه كان سيد الهند ، وأن يتعهد بالطاعة كما فعل باقي ملوك سواحل الهند و"مليندا" ، وإذا فعل ذلك سيكون هناك سلام للأبد في مدينته وفي كافة موانئه ، وإذا لم يفعل ذلك سيتم تدمير المدينة وكافة الموانئ على هذا البحر ؛ ولأن المدينة تتبع لملك هرمز كان يجب أن يتعهد بالطاعة منذ وقت طويل وأن يدفع الجزية ، وبالتالي يجب أن يعقد مجلساً لمعرفة ما يريدونه .

عندما سمع الشيخ والتجار بهذه الرسالة خافوا كثيراً ، وعقدوا مجلساً . كان ردّ الشيخ بأن الأمر كان في يديه للقيام بأي شيء يريده ، سواء أكان خيراً أو شراً ، ولكن بما أن المدينة تابعة لملك هرمز وهو كان خادمه مع كل من كان هناك ، وبما أنه قال بأنه إذا تعهد ملك هرمز بالسلام فإنه سيوافق على السلام معه إلى الأبد في مدينته وموانئه .

يجب عليه أن يسير في هذا الاتجاه ، وإذا جعل ملك هرمز من نفسه تابعاً لملك البرتغال ووافق على السلام معه ، ستصبح موانئه ومدينته حرة ، كما قال ، وإن لم يفعل ملك هرمز ذلك سيشعل الحرب عليه ، وبالتالي فعندما يعود إلى هنا سيطيعه في كل شيء ؛ لأنه لا يملك القوة للدفاع عن نفسه ، وسوف يسلّم له كل العوائد من البر والبحر .

رأى رئيس الضباط بأن الإجابة كانت جيدة ، ولكنه قرر إحداث الخراب بهذه الموانئ ، وتدميرها لإخافة ملك هرمز ، وبالتالي سيحقق ما يتمناه . كان مصراً على رد جوابه إلى الشيخ بأنه لا يريد شيئاً غير التعهد بالطاعة ودفع الجزية سنوياً ، وأنه يجب أن يوافق الآن ؛

لأنه إذا لم يصل إلى اتفاق في هرمز ، فعندما يعود من هناك لن يجد الكثير مما يمكن حرقه كما هو موجود الآن .

خلال إيصال الرسالة إلى الشاطئ ، تحدث الضباط مع بعضهم البعض ، وكانوا غاضبين لأن رئيس الضباط لم يستشرهم كما هو المفروض ، ومن الواضح أنه لم يضعهم في عين الاعتبار حتّى أثناء وجودهم ، وكانت هذه مسألة سلام وحرب يجب أن يقاتلوا فيها ، ويكونوا في الطليعة ، وبما أنهم كانوا ضباطاً للملوك والنبلاء ، فيجب أن يؤخذوا بعين الاعتبار .

كان "أفونسو لوبيز دا كوستا" المتقدم في ذلك ، واتفق الجميع أنه يجب أن يتحدث مع رئيس الضباط ، وبينما كانوا يتحدثون في أمور أخرى ، رفع "أفونسو لوبيز دا كوستا" المسألة ، قائلاً:

"أيها الرئيس: إنك تقلل من شأننا ولا تستشيرنا في قراراتك ، ويجب ألا تمنعها عنا إذا كنا سنقول لك ما يعتقد كل منا ما يكون هو الخير لله ولسيدنا الملك في هذه المسألة التي نحن بصددها ؛ لأن عشرة أشخاص يفكرون سويا أفضل من شخص واحد ، ولقد قلت ذلك لأننا جميعاً رأينا أن الرد الذي أُرسل للشيخ كان منطقيا لدرجة أنه أصبح طلب أي شيء آخر منه أمر غير ضروري ، فـ هرمز هي المدينة الأولى والرئيسة التي يجب أن توافق وإلّا ستهزم .

إذا كان يرضي الله بأن تكون تابعة لملكنا وسيدنا ، فبالتالي ستصبح كل موانئه حرة ، ولن نلحق به أي ضرر ، ولكن إذا لم يبد

هرمز طاعته ، سنشن حرباً مفتوحة على كل موانئه ، ولكن حالياً ، كوننا غير متأكدين مما سيقوم به هرمز ، فلا يعقل أن نشن حرباً على مدنه ، ويمكن أن يظننا بسبب ذلك أناساً غير عقلاء ومتكبرين .

سيكون ملك هرمز ومن في مجلسه أكثر استعداداً ، وسيكونون خائفين وسيظنون أنهم لا يمكنهم إقناعنا ، وسيلجؤون للحرب من أجل الخلاص ؛ لذلك فإننا يا سيدي نطلب منك أن تتفق معنا على المسائل وتستشيرنا جميعاً بها ، بما أننا يجب أن نتشارك في الأعمال والأخطار ، ومن خلال ذلك سيمنحنا ربنا النصر ، وسيعطيك الشرف الذي تطمح له" .

كان رئيس الضباط رجل ذكي جداً ، ولكنه كان سريع الغضب . استمع حتّى النهاية إلى كل ما قاله "أفونسو لوبيز دا كوستا" ، وهو ما كان متفقاً عليه من قبل باقي الضباط ماعدا "جواو دا نوفا" "Joao da Nova" ، الذي لم ينضم إليهم .

فرد رئيس الضباط قائلاً: "لقد استمعت إلى كل ما قلته ، لذلك اطلب منك أن تستمع أنت أيضاً إليّ وسوف أجيبك جواباً وافياً . بالنسبة للنقطة الأُولى التي قلتها ، بأنني يجب أن أقرر كل شيء وفقاً لنصائحكم ، فإنه أمر جيد أن أقوم بذلك .

أرني تفويضاتكم ، وإذا أمرني الملك بأن أقوم بذلك ، سأضعها في عين الاعتبار جيداً ، وإذا لم يكن ذلك موجوداً في تفويضاتكم ، أخبركم بأنني لن أقوم به أو أنني سأقوم بشيء غير ما هو مفوّض إليّ

القيام به ، وفقط من أعطاني إياه هو الذي يحاسبني ، وأنا لا أقوم بأي شيء في الخفاء ، وإذا رأيتموني لا أقوم بما يجب القيام به ، فيمكنكم أن تخبروني بذلك على سبيل الصداقة ، وليس أكثر .

لذلك دعونا نوضح الأمر بأنه لا يمكنكم أن تطلبوا مني أي شيء غير الذي أود أن أُقدمه أنا ، حيث إنه لا يوجد عليّ التزام غير الذي أرضاه أنا ، وعندما يكون ذكائي غير كافٍ ، فإنني سأستعين باللجوء إليكم لأنني أعلم جيداً بأنكم رجال تتمتعون بهذه الصفة ، فكل واحد منكم يمكنه أن يطلق النار على مكتبي ، بل يمكنه القيام بأكثر من ذلك .

بالإضافة إلى ذلك بما أنكم اعتقدتم أنه يجب علينا الذهاب إلى هرمز أولاً ، إلى المدينة الأولى والرئيسة ؛ لأنه اعتماداً على ذلك سيتحدد ما الذي يجب علينا القيام به هنا ، وأردّ بأن هرمز هي مشكلة كبيرة أكثر مما تتخيلون ، وستحتاج إلى الكثير للقيام بذلك ، ولا يوجد لديها خبرة في معاناة الهجوم الذي سوف نشنه ، فلم يسبق أن حاول أحد لمسها لأخذ خيراتها ، لذلك فمن الضروري القيام بما سأقوم به ، وليس ما يترائى لكم أنه يجب عليَّ القيام به .

إذا قمنا في الطريق بشن حرب قاسية من النيران والدماء والموت والوحشية ، قبل الوصول إلى هرمز ، سيعتقدون بأننا أقوياء جداً وسيخافون منا ، وسيكون ذلك عوناً كبيراً لنا ، وأؤكد لكم بأنكم عندما ترون هرمز ستقولون بأنها تحتاج إلى "ارمادا فينيسية" لاحتلالها .

نحن فقط ما نحن عليه ، ويساعدنا الله برحمته كما يرضيه ، يجب علينا استخدام الخدع والتظاهر ، وهو ما سيساعدنا أكثر من أي شيء آخر ، بما أنك في طليعة مواجهة الأخطار والمهمات وهو ما يعطيني شرف كبير .

أقول بما أنك الأول في الأخطار ، فالأمر يرجع إليك ، وهو في يديك : إن مكاني محصور ، والموت فقط هو ما يمكنه أن يأخذه مني ، وأما بالنسبة للشرف الذي يمكن أن ينالني بفضل أعمالك ، فإن الهدية التي ستحصل عليها عند اتباع العلم ستكون أكبر بكثير ، وستكون متأكداً من الجزاءات والزيادة في الشرف التي يستحقها كل واحد .

أما بالنسبة لي فإن الجزاء الوحيد من الحرب هو في صوت الشعب ، وهم من يقولون بأن الضابط فلان قد ربح ولكن الذين قاموا بذلك هم رجاله ، وقد جلبوا له الشهرة ظاناً في نفسه بأنه قد ربح ؛ لأنه كان جيداً في القيادة والهجوم ، ومع ذلك فهو لا يخسر أبداً ، لأن الناس يقولون بأن فلاناً خسر المعركة ، ولكن ذلك بسبب ضعف رجاله أو لأنهم كانوا غير عازمين على القتال وفقاً لأوامر ضابطهم ؛ وذلك لأن صوت الشعب لا يرى شيئاً .

لقد جعلني الملك رئيس الضباط وأرسلك معي لخدمته فيما آمر ، ومن خلال هذا التفويض والمنصب أنا آمرك بما يجب عليك فعله ، ومما يرضي الرب إنني يجب أن أتقدم وأن أعمل في خدمته المقدسة ، وهي خدمة الملك ، لذلك ، التمسك يا سيدي بأن تجعل

هذا الوقت كافياً لي لأخبرك بأن تؤدي الأشياء على طريقتي ، لأنك ملازم أول ، وإذا كنت تعتقد بأنك لديك التزامات أخرى وتتمنى أن تنسحب من هذه ، يمكنك القيام بذلك وتتخلى عن سفنك ، والتي سأستلمها منك ؛ لأنها تنتمي للملك ، وسأطلب رجالاً يشرّفهم خدمة الملك وبالمسؤوليات التي تتبرأ أنت منها" .

استمع الضباط إلى رد رئيس الضباط ، ولكن أحداً لم يجب غير "مانويل تيليس" "Manuel Teles" ، وقد كان رجلاً جريئاً . قال : "سيدي ، إن كل ما تقوله حقيقي ، وبالنسبة لي أنا ممتن لأنك أريتني ما يجب عليَّ القيام به إذا رأيت ما لا يرضيني" .

قد أوقفه رئيس الضباط قائلاً: "كان من الأفضل أن تقول: إذا رأيت أشياء تم تأديتها في غير خدمة الملك . أنا أريك الطريق الآن ، ولكن من الذي سيقوم بذلك عندما تترك علم رئيس الضباط وتقفز إلى الشاطئ في "رأس غردافوي"؟ تذكر بانك عرضت هذه الشكوى بصراحة ، وهو ما يسيء كثيراً إلى كرامتك .

إذا كان لديك صديق جيد ، سيقول بأنه يجب عليك القيام بالصنائع التي ستغفر لك جرمك في هذا العالم ؛ لأنه سيكون من الأفضل لديك أن تكون جريئاً في قراراتك .

أنا رئيسك ، وآمرك بما يأمرني به الملك ، وعندما أبحث عنك ولا أجدك ، سيكون هذا كل شيء ؛ لأنه إذا كان لدي السلطة للقيام بأكثر من ذلك ، سأعطيك نصيحة لن تترك بعدها علم الملك بدون

حماية في المعركة . أنا أخدم جلالة الملك في عمله والذي تتولى القيام به ، ولن أقول أكثر من ذلك لأنني أبرر لنفسي فقط ، وعلى كل شخص أن يبرر لنفسه" .

بعد أن انتهى من كلامه ترك القاعة وخرج ، فتذمروا من رئيس الضباط ؛ لأنه لم يثق بهم . لقد عاملهم رئيس الضباط بهذا التجاهل ؛ لأنه عندما كان بصحبة "تريستان دا كونها" "Tristao da Cunha" لم يضعه في عين الاعتبار ، وكان من حقه حيث كان رئيساً للضباط .

عندما استلم الشيخ رد رئيس الضباط الغاضب ابتكر إجابات ماكرة لكسب الوقت ، وبعد نصائح التجار وضباط البحار الذين كانوا هناك ، أمر بالإمساك بقوارب السفن التي كانت تبحر في الماء كيلا يتواجد لرجالنا ما يمكنهم الرسو عليه لإيذائه ، ومن ثم يستغلونهم .

بيد أن المسلمين كانوا ضعافاً جداً لدرجة أنهم لم يجرؤوا على الهجوم ، وأن يأخذوا القوارب عندما كانوا جميعهم على اليابسة ، وعندما ظن التجار بأن سفنهم جميعها قد ضاعت ، اتفقوا مع سفن "التيرادا" في الأسطول بأنهم سيركنونها على الشاطئ في الليل ، ثم سيدفعونها للإبحار لتهريبها .

قاموا في البداية بإلقاء حبلين بهدوء لسحبها ، وكانت "التيرادا" تجرها حتّى تستطع الإبحار . كانت "التيرادا" جاهزة بمجدفيها ، وأزال المسلمون من المدينة البضائع القليلة التي كانت لديهم هناك .

أثناء التواجد في سفينة "أنطونيو دا كامبو" ، والتي كانت الأقرب

لليابسة ، يمكن سماع السفن وهي تتحرك ، وكانت الأخبار تسمع في السفن الأخرى . كانت هناك فوضى عارمة ، وأمر رئيس الضباط بإنزال القوارب ، وعندها بدأت سفن "التيرادا" بإطلاق السهام .

تفرقت بعض قوارب السفن وانحرفت نحو الساحل ، أما القوارب الأخرى والتي كانت في البحر بالفعل ، فقد أبحرت ولم يتمكن رجالنا من رؤيتها ، وحتى إذا كانوا قد رأوهم ، فإنهم لن يتمكنوا من اللحاق بهم .

عندما أشرق النهار كان رجالنا داخل السفن على اليابسة ، وتم إطلاق العديد من السهام عليهم .

خرج رئيس الضباط في مركب الاستكشاف لمنع السفن من إطلاق النيران ، وذهب إلى الشاطئ مع رجال القوارب ، ولم يكن هناك ما يمنعهم لأن المسلمين لم ينتظروا ، فقد هربوا مرة واحدة باتجاه الجبال ، وقد أمر رئيس الضباط بنهب المدينة ، ولكنهم لم يجدوا شيئاً غير التمور والأسماك المملحة ، ولقد أمر الضباط بسرقة السفن التي كانت لا تحمل اسماً ، حيث وجدوا كميات كبيرة من الأرز ، والسكر ، والفلفل الأسود ، والتوابل .

لقد أمر "بيرو فاز دورتا" "Pero Vaz d'Orta" ، الرئيس البحري للأسطول ، بجمع الفلفل الأسود والتوابل والذي لم يكن هناك كمية كبيرة منه وسرق الرجال باقي الأشياء ، وقاموا بتجميع الدقلات والصواري للسفن ، ثم قاموا بتجميع حطب الوقود ، كما

قاموا بإشعال النيران في السفن والمدينة ، وهو ما أدى إلى تدمير العديد من المنازل ، وأصبح كل شيء في خراب ،

تزود رجالنا جيداً بالأرز والسكر وغيرها من الأشياء التي كانوا يحتاجونها . أمر رئيس الضباط البحارين بقتل كل من وجدوه على الشاطئ ، وقد حدث ذلك ، ولم يتبق أي عجائز من الرجال ، أو النساء ، أو أي شحاذين ، أو مرضى .

## الفصل الثالث: كيف غادر الأسطول "قلهات" وأبحر باتجاه الساحل ، وانتقال رئيس الضباط إلى مكان آخر يسمى "قريات" "Qurayyat" ، والذي قام بتدميره دون أن يترك أحداً فيه على قيد الحياة وأحرق كل شيء ودمره أيضاً في مسقط .

خلال إبحاره عبر الساحل وصل الأسطول إلى مدينة أخرى تسمى "قريات" ، تقع على امتداد الشاطئ . خلال هذا الساحل لا يوجد أي شاطئ رملي ، بل شواطئ صخرية ، وتقع هذه المدينة عند سفح الجبال ، حيث يوجد شقوق ضيقة بين البحر والجبال . هناك القليل من البيوت الصخرية والعديد منها ذات أسقف من القش .

يوجد هنا أيضاً أحد شيوخ ملك هرمز ، ويتم تحصيل العوائد ؛ لأنه يتم شحن الخيول القادمة من الجبال والتمور من هنا ، وهناك سلام بين سادة الجبال وهذه المدن ؛ لأنها تعد موانئ يمكن من خلالها عبور بضائعهم . لم يكن هناك شيء في المدينة ؛ لأنهم

عندما سمعوا الأنباء من "قلهات" غادر الجميع ، ولم يكن هناك من شيء على البحر ؛ لأنهم عندما علموا بأن الأسطول مبحر بامتداد الساحل ، تم إرسال كل شيء إلى البحر أو تم إعادته إلى "قلهات" .

بالقرب من اليابسة كانت هناك جزيرة يمتلك فيها المسلمون مدافع ، ويمكن بواسطتها تدمير القوارب القادمة للنزول . رسا أسطولنا بعيداً قليلاً عن اليابسة بسبب الرياح ، واقترب فقط "مانويل تيليس" و"أنطونيو دا كامبو" ، ولم يفعلوا شيئاً ؛ نظراً لأنهم وصلوا متأخرين ، كان هناك العديد من المسلمين في المدينة ، وكانوا في وضع استعداد للقتال مع رجالنا ، ليس لأنهم اعتقدوا أنهم يمكنهم الدفاع عن أنفسهم ، ولكن كيلا يلاموا على عدم القتال .

في اليوم التالي استطلع رئيس الضباط نوعية المكان والمتراس الموضوع هناك ، وأمر "أنطونيو دا كامبو" و"مانويل تيليس" بالاستيلاء على الجزيرة ، بينما ذهب هو مع "جواو دا نوفا" إلى الجانب الآخر ، تمكن "افونسو لوبيز دا كوستا" و"فرانسيسكو دي تافورا" "Francisco de Tavora" من دخول المدينة في النهاية حيث يوجد متراس آخر .

أمر الجميع بالبقاء سوية حتّى يصلوا إلى اليابسة ، القوارب مع "البرسوس" الخاصة بها ، رئيس الضباط مع العلم والضباط مع أعلام البطولة الخاصة بهم ، ونفخوا أبواقهم . لم تطلق السفن نيرانها لأن الطلقات لم يكن لها تأثير على اليابسة .

قبل مجيء القوارب وصل "أنطونيو دا كامبو" و"مانويل تيليس" إلى الجزيرة وهاجموا المسلمين ، وكان منهم حوالي مائتين ، ولم يكن هناك أي مقاومة سوى بعض وابل من بعض السهام والتي كانت وسيلة الدفاع الوحيدة للمسلمين ، وعندما وجد رئيس الضباط أن المدينة تحت الهجوم ، أسرع للشاطئ ، وعند نزولهم من القوارب تسبب لهم المسلمين في المزيد من المشاكل من خلال أمطار من السهام والحجارة ، وذلك لأن مكانتهم كانت مرتفعة والقوارب توقفت أسفل منهم .

بمجرد أن وضع رجالنا أرجلهم على الشاطئ هاجموا المسلمين لدرجة أنهم تجاهلوا المتراس ؛ لأن "أفونسو لوبيز دا كوستا" و"فرانسيسكو دي تافورا" كانوا قد دخلوا الجانب الآخر ، ثم اجتمع المسلمون مرة أخرى متحركين مع إطلاق السهام بأعداد كبيرة ، وكان هناك أكثر من مئتين منهم ، واشتبك معهم رجالنا بالقتال ولحقوا بهم ، ولم ينتظروا رجالنا حتّى يلحقوا بهم بالرماح . جهز المسلمون كميناً يضم حوالي خمسمائة منهم مختبئين بين بعض الأودية ، وظهروا من خلف مؤخرتنا بصرخات عالية .

عندها توقف رئيس الضباط وأمر "افونسو لوبيز" بالرجوع للخلف ، وذلك ما فعله أيضاً مع ستين رجل ، ولم يكن ذلك أكثر من مفاجأة للمسلمين ، والذين بدأوا في إطلاق العديد من السهام ، ثم بدأوا في الفرار إلى الأماكن الصخرية في الجبال ، حيث انضموا هناك مع آخرين وتشجعوا في القدوم لأن رئيس الضباط لم يتقدم ، وعندما

جاؤوا هاجمهم رجالنا مرة أخرى ، ولكن فترة التأخير هذه كانت قصيرة فبمجرد سماعهم أصوات أسلحتنا هربوا جميعاً .

تعقبهم رجالنا ، حتّى أصبحت المدينة مهجورة ، وركضوا لمسافة حوالي نصف فرسخ . ظل رئيس الضباط عند ربوة ، لأن الشمس كانت شديدة الحرارة في ذلك الحين ، وأمر "جواو دا نوفا" بإيقاف الرجال ، وأمرهم جميعاً بالرجوع إلى بستان النخيل ، والذي كان يقع عند سفح الهضاب ، حيث استراحوا هناك . أمر رئيس الضباط بأن يتوزع الحراس في عدة مواقع لمراقبة المسلمين والتأكد من أنهم لم يقوموا باي هجوم مفاجئ .

وأمر بإحضار بعض الطعام من السفن ، وليس بالكثير ؛ لأنه قد تم العثور على العديد من المؤن داخل المدينة ، وكان يوجد في بساتين النخيل تمور ناضجة ووفرة من المياه الصالحة في الكثير من الآبار ، وبذلك أكلوا واستراحوا ، ثم قاموا بسرقة المدينة بالقليل الذي وجدوه هناك ، وجمعوا الكثير من الأرز والتمور وكمية كبيرة من الأسماك . في خلال ذلك دخل رئيس الضباط إلى مسجد جميل كان هناك ، وكان علمه ساكناً على البرج .

عندما تم نهب كل شيء منه أمر رئيس الضباط ربان سفينته بأن يحضر هو وجنوده كميات كبيرة من الخشب ، وأوراق النخيل من بيوت القش ، ووضعها في المسجد والمنازل الصخرية ، ثم تم إشعالها جميعاً بالنيران حتّى تحول كل شيء إلى رماد ، وكان هناك مائة

وخمسون قتيلاً مسلماً ، معظمهم من الشيوخ والنساء والشحاذين ، مات الجميع ولم يتمكن أي واحد من هؤلاء من المقاومة ، ثم عاد رئيس الضباط للراحة وأمضى الليل هناك .

في اليوم التالي أبحروا بامتداد الساحل ووصلوا إلى ميناء مسقط ، وهو عبارة عن مدينة كبيرة تقع على الشاطئ ، وبها مدخل ، ويعد الميناء مرسى جيد ؛ لأنه على جهة اليسار حيث توجد هضبة ، وبالتالي فإن المرسى مطوق ومحمي من كل اتجاه ، وفي كل من الجانبين نجد أن المدينة محاطة بسلاسل عالية من الجبال تمتد إلى الداخل من خلالهما ، وهي منطقة ريفية جيدة ، وبها حدائق وبساتين من تمور النخيل ، وآبار من المياه الصالحة للشرب .

هي مدينة تضم سبعمائة من السكان ، وبها العديد من المنازل الصخرية ذات الأسطح المسطحة والمساجد . المدينة مأهولة بالعديد من التجار الأجانب ، والذين يأتون إلى هنا لشحن الخيول والتمور والأسماك المملحة ، وبمجرد وصولهم تحدث رئيس الضباط إلى ضباطه ، وأخبرهم بأنه يرغب في الموافقة على السلام مع هذا المكان ؛ لأنه يمتلك وفرة من المؤن حتّى إذا كانوا في هرمز يمكنهم الحصول على إمدادات من هنا ، ولن يقلقه أي شيء آخر .

بينما كانوا يتحدثون وصل قارب "الماديا" "Madia" من الشاطئ ، وبه اثنان من المسلمين متحلين بالثياب ، جاؤوا على متن السفينة ، وعندما رأوا رئيس الضباط جالساً على كرسي ، وكان

الضباط وكثير من الرجال الآخرين واقفين ، ألقوا بأنفسهم تحت قدميه قائلين بأنهم جاؤوا برسالة من الشيخ ، والذي كان رئيس المدينة ، والذي أخبرهم بأن يقولوا بأنه لم يكن يريدهم أن يحدثوا الضرر الذي أحدثوه في المدن الأخرى ، وبالتالي فهو يعده بالولاء وأن يكون تابعاً له ، وأن يدفع له الجزية المستحقة لملك هرمز .

سألهما رئيس الضباط إذا كانا قد أحضرا ورقة موقعة من الشيخ في هذا الصدد ، وأجابا بأنهما لم يفعلا ، ولكنه إذا أرسل أحداً للتحدث مع الشيخ سيعلم أنهما يقولان الصدق ، فأرسل رئيس الضباط "جاسبار رودريجوس" العارف باللغة إلى الشاطئ مع أحد المسلمين .

استقبله الشيخ باحترام شديد ، وقال له أكثر مما قال المبعوثين ، بينما كان المترجم على الشاطئ ، تحدث رئيس الضباط مع الضباط ، ووافقوا على عقد السلام مع الميناء والمدينة إذا أخذوا الجزية على شكل مؤن إلى هرمز ، من أرز وسكر وزبدة وتمور ، حتّى قيمة خمسين ألف "أشرفي" ، والذي تدفعه المدينة لملك هرمز .

تم الاتفاق على ذلك ، وعندما عاد المسلم والمترجم بالرسالة ، أخبر رئيس الضباط المسلم بأنه سيحمي المدينة والميناء ، ووافق على السلام الدائم معه ، وسيجعله سيد المدينة للأبد ، هو وأبناءه ونسله جميعاً ، ما داموا تابعين لملك البرتغال ، والذي يعد هو خادمه ، وفي كل سنة يجب أن يدفعوا جزية على هيئة مؤن أو "أشرفي" . عندما

علم المسلمون بذلك قالوا بأنهم سيأخذون الرسالة إلى الشيخ ، ثم انصرفوا ، ولكن رئيس الضباط أمر بأن على الزميل الملاح أن يأخذهم في قارب "الإسكيف" ورؤية الشاطئ وما كانت عليه المدينة من قبل .

لقد قام بذلك ، وأخذ المسلمين معه ، ورأى أنه في كل طرف من المدينة توجد مبانٍ خشبية مليئة بالأنقاض ، ويوجد مدفع مثبت في موقعه ، وكان شارع المدينة مليئاً بالمتاريس بامتداد الشاطئ ، وعندما عاد الضابط البحري بهذه المعلومة كان قد حل المساء حينها ، وللتأكد من كل ذلك ، أمر رئيس الضباط قوارب السفن الأخرى بالذهاب إلى الشاطئ ببراميل لتجميع المياه .

أمر "جاسبار رودريجوس" المترجم بالذهاب والتحدث للشيخ مرة أخرى ويطلب منه جواباً فورياً ؛ لأنه أراد المغادرة ، وأن يطلب منه إصدار أمر بإعطاء المياه للقوارب .

وافق الشيخ بسهولة ، وأمر سكان المدينة بأن يحضروا المياه في قرب للقوارب ، وذهب أيضاً البحاران بالبراميل للآبار وعادا بها ممتلئة بالمياه . كان التنظيم جيداً جداً ، فمع حلول الليل كانت القوارب قد قامت بثلاث رحلات للمياه ، وذلك بفضل مساعدة الشيخ الكبيرة .

أرسل رسالة إلى رئيس الضباط بأنه يسعده أن يقدم له كل ما طلب ، وأنه سيستلم المؤن قريباً ، وأرسل ستة قوارب مليئة بالأرز

والتمور ، والذي رآها الرئيس البحري ، ودوّن ما قد تم تسليمه حتّى يتمكن من عمل حساب ، ولقد تم ذلك بكل رضا ممكن ، ولقد قامت القوارب طوال النهار وحتى حلول الليل بتوصيل وحمل أكثر من مائة كيس من الأرز ، والسكر ، والكثير من التمور ، حتّى حلول الظلام .

عم الرضا رئيس الضباط والجميع ، لكن في اليوم التالي لم يكن هناك من قوارب أخرى ، وقد استمرت إلى فترة الظهر ، حتّى أرسل رئيس الضباط المترجم إلى الشاطئ للاستطلاع سبب عدم مجيئهم ، فقال الشيخ بأنهم كانوا يحصّلون المستحقات من منازل التجار لإرسالها ، وكان سيرسلها جميعاً مرة واحدة ، ولقد أرسل هدية إلى رئيس الضباط مكونة من خروف وماعز وبعض الدجاج ، والعديد من الأرغفة المصنوعة من دقيق القمح ، ولقد بين للمترجم بأن الأرز والسكر قد تم تجميعها من المنازل .

قد انتظر رئيس الضباط ، وكان الوقت قد تأخّر بالفعل ، عندها قامت القوارب برحلة واحدة ، محملة بالمؤن والتي وضعوها على متن السفن ، ولم يعودوا بعدها . كان الشيخ يقوم بكل هذا بشيء من المكر ، فقد كان منتظراً بأن تأتيه المساعدة في تلك الليلة من الضابط الموجود في الجبال مع ألفي مقاتل مسلحين بالرماح والدروع والسيوف .

كان الشيخ حليفاً كبيراً لهذا الضابط ، رئيس المناطق الداخلية ، الذي كان قد استخدم مسقط كميناء لبضائعه ، وعندما كان الألفا مقاتل هؤلاء

وغيرهم ممن كانوا لدى الشيخ ، مستعدين لمقاتلة رجالنا ، فقد بدأوا بقرع الطبول ، مع الكثير من الصراخ وإطلاق الصواريخ .

عندما سمع رئيس الضباط بذلك قال : "إن المساعدة المدبرة قد جاءت ، وتوجد بين أيدينا معركة" ، ولقد أرسل إلى الضباط في السفن المجاورة بالحضور ، وأخبرهم بما اعتقده ، وأرسل "دينيس فيرناندس" "Denis Fernandes" في قارب "الاسكيف" لإلقاء نظرة على الشاطئ ، ولكن عندما اقترب أطلقوا السهام وصرخوا عليه . رجع إلى رئيس الضباط والذي اتفق مع الضباط بأنه يجب أن يهجموا على المدينة قبل النهار ، قبل أن يعتاد المسلمون على الوفود الجديدة .

قد رتبوا كل شيء للنزول من السفن في وسط الشاطئ ، ومن هذا الطريق بدأوا معركتهم من اجل الهجوم والدخول إلى المتاريس ، وبمجرد دخولهم هناك سيجولون في المدينة من الداخل حتّى الشاطئ ، وسيجتمعون ويأخذون المدينة مرة واحدة ، سيستولي "افونسو لوبيز دا كوستا" و"مانويل تيليس" و"جواو دا نوفا" على المتراس الموجود جهة اليمين ، وسيذهب رئيس الضباط و"فرانسيسكو دي تافورا" إلى المتراس الآخر .

عندما تم الاتفاق على كل ذلك أمر بأن يذهب اثنا عشر قارباً إلى كل متراس ، وباستخدام "البيرسوس" التي كانوا يحملونها يمكنهم إطلاق النار على المتاريس حتّى لا يحملهم المسلمون على الرجوع ، ولقد تم ذلك ، واستعد الرجال ، وقبل الفجر بساعة

اجتمعت القوارب على صوت إطلاق النار ، وجاء الضباط على أهبة الاستعداد مع رجالهم وصعدوا السفينة ، وكان "جورج باريتو "George Baritto" موجوداً مع الرجال في قارب بارجة الأميرال ، وهو أحد النبلاء المحترمين ، وذهب رئيس الضباط في قارب "الاسكيف" الخاص به .

عندما كانوا جميعاً في القوارب ألقى قسيس رئيس الضباط باعتراف عام من قمة القلعة ومنحهم الغفران ، وفي هذا الحين كان وقت الفجر ، وانطلقوا إلى الشاطئ ، لأن رئيس الضباط أراد أن يرى المسلمون رجالنا مسلحين ، وعندما قاموا ذلك أصدر المسلمون صرخات عالية وبدأوا في إطلاق العديد من النيران ، ولكن رجالنا نزلوا على الشاطئ كما أرادوا ، وأمر رئيس الضباط بالنفخ في الأبواق ، ونادوا القديس "سانت جيمس" تيمناً ، وذهب كل واحد في طريقه كما كان مخططاً .

واجه رجالنا بعض الصعوبة في دخول المتاريس ، وكانت أمطار من الصخور تتساقط عليهم من الأخاديد الموجودة في الأعلى ، وقاتل المسلمون بشدة بالرماح والسهام ، وقتلوا الكثير منهم .

أسرع الضباط في الدخول ، ودخل "افونسو لوبيز دا كوستا" و"جواو دانوفا" و"مانويل تيليس" واستولوا على المتراس ، وقتلوا وجرحوا الكثير من المسلمين ، وهرب الباقون إلى المدينة ، ولحق بهم "أفونسو لوبيز دا كوستا" حتّى نصف الطريق إلى المدينة ، ودخل

أيضاً رئيس الضباط وأخذ المتراس الآخر ، ومع هروب المسلمين منه إلى المدينة وصلوا إلى مؤخرة جيش "افونسو لوبيز دا كوستا" وهاجموهم بشراسة ، وهكذا عاد الآخرون الذين هربوا وهاجموا رجالنا لدرجة أنهم أرجعوهم للخلف .

جال رئيس الضباط في المدينة كما كان مخططاً من أجل اللحاق بـ "افونسو لوبيز دا كوستا" ، ولكنه لم يجده ، ولكن سمع صرخات المسلمين الذين كانوا يقاتلون "افونسو لوبيز دا كوستا" وذهب باتجاههم ، ووجد رجالنا قد هرب أغلبهم ، وعندما عاد أمر بنفخ الأبواق ، بالنداء على "سانت جيمس" تبركاً ، ثم هاجم الجميع المسلمين بقوة شديدة لدرجة أنهم هربوا .

ذهب رجالنا نصف فرسخ إلى خارج المدينة للحاق بهم ، ولم يرد رئيس الضباط باللحاق بهم أكثر من ذلك ، لأن المسلمين استمروا في الهرب ، وأمر الضباط بالعودة إلى المدينة لقتل أي شيء حي ، وتحريم إطلاق النيران على أي شيء حتّى يتم أخذ المؤن وقتل من يخالف ويقوم بذلك .

تمركز رئيس الضباط ورجاله و"جورج باريتو" عند مدخل المدينة للتأكد من أن المسلمين لم يعودوا . كان هناك قتل كبير للعائلات في المدينة ، من نساء وأطفال ، وعندما كان كل شيء مهجورا أعطي الأمر إلى القوارب بتحميل المؤن ، وكل شيء يمكن الاستيلاء عليه . تم إحضار الطعام ، وأكل الرجال وارتاحوا بالقرب من الآبار ، وشجع

رئيس الضباط على أخذ المياه والمؤن ، ووجدوا في مبنى كبير كميات من ليف جوز الهند ، والسلاسل ، وحبال "الهوسر" وكانت كلها جديدة ، وآنية مياه لم تستعمل ، كلها تخص الشيخ ، والذي باعها للسفن القادمة إلى الميناء ، ولم يسمح لأحد آخر بالقيام بذلك ، ولقد جنى بذلك الكثير من الأموال .

قد أخذ ربابنة السفن كل هذه الأشياء ؛ لأنهم كانوا في حاجة إليها ، وخاصة صهاريج المياه ؛ لأنهم كان لديهم القليل من البراميل ، ولقد حدثت بها ثقوب بسبب حرارة البلاد ، ولم تتمكن من حمل المياه ، وكان هذا هو المكسب الرئيس ، ولقد عمل رجالنا على ذلك لمدة ثلاثة ليالي ، آخذين المؤن على متن السفن باطمئنان ، وفي الليل كان الضباط والرجال يقومون بالمراقبة .

كان المسلمون أعلى الجبال يراقبون ما يقوم به رجالنا ، وحدث بأنهم كانوا يكسرون دعائم أحد المساجد الكبيرة الذي انهار فجأة ، محاصرين أكثر من عشرين رجلاً ، مثبتين تحت الطابق العلوي ، ولكن بمعجزة من إلهنا لم يمت أحد ، ووجدوا حفرة هربوا من خلالها جميعاً بعيداً عن الخطر ، ولذلك مجّدوا جميعهم ربنا .

ذهب رئيس الضباط إلى الشاطئ لإحضار الرجال عندما علم أن الجميع اجتمعوا مرة أخرى ، وتم تجميع الكثير من المياه ، وأتى مسلم برسالة من الشيخ يقول بأنهم قد قاموا بأضرار كافية ، وأنه لا يجب أن يحرق المدينة .

أجاب رئيس الضباط بأن النيران هي وظيفته الأساسية ، ولكنه لن يحرق المدينة إذا أرسل له عشرة آلاف "أشرفي" ، ويجب إحضارها قبل الظهر ، وإلّا سيتركون الحال كما هو عليه ، ولكنه لم يجد رداً ، وتم إشعال النيران في العديد من الأماكن ، وبحلول الليل كان كل شيء قد سُويّ بالأرض ، وعندما عاد جميع الرجال إلى سفنهم وجدوا ستة قتلى والعديد من الجرحى بالسهام ، وقرّروا الاستراحة تلك الليلة .

في اليوم التالي رفع رئيس الضباط علمه ، والذي كان الضباط يأتون له عنده ، عندما جلس الجميع عند سطح مؤخرة المركب ، قال لهم:

أيها السادة ، أرى بأنكم عملتم بجد ، وتستحقون الجزاءات الكثيرة التي سيعطيها الملك لكم ، وبالرغم من ذلك ، فبما أنني رئيسكم ينبغي عليَّ أن أخبركم بما يجب عليَّ أخباركم به . أطلب منكم إلّا تعصوني فيما آمركم ، لأنني طلبت منك يا "أفونسو لوبيز دا كوستا" بعد دخولك المدينة بأن تجوب المدينة لتجمعهم ، ولكنك لم تقم بذلك ، بل اتبعت رغباتك الخاصة ولحقت بالمسلمين باتجاه المدينة وتسببت في موقف شديد الصعوبة ، ولولا أن ساعدك إلهنا لا أعلم ما الذي كان سيحدث لك ولرجالك .

كان من الممكن أن يسوء الأمر ، وأن تقتلوا جميعاً وأن تتركوا الأسطول بهذا الحالة المزرية ، حيث إنه لن يكون بإمكانه الإبحار

إلى الهند أو الرجوع إلى البرتغال ، ومن حيث إنه من المهم جداً إلّا تقوم بأي عصيان ، وأن تقوم فقط بما يأمرك به رئيسك ، آمرك باسم سيدنا الملك وأكلفك بطاعة أوامري في كل شيء ، وذلك للجميع .

أما أنت "جواو دا نوفا" ، فإنك لم تبحر من البرتغال تحت علمي ، ولكني أود أن تنضم إليه وأن تكون تحت أوامري لخدمة الملك في الاحتلال الذي أنا بصدده كما تعلم ، والآن أنا قلق أنك يمكن أن تذهب بعيداً من دون إذني ، وأن تتركني في هذه الحرب التي تراني مشغولاً بها ، وهي مهمة جداً في خدمة الملك .

أنت تتمنى أن تذهب بسفينتك ، وهي الأقوى بين كل السفن ، وهي الأكثر إفادة بالنسبة لي ، أنت مخطئ جداً في هذا ، فأنت لا تضع في اعتبارك أهمية ألا تفعل ذلك بالنسبة لشرفك ، بالإضافة إلى الالتزامات الكبيرة التي تقع عليك للملك في هذا الشأن ، لذلك آمرك بالنيابة عنه بأن تعطيني يدك اليمنى .

أعطى "جواو دا نوفا" يده له وكانت قبعته في يده ، وأعطاه تعهداً بأنه لن يغادر هذه الجماعة بدون إذنه ، وأمر بتحرير وثيقة بواسطة كاتب العدل الخاص بالأسطول ، والتي وقعها "جواو دا نوفا" .

عندما تم ذلك قال له "جواو دا نوفا": "سيدي ، أنا لم أتعهد بأن أكون في جماعتك إلّا برغبتي الخاصة . أرسل إلى "تريستان دا كونها" حتّى إذا حان الوقت يجب أن أذهب إلى الهند وإلى البرتغال لأخبر الملك بأفعالك ، والآن فإنني أشعر بالإهانة الشديدة بتقييدك لي بهذه الطريقة" .

قال رئيس الضباط : "عندما يأتي الوقت الذي تتحدث عنه لن أمنع رحلتك . أنا ألزمك فقط إلّا تتركني سرا وبدون علمي ، فلقد علمت أنك رتبت للقيام بذلك مع أصدقائك ، والذين أخبروني بأسرارك" .

لم يجب أي من الضباط على ذلك ، كيلا يظن بأنهم قد قدموا النصيحة ، ولكنهم قد شعروا بكراهية شديدة لرئيس الضباط ، ثم غادروا وذهبوا إلى سفنهم ، ثم أبحر رئيس الضباط .

## الفصل الرابع : كيف غادر الأسطول مسقط وما الذي حدث في الطريق إلى هرمز ، وكيف عقد السلام مع ميناء "صحار" وتدمير ميناء "خورفكان" .

عندما أبحر أسطولنا بامتداد الساحل ، رأوا مدينة كبيرة بها منازل جيدة تقع في أرض مسطحة واسعة بين الجبال والشاطئ ، وفي المدينة يوجد قصر حوله أرض غاية في الروعة وشاطئ واسع ، حيث يوجد العديد من الجنود ، مشاة وعلى الخيول ، ويوجد مسلم من الفرس مثل ضابط ملك هرمز ، مع هذا المسلم كان هناك العديد من الرجال من المدن الأخرى والذين كانوا يحكون عن الأضرار التي تسبب فيها رجالنا .

لقد كان لديه ثلاثة آلاف رجل والذين أرسلهم إلى الجبال للمساعدة ، ولقد كان متكبرا جداً ، لذلك عندما وصل أسطولنا أرسل رسالة إلى رئيس الضباط يقول له بألا يأتي إلى الشاطئ ليؤذيه ؛ لأنه لديه من المقاتلين من يمنعونه من الهبوط ، ويجب ألا يتوقع أنه يمكن أن يقوم هنا بما قام به في أماكن أخرى .

قال رئيس الضباط للرسول بأن يذهب ويخبر ضابطه بأنه لم يأت إلى هناك ليلحق به أي ضرر ، ولكن للاتفاق فقط على سلام دائم إذا أصبح تابعا لملك البرتغال ، والذي كان رئيساً للهند ، وأن ما استلمه ملك هرمز سنويا يجب أن يدفع كجزية لملك البرتغال ، إذا وافق على ذلك ، سيكون صديقاً له في كل شيء ، وإذا لم يوافق فيجب أن يتأكد بأنه سينزل ويفعل ما فعله في المدن الأخرى .

أخبره بأن يستشير جيداً في هذا الأمر ؛ لأنه كان سيفعل نفس الشيء في هرمز .

قال رئيس الضباط بأنه سينتظر طوال النهار للحصول على إجابته ، وإذا لم يأت أحد سيتناول عشاء اليوم التالي على أرض المدينة .

عندما سمع الضابط بهذه الرسالة استدعى أوصياء العرش والزعماء ، وتحدثوا في المجلس ، واتفقوا على أن ينفّذوا كل ما طلبه رئيس الضباط ، آخذاً بالاعتبار بأن رجالنا كانوا سيأخذون هرمز ، وإذا أخذوها ، ستكون كافة الموانئ والمدن خاضعة لملك البرتغال ، وإذا لم يأخذوا هرمز سيضطرون إلى العودة إلى الهند ثم سيتم تحرير كل المدن ، لذلك لن يكون هناك خسارة بوعده بالطاعة والقيام بما يريده ، ولم يخاطروا بالأضرار التي ستلحق بالتأكيد بمنازلهم .

تم الاتفاق والتأكيد على ذلك من قبل الجميع ، وذهب أحد أوصياء العرش إلى رئيس الضباط ، وقال له بأنهم لم يرغبوا أن ينزل ويؤذيهم ، ولكن بأن يتجه إلى السلام ؛ لأن الناس جميعاً

والأوصياء على العرش سيطيعونه في كل شيء ، وكانوا على رضا للقيام برغباته ، وسيتنازل قائد القلعة عنها وسيقوم بتلبية كل طلباته ، وقال بأنه قد تم الاتفاق على كل ذلك بالتشاور عندما استمعوا إلى رسالته ، وسيرسلون بعيداً كل الناس الموجودين في الجبال والذين جاؤوا للمساعدة ، ويجب أن يخبرهم بما يريد .

قال رئيس الضباط بأنه مسرور جدا ؛ لأنه وجدهم عقلاء وليسوا مغفلين كالآخرين الذين كانت نهايتهم تحطيم رؤوسهم . أخبره بأن يعود إلى الأرض وأن يأتي بكل أوصياء العرش في المساء ، لذلك عادوا إلى المدينة ، كأي إنسان يقظ تحدث رئيس الضباط عن هذا مع ضباطه ، واتفقوا على الاستعداد لكل من السلام والحرب .

أمر رئيس الضباط بوضع اثنين من "الكاميلو" الصغيرة في قوارب السفن مع حاملاتهما ؛ كي يتم إطلاقهما على اليابسة إذا لزم الأمر ، بالإضافة إلى الفؤوس والمسحاة والرافعات ، وكل معدات القتال ضد القلاع .

جاء أوصياء العرش في ملابس الاحتفال ، ورأوا الاستعدادات التي حلت بالقوارب . دخلوا القوارب مع "دوم أنطونيو" "Dom Antonio" وذهبوا للبر حيث كان الملك في انتظارهم على الشاطئ ، أيضاً في ملابس الاحتفال ، والعديد من الناس في جو احتفالي . هبط "دوارتي دي سوسا" "Duarte de Susa" مع العلم ومعه الخمسة رجال و"جواو ايستاو" "Joao Estiao" كاتب العدل ، وذهبوا إلى القصر ، وكان الضابط يتقدمهم ومعه قصبة لإبعاد الناس عن الطريق .

لم يكن هناك أحد في القلعة ، ودخل الملك وحده مع رجالنا وكانت يداه رافعة للعلم عند أعلى نقطة في القلعة ، معلناً بأنه كان تابعا لملك البرتغال: "لأن هذه المدينة وهذا القصر تابعان لملك البرتغال سأظل دائماً أفعل كما يأمر به رئيس الضباط الحاضر هنا" .

وقع على ورقة تؤكد ما قاله ، وحمل المفاتيح في يديه وذهب إلى القوارب . عندما رأوا العلم في مكانه أطلقت السفن النيران ورفعت الأعلام . هبط الضباط من القوارب ودخلوا المدينة مع الضابط وأوصياء العرش ، والتي كانت مزينة بفروع الأشجار ، ودخلوا القلعة والتي عهدوا بها إلى الضابط ، وبعد انتهاء كل هذا ، عادوا إلى القوارب ثم إلى سفنهم .

أرسل رئيس الضباط إلى الضابط غفارة ذات قماش قرمزي اللون وزركشة ذهبية ، وثلاث لفات من قماش الغفارة ولكل من أوصياء العرش خمسة ازرع من الساتان القرمزي ، ولقد ودعهم بتشريف كبير .

سألوه ماذا يريد من الأرض ، فهو يطلب أي شيء ، فقال إنه لا يريد سوى المتعة التي حصل عليها عندما وجد هؤلاء الرجال المحترمين .

عادوا إلى البلاد وأرسلوا فورا إلى رئيس الضباط العديد من الأبقار والأغنام والماعز وعناقيد كثيرة من التمور المجففة بكميات كبيرة ، لدرجة أن السفينة كانت مزودة بالطعام والمياه العذبة ، ثم أبحر رئيس الضباط وذهب في طريقه ، تاركا هذه المدينة والتي كانت تسمى "صحار" بسلام وخضوع .

بعد التعامل مع هذه المدينة ، أكمل رئيس الضباط الإبحار بامتداد الساحل وأتى على مرأى مدينة تسمى "خورفكان" ، تقع في منطقة مفتوحة على سفح سلسة كبيرة من الجبال ، هي منطقة مفتوحة الأرض حيث يأتي الناس من الجبال لبيع الخيول ويتم شراؤها من قبل التجار في السفن والذين يأخذونها إلى الهند على هيئة شحنات .

لأن الناس في المدينة يكونون أحياناً في حرب مع من هم من الجبال ، فلقد قاموا ببناء حائط كبير والذي يمتد على جهة الجبال حتّى كلا الطرفين ، وتوجد بوابة فوقها برج لحراسة البوابة . يوجد في المدينة منازل رائعة والعديد من الجنود ، مشاة وعلى خيولهم .

بمجرد وصول أسطولنا أقاموا عرضاً كبيراً للمناوشات والتلويح بالأسلحة محفزين رجالنا على القدوم للشاطئ ، ولكنهم عندما رأوا أسطولنا بدأ المسلمون في أخذ ممتلكاتهم وعائلاتهم إلى الجبال ، وحصنوا أنفسهم جيداً وراء الجدار . امتدت المدينة على الشاطئ ، وكان يوجد خارجها على جهة اليمين بستان كبير من تمور النخيل والعديد من آبار المياه الصالحة ، وكان يوجد في الحقول هناك الكثير من الماشية الصغيرة والكبيرة .

تحدث رئيس الضباط مع الضباط وتم الاتفاق على الهبوط في الصباح التالي ، كما فعلوا . قبل الفجر انضموا جميعاً مع رجالهم المسلحين إلى رئيس الضباط ، والذي صعد على متن قارب

"الاسكيف" الخاص به مع عشرة رجال ، وكان على متن قارب سفينته ابن أخيه "دوم أنطونيو" مع سبعين من النبلاء ورجال من أصحاب رتب من بارجة الأميرال ، والكثيرين ممن كانوا مع الضباط الآخرين من أصدقائهم وأقاربهم ، وعندما ركبوا جميعاً على متن السفينة قام القس بالاعتراف المعتاد وقدم الغفران ، وبحلول ذلك الوقت كان قد حل وضح النهار وانطلقوا إلى الشاطئ .

لم يحب رئيس الضباط أبداً الهبوط قبل ضوء النهار ، قائلاً بأن منظر رجالنا سوف يخيف الأعداء ، وعندما وصلوا إلى الشاطئ جاء المسلمون على خيولهم ؛ ليمنعوهم من الهبوط ، ثم بدأ مدفع "البيرسوس" بعملهم على القوارب ، وتم إفراغ الشاطئ في الحال من كل شيء فيما عدا العديد من المسلمين الذين صرعوا بالطلقات ، ثم نزل رجالنا من السفن ببهجة كبيرة .

أمر رئيس الضباط "افونسو لوبيز" و"جواو دا نوفا" بأن يجوبوا ضواحي المدينة ، وكلاً من "فرانسيسكو دي تافورا" و"مانويل تيليس" بالدخول من المركز ، وكلاً من "دوم أنطونيو" و"أنطونيو دو كامبو" بالدخول من جانب المدينة باتجاه الجبال ، وفي كل مجموعة كان هناك أكثر من مائة رجل مسلحين جيداً ، وظل الربابنة ومرشدو السفن والبحارة في القوارب عائمين في البحر مستعدين لأي شيء يمكن أن يحدث .

عندما دخلوا المدينة نفخوا الأبواق ونادوا مهللين لسانت جيمس ،

وعندما سمع المسلمون رجالنا وهم يقاتلون ، كان الشيء الوحيد الذي يمكن أن يردوا عليهم به هو السهام ، رجعوا إلى الخلف باتجاه البوابة المتجهة نحو الجبال ، معززين مواقعهم داخل الجدار وفي برج البوابة ، وألحقوا أضراراً كبيرة برجالنا من الجدران بالحجارة .

جاب "أفونسو لوبيز" ضواحي المدينة ، وفي طرف المدينة وجد الكثير من الناس الذين كانوا سيقومون بالهجوم ، ولكن عندما سمعوا رجالنا عادوا من المدينة متجهين إلى الجبال . جاء هؤلاء الرجال وجهاً لوجه مع "مانويل تيلس" و"فرانسيسكو دي تافورا" ، وعندما وجدوا أنفسهم محاصرين بين رجالنا ذهبوا إلى بعض المساجد الكبيرة والقديمة .

تبعهم رجالنا إلى المساجد ، وكان معظمهم من النساء والعائلات ، وألقوا بأنفسهم جميعاً على الأرض بدون قتال ، وترك "افونسو لوبيز" عشرين رجلاً للحراسة عند الباب وذهب باتجاه بوابة الجبل ، حيث كان المسلمون يقومون بدفاع قوي .

وصل رئيس الضباط إلى هناك أيضاً ، وعندما رأى دفاعهم أمر بإحضار المدافع الأربعة من القوارب على الحاملات ، ثم أمرهم بالإطلاق على المسلمين وعلى الجدار ، لأن رجالنا كانوا على سقالة الجدار ، وهزمتهم المدافع ، أما الآخرون فقد هربوا باتجاه الجبل والذي كان شديد الوعورة ، وألقوا من هناك بصخور كبيرة واحتمى منها رجالنا بفضل الصخور .

ترك رئيس الضباط "دوم أنطونيو" و"أنطونيو دو كامبو" لحماية البوابة كي يجوب المدينة ، ثم ذهب إلى المساجد التي أمر بأن يقتل كل من فيها من أطفال وشيوخ ، تم قتل الجميع ، وتم قطع أنوف وأذان النساء وقطع أيدي الرجال اليمنى وآذانهم ، وأمر بإرسال بعض الشباب من الرجال أقوياء البنية إلى ربابنة السفن وربطهم بالحديد للعمل في هذه السفن .

جاب رئيس الضباط المدينة حتّى وصل إلى بستان النخيل ، وعندما رأى الآبار الجيدة جلس لحراستها ، وأمر الضباط بأن يجعلوا الرجال يأخذون كل شيء يجدوه وأن يجمعوا كل الطعام الذي يجدوه ، وخاصة أن يحصلوا على مخزونهم من المياه ، تم ذلك طوال النهار بجهد كبير حتّى وقت الغروب .

عندما تجمعوا مرة أخرى وجدوا القليل من البضائع ، ولكن كان هناك أشياء كثيرة مفيدة للسفن ، ولم يكن هناك من سفن ؛ لأنها هربت جميعاً نحو البحر حتّى يمر أسطولنا ، ولكن وجد هناك مخزون جيد من الحبال وخاصة حبل "الهوسر" الضخم ، وأمر رئيس الضباط بأن تُجمع كلها ؛ لأنها ستكون مفيدة في الإمساك بالسفن في المعارك .

تم إشعال الكثير من أجزاء المدينة ، وتم تدمير كل شيء . أبحر رئيس الضباط إلى هرمز لأن أحد مرشدي السفن من "مالندي" في المدينة . تحدث مع أحد السجناء والذي جاء من هرمز قبل عشرة أيام ، وأخبره بأن هناك العديد من الجنود في هرمز وهناك

استعدادات كثيرة للحرب ، بل هناك المزيد ، فهناك العديد من السفن الكبيرة والكثير من الرجال والأسلحة التي تمنوا أن يدمروا أسطولنا بها ؛ لأنهم علموا بالفعل أن عدد رجالنا كان قليلاً .

عندما أبلغ رئيس الضباط بذلك تحدث إلى المسلم الذي أعطاه الكثير من المعلومات ، وبذلك استمر في إبحاره ، ولكن عندما هبت الرياح قام مرشدو السفن بالرسو ؛ كيلا يحملهم التيار إلى اليابسة . ظلوا راسين طوال الليل وحتى وقت متأخر من اليوم التالي ؛ لأنه لم يكن هناك من رياح ، وبينما كانوا في هذا الموقف ، رفع رئيس الضباط علمه ، وصعد الضباط على متن السفن وبصحبتهم النبلاء أيضاً .

جلس معهم جميعاً في سطح مؤخرة المركب ، وقال لهم بأنه علم أن ملك هرمز كان خائفاً وأرسل إلى العديد من الجنود للمساعدة ، وكانوا أقوياء ، وتم وضع المتاريس في الشوارع ، وكانت قوتهم وثقتهم كامنة في العديد من السفن والكثير من الرجال المتواجدين في الميناء والذين كان هدفهم تدمير أسطولنا .

قال بأن كل قوته وثقته تكمن في المعركة التي تمنى أن يقوم بها في البحر ، وكان مسروراً جداً ومبتهجاً لدرجة أنه أرسل إليهم ليعطيهم الأخبار ، فإن قتال مائة وسبعين سفينة مسلمة من أقوى السفن في كل الهند لا يساوي شيئاً وذلك بفضل الثقة في إلهنا .

كان لديه إيمان كبير في رحمة إلهنا ، بأنهم سيحرقون جميعاً عند رؤية ملك هرمز ومع رؤية الكثير من القتلى المسلمين ، وأن

الرجاء الذي كان لديهم في محمد (صلى الله عليه وسلم) سيموت مع صلاتهم ، وأن الله برحمته سوف يمنحهم النصر التام ، لذلك قال لهم جميعاً بأنه مع الإيمان بالله سوف ينجزوا هذه المهمة والتي ستكون الأخيرة ؛ لأنهم عندما يكونون سادة البحار يمكنهم شن الحروب ضد المدن كما يشاؤون .

قال بأنهم يجب أن يبدوا السرور والحماسة ، لأن المقاتلين ليس لديهم أي معنويات غير الحماسة في ضباطهم .

اعتقد الجميع بأن رئيس الضباط تحدث جيداً ، ولكن قلوب الذين كرهوه لم تتمكن من سماع أي شيء جيد ، وقال له "مانويل تيليس" ، والذي كان جريئاً رغم صغر سنه: "سيدي ، إن هذا كله جيد جداً ، ولكن ما هي الحماسة التي يمكن أن يقدمها أي رجل في الحرب حيث لا يوجد أي بضائع أو مكاسب متوقعة ، ولكن هناك الجهد فقط ، ومع الكثير الذي قد قاموا به وقدموا كل ما لديهم ، فإن ما بقي هو الأيادي الفارغة" .

غضب رئيس الضباط جداً ، وأجاب: "ما تقوله يجب أن تحتفظ به لنفسك ، ويجب ألا تتحدث ؛ لأن ما في يديك هو أكثر من أي أحد آخر هنا ، وآمرك باسم الملك إذا كنت لا تود خدمته ، فلا يجب عليك أن تعيقني عن ذلك ، وإذا كنت غاضباً لأنه لا يوجد مغانم جيدة هنا ، اترك السفينة وسوف أولي أمرها لمن لا يكره خدمة الملك ، والتي أقوم بها بكل روحي ، ولا أود أن أجبر أحداً على القيام بها" .

قام وأمر بالإبحار ، لأن الرياح ارتفعت ، وعاد الضباط إلى سفنهم وذهبوا في طريقهم ، وفي السفن تحدث الضباط باستفاضة كما أرادوا ضد رئيس الضباط ، واعتقد بعض النبلاء والسادة الموجودين بصحبتهم بأن هذا خطأ ، ووجدوا طرقاً ووسائل لعبور سفينة رئيس الضباط أو إلى سفينة "فرانسيسكو دي تافورا" ، والذي اعتقدوا أنه صديق له ، لذلك كان أفضل الرجال والنبلاء في الأسطول بصحبة رئيس الضباط و"فرانسيسكو دي تافورا" ، وقد علم رئيس الضباط وفهم كل ذلك ، ولكنه أخفى كل شيء .

**الفصل الخامس : كيف وصل أسطولنا إلى مدينة هرمز ، حيث قام رجالنا بمعركة كبيرة مع العديد من السفن المسلحة التي كانت في الميناء ، والتي تم حرقها وتدميرها جميعاً .**

أبحر أسطولنا بصعوبة ضد الطقس المعاكس وسكون الرياح ، وانعطفوا فجأة إلى رأس يسمى "مسندم" ، ومن هناك عبروا إلى جزيرة هرمز ، وهي مثلثة ، ويصل محيط دائرتها إلى خمسة عشر فرسخاً ، وهي ممتلئة بالصخور العارية ، ولا يوجد بها أشجار ، فقط أغصان شائكة بلا أوراق ، والأرض مالحة ، وتوجد مياه جارية في كثير من الأماكن والذي يكون أكثر أجاجاً عن الماء الموجود على الشاطئ .

يوجد العديد من الأنهار والموانئ بجوار الجزيرة تعبر من خلالها كل أنواع البضائع الممكنة ، ولكن بسبب ضحالة البحر يوجد

القليل من المياه بامتداد الساحل ولا يمكن للسفن الذهاب إلى هناك للشحن ، ويأتون جميعهم إلى جزيرة هرمز لتفريغ البضائع التي جاؤوا بها من الهند ، يأتي التجار من البر الرئيس ومن الموانئ إلى هرمز في قوارب صغيرة حيث يتاجرون في البضائع مع الآخرين .

تربح مدينة هرمز الكثير بفضل هذه التجارة ، ويقول الناس عامةً بأن الهند خاتم وهرمز جوهرته ، حيث يمكن إيجاد كل البضائع في العالم . يوجد الكثير من التجارة لدرجة أن مستحقات الجمارك تكون أكثر من خمسمائة ألف "أشرفي" للملك ، وهي غنية جداً ووافرة بالطعام والذي يكفي لإطعام ألف رجل في مكان عام .

عندما بنيت القلعة عام ١٥٠٤م ، رأيت بنفسي اثني عشر شارعاً ، بها أكثر من عشرين محلاً على كل جانب ، تقدم فيها الأطعمة الجاهزة ، عبر الأبواب يمكن رؤية قدور وسلطانيات من الأرز المطبوخ ، وخروف مشوي كامل وغيرها من الأطعمة ، كلها نظيفة ورائعة كما ينبغي ، وبالكمية التي تكفي لعشرة آلاف رجل كما قلت . رأيت شارعا يبيع فيه التجار اللؤلؤ ، وهو مقسم إلى أنواع مختلفة ، وكان مرتباً على قماشة حمراء ، وكان يساوي أكثر من مائة ألف "كروزادو" .

رأيت أشياء أخرى رائعة في المدينة والتي يمكن أن أكتب الكثير عنها لأني رأيتها ، ولكني لن أقوم بذلك لأن هدفي هو أن اكتب عن أفعال البرتغاليين . في جزيرة هرمز كلها لا يوجد مياه للشرب ، ويتم إحضارها كلها من البر الرئيس ، ومن جزر أخرى بالقرب من

البر الرئيس ، في قوارب صغيرة ، ويشترون الكثير لدرجة أنه في كل شارع توجد منازل تبيع المياه عند الباب في أباريق وآنية فخارية ، كما يفعلون على ضفة النهر في "لشبونه" . هناك أشياء عظيمة في مدينة هرمز والتي تستحقّ بسببها حقاً أن يطلق عليها جوهرة الخاتم .

وصل أسطولنا إلى مرأى المدينة في صباح أحد الأيّام ، ولكن بسبب قلة الرياح استغرق الأمر النهار كله للوصول إلى هناك ، ولم نصل حتّى وقت الغروب . عقد رئيس الضباط نقاشاً مع الضباط وطلب منهم الاستعداد والاتفاق على الخطط ؛ لأنه إذا ارتفعت الرياح يجب عليهم محاربة السفن وتدمير كل من كان موجوداً على البحر ، وقد قال ذلك لمعرفة نواياهم ؛ لأنه كان بادياً من الخارج أنهم كانوا غير عازمين وظن أنه خطأ .

لقد أجابوا جميعاً أنهم سيفعلون كما يفعل ، ولكن تلك لم تكن نصيحتهم ؛ لأنه كان من الخطأ الواضح إلحاق الأذى إلّا بمن يستحق ذلك ، وحتى الآن لم يفهموا أي شيء مما أراد ملك هرمز القيام به .

قال رئيس الضباط بأن عليهم أن يكونوا مستعدين ؛ لأنه لن يقاتل بدون سبب ، ولن يقوم أحد بذلك ، وقال لهم بأنه سيرسو أولاً ، ثم سيقومون هم بذلك بنفس الترتيب الذي نصحه به مسؤولو الأمن وربابنة السفن ، حتّى إذا كان إطلاق النيران ضرورياً ، فلن يقوموا بضرب بعضهم البعض بنيرانهم .

لقد تم ذلك ؛ لأنهم وصلوا بفعل الرياح القليلة بعد الغروب . رسا

رئيس الضباط مقابل قصر الملك ، والذي كان واقعاً على الساحل ، بين سفينتين كبيرتين مرتفعتي الجوانب وبها منصات للشراع الثاني وقلاع خشبية للقتال . كانت بارجات "الأميرال" الخاصة بنا مغطاة كلية برايات وكثير من الأعلام ، وكذلك قارب القائد ، وكانت المجاديف جاهزة في الخارج ، وكان هناك فالكاو واثنان "بيرسوس" على متن السفينة والعديد من الرماح حول صاري الشراع الثاني .

كانت السفينة الأخرى مجهزة بنفس الطريقة ، وفقاً للخطة ، ولقد قاموا بالرسو بالترتيب بين السفن الأخرى ، حيث كان هناك أكثر من ستمائة سفينة ، وأكثر من مائة مركب صغير ، والعديد من "التيرادا" المسلحة .

رسا رئيس الضباط ولم يطلق النيران ، وحذا حذوه الآخرين . كان المسلمون يصرخون بشراسة ، وقرعوا الكثير من الطبول ونفخوا الأبواق عندما راوا السفن تقترب ، ولكن عندما رأوها تدخل الميناء للرسو من دون أن تقوم بأي أذى ، أصبحوا كأن على رؤوسهم الطير ، وكان الملك في قصره يشاهد كل شيء ، وكانت كل الشواطئ والشوارع والأسطح والنوافذ مزدحمة بالسكان .

المنازل في المدينة مصنوعة من الأحجار ، وملصقة بالجص بدلا من الكلس ، وبها ثلاثة أو أربعة طوابق وكانت كبيرة جداً لدرجة أنه يمكن أن يعيش مئتا شخص داخلها . عندما رسا أسطولنا كان الليل قد حل ، وأرسل رئيس الضباط قارب "الاسكيف" الخاص

به للسفن الأخرى ؛ ليكونوا متيقظين جيداً في حال قام المسلمين ببعض الهجمات في الظلام والذي سيكون في مصلحتهم ، ففي الصباح سيكون كل الرجال المسلحين ومعهم العبيد والرماح والمهاميز على متن السفن ، لذلك استمروا بالمراقبة ، ولكن كل شيء كان هادئاً طوال الليل براً وبحراً .

عندما كان الصباح رأى المسلمون كيف كانت سفننا مجهزة ، حيث الكثير من الرجال المسلحين ، والفولاذ يلمع في الشمس ، ويوجد في كل سفينة ثماني مدفعيات كبيرة في الأسفل ، أفواه المدافع موجهة إلى الأسفل حتّى يمكن رؤيتها جيداً ، كما أمر رئيس الضباط ، وكان المسلمون مندهشين ويملأهم الخوف . أرسل رئيس الضباط "جاسبار رودريجوس" المترجم إلى الشاطئ في قارب "الاسكيف" لأخذ إذن الملك لإحضار رسالة له .

من مكانه يمكن أن يرى الملك متى سيصل "الاسكيف" ، وأرسل لمعرفة ماذا يريد ، ثم اجتمع "بجاسبار" ، والذي أعطى للملك رسالة رئيس الضباط بكل كياسة واحترام ، وكان مع الملك "خواجا عطّار" ، وصي العرش الأساسي للمملكة كلها ، والذي سمع بالرسالة وأرسل على الفور مسلماً محترماً رفيع المنصب وحسن الثياب ، في قارب جالساً على سجادة .

ذهب إلى رئيس الضباط ، وعندما صعد على متن السفينة وجده جالساً على كرسي وتوجد سجادة عند قدميه وحوله النبلاء على

مقاعد ، وكان سطح مؤخرة المركب مزيناً بنسيج فلمنكي مطرز ، وتشكيلة غنية من الأذرع كانت معلقة هناك ، وكانت هناك دروع ورماح مائلة على جوانب السفينة . كان صانعو الدروع ينظفون ويجمعون مجموعات من الأسلحة الفولاذية ، وكانت مدافع المدفعيين محترقة ونتنة .

عندما صعد على متن السفينة قام المسلمون بانحناءة إلى رئيس الضباط ، والذي بدأ شخصية مثيرة للإعجاب مرتديا بنطالاً قرمزياً ، وصدرية قصيرة من المخمل الأسود ، ملتحفاً بعباءة قرمزية ، وهناك سيف مسلول مائل على كرسيه . أبدا ترحيباً رائعاً بالمسلم ، والذي علّمه "خواجا عطّار" جيداً ما الذي يجب عليه أن يفعله ويقوله .

قال لرئيس الضباط : "سيدي ، إن الباشا ملك هرمز أرسلني كي تقول لي ما ترغب به" .

أمر رئيس الضباط المسلم بأن يكتب ذلك وأن يقرأه "جاسبار رودريجوس" ؛ لأنه لم يثق أن يسلّم المسلم الرسالة التي أعطاه إياها ، قائلاً بأنه كان عبداً لملك البرتغال ، أعظم ملك في العالم ؛ لأنه كان سيد كل البحر حيث كان يرسل كل سفنه وأساطيله الحربية ، ومن خلالها استولى عل كل الهند ، وكان سيداً عليها كلها ، وكل من كانوا يبحرون في البحر يكنون له الطاعة ويدفعون له الجزيات والضرائب .

كرئيس لضباط هذا الأسطول فقد جاء لعقد السلام والصداقة ، ولكن عندما ذهب إلى مدينة "قلهات" ، ومن دون أن يلحق بهم أي

أذى ، ازدرى منه الناس ، وحاولوا الاستيلاء على قواربه ، لذلك ذهب الضابط إلى الشاطئ بقوارب السفن وأحدث بعض الأضرار ، ويجب أن يعرف ذلك الآن ، عندما أكمل طريقه ، حدث الشيء ذاته في "قريات" ، ومسقط ، وقد عامل هذه المدن كما تستحق ؛ لأنهم كانوا متكبرين وتصرفوا تصرفاً خطأ .

وجد فقط في "صحار" ضابطاً ، وكان رجلاً جيداً وعاقلاً ، وبتفهم شديد أنقذ مدينته وشعبه ووافق على السلام معه ، وأصبحوا أصدقاء ، عندما اعتقد بأنه يمكن أن يجد أناساً طيبين في "خورفكان" ، وجدهم أسوأ من ذلك ، وقام معهم بالأضرار التي يستحقونها ؛ لأن كل البلدات والمدن التي بها موانئ بحرية وشحن ولها مستحقات من التجار الذين يبحرون في البحر ، عليهم طاعة علم ملك البرتغال الذي يرفرف الآن من على الصاري .

بهذه النية جاء إلى هنا في طلب السلام والصداقة للأبد ، بشرط أن يدفع الملك كل عام قدراً معقولاً من الثروة الطائلة التي تأتيه من البحر ، كجزية لملك البرتغال .

يجب أن يكون مسروراً للقيام بذلك بدون أحداث أي جلبة ؛ لأنه إن لم يأخذ النصيحة السديدة في هذه المسألة ولم يتمنّ في أن يتعهد بالطاعة فسيرى الكثير من الدمار في مدينته وموانئه وفي السفن التي كانت في الميناء والتي كانت في البحر ، وسيتحول كل شيء إلى نيران ودماء ، ستكون الخسارة كبيرة جداً .

خـلال بضـع سـنوات سيكـون معدماً ، ويجب أن يرسل رده حالاً .

عندما رأى الملك الرسالة كان مرتبكاً جداً وخائفاً ؛ لأنه كان شاباً . تحدث مع من كانوا في مجلسه من الذين يعطونه آراءهم كل يوم ، ولكنهم جميعاً أحالوه إلى "خواجا عطّار" ، الذي كان حاضراً ، وهو الشخص الأول في المملكة قوةً وحكمةً وعمراً ، وفي حضور الجميع قال "خواجا عطّار":

"سيدي ، لقد فكرت ملياً في هذه المسألة ، وما يجب عليك القيام به ، وكملكي وسيدي ، أقول لك أنه ، وفقاً لما قاله لي تجار الهند عن البرتغاليين بأنهم يهزمون ، ويحتلون كل شيء ، ولا يمكن لأحد هزيمتهم ، فنصيحتي هي أن تأخذ أقل الشرور التي أمام عينيك ، وأن تقوم ببعض الاتفاقات معهم ، وهو أفضل ما يمكنك القيام يه ، كي تحمي مدينتك وموانئك من الأذى الذي يمكن لهؤلاء الرجال القيام به ، لأننا نعرف بأنهم سادة البحر .

إن الاتفاقات التي تعقد بسلام أفضل من التي تعقد بالحرب ، حتّى إذا طلبوا جزية أقل من التي يمكن أن تتفاوض معهم عليها بسلام ، لأن الاحترام الذي يفقد مصداقيته بسبب بداية سيئة يكون له تأثير كبير .

ابدأ في التفاوض ، وسيوصلك الوقت إلى الطريق الذي يجب أن تسلكه ، وإذا بدا ذلك جيداً للجميع ، وإلى ريس نور الدين ، الذي

له سلطة مساوية لسلطتي في هذه المدينة ، حينها سوف نناقش كل ما يمكننا فعله" .

إن هذا القرار للتفاوض كان مقبولاً من قبل الجميع ، ثم تناقشوا في الرد الذي كان سيرسل إلى رئيس الضباط .

أرسل "خواجا عطّار" لأحد التجار الكبار الذي كان في المدينة لمدة طويلة ، ويسمى "خواجا بيرم" ، وهو أرميني عاش طويلاً في البندقية كتاجر ، ويمكنه التحدث بلغتنا جيداً ، وهو رجل أهل ثقة وسلطة كبيرة .

سأله إذا كان يمكن أن يقوم بدور الوسيط من أجل الملك في الإجراءات الكثيرة اللازمة للوصول إلى اتفاق مع البرتغاليين لأن الملك وثق به للقيام بهذه المهمة بأمانة ، ولقد وافقت الإدارة الأرمينية ، ثم أعطاه "خواجا عطّار" رسالة لأخذها إلى رئيس الضباط : بأن الملك كان مسروراً لمعرفة سبب الزيارة ، وبما أن هذه هي القضية ، فلا يوجد سبب لتدمير مدينته وقتل الكثير من الأشخاص ، حتّى الأطفال الذين لم يولدوا بعد .

إن ذلك فعل سيّئ ؛ لأنه يجب أن يأتي أولاً إلى هرمز لمناقشة المسألة ، وبعد ذلك إن لم يكونوا راضين ، سيكون له الحق بأن يقوم بما يرضيه ، ولكن يبدو بأنه قام بهذه الأشياء فقط ليجعلهم يخافون ، ولأنه قام بهذه الأخطاء في حق الناس التعساء ولم يكونوا خائفين ، ولن يجد شيئاً بداخله لم يكن قائماً على المنطق .

أما بالنسبة لتدمير الميناء وحرق السفن ، إن لم يعقد اتفاقيه معه ؛ لأنهم كانوا سادة البحار ، فإن الله في السماء يرى كل شيء ، وبسبب أهمية فحوى رسالته ، بأن يكون تابعاً لملك البرتغال ، فإنها مسألة يجب أخذها جيداً في الاعتبار لعدة أيام والتشاور فيها مع مسؤوليه الرئيسين لبحث ما هو الشيء الأفضل لمصلحة مملكته ، لذلك يجب ألا يضغط عليه لاتخاذ الرد النهائي ، تم كتابة كل هذه الرسالة وذهب الأرميني "خواجا بيرم" إلى رئيس الضباط .

قال بلغتنا وبلطف وكياسة شديدة : "حماك الله وكل جنودك . أنا رسول وأتيت برسالة من ملك هرمز ، والتي سأعطيها لك بموافقتك" . سعد رئيس الضباط والجميع لسماع الأرميني وهو يتحدث ، وقال له رئيس الضباط : "مرحباً بك ، وبما أنك تتحدث بلغتنا ، أود أن اعرف جنسيتك" .

قال الأرميني : "سيدي ، إنني أرميني مسيحي ، ولمعرفة قصة حياتي ، فأنا ذهبت إلى العديد من البلدان . لقد كنت في البندقية لمدة طويلة حيث تعلمت اللغة البرتغالية ، وأعرف لغات أخرى كثيرة ، ولقد سكنت في هذه المدينة ، حيث أتاجر في بضائعي منذ سنوات . أنا أعيش كما تقتضي الضرورة . أرث في قلبي الخلاص ، وأتمنى من كل قلبي بأن يكون حظي سعيداً إذا انتهى عملكم بنجاح ، لأنني أتمنى أن يعم الخير الكثير من وراء ذلك" .

قال له رئيس الضباط : "اقسم لك باسم الملك سيدي بأنني إذا وجدت الحقيقة فيك ، ستجد بداخلي كل الخير الذي تستحقه" ، أخبره بأن يذهب إلى قمة القلعة ويدخل إلى غرفة مرشد السفن بينما يظل هو ليتحدث إلى الضباط الذين اجتمعوا لهذا السبب ، وقال لهم :

"رأيتم الرسالة ، أريد رأيكم الآن فيما يجب أن يكون عليه ردي ، لأنني أريد أن أكون متأكداً بأنني إذا قمت بما ستقولونه لي فلا يجب عليَّ أن أكون مسؤولاً عن أخطائكم إذا كانت لديكم أخطاء . لا أطلب منكم الرد لمعرفة الكمية الممكنة من الإجابات التي يمكن أن تعطوني إياها ، ولكنني لست متأكداً ما هي الإجابة الأفضل .

أن المسؤولية تقع عليَّ وحدي لأنني أملك السلطة للقرار ، أنتم فقط عليكم العمل بأيديكم ، وأنا عليّ العمل بالنفس والروح ، وبسبب العمل الذي يقع عليكم أريدكم أن تكونوا مشتركين معي وشاهدين للملك سيدنا ، لأنني إذا قمت بشيء خطأ سوف يعاقبني" .

عندما أدرك الضباط ما يريد رئيس الضباط القيام به ، أجابوا : "بما أنك تقول بأن كل شيء هو ضمن مسؤوليتك ، ونحن محبطين بسبب القدر الذي تحصرنا داخله ، لذلك افعل ما يحلو لك" . أجاب رئيس الضباط : "سادتي ، أنتم تعلمون أنه إذا كان من الممكن لدي أن أنقل التزاماتي لكم سأقوم بذلك ، وهو لا شيء على الإطلاق ، لأنكم ستنامون وقتها قليلاً في الليل كما أنام أنا ، وكما ترون جميعاً .

أنا أتوسل إليكم بأن تميلوا قلوبكم إلى خدمة الملك ، وهو من تلتزمون له جميعاً في هذا العمل ، لأنني لست أكثر من رجل واحد" ، وأجابوا : "سيدي ، إذا كان كل ذلك صحيحاً ويمكنك القيام بالأشياء بدون جهد ، لماذا تبحث عنه؟ لأننا إذا كنا قد جئنا هنا أولاً لن يكون هناك سبب للملك مثل الذي لديه ليشتكي من الأضرار التي قمنا بها في موانئه" .

قال رئيس الضباط : "لقد أتينا للحرب وليس للالتماس ، وعلّه يرضي الرب بأن يمنحني الرياح التي ستدخلني إلى هذا الميناء ، وأتمنى بعون إلهنا أن يتحدث هؤلاء المسلمون أكثر حول صميم الموضوع" .

استدعى الأرميني وقال له : "اذهب وأخبر الملك بأني مسرور جداً بأنه يرغب في السلام والصداقة مع ملك البرتغال ؛ لأنه بذلك يحمي مدينته وموانئه من الضرر الكبير الذي قد يقع عليهم إن لم يفعل ذلك ؛ لأنه إذا بدأت الحرب ستأتي العديد من السفن ، والتي سيبعثها نائب ملك الهند ، وسيتدمر كل شيء .

مثل ما حدث مع ملك "كاليكوت" "Calicut" والذي تدمرت كل موانئه ولم تبق في مدينته أي سفينة للإبحار ، وكونه كان حكيماً جداً ويرغب في مصلحته الخاصة ويسألني عما أرغب ، أخبره بأني أريد فقط ما يتمنى ، واضعاً في الاعتبار المزايا التي سيعطيها لمملكته .

لن أطلب منه شيئاً ؛ كي يشعر بأنه قد قام بكل شيء بإرادته الخاصة ، وأما بشكواه عما قمت به في مدينته ، أخبره بأنه كان خطأ

الضباط الأغبياء وبسبب الكره الذي كان داخلهم . إن عادتنا أن نؤذي من لا يتمنون الخير لنا ، لذلك فإن القوة الكبيرة التي يقول بأنها لديه يجب أن يحتفظ بها لجيرانه وليس لي .

لقد أتيت من مكان بعيد لزيارته ، بصحبة هؤلاء النبلاء والسادة والذين جاؤوا ليموتوا في سبيل خدمة الملك والسيد ، على نفقة هذا الأسطول .

سأبتهج إذا قام ملك هرمز بتسوية المسألة بدون أن يسبب لنا المشاكل ، لأن المشاكل ستقع عليه أيضاً وستكون الخسارة أكبر . دعه حذراً على هدوئه وسيكون دائماً بسلام . إنني أتحدث في هذا كصديق ، لأن هؤلاء السادة مثل جنود المدفعية ، الذين يستمتعون بجهد الحرب أكثر من استمتاعهم بالسلام" .

غادر الأرميني مدوناً كل شيء معه كيلا ينساه . قال للملك في حضور الجميع ما قد قيل له ، وكان هناك العديد من الاقتراحات فيما بينهم : بعضهم وافق والبعض الآخر اعترض . ترك "خواجا عطّار" ونور الدين ، اللذين كانا حاضرين ، الجميع يقولون ما لديهم ، والملك الذي لم يقل شيئاً قال : "يا أبتي خواجا عطّار ، ماذا لديك لتقول لي"؟

أجاب : "سيدي ، لقد نصحتك من قبل ، والآن بعد أن رأيت تلك الرسالة أقول لك فإنني ليس لدي من شيء آخر أقدمه ، وأتوسل إليك أن تقبله" ، وأضاف نور الدين : "سيدي ، يجب أن تفعل ما نصحك به خواجا عطّار" ، ولكن الجميع اعترضوا على

ذلك ، قائلين له إنه لا ينبغي عليه أن يعاني هذه الإهانة لكرامته بأن يكون ملكاً تابعاً بالخوف من ست سفن في مينائه لا تتسع لألف شخص ، وأن السفينتين التجاريتين التي تم تجهيزهما لهذا السبب كانتا كافيتين لاحتوائهم .

لقد فعلوا الكثير لتحريض الملك وجعله يوافق على القتال ، وقد أرسل لرئيس الضباط أجوبة مضللة حتّى يصل الأسطول والرجال المنتظرون من البر الرئيس .

كان من ضمن الحاضرين ضابط السفينة التابعة لملك "كامباي" ، ويسمى "مينيل" ، والذي يملك الآلاف من الرجال المسلحين ، وبحارون جيدو التسليح ، والعديد من المدفعيات التي كانت مشهورة جداً في الهند ، ولقد قال هذا الملك بتكبر شديد بأنه قد يجرؤ على أخذ بارجة الأميرال الخاصة بنا له .

ثم اعترض الجميع أكثر من ذي قبل على الملك ، قائلين بأنه يجب أن يقاتل ، وألا يستمع إلى نصائح من يخافون دائماً من الحرب ، ثم أرسل الملك الأرميني إلى رئيس الضباط قائلاً بأنه يجب أن يمنحه بضعة أيام لمناقشة مستشاريه أمراً هاماً في أن يكون تابعاً للأبد لملك آخر ، وهو الأمر الذي لم يقم به أجداده ، وبما أنهم اتفقوا على الصداقة ، يمكنه أن يرسل الرجال بأمان إلى الشاطئ لشراء ما يريدونه .

بمجرد أن استمع رئيس الضباط إلى الرسالة قال لضباطه أنها خاطئة ، وهدفها هو التعطيل واختبار نيتهم ، لأن الملك كان معه

مستشاريه بالفعل ، ومن اليوم الأول من وصولهم كانوا قد اتفقوا على ما يجب القيام به ، ويجب ألا يضيعوا وقتاً في هذا ، وبينما كان رئيس الضباط يتحدث إلى الضباط كان الأرميني في غرفة مرشد السفن كيلا يسمع ما كان يقال بما أنه يعرف لغتنا .

قال رئيس الضباط بأنها ستكون فكرة جيدة إذا أرسلنا أحداً ليتجسس ويرى ما يحدث في المدينة ليكون لديهم صورة جيدة عما يجب القيام به ، لذلك أمر شخصاً اسمه "دوارتي ليجيورو" للذهاب إلى الشاطئ لشراء الطعام الطازج ، وأنذره أن يبقى مع الرجل الذي سيقدمه الأرميني له كي يمكنهم الذهاب عبر المدينة بأكملها ورؤية كل شيء ، ثم يمكنه أن يخبره عنها .

ثم قال للأرميني بأن يخبر الملك بأنه يسعده أن ينتظر ، كما قال ، ويجب أن تكون كلمته كلمة ملك ، بدون كذب ، كي يكون برهاناً جيداً وليس سيئاً .

أما بالنسبة لإرسال رجاله للشاطئ ، لم يكن هناك من داعي لذلك فهم معتادون على أن يكونوا دائماً في البحر ما عدا عندما يخرجون للقتال ، ولم يشعروا بالملل إلّا عندما لا يكون لديهم من شيء للقيام به ، ولم يرد شراء الطعام ؛ لأنه كان هناك الكثير منه على السفن ، ولكنه كان سيرسل أحد الرجال لشراء خضراوات ، ولقد توسل إليه بأن يقرر بسرعة ؛ لأنه أراد أن يغادر ، لأن لديه أشياء أخرى يقوم بها في أماكن أخرى .

قد عهد بالمشتري إلى الأرميني ، والذي كان سيرسله مع خادم للتجول في المدينة للشراء ويريه كيفية الشراء . ذهب الأرميني إلى الملك وأعطاه رسالة رئيس الضباط ، وعندما ذهب المشتري معه طلب منه "خواجا عطّار" الدخول ، ثم سأله إذا كان عليه شراء الكثير ، وقال إن عليه فقط الشراء لأربعمائة رجل في بارجة الأميرال ، وقد يأتي مشترون من سفن أخرى .

سأله عما يود شراءه ، قال : "فاكهة وخضراوات ، وبالنسبة لبقية الأشياء فإن السفينة كانت ممتلئة بالطعام الذي قد يضطروا لبيعه قبل أن يغادروا" .

أرسل الأرميني خادماً معه وذهبوا إلى السوق الخيري ، وهو عبارة عن ساحة ، ولكنه لم يأخذه عبر المدينة ، ولقد عاد في المساء "بالماديا" وأخبر رئيس الضباط بما قد حدث ، وبأنه وجد أن المسلمين متكبرين وجميعهم مسلحين ، وقد أخبروه بالإشارة بأنهم سيقطعون كل أيديهم .

كان المسلمون منهمكين باستمرار في أعمالهم في السفن ، وقاموا باستعدادات بما تمنوا بأن يقوموا به ، بينما كان رجالنا يقومون بالشيء ذاته ، وكانوا يعملون دثارات من الحبال والأسلاك لتغطية سفنهم ، إذا أحدثت قذائف السفن خروقاً فيها .

كان كل قارب مزوداً "بالبافيزيد" و"الكاميلو" على متن كل منهما ، وكان يوجد براميل من المياه في كل مكان في السفينة كاحتياط

للحريق ، وكان تحذير رئيس الضباط القوي لكل الضباط هو أنهم يجب أن يحترسوا من النار قبل أي شيء آخر .

في القمم كان يوجد رجال شجعان معهم العديد من النبال والرماح والحجارة التي يمكن أن يلقوها في الهجوم ، وقد أمر أيضاً بأن ترمى أطراف الحبال خارج سفن المسلمين ، وأن تسحب إذا وجدوا أنفسهم أمام خطر النيران ؛ لأنه كان يخشى أن تكون بعض سفن المسلمين مزودة بمواد سريعة الاشتعال ، لإشعال النار بنا .

قد أخبر الضباط بأن يطلبوا بحمل المرساة إلى سفن المسلمين الضخمة إذا تجرأوا على القتال ، وقد قام بذلك قبل أي أحد ، فقد اشتبك مع سفينة تسمى "ميريل" "Mirelle" ، وقد استعد كل رجالنا كما ينبغي ، وتم تحميل كل المدفعيات ، وانقسم المدفعيون إلى مجموعات وانقسم الرجال بين القلاع وظهر المراكب ، وقد أخبرهم رئيس الضباط بأن هذه المعركة البحرية ستنجز عمله ؛ لأنه بتدمير المسلمين في البحار ، وهو ما يؤدي إلى حدوث مجزرة كبيرة بينهم ، سيكونون سادة البحر والمدينة أيضاً ، وقد قال بأن الجميع يجب أن يسعوا جاهدين باسم حب الرب ، وقد يمنحهم النصر ضد أعداء عقيدته المقدسة .

مر النهار ، وفي المساء وصل الجيش الذي كان المسلمون ينتظرونه من البر الرئيس ، وبه أكثر من مائة سفينة "تيرادا" ذات مجاديف والعديد من رماة السهام ، وقد جاؤوا من الجانب الآخر للمدينة لذلك لم يتم رؤيتهم ، وسمع فقط الضجيج الذي أحدثوه في

المدينة ، وبحلول الليل اجتمع المسلمون وصعدوا على متن سفنهم ، وهو ما أحدثت أيضاً ضجيجاً .

عندما سمع رئيس الضباط بذلك أرسل قارب "الاسكيف" الخاص به ليخبر الضباط بأنه يجب عليهم إصدار الأوامر بطهي الطعام تلك الليلة ؛ لأنهم لن يتمكنوا من القيام بذلك في اليوم التالي ، ويجب أن يخبروا مدفعييهم بالتركيز فقط على أهداف معينة ، ويجب أن تكون الطلقات الصغيرة القادمة من الأعلى محددة لقتل المسلمين الذين يقاتلون ، وكيلا يطلقوا النيران يجب عليهم جميعاً القيام بذلك .

كان لرئيس الضباط اثنين "ايسبيرار" "Espirar" في مؤخرة السفينة ، وقد أمر "نونو فاز دي كاستيلو برانكو" "Nuno Vaz de Castello Branco" ، بأنه يجب استخدام هذه لإطلاق النيران على بعض الشرفات والتي كانت على قمة قصر الملك ، ومن الممكن أن يكون الملك في الأعلى هناك يراقب القتال .

عندما بزغ الفجر في اليوم التالي ظهرت "التيرادا" حول النقطة في المدينة التي انخفضت فيها صواريها ، محملة برماة السهام وبأقواس تركية ومسلحة بالسهام والرماح والدروع ، وكانت جميعها تجدف بسرعة شديدة ، وكانت الصرخات عالية لدرجة أن المسلمين على السفن ردوا بصرخات أكثر ، وأجراس وطبول وأبواق وطلقات عديدة من النيران .

قاد قارب بارجة الأميرال "دوارتي دي سوسا" ، ومعه ثلاثون رجل من أصحاب الرواتب . أمره رئيس الضباط بإطلاق النيران ، وأطلق على "التيرادا" بواسطة "الكاميلو" وقد أصابهم حصيداً خامدين ، وكان سبعة أو ثمانية منهم ممزقين إرباً ، وترك المسلمين وهم يسبحون .

"جورج فورتادو" والذي كان في قارب "جواو دا نوفا" مع عشرين رجلاً ، فعل الشيء ذاته ، وكذلك قارب "افونسو لوبيز دا كوستا" ، حيث كان "ايريس دي سيلفيرا "Aires de Silviera" والذي كان معه عشرون رجلاً آخرون .

انشغلت قوارب السفن هذه مع "التيرادا" والذين كانوا جميعهم قادمين سوياً ، وأحدثوا خسائر كبيرة فيما بينهم ، حيث إنّ أكثر من خمسين منهم كانوا مكسرين ، ولكن البقية قد جاؤوا لإطلاق النيران على سحب السهام الواقعة على القوارب ، ولكنهم كانوا خائفين من المدفعيات وجدفوا بعيداً للاحتماء بين سفن المسلمين .

وحيث إن الوقت الآن قبل الفجر بساعة ، أمر رئيس الضباط بأن تلف الرافعة بهدوء ، واقترب من السفينة "ميريل" ، وعندما كان قريباً أطلق وابلاً من الرصاص من أربع قطع مدفعيات ثقيلة ، والتي خرجت من السفينة وقتلت الكثير من الأشخاص ، وقتلوا "بالبرسوس" و"الفالكوز" الكثيرين على متن السفن ، والذين سقطوا جميعاً .

حدد "نونو فاز دي كاستيلو برانكو" هدفه بحرص ومن ضمن

الطلقات التي أطلقها من "الايسبرا" "Espra" ، سقط جزء منها تحت الشرفة الخاصة بالملك والجزء الآخر عند جهة أسفل الشرقية الخاصة بالملك والجزء الآخر عند جهة محمية حيث قتل الكثير من زوجات الملك وأهل بيته ، ولأن الحاجة كانت ملحة ، شغل نونو فاز نفسه بــ "ميريل" ، والذي كان يطلق النيران .

لكنه كان يطلق عدداً من الطلقات التي كانت تلحق الضرر ببارجة الأميرال الخاصة برئيس الضباط ، ولقد أسعد إلهنا أن إحدى الطلقات ضربت الصاري وأسقطته ، وأثناء سقوطه قتل الكثير من المسلمين مما أحدث اضطراباً وقفز العديد من المسلمين إلى البحر .

في هذا الوقت تم الإمساك ببارجة "الأميرال" ، وكان "براز دا سيلفا" "Bras da Silva" ، وهو شاب نبيل ، هو أول من يصعد على متنها ومعه أخوه ، "مانويل دا سيلفا" "Manuel da Silva" ، وكان معهم "دوم أنطونيو دو نورونها" "D . Antonio do Noronha" و"دوم جيرينيمو دي ليما" "D . Jeronimo de Lima" وحوالي ثلاثين رجلاً والذين هاجموا القليل من المسلمين المتبقين بالرماح ، وتم إخلاء السفينة في الحال .

بعــد قليــل كان "بيرنالديم مارتين" "Bernadim Martin" وبعض الشباب الآخرين منشغلين كالمدفعيين ، حيث كانوا يطلقون من مدافع السفن ، وهي عبارة عن خزانة للبندقيات من الحديد ، وبدأوا

في الإطلاق على أقرب سفينتين للمسلمين ودمروها ، وقتلوا الكثير من الأشخاص ، بينما هبط الآخرون من على متنها للسباحة .

عندما رأى رئيس الضباط أنه قد تم الاستيلاء على السفينة ، عاد حتّى يتمكن من إطلاق النيران على سفن أخرى ، وفي الحال تمكن من إغراق واحدة .

كان "فرانسيسكو دي تافورا" بين سفينتين للمسلمين وكان يواجه بعض الصعوبة ، بينما قام "فرناو دي سوسا" "Fernao de Susa" والذي كان في قاربه مع الجنود بحرق إحدى السفن "بالكاميلو" وأغرقها ، ثم سقطت بين العديد من المسلمين الذين كانوا يسبحون وقتلتهم ، ولكن قاربه هوجم من قبل العديد من "التيرادا" وجرح بعض رجاله ، لذلك عاد القارب إلى سفينته ، والتي كانت قد استولت بالفعل على السفينة الأخرى وأشعلتها ، وكانت تحترق بشراسة .

لقد هزم "أفونسو لوبيز دا كوستا" سفينة أخرى كبيرة ، وأشعل بها النيران وعندما كانوا يواجهون النيران قاموا بشد حبل السحب الذي كان لديهم في البحر . انشغل "أنطونيو لوبيز" بشكل كبير ، والذي كان مع بعض الجنود في قارب أخيه ، "أفونسو لوبيز دا كوستا" ، مع "التيرادا" حيث كانت قادمة لإطلاق النيران من بين السفن .

كان "مانويل تيليس" و"أنطونيو دو كامبو" ، والذين كانوا بالقرب من المنطقة المحاطة بالعديد من السفن ، في أصعب مهمة حيث كان هناك عشر أو اثنتا عشرة سفينة تطلق النار عليهم ، ولكنهم لم

يكونوا بطيئين وبالرغم من أن قواربهم ، والتي كان بها أيضاً "ديوجو دي فريتاس" "Diogo de Freitas" في واحدة و"دوارتي دي ميلهو" "Duarte de Melho" في الأخرى ، كان بها مدفع واحد فقط ، فقد أغرقت سفن البرتغاليين في وقت قصير .

كان الرجال من السفن الأخرى يهربون للشاطئ تلاحقهم القوارب التي كانت تقتلهم في الماء بالرماح .

لقد كان "جواو دا نوفا" في سفينته "فلور دي لا مار" "Flor de la Mar" ، والتي كانت الأكثر قوة من غيرها ، عند نقطة أبعد ، وكان محاطاً بالعديد من السفن ، ولم يتحرك من مكانه ، وكان قاربه مسلسلاً بمؤخرة السفينة ، وقاتل فقط بالمدفعية ؛ لأن المسلمين كان لديهم كميات كبيرة منها ، وبالبندقيات الخفيفة فقط والتي ألحقت ضرار كبيراً برجالنا على متن السفينة ، ولكن كان هناك مدفع كبير على سفينتنا وانطلقت الطلقات عبر جانبي السفن المسلمة وفرقتها .

قام رئيس الضباط أيضاً ، والذي كان في عرض البحر ، بالكثير من الأضرار بواسطة مدفعيته ، وقد رفع يده إلى السماء شاكرا إلهنا عندما رأى الدمار الذي حدث بين سفن المسلمين ، ولكنه كان غير مسرور عندما رأى العديد من سفن الأعداء مشتعلة ، وأرسل "دوارتي افونسو" "Duarte Afonso" ، عريف الملاحين ، في قارب "الاسكيف" .

كان معه عدد كافٍ من الرجال للقيام بكل جهده لإخبار

الضباط بألا يشعلوا السفن ، لأن ذلك يعد خراباً كبيراً ، ثم أرسل "دوم أنطونيو" على قارب السفينة ، وكان معه "جورج باريتو دي كاسترو" "George Paritto de Castro" ، و"جورج دا سيلفيري" "George da Silvieri" و"أنطونيو دي سا" "Antonio de Sa" و"جواو تيكسيرا" "Joao Texiera" و"جواو دا كونها" وغيرهم من الرجال الموثوق بهم لحماية قارب "الاسكيف" ، ولاستدعاء القوارب الأخرى ، وإخبارهم بأن يدخلوا بين السفن ، وإحداث أكبر قدر من الأضرار الممكنة ، بإطلاق النيران ، وقتل الرجال الموجودين في البحر وعلى اليابسة وفي "التيرادا" .

لقد قاموا بذلك ، ولقد كان الدمار اللاحق بالمسلمين مضاعفاً ، كانت هناك فوضى عارمة ، فقد تخلوا عن مراكبهم ، وهربوا سابحين نحو اليابسة .

أطلق "جواو دا نوفا" المرساة وانطلق باتجاه سفينة كبيرة والتي كانت تخص "مالك اياز" ، ضابط "ديو" "Diu" ، وأشعل النار بها قبل استلام رسالة رئيس الضباط .

كان المسلمون غير قادرين على فعل أي شيء حيال النيران ؛ لأن الرجل الذي كان متواجداً في عش الغراب كان يرشقهم بالحجارة ، وقطعت الأسلاك واتجهت إلى اليابسة ، وعصف بسفينة أخرى والتي قطعت أيضاً مرساها وهربت من النيران وانطلقت إلى اليابسة .

لقد جنحت السفن على الأرض وكانت القوارب تلحق بهم ، محدثة الكثير من الخروق وتقتل الكثير من الأشخاص .

لقد كان الوقت الآن هو المساء تقريباً ، ولم تتبق أي سفينة مسلمة لإطلاق النار عليها ويمكنهم فقط إطلاق النار على بعض السفن التي وجدوا داخلها السلمين ، ولكي يبين للآخرين ما الذي ينبغي فعله ، قام رئيس الضباط بجر الأسلاك التي كانت بين السفن للاقتراب .

أمر بأن يتم إطلاق النيران على قصر الملك ، ولقد قامت السفن الأخرى بنفس الشيء وأطلقوا جميعهم النيران على المدينة ، والتي كان بها العديد من البيوت الجميلة على امتداد الشاطئ ، وقد ألحقوا بها الكثير من الخراب ودمروا العديد منها ، وتم قتل العديد من الأشخاص بقذائف المدافع ، والتي اخترقتهم واخترقت المدينة ، وبهذا كان المدفعجية يقومون بعملهم من المساء وحتى هبوط الليل .

لقد عادت القوارب إلى سفنها ، لأن الشاطئ بأكمله أصبح مهجوراً ، وقد أمر رئيس الضباط بأن تكسى كل السفن بالأعلام ، واجتمع الجنود ليرتاحوا من التعب الذي وقع عليهم طوال النهار ، وأمّا بالنسبة للجرحى والذين كانوا أكثر من مائة وخمسين شخصاً ، فقد تم الاعتناء بهم ، تم مقتل أكثر من أربعين شخص ، ومات بعض الجرحى لاحقاً ، وذلك ما أخبره رئيس الضباط لكل السفن .

بحلول الليل ذهب بقارب "الاسكيف" الخاص به مع ستة من الرجال وقام بزيارة كل السفن ، متحدثاً مع الضباط والنبلاء الذين كانوا معهم ، مادحاً مزاياهم العظيمة موصيهم بالاعتناء بالجرحى ،

وألا يكفوا عن المراقبة ، لأن الأمر الآن أصبح أكثر أهمية ، وعندما عاد رئيس الضباط إلى سفينته أمر بأن ينادى بصلاة النصر ، و"ايفا ماريا" "Eva Maria" عبر السفينة كلها ثم بدأ نفخ الأبواق ، وكانت هناك صرخات عالية ، وذلك ما حدث في باقي السفن .

سمعت شتائم وهتافات في كل الجوانب والتي سمعها المسلمون وكانوا يرتعدون خوفاً ، قائلين بأن البرتغاليين كانوا إخوان الشياطين الذين يتمتعون بالألم والتعب ، وكيلا يتم رؤيتهم أمضى المسلمون الليل في جمع الموتى من على الشاطئ وإعادتهم للقوارب "بالماديا" لإنقاذ ما يمكن إنقاذه .

لكن تم سماعهم من سفننا ، وأرسل الضباط قوارب "الاسكيف" الخاصة بهم ومعهم ربابنة السفن ومعاونيهم وبحاريهم والذين لحقوا "بالماديا" طوال الليل ، واستولوا على الكثير من الغنائم وقتلوا الكثير من المسلمين ، صارخين بإهانات وصيحات أينما ذهبوا من أجل إخافة المسلمين من الانتشار في البحر .

## الفصل السادس : ماذا فعل رئيس الضباط بعد النصر الذي حققه في البحر في القتال على الأرض؟ وكيف اتفق على السلام وجعل ملك هرمز يدفع الجزية المكونة من خمسة عشر ألف "أشرفي" وتكاليف الحرب ، وأشياء أخرى؟

في اليوم التالي استدعى رئيس الضباط ضباطه ، وقال لهم أنها ستكون فكرة جيدة إذا استفادوا قليلاً من جهود جنودهم ، ولذلك

يجب عليهم إرسالهم ، أو من الأفضل الذهاب معهم شخصياً لسرقة السفن ؛ وذلك كيلا يحدث أي نزاع بينهم ، وإذا أرادوا يمكنهم تقسيم الغنائم ، واتفقوا جميعهم على ذلك ، ثم صعدوا إلى معقل السفينة ، وخصصوا أربع سفن لكل واحد منهم ، استدعى الضباط قوارب "الاسكيف" الخاصة بهم ، وجعلوا في كل قارب واحداً من رجالهم ، ثم انطلقت القوارب إلى السفن .

لقد تم إخبارهم بتجميع الطعام أولاً والمياه والبارود والذخيرة ، وأن يلقوا بالأسلحة التي لا فائدة منها في البحر ، ولقد أخذ رئيس الضباط رجاله إلى السفينة التي تسمى "ميريل" وإلى سفينتين أخريين كانتا قريبتين ، ووجدوا فيهما جميعاً الكثير من البضائع ، ولاسيما القماش من "كامباي" .

الباقي كان الأرز والسكر والكثير من التوابل ، والفلفل الأسود ، والذي أخذ الضباط منه قدر ما أرادوا ، بالإضافة إلى الماء ، وقدر ما تمنوا أيضاً من المؤن ، وهذا ما تم أيضاً في سفينة رئيس الضباط ، لدرجة أنه لم يبق هناك أي مكان لوضع المزيد .

لقد أمر رئيس الضباط ألا يتم إلقاء أي شيء إلى البحر ، وألا يتم إهدار أي شيء ؛ لأن السفن وما بقي فيها سيكون مصدراً لجلب المال ، وقد تم ذلك ، ولقد وجدت في "ميريل" كمية كبيرة من البارود ، وهو ما أسعد رئيس الضباط كثيراً ، ولقد تم إمضاء النهار بالكامل في العمل ؛ لأنه كان هناك أكثر من أربعين سفينة ، وبعد

أن تم سرقتها أمر رئيس الضباط بأن يتم ربطها ببعض ، حتّى إذا ما حدث أي تمرد سيتم إشعالها جميعاً .

لقد استمتع الرجال بعمل اليوم ، ولقد أمر رئيس الضباط بأن يجعلوا القوارب جاهزة في اليوم التالي للذهاب للشاطئ ، وتم ذلك ، وعندما كان النهار ، ذهبوا جميعاً إلى بارجة "الأميرال" في قوارب وفي "الاسكيف" ، ومعهم المقاتلين المسلحين ورماحهم مرفوعة ، وكان بعضهم يحمل اثنين ، وكان بعضهم مسنوداً على الجوانب ليظن بأن هناك يوجد عدد أكثر من الرجال ، وكان في القوارب دروع و"بافيزيدس" و"فاكوس" و"بيركوس" ، ولكنهم تركوا "الكاميلوس" ؛ لأنها كانت ثقيلة جداً لأخذها إلى اليابسة .

لقد كان رئيس الضباط في قارب "الاسكيف" الخاص به مع علمه الملكي ، وكان في قارب سفينته ابن أخيه "دوم أنطونيو" ، وذهب النبلاء والسادة في باقي القوارب الأخرى ، وبذلك بقي في السفن فقط الربابنة ومعاوني الربابنة ، ومرشدي السفن ، والبحارة ، ولقد طلب منهم أن يراقبوا جيداً العبيد ، الذين كانوا مصفدين بالحديد في كل السفن ، كما أمر رئيس الضباط ، كيلا يهرب أي منهم إلى اليابسة ، ويخبر عن العدد القليل الذي عليه الرجال في السفن .

لقد نصح الضباط أيضاً وبشدة أنه بمجرد وصولهم إلى الميناء يجب وضع الزنوج في الحديد ، وقد انطلقوا بصحبة قوارب "الاسكيف" وبعرض كبير للجنود وبأصوات الأبواق ، بمحاذاة الشاطئ بالقرب

من المدن الممتدة على البحر ، والتي كانت تطلق عليهم العديد من السهام والحجارة وذلك من أسطحها المسطحة .

في طرف المدينة على اليسار كانت هناك ضاحية يوجد بها العديد من المنازل المصنوعة من الطمي ، ومبان أخرى كبيرة ذات أسطح من القش ، والتي كانت تؤوي العديد من السفن و"التيرادا" الكبيرة والتي كانت تصطف على حافة الماء ، حيث قام المسلمون بتعزيزها بمتاريس قوية مزودة بالمدافع والرجال للدفاع عنها .

ولقد أمر رئيس الضباط المدفعيين بأن عليهم فقط إشعال فتيلهم ، ولقد انطلق باتجاه الشاطئ ، منادياً بالنصر من "سانت جيمس" ، وبعد ذلك اقتحم رجالنا المتاريس وهاجموا المسلمين ، والذين تركوا كل شيء لاحقاً ، مطلقين السهام فقط ، ولقد أشعل المدفعيون في الحال بيوت القش بشعلاتهم ، ولقد كانت النيران كثيفة جداً لدرجة أن رجالنا لم يتمكنوا من العودة إلى القوارب ، ولقد جروا بين السفن خلال الشاطئ بينما انطلقت القوارب في البحر .

أرسل رئيس الضباط "افونسو لوبيز دا كوستا" و"جواو دا نوفا" و"مانويل تيليس" ، مع رجالهم لينطلقوا عبر المياه ، ليتبعهم هو مع رجاله ، إلى مكان يسمى "توروم بانج" والذي يقع على البحر ، حيث توجد بساتين النخيل وآبار من المياه الصحية ، والتي يشربها سكان المدينة عندما لا تأتي مياه "التيرادا" ؛ لأنه أحياناً تكون هناك رياح معاكسة ولا توجد مياه للناس البسطاء ، ولقد كانت نية رئيس

الضباط بأن هذه يجب أن تكون المعركة الرئيسة ضد المدينة إذا لم يطيعوه .

عندما وصلوا إلى المدينة لم يجدوا أحداً ، ولكنهم وجدوا الريف حول المدينة ممتلئاً بالناس ، وأراد "افونسو لوبيز" باللحاق بهم ، ولكن رئيس الضباط لم يسمح له ، وبعد القليل من الراحة قسّم رئيس الضباط الرجال إلى ثلاث مجموعات ، ونشرهم كي يبدوا وكأن هناك الكثير منهم ، وقد جابوا المنطقة الريفية ببطء بينما انطلقت القوارب بامتداد الساحل ، لذلك اعتقد المسلمون حقاً أن رئيس الضباط كان قادماً للدخول إلى المدينة ، وكانوا خائفين جداً ، وذهب كل واحد منهم لحماية نقوده والهرب مع زوجته وأبنائه .

عندما أخبر الملك بذلك ، سال مساعده "خواجا عطّار" ، والذي كان معه ، وريس نور الدين . قال له "خواجا عطّار" : "اطلب المساعدة في الدفاع من هؤلاء الذين قالوا لك أن نصيحة خواجا العطّار كانت من عجوز مجنون ، والذين منعوك من عقد السلام ، والآن أنت ترى مدى الضرر الذي لحق بك" .

وصل ضابط السفينة "ميريل" والتجار من السفن الأخرى ، طالبين من الملك الموافقة على السلام قبل أن يحدث ما هو أسوأ ؛ لأنهم يعلمون أنه إن لم يقم بذلك ، سيتم إحراق مراكبهم .

سأل الملك "خواجا عطّار" باعتباره أباً له ، بأن يجد له حلاّ لذلك . نادى "خواجا عطّار" الأرميني وأعطاه خاتماً به ختم عليه اسم الملك ،

وأمر بأن يرفع في الحال علم أبيض فوق قصر الملك ، ووصل الخبر إلى رئيس الضباط بأن الملك والمدينة قد أطاعوه وأنهم لن يقوموا بمخططات أخرى ، وكدليل على ذلك قام بإرسال خاتم الملك ، وأرسل معه ابن أخ لريس نور الدين كرهينة ، والذي وصل إلى هرمز قبل عدة أيام ، والذي رأى العديد من الأراضي عندما كان صغيراً وذهب إلى إفريقيا .

انطلق مع الأرميني بسرعة شديدة إلى الحقول ، ووضع قماشة بيضاء عند طرف السارية ، وذهبوا إلى رئيس الضباط الذي كان قادماً خلال الريف قاصداً المدينة ، ولقد كان هو والضباط مسرورين جداً ؛ لأنهم سمعوا من القوارب بأنه قد رفع هناك علم أبيض فوق قصر الملك كإشارة للسلام .

عندما تم إخبار رئيس الضباط بأن المسلمين كانوا قادمين من المدينة بعلم أبيض أمر الرجال بأن يتوقفوا ، ثم انطلق هو إلى الإمام ؛ لأنه لم يرغب في أن يقترب المسلمون من الرجال كيلا يعلموا كم كان عددهم قليلاً .

أعطاه الأرميني رسالة الملك ، وأعطاه الخاتم والرهينة . أبدا رئيس الضباط غضبه ، قائلاً للأرميني : "لا تأتي إليَّ بهذه الأكاذيب والخدع من المسلمين وإلّا سآمر بسلخك حياً . ارجع إلى الملك ، وقل له بأنني لا حاجة لي بخاتمه أو رهينته ، أحتاج فقط إلى الحقيقة التي تتبعها الأفعال التي تنفذ بعد ذلك . أنا لن أعتمد على كلمته

ولن أكمل ، ولكني سأعود إلى السفينة ، إذا لم تكن قد وصلت الآن كنت سأدخل المدينة بالفعل ، ولن تبقى هناك اليوم صخرة فوق أخرى .

اجعله يبعث إلى سفينتي بعشر رهائن آخرين ، من أهم ما لديه ، ولا تجعله يزعج نفسه باستشارة وزرائه . بمجرد عودتي إلى سفينتي ، ارجع إليّ بالرسالة" .

طلب من كل رجاله الصعود إلى السفن ، وأخذ معه الرهينة ، وعندما كان على متن السفينة ، أذن للضباط بالانصراف للأكل والراحة ، وأن يعودوا له إذا جاءت رسائل من الجزيرة ، ولقد قاموا بذلك ، ثم عادوا إلى رئيس الضباط ، وعندما تحدثوا ، قاموا بلومه على ترك الشاطئ قبل أن يرسل لهم المسلمون الرهائن المضمونين ؛ لأن ذلك الخوف الذي كان في المدينة هو الذي كان سيجعلهم يعطونه كل ما يطلب .

فهم رئيس الضباط بأن الضباط قالوا ذلك فقط ليجدوا مأخذاً عليه ، وتظاهر أنه لم يلاحظ ذلك ، وقال : "أيها السادة ، أعلم جيداً بأننا جميعاً دعونا ربنا ، وقد دعوت الله أكثر من غيري ، بأن يكون لدينا الدافع بألا ندخل المدينة ، لأننا إذا دخلنا المدينة كنا سنضل ، وللضرورة لم ندخل المدينة وعدنا إلى القوارب .

لقد كنت قلقاً جداً حيال ذلك ، وحمداً لله أن الملاك الأرميني قد عاد بإشارة السلام ، والتي ابتهج قلبي لها ، وأعلم

بأن الجميع قد ابتهج . لقد أرانا الله الرحمة ، ودعونا نستلمها جميعاً من يده المقدسة" .

أمر رئيس الضباط بترتيب وتنظيم سطح مؤخرة المركب ، بأن يجلس المسلم ريس عبد الله عند طرف المقعد ؛ لأنه كان بانتظار رسالة من اليابسة ، صل الأرميني ومعه أربعة من المسلمين الكبار والمحترمين ، في أبهى حللهم ، وقدموا أنفسهم لرئيس الضباط بانحناءة كبيرة ، وقد استقبلهم جيداً .

قال الأرميني : "سيدي ، لقد أرسل إليك الملك هؤلاء الرهائن ، عسى أن يكونوا كافين لإثبات الحقيقة التي سيبقيها معك ، وبما أنه قد وعد من قبل بالطاعة ، فقم بإعطاء أوامرك ، وإذا كان هناك أي شيء لم يقم به ، فلا تثق به مرة أخرى ، وافعل برهائنه ما يحلو لك" .

أخبره رئيس الضباط ، والذي بدا غاضباً بأن يخبر الملك بأنه لم يرد رهائن ، وأن عليهم الرجوع لليابسة لأن أفضل الرهائن هي الأفعال ، وعليه أن يرسل في الحال مائة ألف "أشرفي" ، والتي أنفقها الملك على الأسطول والرجال الذين أحضرهم ، وعليه أن يتعهد بالطاعة لملك البرتغال كتابع له ، رافعاً لعلمه فوق قصره ، ثم عليهم مناقشة ما يجب عليهم فعله لاحقاً .

أرسل الرهائن إلى اليابسة مرة أخرى بهذه الرسالة ليثبت أنه كان واثقاً في قوته ، وإذا قام الملك بأي شيء خطأ سوف ينتقم من المدينة ، ولذلك فهو ليس بحاجة إلى الرهائن ، ولقد أذن لهم

بالانصراف باحترام ، رجعوا إلى الملك الذي استمع إلى الرسالة في حضور أوصياء العرش ومستشاريه . بينما كان الأرميني يتحدث إلى "خواجا عطّار" ، قال له ريس نور الدين : "تذكر أنهم في البداية كانوا يتوسلون إليك ، وأنت الآن الذي تتوسل بهم" .

قال الرهائن لـ "خواجا عطّار" : "أنت الوحيد الذي تعطي النصيحة السديدة للملك ، والآن هي أهم من أي وقت آخر ، لقد حل الخراب الكثير في البحر ، وأحذر أنه يمكن أن يحدث المزيد على اليابسة" ، ولقد سعد "خواجا عطّار" عندما سمع الرهائن يقولون ذلك ، وأخبر الملك :

"سيدي ، أصدر أوامرك بأن يتم إرسال المائة ألف أشرفي التي طلبها رئيس الضباط حالاً ، ومن الممكن أن تكون أكثر ابتهاجاً إذا أرسلت مائة ألف أخرى ، بل ومائة ألف أخرى ، إذا كان هذا سينهي هذا الأمر كله وسترحل كل هذه السفن ، لذلك أعطهم كل ما يطلبون منك" .

وضعت النقود في حقائب ، وطلب من الأرميني أن يأخذها ، وأن يقول لرئيس الضباط بأن المدينة ملكه ، وأن الملك أصبح تابعاً لملك البرتغال ، وسيدفع أي جزية يطلبها ، وأن يرسل العلم وسيرفعه بيده شخصياً أينما أراد .

ذهب الأرميني إلى رئيس الضباط بالنقود والرسالة وقدمها له ، ورد رئيس الضباط إلى الملك أنه يجب عليه أن يستعد ، هو وأهل

مدينته وأوصياء العرش ، وذلك من خلال احتفال كبير لاستلام علم ملك البرتغال كدليل على الطاعة ، كي يراه أهل المدينة وكي يكونوا جميعاً في أمان .

عاد الأرميني إلى الملك بهذا الرد ، والذي فعل كل ما قد أمر به وأطاعه في كل شيء كالصبي . أخبر رئيس الضباط الرئيس البحري بأن يضع النقود في خزانة في غرفته ، وأمر الضباط بأن يكونوا مستعدين ومتأنقين ، وأن تُكسى القوارب بالرايات لحماية العلم حتّى الشاطئ ، وأن يجهز مدفع صغير لتحية العلم عندما يعطي الأمر بذلك . ذهب الضباط متمتمين بأنه سيكون معقولاً إذا قام بتقسيم بعض النقود بينهم ، كما هو الحق فقط .

وضع "فرانسيسكو دي تافورا" والذي كان صديقاً لرئيس الضباط حداً لذلك ، قائلاً بأنهم لا يجب أن يتحدثوا بهذه الطريقة ، وهم يعلمون أن الكثير والكثير سيأتي من هرمز ، وإن لم يفعل رئيس الضباط ما يظنون أنه الحق عندما ينتهي كل شيء في هذه الحالة ، فيمكن أن يشتكوا له بالمنطق الصحيح ، وهو ما لا يملكونه الآن ، وقد استمروا في الجدال حتّى تفرقوا وذهبوا إلى سفنهم .

أمر رئيس الضباط بأن يصنع العلم جيداً من الدمقس الأحمر والأبيض ، بالإضافة إلى الخمسة دروع ، والأذرع والتاج المصنوع من التفتا البيضاء والزرقاء ، وأن يكونوا جيدي الصنع ، وكل جانب يصل طوله إلى ذراع ، وبه حبال بيضاء وزرقاء ، ومثبت على رمح

من الحديد مطلي بالقصدير ، وفي اليوم التالي أمر بأن تصبح قواربه جاهزة بالرايات والسجاد عند مقدمة المركب ، ودخل إليه "جورج باريتو بيريرا" "George Baritto Periera" بالعلم مصطحباً معه "دوم أنطونيو" و"نونو فاز دي كاستيلو برانكو" ، و"براس دي سيلفا" ، و"دوارتي بيريرا" "Duarte Periera " ، و"ديوجو جيل دي ميلو" "Diogo Jill de Milo" و"ديوجو دي فريتاس" ، والرئيس البحري ، و"جواو دي ميلو" "Joao de Milo" وبعض النبلاء وأصحاب الرتب ، وكلهم كانوا في ملابس الاحتفال .

جاء الضباط أيضاً في قواربهم ، مجهزين جيداً وفي أبهى حللهم ، ومعهم العديد من الرايات ، وكانت السفن أيضاً مكسوة بالأعلام . انطلقوا باتجاه الشاطئ نافخين الأبواق ، وعندما غادروا السفن قاموا جميعهم بالتحية بمدافعهم . كان الأرميني على الشاطئ مع "خواجا عطّار" وريس نور الدين ، جميعهم في ملابس الاحتفال ، وكان هناك العديد من الأشخاص والأدوات الموسيقية والاحتفالات ، والعديد من الخيول المسرجة .

نزل أوصياء العرش إلى حافة المياه ، وتم حمل "جورج باريتو" بالعلم بواسطة البحارة ، والذين وضعوه على اليابسة مع ثلاثين رجلاً . هبط من القوارب الأخرى نبلاء مرتدين أحسن الثياب ، وأعطوا "جورج باريتو" حصاناً أصيلاً مجهزاً بالسلاح جيداً لامتطائه ، وصعد أوصياء العرش ، وتم إعطاء الخيول لكل النبلاء الذين كانوا مع العلم ، وتم إعطاء صبيانهم الرماح مع أعلام البطولة ودروعهم ،

وسبقتهم أصوات الأبواق ، وكان كل الناس أمامهم والذين كانوا مكتظين في الشوارع .

قد دخلوا الشارع الرئيس في المدينة مع "جاسبار رودريجوس" ، المترجم والذي كان يقود الطريق ، وذهبوا إلى المسجد الكبير للملك والذي كان بالقرب من الساحة ، وهناك اتجهوا إلى قصر الملك وكان معهم العديد من سكان المدينة والذين اختنق بعض منهم .

كان الملك في ثياب رائعة ، وكان في الشرفة والتي تطل على ساحة كبيرة في القصر حيث نزل الجميع وصعدوا السلالم حيث يقف الملك . استلم العلم في يديه عند مدخل القاعة ، وساعده "جورج باريتو" في حمله .

صعدوا إلى السطح المنبسط للقصر ، حيث يضع الملك العلم في مكانه بيـده ، وعندما تم رؤيته من السفن تم إطلاق تحية أخرى بالمدافـع ، وبالصرخات العالية ، وكذلك فعل كل الناس على اليابسة ، ثم أعطى الملك "جورج باريتو" قطعة من "البروكار" الفارسي ، ثم أذن له وللباقين بالانصراف ، ولأوصياء العرش وكل الأشخاص الذين كانوا يحمونهم حتّى يعودوا للقوارب .

صعدوا جميعاً وعادوا إلى السفن ، حيث ترك الضباط رئيس الضباط وعادوا إلى سفنهم ، ورأوا الأرميني قادماً ، ومعه اثنان من "التيرادا" محملين بالخرفان والدجاج وأقفاص مملوءة بالحجل الطائر ، وسلال من

الرمان والسفرجل والتين والعنب ، والتي أمر رئيس الضباط بأن يتم تقسيمها بين الضباط ، بينما أرسل الشكر إلى الملك .

في تلك الليلة أرسل رئيس الضباط إلى الضباط والنبلاء الذين كانوا معهم في سفنهم لهذا السبب ، وجلس معهم جميعاً للتشاور ، وتحدث عن الجزية التي يجب أن يطلب من ملك هرمز دفعها ؛ لأنه كان متأكداً أنه مهما طلب سيوافق عليه ، ولكنه أراد أن يحدد مبلغاً معقولاً ؛ كيلا ينكره أو يرفض أن يعطيه ، وعندما تحدد الجزية ، سيحرر وثيقة إقطاعية وسيوافق على باقي الأشياء المطلوبة ، كي يكون كل شيء مسوى للأبد .

كان هناك نقاش كثير حول ذلك ، وكان لكل واحد رأي مختلف . قال البعض أنه يجب طلب الكثير ، كيلا يكون الأمر غير محدد ، وقال البعض أنه يجب طلب القليل ، كيلا تكون تسوية سيئة .

استمع رئيس الضباط إلى كل ذلك وأخفى مشاعره ، وبعد الكثير من الجدال قال بأن رأيه هو أنه يجب أن يحدد القليل كي يكون من السهل الدفع وكيلا يبدو جشعاً ، وأن الاتفاق الذي قام به سوف يأخذ بعين الاعتبار بما يوافق عليه الملك أو حاكمه الهندي ، وبذلك يمكنه طلب أشياء أخرى والتي تساوي الضعف .

رأى أنه من العدل أن يدفع خمسة عشر ألف "أشرفي" سنويا نقداً كجزية ، وأن بضائع الملك التي تأتي إلى هناك للمتاجرة بها

بواسطة الوكيل التجاري ، عن طريق البيع والشراء ، يجب أن تكون معفية من أي ضرائب ، وأن البضائع القادمة من البرتغال ، التي يتم المتاجرة بها هناك يجب أن تكون معفية من الضرائب عند الدخول ، وأما التي تخرج فيجب الدفع لها .

هذه المستحقات قد تصل إلى خمسة عشر ألف "أشرفي" أخرى سنويا ، وأن ما يتم إعطاؤه نقداً سيكون كافياً لإقامة قلعة بها ضابط ومأموران وأربعمائة رجل ، مع أجورهم ووسائل معيشتهم ، ثلاثمائة على اليابسة ومائة في البحر .

عندما سمع الجميع بذلك لم يكونوا واثقين بأن كل شيء سيحدث كما وصف الملك ، ولكنهم قالوا بأن الأمر بدا جيداً لهم . أمر رئيس الضباط "جواو ايستاو" بأن يحرر وثيقة ، ووقعوا عليها كلهم ، بهذه الاتفاقية ، وفي حضور الجميع ، طلب من "فرانسيسكو دي تافورا" بأن يكون بارعاً كفاية للذهاب إلى الشاطئ وأن يقدمها للملك ، ومع بعض الملاحظات التي سيقدمها له .

وافق "فرانسيسكو دي تافورا" تلقائياً ؛ لأنه كان يعلم أنه لا يوجد من يهتم بالخير لرئيس الضباط بقدر ما كان هو ، وأخبر رئيس الضباط بأنه سيقوم بما يأمره بإخلاص وذلك باسم خدمة الملك . أعطاه رئيس الضباط الملاحظات ، وذهب إلى الشاطئ على قاربه مع الرئيس البحري و"جاسبار رودريجوس" المترجم ، وعندما وصلوا إلى الشاطئ تم إبلاغ الملك بأن الضابط في طريقه ، وأمر بأن يتم استقباله .

ذهب ريس نور الدين إلى البوابة وأخذه إلى الملك ، وقد أبدا الكثير من الاحترام وجعله يجلس مع "خواجا عطّار" وريس نور الدين ورئيس الوزراء وكل مستشاريه . أخبر "فرانسيسكو دي تافورا" الملك بأنه أحضر رسالة من رئيس الضباط والتي سيسلمها كي يسمعها الجميع ، وقال الملك أنه مسرور أنه يجب أن يقول ما قد أمر به ، ثم قال "فرانسيسكو دي تافورا" :

"خواجا عطّار ، وأنت ريس نور الدين ، بما أنكما كبار هذه المملكة وأوصياء العرش وأنتم رجال حكماء وصالحون فإن أي شيء تقومون به سيكون جيداً دائماً وأكيداً إلى الأبد ، لأن الملك ظفر الدين الحاضر هنا قد وعد بالطاعة لملك البرتغال ، سيد البحار والهند ، وبذلك فهو تابع له ، وكحليف جيد يجب عليه حماية المدينة والدفاع عنها وكل موانئها من أي من يحاول إيذاءها .

أفضل وسيلة للدفاع عن المدينة هي بناء قلعة ، مع وجود ضباط وأسطول على البحر ، حتّى يكون كل التجار الذين يأتون إلى هذه المدينة وسفنهم أحراراً ، سيدفع للقلعة والضباط والرجال بها والأسطول الموجود في البحر خمسة عشر ألف "أشرفي" سنوياً ، ولا يريد أي جزية أخرى لتدفع ، وسيبلغ ملك البرتغال بذلك .

بالإضافة إلى ذلك ، أن البضائع التي يمكن أن يبيعها أو يشتريها الوكيل التجاري هنا ستكون معفية من الضرائب ، وستكون بضائع البرتغاليين معفية فقط من ضرائب الدخول . كونوا مسرورين بمنح

هذه الحرية ؛ لأنهم بذلك سيخدمون كل من يأتي إلى هرمز ، وهم يموتون في سبيل خدمتهم ، وهي خدمة ملكهم وسيدهم .

هو يطلب منكم القيام بذلك ، إذا كان ذلك يرضيكم ، وكانت تلك هي رغبتكم ، وهو يطلب منكم إرسال رسالة موقعة من قبلكم ومن قبل أوصياء العرش ، والمستشارين ، والتي تقر بأنكم ومن سوف يأتون بعدكم ستكونون ملتزمين بذلك ، وكل ذلك مكتوب في هذه الورقة ، وموقع من قبل رئيس الضباط ، والذي سيفعل ما سيقول ، والأمر كله يقع عليه" .

لقد كان كاتب العدل هناك أيضاً ليكتب رسالته إلى رئيس الضباط ، إذا كان سيكتبها ، ولقد كان مع "جواو ايستاو" الملاحظات التي أعطاها إياها رئيس الضباط حول كيفية تحرير الخطاب ، ولقد قال له "خواجا عطّار" بأن كل شيء سيسير كما تمنى رئيس الضباط ، والتي كانت جميعها معقولة ، ثم غادر "فرانسيسكو دي تافورا" عائداً .

لقد كان الملك ورجاله مسرورين عندما رأوا أن ما يطلبه رئيس الضباط كان قليلاً ، لأن تكلفة جلب أسطول إلى هنا ستكون أكثر من ذلك بكثير ، وبعد الكثير من النقاش قرروا بأنه يجب الاتفاق على كل شيء ، ولقد تم كتابة الخطابات قبل حدوث أي شيء .

كتب خطاب الملك على صحيفة من الورق الذهبي ، وكانت ملفوفة على شكل مخطوطة ورقية ، وكانت الحروف مكتوبة باللغة الفارسية ، وهي اللغة التي يتم التحدث بها

في المدينة ، ولقد وقع عليهـا الملك وأوصياء العرش وأربعة من الرجال المسؤولين في المملكة .

كان خطاب رئيس الضباط مكتوباً على ورقة بيضاء فارسية ، سميكة وشديدة البياض ، بحروف من الذهب ، أحدهما بالبرتغالية والأخرى بالفارسية ، ولقد تم كل ذلك بحلول بعد ظهر اليوم التالي ، عندما عاد "جواو ايستاو" من الشاطئ ، وأعطى فكرة لرئيس الضباط عن كل ما قد تم ، وأخبره أن الملك كان في انتظار سماع ما إذا كان سيتم توصيل الخطابات أو إذا كان سيتم إرسالها .

أرسل رئيس الضباط "افونسو لوبيز دا كوستا" و"فرانسيسكو دي تافورا" و"دوم أنطونيو" و"جواو دا نوفا" للذهاب إلى الشاطئ لاستلام الخطابات من يد الملك ، حتّى يرى توقيعه وتوقيع أوصياء العرش ، ويسألونه إذا كان قد قام بذلك بإرادته الخاصة ، وبأن يستلموا من الملك كل الضمانات التي يظن أنها ضرورية .

لقد تم ذلك ، ذهبوا إلى الشاطئ ، وتم استقبالهم بواسطة أوصياء العرش والعديد من الأشخاص ، ورحب بهم الملك عند مدخل القاعة ، وعندما جلسوا جميعاً في الشرفة ، قرأ "جاسبار رودريجوس" المترجم خطاب الملك ، والذي سأله إذا كان راضياً ، وتم كل شيء وفقاً لرغبة الملك وأوصياء العرش ، ولقد قالوا جميعهم أنهم سيتقيدون بذلك إلى الأبد ، وقال رئيس الضباط بأن عليهم أن يحلفوا بذلك ، وقد حلفوا على القرآن ، وذلك وفقاً لعاداتهم .

بعد ذلك وقع عليها الملك وأوصياء العرش والباقون بسرور شديد ، وأعطى رئيس الضباط لكل ضابط قطعة من القماش المطرز الفارسي وست لفات من قماش الحرير الثمين ، ثم غادروا . أرسل الملك ريس نور الدين إلى رئيس الضباط ؛ ليعطيه حزاماً على الطراز الإسلامي به سيف وخنجر ، وكانت جميعها مشغولة بالذهب والأحجار الكريمة ، والتي كانت تساوي أكثر من خمسة آلاف "أشرفي" ، وعشرين قطعة من الستان ، والدمقس الفارسي ، ولقد شهد توقيع رئيس الضباط واستلم الخطابات .

لقد قدم أكثر من أربعين من التجار الذين تم الاستيلاء على سفنهم التماساً إلى الملك ليطلب من الرئيس الضباط تحرير سفنهم . لم يكن الملك عازماً على القيام بذلك ، مجيباً أنه لم يكن يعلم إذا كان رئيس الضباط سيكون غاضباً ، ولكن يجب عليهم الذهاب إليه لطلب الرحمة ، ومن جانبه سيقوم بتقديم التماس قوي ، وقد أخبر عبد الله أنه عندما يستلم الخطابات عليه أن يسأل بالنيابة عنه عن سفن التجار .

لقد اتفقوا بينهم على إرسال أربع زعماء من بينهم إلى رئيس الضباط بالنيابة عنهم جميعاً وأن يفعلوا ما يمكنهم لتحرير السفن ، ولقد جهزوا هدية بينهم إلى رئيس الضباط مكونة من قطع ثمينة من الذهب ، والأحجار الكريمة ، والتي كانت تساوي جميعاً عشرة آلاف "أشرفي" ، والتي أخذوها في خزانة .

استقبل رئيس الضباط عبد الله بلطف كبير بحضور الضباط ، وأجلسه بينهم ، وقام بتقديم الخطابات ، والتي تمت قراءتها ، ووقع عليها فقط رئيس الضباط . أراد المسلم أن يوقع عليها الضباط أيضاً ، ولكن رئيس الضباط أخبره بأنه يوقع باسم ملك البرتغال ، ولا يمكن لأحد أن يوقع معه ، ولقد كان هذا كافياً لإرضاء المسلم ، وأخذ الخطابات .

أعطى رئيس الضباط الهدية المقدمة له من الملك ، وقال له إنه قبلها على سبيل الصداقة ، وأنه قد أعجبته الأسلحة سيرسلها للملك سيده ، والذي سيسر بها حيث إنها من ملك صالح والذي كان صديقه وتابعه .

أمر الرئيس البحري بجمع كل شيء ، مما أشعل شعور الحسد داخل نفوس الضباط ، وقالوا بين بعضهم البعض أنه إذا كان قد طلب المزيد من الملك فسوف يعطيه المزيد .

سمع رئيس الضباط ذلك وقال لهم : "إذا ظننتم أنه من الخطأ تسوية هذا الأمر سلمياً ، ماذا كنتم ستقولون إذا طلبت منكم المزيد ولم نتوصل إلى التسوية الجيدة التي توصلنا لها الآن؟ إن هذه هي طبيعة الإنسان ، فالبعض يرى المنزل قصيراً ، والبعض الآخر يراه طويلاً . دعونا نشكر إلهنا على الرحمة العظيمة التي منحنا إياها" .

قدم عبد الله لرئيس الضباط تجار السفن ، قائلاً بأن الملك أمرهم بتقديم التماس قوي بحماتهم ، أعطوا رئيس الضباط هداياهم

الثمينة ، ملقين بأنفسهم تحت قدميه متوسلين بالشفقة ، طالبين بأن يكون الخراب الكبير الذي لحق بهم كافياً كنتيجة للخطأ الذي قاموا به بالتجرؤ على القتال ضد سفنه،

لقد كان رئيس الضباط عازماً على ألا يأخذ أي شيء منهم ، وأن يرد لهم هداياهم ، وقال لعبد الله أنه يجب أن يخبر الملك بأنه ندم على أنه كان غير قادر على فعل ما طلبه منه ، عندما قام بإعطاء السفن إلى الضباط والسادة الذين استولوا عليها برماحهم في محاربة من سعوا لإيذائهم ، ولذلك يمكنه التوسط في هذه المسألة ؛ لأنه يجب على التجار التفاوض مع الضباط وسيساعدهم قدر المستطاع .

حزن التجار حيال ذلك ، وسعد الضباط عندما رأوا بأن رئيس الضباط يعطيهم السفن . عندما غادر المسلمون ، مكثوا ليناقشوا مع رئيس الضباط ما الذي يجب عليهم فعله مع التجار إذا أرادوا الوصول إلى اتفاق معهم .

قال لهم رئيس الضباط إنه لا يجب عليهم القيام بأي اتفاق إلّا إذا قام هو بدور الوسيط ، وسيسوي معهم ما يعتقد أن التجار يمكن أن يقدموه مقابل السفن ، قد وافقوا على ذلك ، وذهبوا إلى سفنهم .

في اليوم التالي جاء الأرميني وعبد الله ومعهم أصحاب السفن ، وذهبوا على ظهر السفن للتحدث مع الضباط ، ولكنهم لم يسمحوا لأي ممن كان على السفن كيلا يروا كم كان عددهم قليلاً . سأل

كل ضابط ثلاثين أو أربعين "أشرفي" للسفن ، ولكنهم قالوا إن عليهم الذهاب إلى سفينة رئيس الضباط ويمكنهم التفاوض هناك .

اجتمع الضباط سوية ، وصعدوا على متن السفينة قبل المسلمين ، كي يبدو الضباط مع من اصطحبوهم ، وكان هناك أشخاص كثيرون على متن السفينة ، عندما كانوا جميعهم على سطح مؤخرة السفينة ، الضباط والمسلمون وعبد الله والأرميني والربان و"جاسبار رودريجوس" المترجم ، كان هناك العديد من التقديرات المقترحة لفدية السفن .

طالب الضباط في النهاية بمائة وخمسين ألف "بارداو" ؛ لأنه كان هناك أكثر من أربعين سفينة ، بالإضافة إلى أكثر من عشرين واحدة تم إغراقها ، قام المسلمون بثورة كبيرة حيال المبلغ المالي المطلوب بعد الخسارة الكبيرة التي لحقت بهم ، لذلك انتظروا حتّى يخرج رئيس الضباط من غرفته ، ولقد خطط لكل ذلك كي يحدث ، وجلسوا مع الضباط ، وناقشوا أسعار السفن .

وافقوا على ما سوف يقوله رئيس الضباط ، ثم تحدث إلى المسلمين والأرميني والمترجم على انفراد ، وقال لهم بأنه قد أرسل لمعرفة ما تبقى من السفن ، وقد علم بأنها كمية كبيرة وهو ما يساوي أكثر من مائة ألف "بارداو" ، ولأنه لم يتمن أن يظنوا أنه يخدعهم ، يجب عليهم إرسال شخص ما لبيع السفن كلها مع أخذ ملاحظات دقيقة ، ثم يعود ، ثم عليهم معرفة ما يجب عليهم دفعه .

تم ذلك على الفور ، زار أحد المسلمين كل السفن ورأى أن هناك

ثروة هائلة بها ، ثم عاد وتحدث مع الآخرين ، ثم قالوا إنه يجب على رئيس الضباط أن يحدد السعر وعليهم هم الدفع . تناقش الجميع سوياً ، وبعد أن قدّر الضباط مبلغ مائة وخمسين ألف "أشرفي" ، توسل إليهم رئيس الضباط بقبول مائة ألف "أشرفي" . تظاهر الضباط بأن حقهم مهضوم ، وكان المسلمون راضين .

بعد هذا الاتفاق ذهبوا إلى الشاطئ ، وأحضروا النقود على هيئة عملات "أشرفية" و"تانجات" ذهبية ، والتي أمر رئيس الضباط بأن يتم إعطاؤها للضباط ، والذين سلموها إلى "بيرو فاز دورتا" للرئيس البحري للحفاظ عليها ، وعاد المسلمون كل إلى سفينته . سعد الضباط بالنقود ، وبالهدايا التي استلموها ، والتي كانت أفضل غنيمة حصلوا عليها ، كما سعد الربابنة ومرشدو السفن وكل الرجال .

قالوا لرئيس الضباط بأنهم سيكونون مسرورين إذا قام بتقسيم النقود كي يتجنبوا النزاع ، وقال بأنه سيقوم بذلك من أجلهم ، وإذا ذهبوا لتناول الطعام ثم عادوا ، سيرى أمر هذه القسمة ، وقد قاموا بذلك ، وأعطى رئيس الضباط حساباً مكتوباً للقسمة قائلاً بأنه يرى بأن هذا هو أفضل شيء ، إذا وافقوا عليها ، أي إن كل واحد منهم سوف يحصل على خمسة آلاف "أشرفي" ، وهو ما يصل إلى ستين ألف "أشرفي" ، أما الأربعون ألف الباقية ستقسم إلى حصص متساوية ، وفقاً لقوانين تقسيم الغنائم .

بالنسبة لصبية السفينة ، يجب أن يأخذ كل منهم جزئين وأن يأخذ

الخادمان جزءاً ، وأن يأخذ البحارة مقدار ما يأخذه الصبيان ، وكذلك المقاتلون ، ورجال الدين ، والبحارة المسؤولون عن المعدات والحبال ، والبحارة الأساسيون ، فسيأخذون النصف كالبحارة أيضاً ، وعرفاء الملاحين والبحارة المتواجدين على قمة الصاري سيأخذون بقدر ما يأخذه اثنان من البحارين .

سيأخذ المدفعيون قدر ما يأخذه اثنان من البحارة ، والموظفون المسؤولون عن الأمن وربابنة السفن ومرشدو السفن والنبلاء سيأخذون مثل ما يأخذ عشرة بحارة ، والأشخاص الذين جرحوا في القتال نصف ما يحصل عليه النبيل ، والنبيل الجريح سيحصل على ضعف حصته .

تم كتابة كل ذلك ووضع بالترتيب ، كان الجميع راضين ، خاصة الضباط ، ولأنه كان هناك القليل من الأشخاص والكثير من النقود ، كانت الحصة الواحدة أكثر من عشرة "أشرفي" وهو ما أسعد الجميع ، وبعد انتهاء الاتفاق أحضر الأرميني لرئيس الضباط هدية من المسلمين أصحاب تلك السفن ، التي ابتلوا بها .

## الفصل السابع : كيف أنّ بعد تسوية كل شيء كما أراد رئيس الضباط ، كان أمره ببناء القلعة ، ونزاع الضباط مع رئيس الضباط حول بناء القلعة من عدمه .

بعد تسوية كل شيء ، أرسل رئيس الضباط رسالة إلى "خواجا عطّار" بأنه يريد المغادرة إلى الهند ، ولأن اليابسة والبحر هما وسيلتا الدفاع عن المدينة وأن مملكة هرمز الآن تحت مسؤولية ملك البرتغال ،

فإن عليه أن يترك ضابطاً ، ومعه مقاتلون ممن يمكنهم الذهاب إلى البحر بمراكب مسلحة ، وهي "الفوستا" "Fosta" والتي سيرسلها نائب الملك لحماية الموانئ ، ولأنه يجب أن يكون هناك أيضاً وكيل تجاري متمركز ومحطة تجارية للبضائع التي قد تأتي من الهند ، كان من الضروري بناء منزل منيع عند حافة المدينة بالقرب من قصر الملك ، حتّى يكون البرتغاليون بالقرب من الملك وكي يكون قادراً على الاعتناء بهم ، كتابعين في خدمته .

كان "خواجا عطّار" متشوقاً لرؤية أسطولنا مغادراً هرمز ، وبعد أن تحدث إلى الملك عن نواياه وأفكاره السرية ، أمر بإرسال رسالة إلى رئيس الضباط ، قائلاً بأن المدينة وكل شيء ملكه ، وبما أن كل شيء في سلطته فإنه يمكن أن يقوم بما يريد ، ثم تناقش رئيس الضباط مع الضباط .

شعروا بأنهم عملوا بما فيه الكفاية ، وأرادوا الذهاب إلى الهند ، وبذلك أصبحوا هم ضد رئيس الضباط في هذه المسألة .

قالوا بما أنه احتل وظفر بمملكة هرمز ، ولديه وثيقة تثبت أنها تابعة ، يجب أن يكون مسروراً بهذا الإنجاز الكبير وبالمال الكثير الذي أصبح ضمن نفقات الملك ، ويجب أن يذهب إلى نائب الملك ويقدم له تقريراً بذلك ، ثم إذا بدا الأمر جيداً له يمكنه إرسال ضابط ومعه رجال وأسطول لبناء قلعة وترك الأسطول في البحر ، وسيدفع هو تكاليفه .

قالوا إن بناء قلعة الآن سيكون عملاً شاقاً وسيتطلب الوقت

الكثير ، وعندما سيتم بناؤها سيضطرون إلى ترك مئتين من الرجال على الأقل ، بالأسلحة والذخيرة ، والتي لا يملكونها ، وإذا تركت القلعة والرجال لن يكون لديهم أسطول ليبقى معهم ؛ لأنه لا يمكن ترك السفن حيث إنها لم تعد صالحة للبحار ، واذا تم بناء القلعة ، فلن يكون لديهم قوة في البحر .

لقد كانت ضماناً هناك حتّى إذا أراد المسلمون الثأر من أي خطأ حدث من قبلهم ، واذا قتلوا كل البرتغاليين سيكون لديهم قلعة جاهزة لهم ومسلحة جيداً بالمدافع للدفاع عنهم عندما يعود الأسطول للانتقام .

إذا لم يكن لديه تفويض من الملك ببناء قلعة فلا يجب عليه القيام بذلك ، وبما أنهم اتفقوا جميعاً على ذلك ، فقد طلبوا منه باسم الملك بألا يقوم ببناء قلعة وألا يعطيهم مهمة إتمام هذا الأمر من أجل حمايتهم ، ومن ثم سيقومون بما يأمر به .

عندما سمع رئيس الضباط بذلك وأن كل الضباط قد وافقوا ودعموا ذلك ، جهز لهم خطاباً طويلاً ، وقال بأنه أعار اهتماماً لكل ما قد قيل ، ثم أراهم تفويضه ، قائلاً إنه يجب عليهم أن يسمعوا نقطة واحدة فقط به ، وأراهم إياه ، وقد كان مكتوباً من عدة فقرات ، وفي النهاية كانت آخر فقرة تقول :

"إن كل ما يتضمنه هذا التفويض ، هو أن كل ما تراه يا صديقي أفونسو دالبوكيرك سيكون الأفضل في خدمتي" .

عندما تم قراءة هذه الفقرة قال لهم رئيس الضباط : "أيها السادة ، لقد انتصرتم أنتم وأنا بعون إلهنا ، وكسبنا الجزية من هذه المملكة كما ترون ، ولكننا لم نقم بشيء ، وسيضيع كل عملنا هباء إذا لم نقم بحراسة ما ربحنا ، لنحافظ عليه ونحمه حتّى نعززه ، وبالنسبة للصعوبات التي ذكرتموها ، حول قلة الجنود الذين سيتواجدون في القلعة ومن عدم وجود أسطول ، أقول بأن هدفي هو بناء القلعة بأقوى ما يمكن ، وأن نستخدم السفن التي لدينا هنا لحمايتها .

يمكنني إرسال سفينة واحدة فقط إلى الهند لطلب وإحضار ما هو مطلوب لضمان أننا لن نخسر ما قد كسبناه بعد الكثير من العناء ، وهو أفضل ما نملك في الهند في الوقت الحالي . لقد كلفني الملك بمسؤوليته قائلاً بأنه فوق كل شيء في تفويضه يجب أن أقوم بما أراه الأفضل لي ، ولم يقل بأنني يجب أن أقوم بما تنصحون به ، لذلك فأنا أعرض وأوضح كل شيء لكم ، وأطلب منكم أن تساعدوني بالقيام بذلك ، وهو ما يبدو لي مهما لخدمة الملك سيدنا" .

دهش الضباط عندما رأوا أن رئيس الضباط كان عاقداً العزم ، ولقد ظنوا أنه أراد من بناء هذه القلعة الاستبداد والعمل الشاق ، ولقد استمروا في تكرار ذلك ، بينما أصر رئيس الضباط على بناء القلعة ؛ لأنهم أصدقاء فإن فكرة أصدقائهم تبدو لهم جيدة ، وقد كان هناك العديد من النبلاء الذين اعتقدوا أن نية رئيس الضباط كانت حسنة ، ولقد ثبطت همتهم لأن لا أحد من الرجال أراد العمل ،

ولقد تذمر كل الضباط كثيراً داخل سفنهم بسب رئيس الضباط ، قائلين إنه يريد بناء قلعة بالرغم من رفض الجميع والتي لم يأمر الملك ببنائها ، ولقد كانت إرادته الخاصة هي التي دفعته ببناء القلعة .

سيموت الناس من الإفراط في العمل ، وعندما ينتهي بناء القلعة سيحتلها ، ويجعل من نفسه سيداً على المدينة ، وسيأخذ منها ما يحلو له من الأموال ، وبأنه يملك مائة ألف "أشرفي" احتياطي ، والتي أعطاها إياه الملك ، والتي ينبغي تقسيمها بينهم جميعاً ، ولكنه احتفظ بها لنفسه ، وأعطاهم فقط الأموال التي دفعها التجار للسفن ، وذلك ليجعلهم سعداء ، ولكنه يمتلك سراً أكثر من ذلك ، وقد حصل على العديد من الرشاوي .

لقد قالوا العديد من هذه الأشياء والتي أغضبت الرجال ، وأثارت الكره ضد رئيس الضباط ، حالفين ومتوعدين بأنهم لن يضعوا أيديهم في أي عمل حتّى يتم إعطاؤهم حصصهم أولاً من كل الأموال التي توجد لديه ، ووافقوا على أن يكونوا صوتاً واحداً في ذلك ، وبذلك أصبح كل الرجال ضد رئيس الضباط ، لأن الملك قد أمر رئيس الضباط بالاستمرار مع الأسطول إلى "رأس غاردافوي" .

حيث أرادوا أن يأخذوا الكثير من الغنائم ، تقابل الضباط سوية وقاموا بالتماس كتابي إلى رئيس الضباط طالبين منه بأن يذهب أولاً إلى المضائق ، بما أن الملك قد أمره بالذهاب إلى هناك ، وألا يقوم بما

لم يأمر به الملك ، فهو لم يأمره ببناء قلعة ؛ لأنه حتّى إذا قام ببنائها فلا يوجد لديهم الرجال الكافين لصيانتها .

تم إبلاغ رئيس الضباط بهذا الالتماس قبل أن يستلمه ؛ لأن "فرانسيسكو دي تافورا" لم يرد التوقيع عليها ، ولا حتّى "جواو دا نوفا" ، والذي قال بأن هذه الالتزامات لا تخصه ؛ لأن عليه الذهاب إلى الهند في الحال وأنّ عليه الرحيل .

سر الضباط بذلك ، وشجعوا "جواو دا نوفا" لطلب الإذن بالذهاب إلى الهند ، لأن الوقت قد حان ولا يمكنه إنكاره ، عندما يرحل "جواو دا نوفا" ، سيكون الأسطول أصغر وسيقل عدد الرجال وسيكون طلبهم أقوى ، ولذلك قرروا ألا يقوموا به حتّى يتم إرسال "جواو دا نوفا" إلى طريقه ، وتم إبلاغ رئيس الضباط بكل ذلك .

في اليوم التالي قال للضباط بأنه لديه بالفعل العديد من البنّائين والعمال للقيام بالعمل ، والذي سيدفع لهم كيلا يجعل الجنود يقومون بالعمل ، وكل ما يجب عليهم القيام به هو إرسال البحارة إلى "توروم باج" "Turum Pag" ، حيث يوجد مقلع الأحجار .

حمل الأحجار إلى القوارب وحملها إلى موقع العمل ، وكي يتأكد أنه لا يوجد أي اضطراب ، سيذهب الضباط مع قواربهم وجنودهم لحماية القوارب حتّى يتم التحميل وسيقوم كل يوم ضابطان بذلك ، وسيأخذ هو أيضاً دوره كالآخرين كي يعمل الجميع بالتساوي .

بدأ الضباط في الجدال والنقاش مرة أخرى ، أخفى رئيس الضباط مشاعره وتحدث بطريقة ودودة ، وهو ما كان أسوأ ، وأراد أن ينتهي الموضوع كله بشكل جيد ، وعندما أدرك أن هذا الأسلوب اللين لم يكن ناجحاً قال لهم :

"أيها السادة ، أرى بأن هذا العمل لا يسعدكم ، لأن كل شيء يقام به بإكراه لخدمة الملك لا يعد عملاً عظيماً ، ولذلك السبب أنتم تواجهون مصاعب في هذه الخدمة بالذات ، والتي ستضمن له سيادة هذه المملكة التي انتصرنا عليها من أجله .

سيتم ذلك ببناء قلعة قوية جداً في هذه المدينة ، والتي يمكن أن أقوم بها من دون أن أجعل رجالي يعملون ، لأني سأدفع للكل لا من نقود الملك ، ولكن من المائتي "أشرفي" التي دفعها ملك هرمز كثمن لهذا الأسطول ، بمساعدة إلهنا أتمنى أن يتم بناء القلعة بأقل من نصف ذلك ، وسأرسل الباقي لنائب الملك لأجل الفلفل ، وسيأخذه "جواو دا نوفا" إليه .

في الوقت الحالي سيتم إصلاح هذا الأسطول ؛ لأنه سيكون هناك حاجة إليه بعد وقت طويل في الماء ، وعندما تكون القلعة جاهزة للدفاع عن نفسها ، وعندما تكون السفن في حالة جيدة ، سأذهب معها إلى "رأس غاردافوي" ، حيث يمكننا الاستمتاع في البحث عن غنائم .

لذلك أعلمكم بأنه إذا كنتم تظنون بأن هذا عمل كثير فيجب

عليكم أن تسلموني سفنكم وسأضع بها ضباطاً يسعدهم القيام بخدمة الملك فيما أمرهم به" .

رد كل رجل كما يشاء ، وأثناء تحدثهم جميعاً ، تحدث "جواو دا نوفا" ، كما تم الاتفاق عليه سابقا ، إلى رئيس الضباط قائلاً :

"سيدي ، أمرني "تريستان دا كونها" بأن آتي معك وأحقق شيئاً جيداً ، وهو أن أقوم بإرسال الأخبار له ، ثم أذهب إلى الهند لأبحث عن السفن القادمة من البرتغال ، وبما أنك قد حصلت على شرف هذا العمل البطولي وهو الفوز بمملكة هرمز وجعلها تابعة لسيادة البرتغال ، وهو الخبر السار الذي أتمنى أن يكافئني عليه نائب الملك والملك سيدنا ، سيكون الأمر جيداً جداً إذا أعطيتني الإذن بالذهاب إلى هناك ، لأني إذا انتظرت المزيد فلن أصل في الوقت المحدد كي أكون قادرا على الذهاب إلى البرتغال" .

بدا رئيس الضباط مكتئباً جداً وظل صامتاً لبعض الوقت ، ثم أجاب : "سيدي ، "جواو دا نوفا" ، سامح الله من نصحك هذه النصيحة غير الصائبة بسؤالي المغادرة وأنا في هذه الصعوبات وأحتاج إلى أكبر قدر ممكن من الرجال والسفن .

إذا أخذت هذه الأخبار الآن ، ستكون زائفة وفارغة ؛ لأنها لم تكتمل بعد ، وهو أنه يجب القيام بما أريده الآن وهو بناء قلعة ، لكي أجعل كل شيء آمناً وكيلا نخسر كل ما كسبناه بهذا الجهد .

يظن هؤلاء الرجال بأن هذا خطأ ويجلب الكثير من المشاكل ،

وأن اللمسة الأخيرة ببناء قلعة يجب ألا تكتمل ، وكما ترى فقد تجادلوا كثيراً حول ذلك ، لذلك أتوسل إليك ألا تطلب مني هذا الإذن لأني لا أتمنى أن أمنحه لك ، إلّا إنني سأفعل ذلك إذا اكتملت القلعة وتأكد الاحتلال" .

تذمر "جواو دا نوفا" قائلاً : "سيدي ، بالرغم من أنني لا أملك الإذن منك لأنني طلبته ، فقد أحضرته معي من "تريستان دا كونها" ، والذي أمرني بالمغادرة إذا رأيت ما يمكنني أن أوصله له كأخبار سارة ، ونصف ما قد رأيته يعتبر كافياً لذلك" .

كان رئيس الضباط غاضباً وقال له : "إذا غادرت بدون إذني وبدون أخذ رسالة مني ، من سيصدق ما تقول؟ بالإضافة إلى ذلك فقد أعاقبك على هجر علم الملك سيدنا في وقت الحرب وللمغادرة بدون إذن من رئيسك" .

أجاب "جواو دا نوفا" : "لقد أمرني رئيسي أن أذهب معك وأن أعود بأخبارك ، لذلك فأنا أعلم ما قد قمت به ، ولقد أخطأت في طلب إذنك" .

قال له رئيس الضباط بهدوء : "والآن ، وكيلا تقوم بأي خطأ ، سآخذك كسجين على هذه السفينة ، ولن تغادرها بدون إذني ، وسيكون العقاب فقدان ضماناتك ، والتي تم مصادرتها" ، وأخبر كاتب العدل "جواو ايستاو" بكتابة سند بالضمانات ، وأمر "جواو دا نوفا" بالذهاب إلى السلوقية . وأرسل إلى "جومز تيكسييرا" ، وهو

فارس محترم ، بالذهاب وأخذ سفينة "جواو دا نوفا" ، وأن يصبح ضابطها ولكن "جوم تيكسييرا" رفض ؛ لأنه كان صديقا لـ"جواو دا نوفا" ، وكان بصحبته ، وهو يبجله كثيراً .

قال له رئيس الضباط : "سيدي ، "جوم تيكسييرا" ، من الذي تقوم بخدمته في هذه السفينة؟ "جواو دا نوفا" أم الملك؟ وبما أنك تخدم الملك ، كما نفعل جميعاً ، وأنا رئيس ضباطه في هذا الأسطول ، آمرك بطاعة أوامري" ، وسلمه الصلاحية ، كي يطيعه كل من في السفينة باعتباره ضابطاً .

أمر بأن تذهب قوارب "أنطونيو دو كامبرو" و"مانويل تيليس" إلى مقلع الأحجار في اليوم التالي ، وأخبر "ألونسو لوبيز دا كوستا" بأن يذهب هو ورجاله إلى القارب لحماية الآخرين .

لقد تم ذلك بدون أي رفض ، وانطلق هذان القاربان في ذلك اليوم ، وفي اليوم التالي ذهبت قوارب "فرانسيسكو دي تافورا" و"جواو دا نوفا" مع "دوم أنطونيو" في قارب رئيس الضباط لحمايتهم ، وفي اليوم التالي كان هناك قاربان آخران وحراسهما ، وفي هذا اليوم تم جمع كمية كبيرة من الأحجار .

لقد خصص رئيس الضباط أحد الرجال وهو "دوارتي دينيس" "Duarte Denis" بأن يكون وكيلاً تجارياً للعمل ، ومعه كاتب ، كي يدفعوا إلى العمال الأجور ، بينما تم جمع الأحجار ، خلط الكثير من الطمي لبدء الأساسات ورفع مستوى الأرض . إن الطمي قوي

جداً ، فهو يسحق ثم ينخل ، ويتم تجهيزه بجهد كبير ، عندما تم خلط كل شيء سوية .

انطلق رئيس الضباط إلى الشاطئ مع كل الرجـال فـي الأسطـول ، ونادى على "جواو دي فرنانديس" "Joao de Fernades" ، المدفعي ، والذي كان محترفاً في هذا العمل ، وأراه أين يجب عليه وضع أساسات القلعة ، ويجب أن تحفر باتساع عشرين قدماً ؛ لأن القلعة سيكون ارتفاعها من ثلاثة طوابق ، كافية لرؤية المدينة بأكملها ، وهي أطول من المنارة ، حتّى إذا كان ضرورياً يمكن للمدفعيات الثقيلة إطلاق النيران من السطح العلوي .

من كافة الأدوار العلوية الأخرى ، وفي الطابق الأول كان هناك برج في كل جانب مكون من اثني عشر ذراعاً مربعاً ، كي تبدأ الأساسات بهذا الاتساع ، وأن يكون موعد البدء في السادس من أكتوبر عام ١٥٠٧م .

وضع رئيس الضباط شخصياً أول حجر ووضعه في جانب مدخل البرج قائلاً : "باسم المسيح عيسى وأمه المقدسة ، سيدة النصر ، عسى أن تساعدنا دائماً ضد الأعداء بإيمان ابنها المبارك" ، وفعل الضباط والنبلاء الشيء ذاته ، مع نفخ الأبواق ، متضرعين لسيدة النصر ، وبذلك تم تسمية القلعة ، وشارك العديد من الناس في العمل حيث تم وضع جميع الأساسات فوق سطح الأرض .

حيث إنه كان هناك العديد من الأشخاص ، وعندما تم ملء

أحد خنادق الأساسات تم حفر واحد آخر ، حتّى إذا تم ملء واحد وكان الآخر مفتوحاً بالفعل ، سيشترك الكثيرون في العمل ؛ لأنه بالإضافة إلى ما يدفع لهم كل يوم ، فإن رئيس الضباط قد أمر بأن يتم إعطاؤهم تموراً ومياهاً أثناء العمل ، والتي كانوا سعداء جداً بها ، ولقد كان رئيس الضباط يعمل بجد لتوفير الأحجار ، ولم يحدث أي شيء خطأ للقوارب .

بما أن الجزء الأكبر كان يتم من قبل البحارة ، فقد أمر بأن يدفع لكل منهم عشرة "بارداو" كأجر لهم ، وبالنسبة لربابنة السفن ومعاونيهم ومرشدي السفن فقد أعطوا خمسة وعشرين ، وقد أسعدهم ذلك ، وكاحتياط لما قد يحدث .

أمر رئيس الضباط بتجهيز "باراو" كبيرة من بين سفن المسلمين ، مع نصب مظلة كبيرة بسبب الحرارة والتي كان "دوم أنطونيو" وستون من النبلاء والفرسان يجلسون دائماً تحتها ، حيث يتم إعطاؤهم طعاماً ، وأعطي أيضاً ثلاثمائة "أشرفي" لكل ضابط لإطعام رجاله كي يبقوا في السفن ، وألا يذهبوا إلى الشاطئ ، كيلا يعلم المسلمون أنه يوجد عدد قليل منهم ، ولقد فعل رئيس الضباط ذلك في الأساس ليجعلهم سعداء .

لتحقيق أفضل الأمان على اليابسة قال لـ "دوارتي دينيس" ، الوكيل التجاري ، بأن يحتل مبنى كبيراً بالقرب من مكان العمل ، لبيع أقمشتهم من "كامباي" والتي تم الاستحواذ عليها من السفن ، والعديد من التوابل ، والتي اشتراها من الضباط بقيمة أعجبتهم ،

وقال للوكيل التجاري بأن يبعها جميعاً بسعر رخيص كي يسر التجار ، وكي يكون كل شيء سلمياً وودياً .

سار العمل بسرعة ، وأمر رئيس الضباط أنه بمجرد أن يتم تسقيف الحصن يجب بناء القلعة حوله . لقد كان عنده مخاوف أن يتم التنازع على عمله ، فقد قال له "خواجا بيرم" بسرية شديدة أن "خواجا عطّار" قد ندم على إعطائه موقع القلعة داخل المدينة ؛ لأنه إن لم يقوم بذلك فلن يتمكن من خرق السلام ، فقد كان يعلم أن رئيس الضباط يبنيها ضد رغبة الضباط وانه كان هناك مجادلات .

لقد علم أيضاً كم كان عدد الرجال قليلاً في الأسطول لأن المسلم "خواجا عطّار" كان أكثر صداقة مع الوكيل التجاري "دينيس دوارتي" والكاتب "جيرونيمو دي اورتيجا" "Jeronimo de Ortega" ، والذي كان يعطيه الكثير من الرشاوي ، وكان الملك أيضاً يعطيهم النقود ، وأثناء محادثتهم علم ما كان يحدث في السفن وبين الضباط .

لقد أخبرهم الوكيل التجاري بكل ذلك ، ولقد كان ودوداً جداً مع "خواجا عطّار" والملك وأوصياء العرش ؛ لأنه كان سيبقى وكيلاً تجارياً ، ولأنه أيضاً في حالة حدوث أي اضطراب سيكونون آمنين بصداقة "خواجا عطّار" ، والذي علم حقيقة كل ما كان يحدث ، ولقد ندم على الموافقة على بناء القلعة ، ولقد اقترح على ريس نور الدين والمستشارين بأن عليهم أن يتركوا العمل مستمراً كما يرضي رئيس الضباط ، والذي كان يقوم بتحصينها جيداً .

كانوا يدافعون عنها قبل أن يكتمل بناؤها ، وسيقوم بهجوم مفاجئ على الناس الذين يذهبون إلى العمل وإلى معقل الأحجار ، وسيملؤون سفن المسلمين بالألعاب النارية ليشعلوا الأسطول وليقوموا بكل دمار ممكن ، وبالتالي سيعاد إليه شرفه .

ألقى كل من في المجلس اللوم عليه ، لكل ما قام به ، مما أغمّ "خواجا عطّار" ، وباهتمام شديد بدأ في ترتيب كيف سيتم كل ذلك .

لقد علم رئيس الضباط بذلك ، وأخفاه في نفسه ، وأخفى مشاعره وعمل بجد كي يضع القلعة في حالة جيدة ؛ حتّى يتمكن المائتا رجل الذين كان سيضعهم في القلعة مع المدفعيات الجيدة من الدفاع عن أنفسهم ضد كل قوى المدينة ، بينما يشن هو معركة شرسة عند البحر مع الأسطول . كونه كان حكيما .

قد أمر بوضع ثمانية صهاريج خشبية في الداخل قبل إغلاق باب البرج ، وهي من النوع الذي تضع فيه السفن المسلمة المياه ، المصنوعة في "ماليندي" ، كما قلت ، والتي أخذها من سفن المسلمين ودفع لهم جيداً ، ولقد تم وضعه في مخزن الحصن ، وحمل كل منهم ستة براميل من المياه ، وأمر رئيس الضباط بأنه يجب ملءها بالمياه الصالحة من "التيرادا" والقادمة من جزيرة "قشم" ، على بعد ثلاثة فراسخ .

لقد شرب العمال في العمل من المياه الموجودة في الصهاريج ، ثم نفذت وأعيد ملؤها مرة أخرى ، ولأنه في كل مرة كان يتم تحسين المياه ، وعندما كانت المياه في الداخل ، كانت الأبواب مقفولة ،

ولأنهم كانوا في حاجة إلى أخشاب البناء وألواح الأخشاب للأسطح ، أمر رئيس الضباط بأن يتم أخذ جميع الصواري وألواح الأخشاب التي أحضرها المسلمون إلى الشاطئ من السفن التي غرقت إلى الموقع ، وأخبر الرئيس البحري والمترجم "جاسبار رودريجوس" بإيجاد من هم ملاك أخشاب البناء وألواح الأخشاب وأن يدفع لهم ما يطلبوه .

لقد ذهب هؤلاء المسلمين بالفعل إلى "خواجا عطّار" ؛ ليشتكوا له عن الأخشاب التي أخذت منهم . عندما جاء الرئيس البحري والمترجم قالوا للمسلمين بألا يشتكوا ؛ لأنهم قد احضروا النقود ليدفعوا لهم ، ولقد رد "خواجا عطّار" بغرور وغضب ، والذي كان حانقاً بالفعل ، بأنه يجب عليهم أن يدفعوا حالاً لهم ألف "أشرفي" ، وإذا كان المسلمون قد قالوا له مسبقاً لما كان ليسمح لهم بأن يأخذوا الأخشاب .

كان الرئيس البحري صامتاً ولكن "جاسبار رودريجوس" لم يتحمل سماع ذلك ، وقال له : "خواجا عطّار" ، إن من الخطأ أن تقول بأنك لن ترضى بإعطائهم الأخشاب ، سأعود إلى رئيس الضباط ، وسأقول له ما قلته وبأنك تأمرنا بإعطاء المسلمين ألف "أشرفي" مقابل الخشب" .

أجاب "خواجا عطّار" ، بغضب أكثر ، بأنه لن يسمح باستخدام القوة ضد التجار ، وانه سيدافع عنهم ، وانه سيقول لرئيس الضباط ما قاله ، ذهب المترجم إلى رئيس الضباط وشرح له ما حدث ، كان

رئيس الضباط محتدماً غضباً ، واستاء من تكبر "خواجا عطّار" ، والذي كان نتيجة معرفة أنه كان هناك اختلاف في الآراء بينه وبين الضباط حول بناء القلعة ، بسبب هذا التغير في التصرف ، والذي قد يكون سبباً في الضرر الناتج عن تمرد الضباط ، ذهب إلى موقع العمل لاكتشاف كيف تسير الأمور .

سار قليلاً مع "الونسو لوبيز دا كوستا" و"مانويل تيليس" و"فرانسيسكو دي تافورا" و"جورج باريتو دي كاسترو" و"أنطونيو دو كامبو" والذين كانوا في معقل الأحجار ، وقال لهم :

"أيها السادة ، لقد رأيتم كم وصلنا بعيداً في هذا العمل ، والحمد لله" ، وسألهم إذا كان من الأفضل إكمال القلعة أو الذهاب إلى "رأس غاردافوي" ، وردوا بأن هذه مسألة يجب مناقشتها من قبل الجميع والتوصل إلى القرار وفقاً لذلك ، وطلبوا منه بأن يتغاضى عن غضب "جواو دا نوفا" وأن يسامحه ، وأن يجعله يعود إلى سفينته ، وبعد ذلك يجتمعون جميعاً ويقررون ما سيطلبه منهم .

قال رئيس الضباط بأنه موافق ، وعاد "جواو دا نوفا" إلى سفينته ، ولقد شكره الجميع على ذلك ، وعندما تحدثوا جميعاً ، اتفقوا على إعطاء جواب لرئيس الضباط عما سألهم ، إذا كانوا سيكملون القلعة أو سيذهبون إلى "رأس غاردافوي" ، وفي الليلة التالية .

عندما وصل القارب القادم من معقل الأحجار عند الموقع الذي كان فيه رئيس الضباط مع كل الضباط ، وبدأ في التحدث مرة

أخرى عما يعتقدون أنه يجب أن يحدث ، وإذا ما كانوا سيقومون ببناء قلعة ، وهو ما أراد أن يبدأوا به ، لأن الحصن قد وصل بالفعل إلى الدور الأول ، أو إذا كان عليهم الذهاب إلى "رأس غاردافوي" .

لقد اتفقوا جميعاً وقالوا بأنه لا يجب بناء القلعة ؛ لأنه حتّى إذا تم بناؤها كما تمنى فإنهم لن يتمكنوا من ترك الرجال أو المؤن داخلها كي يتمكنوا من الدفاع عنها ضد ملك هرمز ، كما قالوا له من قبل ، حيث إنهم كانوا متأكدين من المؤن في "رأس غاردافوي" ، ومن هناك يمكنهم الحصول على ثروات طائلة ، وعلى الفلفل الأسود والبهارات لإرسالها إلى البرتغال ، وكان ذلك أفضل من بناء قلعة والتي كانت بلا أهمية .

لقد كان هناك الجدال الكثير حول ذلك مع "جورج باريتو" ، والذي كان رأيه هو أن بناء قلعة هو أفضل من أي شيء آخر ، وهو بالتأكيد أفضل من الذهاب إلى الرأس حيث سيجدون القليل أو لا شيء ، وبالتالي لم يتم الاتفاق على أي شيء ، لأن رئيس الضباط كان مصمماً على بناء القلعة .

عندما عادوا إلى سفنهم اتفقوا جميعاً وحرروا التماساً كتابياً والذي أرسلوه إلى رئيس الضباط حول موضوع النقاش ، مفصلاً الجدال حول عدم بناء القلعة ، ولقد أرسلوه من قبل كاتب العدل في سفينة "مانويل تيليس" ، والذي أخذه إلى رئيس الضباط والذي كان في الموقع .

لقد كان مستاء جداً ، ولكنه قام بذلك ، وقال "لجواو ايستاو" والذي كان معه ، بأن يرى من الذي وقع على الورقة ، وألا يخبره ،

ولكن أن يرى فقط ، ولقد قام بذلك ، ولقد مزقها رئيس الضباط بدون أن ينظر إليها ، وأخبر "جواو ايستاو" بأن يخبر من قد رأى أسماءهم في الورقة بأن يقلعوا عن هذا الأمر ، والذي سبب الأذى الشديد لقضية الملك وخدمته ولشرفهم أيضاً ، وللالتزامات التي عليهم تجاهه ، وهو رئيسهم ، ويجب عليهم الحذر .

لأن "خواجا عطّار" علم بكل شيء وكان غاضباً ومتكبراً بالفعل ، ويجب أن يحترسوا مما قاموا به ؛ لأن من قام بشيء خطأ سوف يحاسب عليه من الله ومن الملك .

عندما رأى الضباط أن رئيس الضباط قد مزق التماسهم لم يريدوا أن يسمعوا ما أراد "جواو ايستاو" أن يقوله ، وردوا بكلمات عديدة ضد رئيس الضباط ، قائلين بأنه كان خائناً كذاباً ، ولقد أراد بناء القلعة لشغل نفسه وسرقة المدينة ، وليحمل سفينته بالبضائع المسروقة ، ولينطلق وقتما أراد .

لقد قال كل منهم هذه الكلمات وأكثر من ذلك في سفينته ولرجاله ، ليثيروهم ضد رئيس الضباط ، قائلين بأنه كان مستبداً ؛ لأنه لم يرد أن يعطيهم نصيبهم من المائة ألف "أشرفي" ، ولأنهم عندما طلبوها منه كان غاضباً .

بالإضافة إلى ذلك ، فقد أرسلوا له التماساً ليدفع لهم ما يدين لهم به ؛ لأنهم كانوا رجالاً فقراء ، ولكنه مزق الالتماس لهذا السبب ، كما علم الجميع . لقد قالوا الكثير ضد رئيس الضباط ، وأثاروا

الرجال ضده حتّى قالوا جميعاً أنهم لن يقوموا بذلك ، ولن يقوموا بأي شيء إلّا ما يأمرهم به ضباطهم ، وأنهم سوف يموتون معهم .

عندما تم إبلاغ رئيس الضباط بهذا الأمر ، جمع الضباط في سفينته وقال لهم : "أيها السادة ، أنتم تعلمون بأن الملك سيدنا قد جعلكم ضباطاً على هذه السفن لخدمته تحت علمي في السلم والحرب ، وفي هذه المهمة في هرمز ، والتي أعطاني فيها الأوامر المناسبة ، واثقاً من أنكم ستقومون بخدمته ، وأنكم تقومون بخطأ كبير في اختلافكم معي ، وهو ما قد علم المسلمون به .

فهم مشتعلين غضباً ، بينما أعاني أنا من هذا الأمر بصبر ، كي أستمر في خدمة الملك والذي أمرني بأن أقوم بما هو الأفضل لمصلحته ، وهو ما لا تلاحظونه ، ولا تتصرفون كالبرتغاليين الحقيقيين بل تزدرون ذلك بأفعال تستحق العقاب بإثارة الرجال وأحداث اضطراب .

لذلك التمس منكم ألا تكملوا بهذه الطريقة ، وبأن تخضعوا لي فيما يهم خدمة الملك ، وسيجزيكم كثيراً من أجل ذلك . إذا كنتم لا تحبون العمل ، فابقوا في سفنكم ، وآمركم بألا تذهبوا إلى الشاطئ بدون إذني .

أنت يا سيدي "فرانسيسكو دي تافورا" ، كان لا يجب عليك ألا تقوم بما قمت به عندما لم ترغب في الذهاب إلى معقل الأحجار معي ، فقد ذهبت إلى الأمام وعدت من دون أن تنتظرني ، وتركتني على اليابسة مع عشرين رجلاً ، ولقد أمرتك بأن تظل في مكانك ولكنك لم تنتظر" .

قام "فرانسيسكو دي تافورا" والذي كان غاضباً كالآخرين ، وقال : "ماذا؟ هل تعتقد أن هذا كان خطأً؟ إذا كنت تعتقد ذلك ، فلا يمكنك معاقبتي من أجله . أترك السفينة ، وأعطها لأي شخص تريد ، ولكنى أخبرك بأني سأغادر من هنا إلى الهند بها" .

اشتعل رئيس الضباط غضباً لسوء الاحترام ، وأمره بكلمات هادئة بأن يبقى في سفينته كسجين بضمان ، وأخذه معه إلى القارب وأعطى سلطة السفينة إلى "دينيس فيرنانديس دي ميلو" .

بعد حدوث ذلك ، انطلق في اليوم التالي أربعة برتغاليين واختبؤوا في منزل "خواجا عطّار" ، لقد كان مسروراً جداً ، وقد أخبروه بالتفصيل عن الجدال الذي حدث بين الضباط ورئيس الضباط ؛ لأن القلعة قد تم بناؤها بدون أمر الملك ، وكان ذلك فقط ؛ لأنه أراد استخدامها للاستيلاء على المدينة وسرقة ما يريده ، وأن يبقى فيها متحدياً حتّى يأتي أسطول آخر من الهند ، ولقد كان الضباط وكل الرجال متمردين ضده ؛ لأنه قام بما لم يأمر به الملك ، وانه لن يذهب إلى "رأس غاردافوي" ، كما أمر الملك .

أفرحت هذه الأخبار "خواجا عطّار" ، وأمر بحراسة البرتغاليين ، وذهبوا إلى الملك ، واتفقوا مع ريس نور الدين وأعضاء المجلس على ألا يسمحوا بإنهاء القلعة . أرسل إلى الرئيس البحري "بيرو فاز دورتا" ، والذي كان في القلعة ، وأرسل من خلاله كلمات إلى رئيس الضباط بأنه علم بأن الضباط قد طلبوا منه بأن يقوم بما هو في

خدمة ملك البرتغال ، وكونه رجلاً متحدياً ، فإنه لم يقبل بذلك ، وقام ببناء قلعة برغبته الخاصة بدون أمر من ملك البرتغال ، ليسيطر عليها بنفسه كي يؤذي المدينة ، وأنه لن يذهب إلى "رأس غاردافوي" ، كما أمر الملك ، وبما أنه كان يقوم بما لم يأمر به الملك فإنه لن يسمح بأن يتم أي عمل آخر في القلعة .

عندما تم إعطاء هذه الرسالة إلى رئيس الضباط ، شعر بالإهانة الشديدة وصرخ بقوة ضد الضباط قائلاً بأنهم سبب المشاكل التي أمامهم ، ويجب على كل منهم أن يسعى ليحيا حياة يمكن أن تصلح من صورة كل منهم في عين الملك ، والذي يجب أن يخبره الحقيقة بأكملها .

أرسل "جاسبار رودريجوس" المترجم إلى "خواجا عطّار" ، وقال له بأن يقول بأنه لم يكن يبني القلعة للإيذاء ، ولكن ليفعل الخير للمدينة ، وليحافظ عليها لخدمة ملك هرمز ، وإنه بإرساله له بأنه لن يسمح ببناء القلعة ، فهو بذلك من يطلب دمار مدينة هرمز .

لقد حلف بذقنه بأنه يجب بناء القلعة ، ولقد ندم عندما قال بأن الجدران سوف تبنى من عظام المسلمين ، أنه يجب عليه أن يريه في منازلهم العديد من الدماء والأمعاء والتي قد يسقط ميتاً عند رؤيتها ، وفي اليوم الذي يرفع فيه علم البرتغال ، فسوف يضع رأسه على قمة السارية التي تحملها .

عندما سمع "خواجا عطّار" رد رئيس الضباط كان مرتعداً وخائفاً

جداً ، وبدا له بأن ما كانوا يخبرونه به كان كذباً ، لأن رئيس الضباط لم يكن ليتكلم بهذه الجرأة إذا كان على علاقة سيئة مع ضباطه .

أراد تهدئة رئيس الضباط لذلك أرسل له قائلاً بأنه كان غاضباً عندما تحدث هكذا ، ولقد ندم على ذلك ، وإذا لزم الأمر سوف يذهب ليعمل في البناء بنفسه ، قد أخبره أيضاً أنه يوجد سفير شاه إسماعيل في البر الرئيس ، والذي كان قادماً ليطلب من رئيس هرمز بأن يعطيه الجزية ، وسيكون ممتناً إذا أخبره كيف يجب عليه الرد .

كان رد "خواجا عطّار" بمثابة راحة لرئيس الضباط ، ولقد كان سعيداً في قلبه ، وأرسل رداً على الفور قائلاً بأنه فهم جيداً الغضب الذي دفعه لبعث هذه الرسالة ، وإذا لم يقم بذلك لم يكن ليرسل أي رد ، ولكن كان سيرد فوراً بالنيران والدماء ليقوم بما يجب يقوم به البرتغاليون .

أما بالنسبة للرد الذي يجب أن يرسله لسفير شاه إسماعيل ، فقد أرسل اثنتي عشرة قذيفة مدفع وعصوين ناريتين إليه كي يرسلها إلى السفير مع رسالة بأن ملك هرمز وهو من رجال ملك البرتغال وكذلك رئيس الضباط ، والذي كان في المدينة مع الأسطول ، سوف يدفع الجزية إذا تمنى ذلك ، وإذا أرادها فيجب أن يأتي ويحصل عليها .

كان "خواجا عطّار" مسروراً جداً بهذه الإجابة ، ولذلك أرسل إليه رسالته الخاصة وغادر السفير . ظن رئيس الضباط بأن كل شيء الآن في سلام ، وأرسل رسالة إلى "خواجا عطّار" طالباً منه كصديق بأن يرجع الأربعة رجال الذين هربوا إليه ، كي يعاقبوا فيما

اقترفوه من خطأ . أرسل خواجا العطّار له قائلاً بأنهم ليسوا عنده ، وأنهم ذهبوا إلى البر الرئيس ، ولكنه سيأمر بأن يرسلوا له مكبلين من الأيدي والأقدام ؛ لأنه أراد القيام بكل ما يقدر لإرضائه ، ولكنه أبلغه بأن هناك بعض احتجاج بين الناس في المدينة حول الأسرى الذين أمسكهم رجالنا في الأسطول ، وتوسل بأن يعودوا لهم كي يبين بأنه كان ملتزماً بأن يرد البرتغاليين .

ناقش رئيس الضباط ، والذي كان حريصاً جداً بأن يحصل على البرتغاليين بين يديه ، ذلك مع الضباط لأن الأسرى كانوا في سفنهم ، وقالوا جميعاً بأنه يعتبر شيئاً جيداً للقيام به ، وأنهم سوف يعطون مائة من الأسرى في سبيل برتغالي واحد ، بل سيقدمون أكثر من ذلك للمرتدين إلى المسلمين ، ويجب عليهم أن يقوموا بتنازل لـ"خواجا عطّار" ، وإذا فشل في تسليم البرتغاليين ، في هذه الحالة عليهم شن حرب .

لقد قام رئيس الضباط بذلك ، وأرسل العديد من الرسائل إلى "خواجا عطّار" ، وأمر بتسليم ثمانين أسيراً له ، بينما كان "خواجا عطّار" يكذب يوماً بعد يوم ولم يسلم البرتغاليين ، وبعد المناقشة قرروا بإزالة المحطة التجارية الموجودة على أرضهم ، وكل الرجال أيضاً .

عندما رأى "خواجا عطّار" ذلك أرسل رسالة إلى رئيس الضباط باسم الملك ، قائلاً بأنه كان آسفاً جداً عندما رأى أنه قد تم إزالة المحطة التجارية ، وهو ما يدل على أنه يريد أن ينهي السلام ، ويبدأ

في الإيذاء . رد رئيس الضباط أنه لا يجب أن يكون هناك محطة تجارية للملك على الأرض ؛ لأن "خواجا عطّار" كان يخدعه وكان يستخدم كلمات مهينة ، وقد أرسل قائلاً بأنه لن يقوم ببناء القلعة ، وهو ما لا يهم ، ولأنهم لم يحافظوا على الوعد فإنه لم يرد بناء قلعة أو يحافظ على الصداقة ، ولكن بأن يؤذي ويدمر المدينة .

إذا لم يرد "خواجا عطّار" بأن يسلم أربعة صبية من السفن والذين قد هربوا ، فعليه أن يعي جيداً ما قد قام به ؛ لأنه كان يعلم أن ما قد يحدث في الحرب سيكون أسوأ .

عند هذه النقطة ، وعندما أراد الضباط بأن يكونوا ضد رئيس الضباط ، بالرغم من أنهم قد قالوا له بأنهم يريدون حرباً إذا لم يتم تسليم البرتغاليين له ، فقد رأوا بأنه كان شديد الحرص ومستعدا للقيام بذلك ، لذلك أرادوا التأكد من أنه إذا حدث أي شيء خطأ بالنسبة للحرب فيجب أن يكون على مسؤوليته ، وقد وافقوا على منعه من شن حرب ؛ لأنه مع عدم وجود حرب فالمدينة ثائرة جداً ولا يمكن تهدئتها مرة أخرى فلن يتبقى هناك من شيء آخر غير الذهاب إلى الهند ، وهو ما أرادوه قبل أي شيء آخر ، كي يمكن لكل واحد بأن يحصل على ربحه وأن يحمل قنطاره .

كان ذلك السبب الرئيس الذي من أجله حرضوا ، وأثاروا الأسطول بأكمله نحو التمرد ، وبعد التشاور فيما بينهم ، أرسلوا خطاباً إلى رئيس الضباط موقعاً من قبلهم جميعاً ، وقد قالوا له

فيه بألا يقلق حيال المتاعب الجديدة التي تواجهه كونه يريد فض السلام والاتفاقية التي عقدها في هرمز ، والتخلي عن الخمسة عشر ألف "أشرفي" التي كانت هرمز تدفعها سنوياً ، وقد ذكروه بذلك ، ولم يقولوها على شكل نصيحة ؛ لأنه لن يتقبلها ، ولقد كتبوها ؛ لأنه كان شديداً في غضبه :

"ظننا جميعاً بأنه من الجيد أن نذكرك بذلك ، كيلا نخاطر بخسارة هذا الربح الكبير ، وكيلا نغامر بكارثة الحرب ، فعليه بالتظاهر بالموافقة على أكاذيب "خواجا عطّار" وترك الحرب وشأنها ، وفي خلال سنة يمكنك أن تعود بأسطول أكبر ورجال أكثر ، وأن تقوم بما يراه نائب الملك ملائماً ، وإذا كان لا زال عازماً على الذهاب إلى الشاطئ للقتال ، فقد أبلغوه بأنهم لن يذهبوا معه" ، لقد وقّعوا جميعاً على ذلك في الخامس من يناير عام ١٥٠٨م .

عندما رأى رئيس الضباط خطاب الضباط الذي يحذره من عدم شن حرب بعد أن نصحوه بأن يقوم بذلك إذا لم يسلم "خواجا عطّار" البرتغاليين ، صعد على متن سفينة تسمى "تافورا" ، والتي كانت تتبع لـ "افونسو لوبيز دا كوستا" ، استدعى الرجال هناك ، وسألهم لماذا لن يذهبوا إلى الشاطئ للقتال معه وقد نصحوه بالقيام بذلك ؟!

أجابوا بأنهم فكروا بأنها فكرة جيدة للقتال ، ولكن الأمر بدا خطأ الآن ، وذلك للسبب الذي أوضحوه في خطابهم ، ولازالوا على

اعتقادهم . قال لهم رئيس الضباط بما أن ذلك هو رأيهم ، وأنهم مقررين على الأسباب التي كتبوها ، فعليهم التصريح الآن إذا كانوا سيذهبون إلى الشاطئ أم لا ، قالوا إنهم لن يذهبوا إلى الشاطئ معه إذا كان سيقاتل .

نظر إليهم رئيس الضباط قائلاً : "لا تنسوا ما قلتوه ، بما أنكم صرحتم بأنكم لن تقاتلوا حيث يقاتل رئيسكم ، وهو من وضعكم الملك وسيدنا تحت سيطرته ، لأن ذلك قد يجعلكم متهمين بالخيانة" .

قال "فرانسيسكو دي تافورا" والذي عاد إلى السفينة ، بأنه لم يقل شيئاً كهذا ، ولكنه نفذ ما قد أمر ، وقال "جواو دا نوفا" بأنه أيد منطق الضباط ، وبالنسبة له من الأفضل تجنب الحرب . قال له رئيس الضباط :

"لقد كنت أول من نصحني بشن الحرب" ، وقد أمر "جواو ايستاو" ، والذي أحضره معه لهذا السبب ، بأن يكتب كل شيء ، وعاد للسفينة . تحدث كل من الضباط إلى الجنود في سفنهم ، ليروا إذا كانوا متفقين معهم ، ووجدوا الرجال جميعاً كما أرادوهم .

بالرغم من الاستشارة ، فقد وجدوا بأنهم قاموا بخطأ في فحوى ما قد كتبوه ، لذلك أرسلوا إلى رئيس الضباط قائلين ، بواسطة "فيرناو سورس" "Fernao Soares" ، بأنهم كانوا في مزاج غاضب عندما أرسلوا له الخطاب ، وبأنهم جميعاً مستعدين للقيام بما يأمر به في السلم والحرب ، وسوف يطيعونه في كل شيء . عندما سمع رئيس الضباط بالرسالة ، بما أنه كان يريد شن حرب بسبب البرتغاليين

المرتدين والذين لم يسلّمهم "خواجا عطّار" له ، فقد أراد أن يتأكد شخصياً إذا كانت الرسالة التي أرسلها "فيرناو سبيرز" حقيقية ، لذلك أرسل "جواو ايستاو" الكاتب إلى "أفونسو لوبيز" و"مانويل تيليس" و"أنطونيو دو كامبو" لإخبارهم بأنهم قد قاموا بشيء خطأ ؛ لذلك فقد أوقفهم عن عملهم كضباط ، وهو ما يجب التنازل عنه .

سيتم القبض عليهم كمساجين في سفينته ، حيث سيذهبون ، وعندما سمعوا ذلك أخبروا كاتب العدل بأن الخطاب الذي أرسلوه بواسطة "فيرناو سواريز" كان حقيقياً ، ولقد كانوا نادمين جداً على الخطاب ، وكانوا مستعدين للقيام بما يأمر ، عندما سمع رئيس الضباط بذلك قرر بأنه كان راضياً عن ذلك ؛ لأن الوقت والظروف فرضت عليه ذلك .

ثم أمر "جواو دا نوفا" و"فرانسيسكو دي تافورا" بأن يذهبوا بسفنهم إلى الجانب الآخر من المدينة ، بالقرب من اليابسة قدر المستطاع من أجل ضرب مدافعهم ، وأمرت السفن الأخرى بالذهاب بالقرب من قصر الملك في معركة تأهبية ، ظناً بأن هذه التدابير سوف تخيف "خواجا عطّار" ، وسوف يسلمهم البرتغاليين ، وأرسل كلماته عبر المترجم بأنه يجب إرسال الرجال في الحال بما أنه أعطاهم المسلمين ، ويجب أن يحترس من الدمار الذي قد يحدث في المدينة إذا لم يرسلهم .

لقد كان مقاتلو "خواجا عطّار" مستعدين ، واتفق مع الملك بأنهم لن يوافقوا على بناء القلعة ، وأرسل إلى رئيس الضباط بأنه كان

سيرسل البرتغاليين بالفعل ، ولكنه كان خائفاً أنه إذا كان قد تم إرسالهم فسوف يؤذون ، لذلك توسل إليه بإرسال ضمان بأنه سوف يعفو عنهم ، ثم سيقوم بإرسالهم ، ولأن الوقت كان متأخراً بالفعل في هذا اليوم فقد أمر رئيس الضباط بتجهيز الضمان لإرساله في صباح اليوم التالي ، ولكن بحلول الليل أرسل المسلمون ، والذين دبروا كل شيء بغدر ، العديد من المقاتلين إلى القلعة وقاموا بهجوم مفاجئ على رجالنا .

الذين كانوا نائمين على الشاطئ بسبب الحر ، وتم قتل وجرح العديد منهم ، واتجهوا إلى البحر وإلى "باراو" والتي كانت قريبة ، واجتمع المسلمون جميعاً بالعديد من الصرخات ، وعندما سمعوا ذلك على متن السفن ، ظهر رئيس الضباط وأمرهم بأن يذهبوا إلى حافة المياه للامساك بالبرتغاليين ، ولكن بألا يذهبوا إلى الشاطئ ، وهو ما قاموا به .

قد ذهبوا بالقرب من الشاطئ وبدأوا ينادون إذا كان من أحد من البرتغاليين قد جاء ، (وقذف البرتغاليون العديد من السهام عليهم) ، وجمعوا "الباراو" ، ثم أمر رئيس الضباط بإطلاق النيران ، واستمروا في ذلك حتّى الصباح .

عندما سمعت السفن الموجودة على الجانب الآخر من المدينة إطلاق النار قاموا بالشيء ذاته ، وبالتالي حدث الكثير من الدمار وضربت العديد من المنازل ، مما أدى إلى مقتل العديد من الأشخاص .

**وفي العام نفسه (١٥٠٧م)**

**جاءت أحـداث عام ١٥٠٧م السابقة ، شبيهة مع بعض الإضافات كما جاء في كتاب : "عقود آسيا" "Da Asia Nova" ، للمؤرخ البرتغالـي "جواو دي باروس" "Joao de Barros" العقد الثاني ، الكتاب الثاني ، الفصل الأول :** (٢)

بذلك الفضل الذي أكرم به الرب ملك البرتغال تحقق للأخير امتياز الحصول على لقب "تاج اسبريتز" وذلك بعدما انتصر على الملحدين ، ولعل أروع انتصار ذلك الذي حققه ضد العرب الذي كما ذكرناه من قبل أنهم قد انتشروا في البداية من أوطانهم حتّى وصلوا إلى الغرب ، وذلك هو الإرث الحقيقي للمملكة :

يبدو أن الرب بحوله وقدرته قد قضت إرادته بأن يكون العرب أداة لمعاقبة الأسبان نظراً لآثامهم وخطاياهم ، فعملوا في بلادهم

(٢) رقم الوثيقة والهامش.

سلباً ونهباً وتدميراً بحيث إنه وبعد عدة قرون عاد البرتغاليون في الغرب إلى "ايبيريا" موطنهم القديم ، وبالطبع فإنهم لن يمارسوا حقوقهم الطبيعية في دخول البلاد العربية القاحلة باستخدام قوة السيف في تدمير مدنها وحرق منازلها وسبي نسائها وأطفالها ، بل أنهم أصبحوا أسياداً على أقاليمها ومقدراتها .

هذا ويعرف أن الأمة الفارسية الشهيرة بالنبالة ، برغم قوة حضارتها وتاريخها العريق ، ترتب عليها أن تعاني كثيراً وتدفع ثمن تلك الإهانة ضد "ايبيريا" "Iberya" ، حين اعتنقت ديانة العرب الهمج ، ومن ثم استسلموا لقوة أسطولنا في الانتصارات التي حققناها ضدهم عندما غزونا مملكة هرمز التي تقع في كل من البلاد العربية وفارس .

في هذا الكتاب الثاني سوف نستعرض ثانية تلك الفتوحات التي حدثت قبل نهاية عام ١٥٠٨م ، محاولين بقدر الإمكان تجنب الالتباس والغموض الذي شاب هذه الأحداث عند وقوعها ، أيضاً سوف نفعل ذلك بحيث إن أعمال "أفونسو دي البوكيرك" ، الذي ندين له بالفعل في استحواذنا على مملكة هرمز العظيمة .

ربما نتمكن من إفراد بداية منفصلة لها ، سيما وأنه أول قائد يتمكن من فتح الطريق للوصول إلى تلك البلدان العربية التي تم توجيهه بغزوها بموجب أمر ملك البرتغال ، وأن يبحر بشكل خاص بالأسطول الذي استغله إلى موانئ البحر الأحمر والخليج الفارسي ، فاعتبارها المداخل التي يشغلها المسلمون في الدخول إلى ومن الهند .

في يوم العشرين من شهر أغسطس ، أي بعد مضي عشرة أيام على الانتصار الذي حققه "أفونسو دي البوكيرك" ضد "سوقطرة" ، غادر "أفونسو دي البوكيرك" برفقة "تريستاو دا كونها" مبحراً إلى الهند ، حيث خطط لغزوها بعدما أعد سبعة من المراكب الشراعية الضخمة وستاً من السفن تولي قيادتها مجموعة من القباطنة وهم حسب الترتيب : "فرانسيسكو دي تابورا" ، و"مانويل تيليز" و"أفونصو لوبيز دا كوستا" و"أنطونيو دي كاميو" و"جواو دا نوفا" ؛ أما هو فقد أبحر كقائد أعلى .

أيضـاً كانوا قد أخذوا معهم سفينة صغيرة ، تم بقاؤها في "سوقطرة" ، وقادها الكابتن "نونو فاز دي كاستيلو برانكو" ، وكان قد أخذ من الجنود حوالي ستين محارباً ، وبما أن سوء الأحوال الجوية قد حال دون إبحاره من المضائق إلى البحر الأحمر ، فقد استمر في الإبحار على طول الساحل العربي ماراً برأس الحد إلى ذلك الجزء من الساحل حيث تبدأ من هناك مملكة هرمز .

كان بطليموس قد أطلق عليها اسم "نتوء رأس سيراقو" ، وذكر أنها تقع بنحو أربع عشرة درجة خط العرض شمالاً ، لكننا تحققنا من أنها على درجة اثنتين وعشرين ونصف ، وكان أول مكان وصل إليه "أفونسو دي البوكيرك" في مملكة هرمز قد سُمي "قلهات" ، وهذه تبعد حوالي عشرين فرسخاً من الرأس ؛ وتشير بقاياها ومبانيها بأنها كانت مدينة رائجة في الماضي .

كما يقول سكانها بأنها تعرضت إلى زلزال عنيف دمر مبانيها حتّى أصبحت على الحال التي وجدها عليها "أفونسو دي البوكيرك" ، حيث بدت مدينة صغيرة بأسوار وأبراج ومنازل مزودة بمنافذ ذات طابع إسباني ، وبسبب وقوعها بجانب البحر ، ووجود بئر هناك ، فبوسع سفننا أن تجد فيها ملاذاً يحميها من سوء أحوال الطقس الذي واجهوه ، بل أنها قد بدت مدينة جميلة بالنسبة لبحارتنا .

بعدما أمر "أفونسو دي البوكيرك" قادة سفننا بإلقاء المراسي ، أرسل رسالة إلى حاكم المدينة ، يبلغه بكلمات قليلة مَن هو وأنه ينشد السلام وبناء علاقة الصداقة ، فرد الحاكم قائلاً : إن المدينة تعود لملك هرمز ؛ وبما أنه يعلم أن ملك هرمز لا يمانع في إقامة علاقة صداقة مع ملك البرتغال ، فإنه يضع المدينة ونفسه قيد الأمر والطاعة ، وأنه سوف يلبي كل احتياجات أسطوله من مؤن غذائية وغيرها ، وبالتالي فيمكن أن يتصل كل واحد منهما بالآخر لأجل تسوية معاهدة السلام .

طلب الحاكم من "أفونسو دي البوكيرك" أن يرسل له اثنين من الرهائن وبدوره سوف يرسل من عنده رهينتين ، بحيث يلتقيان في المركب الذي سيشهد توقيع اتفاقية السلام ، وكان الحاكم قد أرسل مع هذه الرسالة مركباً محملاً بالمشروبات المنعشة إلى "أفونسو" ؛ نظراً لتأخر الوقت .

أما "أفونسو دي البوكيرك" فقد أرسل كلاً من "مانويل تيليز" و"أفونصو لوبيز دا كوستا" و"جواو دا نوفا" في اليوم التالي حيث

أبحـروا بمراكبهم مع الرهينتين وهما : غلامه "جاسبار ماشادو" "Gaspar Machadu" و"جواو نيستاو" "Joao Nistao" كاتب السفينة ، وبعدما أرسل هؤلاء واستلم رهينتي الحاكم حسبما اتفق ، تمت تسوية السلام .

دليلاً على التفاهم والائتلاف تم تقديم الطعام للجميع ، والتزام الحاكم بتوفير كل المستلزمات إلى أن يتم اللقاء مع حاكم هرمز ، وفي الميناء كانت هنالك سفينة من عدن ، ولما كان الحاكم يخشى إمكانية قيام رجالنا بالاستيلاء عليها ، فقد عمل على أن تتضمن المعاهدة شرطاً ملزماً بعدم التعرض لتدميرها ، وكبادرة على الاحترام والمجاملة ، قام قبطان السفينة بإرسال هدية إلى "أفونسو دي البوكيرك" عبارة عن كمية من المأكولات وكمية قليلة من بالات الحرير ، ومن ثم غادر فيما بعد الميناء دون أن تصاب سفينته بسوء .

في اليوم التالي وصلوا إلى مدينة أخرى تعرف باسم "قريات" على بعد مسافة عشرة فراسخ ، ولم يجدوا استقبالاً حسناً من السكان ، وهنا يبدو أن المسلمين يشعرون بالأمان ، سيما وقد أقاموا دفاعات على طول البحر وأحكموا تحصيناتها عندما كان رجالنا في "قلهات" .

عندما أرسل "أفونسو دي البوكيرك" "جاسبار رودريجيز" كترجمان إلى البر يحمل رسالته إليهم ، كان ردهم أن أطلقوا وابلاً من السهام على رجال "أفونسو" ، لذا فقد أصدر فوراً أمره لقباطنة السفن لكي يقصفوا المدينة بمدفعياتهم ، ظناً منهم بأن الأهالي عندما يسمعوا صوت المدافع ، فإنهم سوف يردون باحترام أفضل

من ردهم الأول على رسالته ، ولكن لما بدا أن صوت المدفعية والدمار الذي أحدثته لم يزعج أولئك المسلمين . قام "أفونسو دي البوكيرك" باستدعاء قادته للاجتماع بهم لكي يناقشوا خطة الهجوم على هذه المدينة .

قبيل شروق الشمس كان جميع القباطنة قد صعدوا إلى مراكبهم الصغيرة وشرعوا في الإبحار خلف سفينة العلم ، وبعدما تلقوا دعوات صالحات من القسيس شرعوا بالعزف على المزامير والأبواق التي أصدرت أصواتاً عالية بشكل منسجم ، ومن ثم اتجه الجميع وهم يهتفون نحو البر .

عموماً لم يكن من السهل أن يصلوا إلى البر ؛ لأنه قبل وصولهم إلى المكان الذي سبق أن نصبوا فيه مدفعيتهم ، وجدوا كومة كبيرة من الرمال تحيط بها المياه بسبب المد العالي حتّى أصبحت كجزيرة صغيرة ، وعند انحسار المد فبوسعهم أن يبلغوا المكان راجلين ، لأن ذلك الركام كان مرتفعاً جداً فوق مستوى الشاطئ ، وكان المسلمون قد حولوه إلى حصن ، ونشروا فيه خمسين من أفضل الحراس الذين تم اختيارهم بعناية ، وذلك لحراسة قطع الأسلحة المدفعية التي نصبوها هناك .

كان "أفونسو دي البوكيرك" قد شاهد تلك الجزيرة قبل مضي يوم من وصولهم ، وأدرك بأنها سوف تمثل لهم عقبة كبيرة ، لذا فقد أرسل "أفونصو لوبيز دا كوستا" و"أنطونيو دو كامبو" إلى هناك حيث

وجدا مجموعة كبيرة من الناس فيها ، وبواسطة مدفعيته التي أمرها بمهاجمة الشاطئ أرسلهم مرة أخرى لكي يقوموا بمهاجمتها .

في هذا الوقت المتخلل اتجه "أفونسو دي البوكيرك" مع بقية القادة الآخرين إلى أقصى طرف الشاطئ لإنزال الجنود ، ومن ثم مهاجمة مواقع المدفعية التي نصبت في الميناء ؛ لأنه إذا ما تقدم نحوها من جهة الأمام فسوف يتعرض لخطورة بالغة .

بعدما أوصاهم "أفونسو دي البوكيرك" بتقديم أفضل ما لديهم ، كان "أفونصو لوبيز دا كوستا" و"أنطونيو دوكامبو" قد اشتبكا ضد المسلمين الذين كانوا في الجزيرة ، وقد تمخض ذلك الاشتباك عن قتل أحد رجالنا وإصابة البعض بجروح .

أما المسلمون فقد هجروا هذا الموقع تاركين أربعة أو خمسة من القتلى ، وانسحبوا إلى مكان أمين في المدينة ، من جانبه هاجم "أفونسو دي البوكيرك" الموقع الذي توجد فيه أسلحة مدفعية العدو واشتبك مع المسلمين الذين تقدموا لحماية المدخل ، وكانوا قد استخدموا أقواسهم بحيث أطلقوا كميات كبيرة من السهام .

كان الاشتباك شرساً جداً بحيث عجز رجاله عن اختراق صفوف المسلمين ، وعلى الرغم من أن "أفونسو" كان قد رأى الجزيرة خلفه ، وأدرك أنها قد احتلت ، إلّا أنه قاتل ببسالة عظيمة ضد المسلمين خشية ألا يتمكن القائدان الموجودان في الجزيرة من المساعدة بسبب بعدها ، في هذا الوقت حاول "جواو دي نوفا" مع فئة من

رجاله المسلحين وبعض رماة السهام الحصول على بعض الغنائم من موقع التحصينات ، بمعاونة "جورج باريتو" و"مانويل تيليز" تمكنوا من أحداث صدع في السور ، لكن سرعان ما تجمعت أعداد كبيرة من العدو هناك .

لكن كان ذلك قد كلفهم جهداً كبيراً ، لكن لما كان ذلك هو السبب في منع "أفونسو دي البوكيرك" من التوغل ، فالآن قد وجد الطريق أمامه سالكاً ومفتوحاً ، وحينها كان الرب قد أراهم أنه يريد لهم النصر ؛ لأنهم من الآن وإلى ما بعده بدأ العدو في الهروب ، فأخلى منطقة التحصينات وظلت جموعهم تفر هاربة أمام رجالنا في طرقات القرى ، وقد هربوا عبر اثنتين من البوابات المؤدية إلى الداخل إلى قرية أخرى ، تقع خلف بستان نخيل كانوا قد اختاروها كمكان آمن يلوذون به وقت الحاجة ، وكانوا قد وضعوا نساءهم وأطفالهم وممتلكاتهم في هذه القرية .

قرر "أفونسو دي البوكيرك" ألا يسمح لرجاله بمطاردة العدو ، ولذا فقد قنع بطردهم من منازلهم ، فاتجه إلى مزارعهم حيث عمل فيها تخريباً وتدميراً ؛ وأخيراً أضرم النار في مساكن القرية وفي عشرة من مراكب "الزاميكوس" وأربع من السفن التي كانت داخل الميناء ، وفي تلك العملية بلغت خسائرنا في الأرواح ثلاثة قتلى وحوالي عشرين أو أكثر من الجرحى ، وعلى طول طرقات القرية ، تم إحصاء حوالي سبعين من قتلى المسلمين .

بعدما فرغ "أفونسو دي البوكيرك" من تأديب هذه القرية ، ولم يعد أمامه ما يفعله ، غادر مبحراً إلى مكان آخر يسمى (مسقط) على بعد ثمانية فراسخ من موقعه الحالي . تعتبر مسقط أكثر قوة من الأماكن الماضية ، فلديها أسوارها العالية وكذلك عدة أبراج ومناطق حصينة ، وكانت قد حظيت بالعناية والترميم قريباً .

أيضاً كانت لديها وفرة في الذخائر ووسائل الدفاع الأخرى ، وقد أمها الكثيرون من المناطق الداخلية لتقديم المساعدة ، وبما أن هذه المدينة تقع قريباً من هرمز ، فإن الملك الذي يدرك قوة أسطولنا ، وسبق أن تعرضت بعض سفنه للاستيلاء بواسطة رجالنا في الهند ، فقد تيقن بأن جميع المناطق التي تقع على طول ذلك الساحل ، وبصفة خاصة مدينة مسقط ، قد حظيت بتجديد حصونها واستحكاماتها حديثاً .

عندما رأى "أفونسو دي البوكيرك" ذلك ، وتأكد من قوة تلك التحصينات والاستحكامات الدفاعية في المدينة ، أدرك أن سكان المدينة سوف يستقبلونهم بالسهام والرماح ؛ لذا فقد أرسل "أنطونيو دو كامبو" في زورق "باتيلة" إلى حاكم مسقط يحمل رسالة ، ورافقه في ذلك "بيرو فاز" وكيل الأسطول نظراً لإلمامه باللغة العربية .

ورد الحاكم بإرسال أحد المسلمين كي يخبر "أفونسو دي البوكيرك" برغبة الحاكم في السلام ، وبناء علاقة الصداقة معه ، وكان قد أرسل معه عدة جوالات من الأرز والتمور وكمية من الخراف لغذاء رجال الأسطول ، وكان الحاكم قد تلقى رسالة من

ملك هرمز يأمره فيها أنه في حالة ارتياد أية سفينة أو مجموعة من سفن ملك البرتغال ميناءه فيجب عليه أن يقدم لها المساعدات الممكنة من ملابس ومؤن غذائية .

لما رأى "أفونسو دي البوكيرك" أنه قد حظي باستقبال أفضل مما كان يتوقعه ، أيقن بأن الحاكم قد قدم له هدايا ، وأنه يرحب بالسلام دون كيد أو خداع ، فأرسل بعض رجاله إلى البر بهدف الحصول على مؤن غذائية وجلب المياه من بعض الآبار القريبة من الشاطئ .

بينما كان رجالنا يتزودون بالمياه ، رأوا رجلاً ممتلئ الجسم موفور الصحة لكن لا يضع غطاء الرأس الذي عادة ما يضعه المسلمون ، وكان يومئ بحركات وكأنه يواجه مشكلة ما ، وعندما اقترب حتّى أصبح على مرمى السمع من رجالنا بدأ يصرخ ويحثهم على الاختباء .

في الحال كان الشاطئ قد ضاق بجموع المسلمين ، وكان قد ترتب على "بيرو فاز" الوكيل الذي استلم المؤن ، والآخرون الذين يقومون بالتزود بالمياه أن يسارعوا إلى مراكبهم ، لكن قبل أن يصلوا إليها بدأ المسلمون يطلقون نيران مدفعيتهم من مراكبهم ، وعندما رأوا أنهم قد تأخروا في هجومهم هذا ضد رجالنا الموجودين في الشاطئ ، والذين كانوا قد أسرعوا للاحتماء في مراكبهم .

اتجهوا إلى أسوار المدينة وللمواقع التي سبق أن نصبوا فيها أسلحتهم المدفعية ، ومن هناك بدأوا في الصراخ والهتاف ، وشرعوا

في قصف رجالنا بعنف حتّى يخيل للمرء أن السماوات ستنطبق على الأرض بفعل هدير المواقع والصراخ .

لم يتخيل "أفونسو دي البوكيرك" كيف حدث هذا التغيير المفاجئ في الموقف ، كما عجز أيضاً الموجودون في البر عن إيجاد تفسير أو مبرر لذلك ؛ فهو عرف فقط أن الرجل الذي قدم لتحذيرهم هو الحاكم المحلي ، وذلك من خلال الحديث الذي دار بينه وبينهم بشأن اتفاقية السلام .

على العموم كان ما أمكنهم استنتاجه من خلال تبادل الرسائل هو أن الكثيرين من المسلمين قد قدموا لمساعدة الموجودين في مسقط في تلك الليلة ، فالسكان لا رغبة لديهم في السلام الذي وافق عليه الحاكم ، بسبب ذلك قاموا بمهاجمته ، أيضاً تبين أن الحاكم كان يطلب من القائد الأعلى أن يتذكره .

بعد ذلك سمع "أفونسو دي البوكيرك" أنه في الليلة التي شهدت مناقشاته ، كانت هناك فئة من قادة ملك هرمز قد وصلت على رأس ألفين من العرب لحماية المدينة ، وعندما رأوا أن معاهدة السلام قد تم الاتفاق عليها ، وأن الحاكم قد وافق على دفع جزية ، قوامها مئتان من الخراف ، وأربعمائة كيس من الأرز ، ومائتا كيس من التمر ، وأن البعض من هذه المؤن قد نقل بالفعل إلى السفن .

بدأوا في توجيه الشتائم للحاكم ، ووصفوه بأنه ليس سوى تيساً مخصياً ورموه بالضعف والجبن ، بالرغم من أنه يبسط نفوذه على

مدينة من أقوى المدن ، وهي مدينة لها من التحصينات ووسائل الدفاع ما يمكنها من الدفاع عن نفسها ، سيما بعد حصولها على مساعدات من ملكهم .

قد أمطروه بأقذع أنواع الشتائم متجاهلين توضيح "القاضي" الذي أخبرهم أنه قد فعل ذلك خدمة لملكه ، وليس بدافع أي شيء آخر ، اعتقد أن ذلك يُعد سعراً بسيطاً يدفعه كي يعطيهم المؤن والغذاء لقاء حرية وضمان حياة جميع الموجدين في المدينة .

لأنه يدرك تماماً ويذكر ما فعله رجالنا بالمدن الأخرى ، ولما رأى أنه ما من عذر مَن أعذراه قد وجد قبولاً لديهم ، وأنهم لم يتوقفوا عن توجيه الإهانات له ، وأنه لا يريد أن يرى عياناً الدمار الذي سيطال المدينة وسكانها ، ألقى بعمامته من فوق رأسه على الأرض وخرج عبر البوابة حتّى يدرك الأهالي حجم الإهانة التي تلقاها ، ومن ثم جاء لكي يحذر رجالنا .

لم يكن "أفونسو دي البوكيرك" على علم بكل ما حدث إلى أن أخبره بذلك "بيرو فاز" ، ويكفي أنه يعلم حجم المشكلة التي سببها المسلمون الذين لم يحترموا أسطولنا ، وبالتالي استقر رأيه وعزم على النزول في اليوم التالي نظراً لأن إحدى الهدايا قد ضاعت منه .

في هذا الوقت وبسبب الدمار الذي خلفه القصف بواسطة أحد المدافع الكبيرة ، كان المسلمون قد نصبوه فوق موقع عالٍ في السفن ، أرسل "أفونسو دي البوكيرك" "لوبيز دا كوستا" ، ومعه رجال في

سفينته لتعطيل ذلك المدفع ، وكان تنفيذ تلك المهمة قد تمخض عن قتل أحد رجال "أفونسو" وإصابة ثمانية منهم بجراح ؛ ومع ذلك فإن العملية لم تكتمل وعادت فرقة التنفيذ إلى السفن .

عندما رأى المسلمون ما يحاول "أفونصو لوبيز" القيام به ، أدركوا الدمار الذي خلفه ذلك المدفع على أسطولنا ، وبالتالي قاموا بنصب مدفع آخر في نفس الموقع ، ووضعوا عدداً من الرجال لحراسة المدفعين ، وفي الحقيقة قد سبب هذان المدفعان أضراراً بليغة بمقدراتنا حتّى بدأ لنا ذلك اليوم طويلاً .

بالتالي اضطرت سفننا لتغيير مواقعها ، وعلى العموم عندما هبط الظلام توقف المدفع عن القصف ، وبالرغم من ذلك كان على المسلمين عمل الكثير في صباح اليوم التالي في الشاطئ ، وحتى عندما ذهب "أفونسو دي البوكيرك" مع جميع قادته ، لم يتمكنوا من فعل شيء إزاء ذلك المدفع ، مثل ما فعلوا في ظهيرة اليوم الماضي .

لقد غضب رجالنا كثيراً بسبب الحيلة التي انطلت عليهم وسوء حظهم في اليوم الماضي ، لذا فقد شرعوا في مهاجمة العدو بضراوة ، وقاتلوا ذلك الجمع الكبير من العدو حتّى تمكنوا من طرده من ذلك السياج المحصن الذي كانوا قد أقاموه في الليلة الماضية ، وطاردوهم حتّى دخلوا المدينة في فوضى عارمة ، وتمكنوا أيضاً من طرده إلى الجانب الآخر من المدينة حيث يوجد هناك ميدان بين الأسوار والملجأ الذي يستخدم كموقع للاختباء .

لم يلجأ رجالنا للمغامرة بالذهاب إلى هناك ، وذلك ليس بسبب الإرهاق الذي أصابهم فقط ، وإنما أيضاً خوف "أفونسو دي البوكيرك" من أن يتعرض رجاله للوقوع في كمين لمجموعة جديدة من المقاتلين ، فاقنع نفسه بأن السيدة العذراء قد منحته نصراً سريعاً ، لذا فقد أمر رجاله كي يأخذوا قدراً من الراحة والاستجمام .

لقد فقدنا ثمانية من رجالنا وأصيب بجروح أكثر من عشرين محارباً ؛ أما العدو فقد بلغت خسائره في الأرواح حوالي سبعين من القتلى .

بين أولئك القتلى الحاكم نفسه ، وكان الحزن قد تملك "أفونسو دي البوكيرك" عند سماعه بموت الحاكم ، وحقيقة لم يكن قد ارتكب أي نوع من الخطأ عندما تراجع المسلمون عما كان قد تم الاتفاق عليه ، حسبما علم من بعض الأسرى الذين تم أخذهم سجناء .

لقد عثر على الحاكم في وسط الميدان الذي يقع بين أسوار المدينة وبين الملجأ الذي سبق ذكره ، وبالقرب منه ثمانية قتلى ، كان رجالنا قد مزقوا أجسادهم شر ممزق ، وكان عريف الملاحين "جورج فيرناندس" "Gorge Fernandes" في سفينة "أفونسو دي البوكيرك" قد سدد له الطعنة الأولى ، وبعدها أجهز عليه "دون أنطونيو دي نورونها" دون أن يعرف من هو .

هذا هو السهل الذي تم فيه العثور على جميع قتلى العدو ، كما عثر أيضاً على غنائم ثمينة ؛ فعندما قدم الحاكم كي يحذر "بيرو فاز"

فقد طلب من "أفونسو دي البوكيرك" أن يتذكره ، لذا فقد اكتشف أين يوجد منزل الحاكم وذلك بواسطة أحد رجال الدين "ملا" ، وكان كبيراً في السن ؛ وتكريماً له أمر "نونو فاز دي كاستيلو برانكو" بأن يذهب لحراسته حتّى لا يتعرض للنهب مع بقية المنازل الأخرى .

حقيقة لم يكن للحاكم من يرثه ؛ لأنه كان مخصياً ، لكن ذلك كان وفاء وعرفاناً لمن كان له فضل علينا ؛ وكان "نونو فاز" قد استحسن فكرة ضرورة توفير الحماية للمنزل ، لذا فقد ترك "الملا" داخل المنزل وبعدها أخبر "أفونسو دي البوكيرك" بذلك . بعدما غادروا هذه المدينة اتجهوا إلى مدينة أخرى ، تعرف باسم "صحار" ، لكنهم وجدوها خالية ، حيث هجرها سكانها قبل وصولنا .

عموماً كانوا قد وجدوا فيها فقط قاضي القلعة وثمانية من وجهاء المسلمين الذين آثروا البقاء فيها حتّى لا يصار إلى تدميرها ؛ وعندما أدركوا أنهم لن يتمكنوا من الدفاع عن المدينة توصلوا إلى اتفاقية مع "أفونسو دي البوكيرك" ، حيث قطعوا وعداً له بأن يصبحوا أتباعاً للملك "دوم مانويل" "D . Manuel" ، فأرسلوا القاضي إلى "جورج باريتو دي كاسترو" ، ومعه بعض الرجال لأجل رفع العلم فوق أحد أبراج القلعة التي تم تسليمها له فيما بعد .

بعد ذلك حمل نفس العلم على صهوة أحد الخيول ، وتبعه مجموعة من الناس ، وقاموا بمسيرة يعلنون أن القلعة قد آلت إلى ملك البرتغال ، وإن القاضي قد استلم العلم من "أفونسو دي

البوكيرك" القائد الأعلى لأسطولنا ، إضافة إلى ذلك ستكون هناك الجزية التي يستلزم عليهم دفعها مثلما كانوا يدفعون إلى ملك هرمز ، وذلك لإعانة حاكم القلعة وجميع الرجال الذين يقومون بالخدمة فيها ، وقد أخرج "أفونسو دي البوكيرك" الوثائق الضرورية لأجل تحرير هذه الاتفاقية .

بعدما مكث "أفونسو دي البوكيرك" مدة يومين في هذه المدينة ، غادر إلى مدينة أخرى تسمى "خورفكان" تقع على بعد خمسة عشر فرسخاً ، لكن لم يجد هناك ما يمكنه فعله ؛ لأنه عند وصوله قام السكان بمغادرة المدينة .

على العموم عندما كانت مراكبنا تقوم بإنزال رجالنا في البر ، وجدوا أن المسلمين هناك قد تجمعوا فوق أحد التلال ، بعدها أرسل "أفونسو دي البوكيرك" ابن أخيه "دون أنطونيو" للتحدث معهم .

كان فوق ذلك التل حوالي مائة من الرجال ، لكن واجه رجالنا ضغطاً كبيراً من المسلمين الذين دافعوا بشراسة لكي يحموا نساءهم وأطفالهم ، وفي سبيل ذلك تسببوا في تكبيد رجالنا الكثير من الخسائر والإصابات ، وحقيقة قاتل الطرفان بكل شجاعة ، فكان رجالنا يهاجمون بينما ظل المسلمون يدافعون عن أسرهم ومقدراتهم ، إلى أن اضطر المسلمون أخيرا للهروب بعدما تركوا عدداً من القتلى .

لكن أمكن أسر حوالي اثنين وعشرين منهم ، معظمهم من النساء والأطفال ، وعاد "دون أنطونيو" بهؤلاء الأسرى ، بالإضافة إلى مجموعة

من رجالنا الذين أصيبوا بجراح خطيرة ، وكانوا في حالة من التعب والإنهاك بحيث لم يقووا على السير .

لما كان هذا المكان قريباً جداً من هرمز ، واعتباراً لملكها ، فإنهم لم يقوموا بإضرام النار في المدينة ، وإنما قاموا بنهبها لمدة ثلاثة أيام ، وقد حصل "دون أنطونيو" على بعض المؤن والغذاءات وأشياء أخرى ، ومن ثم بدأ يتطلع إلى الوصول إلى ميناء المدينة الشهيرة هرمز التي تفوق شهرتها معظم أماكن التسوق والمراكز التجارية في العالم بأسره ، وبالفعل كان قد وصل إلى هناك بعد مضي ثلاثة أيام ، وذلك في نهاية شهر سبتمبر من عام ١٥٠٧م ، وسوف نتناول الحديث عن ذلك في الفصل التالي .

العقد الثاني ، الكتاب الثاني ، الفصل الثاني :

تقع مدينة هرمز في جزيرة صغيرة تسمى "جيروم" "Jerum" في أضيق جزء من مضيق الخليج الفارسي ، وتحتل مكاناً قريباً جداً من ساحل فارس الذي لا يبعد أكثر من ثلاثة فراسخ ، وعشرة فراسخ من ساحل البلاد العربية ، يبلغ محيطها أكثر من ثلاثة فراسخ بقليل ، وتتميز تربتها بالقحل الشديد والملوحة في الكثير من أجزائها ، ولا توجد فيها أية غطاءات خضراء طبيعية .

أما المدينة نفسها ، فهي عامرة بمبانيها الفخمة الرائعة ، وهي تجتذب كميات ضخمة من السلع التجارية ، نظراً ؛ لأنها تمثل المركز التجاري

الذي ترتاده السفن القادمة من كل من بلاد الشرق والغرب ، والقادمة من فارس و"أرمينيا" وبلاد التتار إلى الشمال ، وعلى الرغم من أن الجزيرة لا تتوفر فيها أية مصادر ، لكن ما تحمله تلك السفن من شحنات يجعلها غنية بتلك البضائع التي تأتيها من معظم مناطق العالم .

أما فيما يختص بالمياه ، فإنها تحصل عليها من ثلاثة آبار وأيضاً من بعض الصهاريج ، لكن هناك أيضاً كميات من المياه يؤتى بها من البر الرئيس لمملكة فارس ، بعضها بالسفن ، والبعض الآخر من البوارج ، هذا إلى جانب الخضروات والفواكه النية وفواكه آخر الموسم التي يتم استهلاكها بكميات وفيرة ، وهي تجلب من "موغستان" "Mugostan" ومن الجزر المجاورة والقريبة من "قشم" "Qishm" و"لارك" "Larak" وغيرها .

في المدينة وفرة من كل هذه الأشياء ، بحيث يقول المقيمون في هذه الجزيرة بأن العالم عبارة عن خاتم وهرمز تمثل حجره الكريم الذي يزينه . إن مملكة هرمز التي تمثل هذه المدينة حاضرتها ، وهي المدينة التي أخذت منها المملكة اسمها .

تقع على الساحلين العربي والفارسي والتي تحتوي على تلك الأماكن التي مر "أفونسو دي البوكيرك" من خلالها ، وهي عبارة عن مجموعة من المدن ، وسوف نتناولها بالحديث تفصيلياً فيما بعد .

كان بناء مملكة هرمز هذه وفقاً لتأريخ ملوكها ، والتي ترجمت لنا من الفارسية قد حدث كما يلي :

في عام ٦٨٠هـ أي بعد ميلاد النبي (محمد صلى الله عليه وسلم) ، وفي عام ١٢٧٣م بعد ميلاد منقذنا المسيح عليه السلام ، كان "أبا كهوم" قد حكم في فارس وهو في الواقع من حارب ضد "براهوم" عظيم التتار في معركة شهيرة ذائعة الصيت ، وهو أول أمير يعتنق الإسلام من أمراء تلك المناطق .

في ذلك الوقت كان هناك أمير يدعى ملك قيس ؛ لأنه يحمل اسم مالك قيس ، وهو سيد موانئ الخليج الفارسي ، ولديه سلطة في جزيرة "قيس" داخل تلك الموانئ التي تبعد من البر الفارسي نحو خمسة فراسخ ، قريباً من "رأس ناباند" "Naband Cape" .

كان هذا الملك قد حكم المنطقة الممتدة من جزيرة "جيروم" حتّى البحرين ، وكان لديه من الجيران ملكاً يدعى "جوردن شاه" "Jordan Shah" كانت دولته تقع في فارس قبالة جزيرة "جيروم" في إقليم "موغستان" ، التي تعنى بستان النخيل باللغة الفارسية ، وهرمز بالفارسية القديمة ، حيث وجدت مدينة تحمل هذا الاسم .

في العصور القديمة كانت هذه المدينة قد اكتسبت شهرة عظيمة ، حتّى أن بطليموس قد أدرج موقعها في خارطته الجغرافية في الجزء السادس من آسيا ، وأعطاها اسم "آرموزا" "Armuza" ، وكانت "آرموزا" هذه قد دمرت وبين أطلالها وجدت قلعة تعرف باسم "كوشتاك" ، ويقول البعض أن تلك ليست سوى مدينة "ميناب" "Menab" التي تقع على النهر الرئيس الذي يمد "موغستان" بالمياه .

يعتبر "جوردن شاه" جزيرة "جيروم" قبالة بلاده ، وقد أدرك أن مالك قيس لا يقيم لها وزناً ، لكن كان "جوردن شاه" قد تمنى أن يضم هذه الجزيرة إلى ملكه ورغم علمه بأنها ليست سوى منطقة قاحلة ، إلّا أنه ببراعته ودهائه سوف يتمكن من تحويلها إلى منطقة من أعظم المناطق إنتاجاً ومنفعة في "موغستان" بأكملها ، وبالتالي بدأ يفـاتح ملك قيـس في هذا الأمر وطلـب منـه أن يبيعـها إليـه قائـلاً له :

إن "جيروم" تقع على مبعدة من "قيس" "Qais" ولكنها قريبة إلى بلاده "موغستان" بحيث إن رجاله عندما يخرجون لصيد الأسماك لا يجدون ملجأ سوى "جيروم" ، وعادة ما يتسبب هذا الأمر في إثـارة خلافات بينهم وبين أتباع الملك مالك الذين يسكنون في تلك الجزيرة .

لذا فلأجل إيقاف معاناة هؤلاء الفقراء فإنه يناشده أن يبيعها له طالما أنه لا يحصل على دخل منها ، ولما كان ملك قيس غير مستفيد كثيراً من تلك الجزيرة فقد أبدا موافقته على بيعها إلى "جوردن شاه" لإرضائه ، وما أن أصبح هذا الأمر معلوماً لدى البعض وعلى وجه الخصوص عائلة الملك قيس ، عملت الملكة على منع هذه الصفقة ، واحتجوا أن جزيرة "جيروم" تعتبر مفتاح تلك الموانئ التي تمثل سيادته ، أما بالنسبة للجزيرة نفسها فهي ليست ذات قيمة لذا فيجب عليه ألا يوافق على جزيرة بتلك الأهمية لمنطقة "موغستان" بأكملها .

لما رأى "جوردن شاه" بأن مالك قيس قد تنصل عن وعده الذي

قطعه له بدأ يحتج بشدة ، ونتيجة لاحتجاجه هذا من جهة وبسبب قيامه برشوة البعض من معارضي مالك تم عرض الأمر إلى أحد المطوعين يدعى شيخ "دوينار" "Duinar" ، ونظراً لنفوذ هذا الشيخ فقد كان مالك "قيس" قد عينه حاكماً .

كان الشيخ "دوينار" يأمل – من خلال دعم الذين تمت رشوتهم . في تحقيق بعض المكاسب المستقبلية – وبعد عمل بعض الترتيبات مع "جوردن باشا" عرض الأمر على مالك قيس الذي سبق أن أعطاه كلمة شرف .

أضف إلى ذلك إن "جوردن شاه" لم يكن في مقدوره أن يغلق أو يفتح المضيق الذي موضع هذا الاحتجاج ، سيما وهو لا يريد أن يأكل تمر "موغستان" وحده ، أما المملكة فسواء كانت قد انتبهت لضرورة ما يجب أن يفعل في هذا الأمر أو أنها أدركت بأنه تعامل مع هذا الأمر بإهمال فقد كان ذلك مدعاة لذهابها إلى الملك .

حيث أخبرته بأنه لا يجب بأي حال من الأحوال أن يسمح بوجود عش النسر أمام درجة باب منزله ؛ لأنه سوف يفترسه وهنا استاء الملك إزاء الأهمية التي أعطتها الملكة لـ"جوردن شاه" والآن وتحت نفوذ البعض وضغوطهم أراد أن يريها نفسه كرجل له كلمته فردّ مجيباً :

"إن "جوردن شاه" ليس نسراً كما تصورته ، وأنه شخصياً إذا ما فرد جناحيه فذلك كفيل بأن يجعل "جوردن شاه" يرتجف رعباً

ليعود إلى رحم أمه ، وأضاف أن هذا الأمر يبدو له الآن مسألة كرامة وهو لا يريد أن يظهر للعالم أنه يهتم برجل مثله" .

أخيراً ومن خلال وساطة الشيخ "دونيار" والبعض من الذين تمت رشوته حصل "جوردن شاه" على الجزيرة ، أما الشيخ "دونيار" فقد صرح مقابل الدور الذي لعبه في هذه القضية أنه لا يريد شيئاً قط .

لكن بعدما استقر "جوردن شاه" في مدينة "جيروم" يجب أن يؤدي القسم بأنه سوف يدفع النفقات الكفيلة برعاية المصلى الذي سبق أن بناه تكريماً للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ربما أنه توقع أن يطالب الشيخ بهذا المعروف إلّا أن "جوردن شاه" كان قد اعتزم فعل هذا الأمر ، وعليه فقد قام بتوقيع الوثيقة الخاصة بهذا الأمر بكل رزانة واحترام .

حتى هذا اليوم فإن الملوك الذين تعاقبوا وخلفوا "جوردن شاه" ما زالوا ملتزمين برعاية المصلى ، ودفع نفقات صيانة هذا المسجد الذي بناه المطوع في منطقة تسمى "هونجز" بالقرب من مدينة "لار" التي تبعد نحو أربعين فرسخاً من هرمز .

ما إن آلت ملكية تلك الجزيرة إلى "جوردن شاه" حتّى أمر خلال وقت قصير ببناء سفن لإصلاح السفن العاملة بالمجاديف وتشييد موقع عسكري ، وأجبر جميع السفن العابرة بالقرب من مياهه على دفع الرسوم ، وقد تسبب ذلك في نشوب حرب بين "جوردن شاه" ، و"مالك قيس" استمرت لعدة سنوات وانتهت بتدمير جزيرة قيس نفسها التي

يقيم فيها مالك ، وعندما حار الدليل بمالك الذي لم يعد يعرف أي مكان يمكنه أن يلجأ له ؛ كي يرتب أمره كانت زوجته قد أخبرته بأنها لا تعتقد بوجود مكان آمن يحمي به غير رحم أمه .

إذ إن هذا هو مقر تقاعده الوحيد الذي يترتب عليه إعطائه إلى "جوردن شاه" ، وفي النهاية أصبح "جوردن شاه" حاكماً على دولة مالك .

لما كان مالك يقوم بدفع الجزية لمصلحة ملك فارس ، فقد اتجه الملك للدفاع عنه ، فأرسل جيشاً إلى "موغستان" لمحاربة "جوردن شاه" ، لكن لم ينتظر "جوردن شاه" كثيراً حتّى يتعرض لهجوم ذلك الأمير القوي ، فقد عجل بالرحيل مع جميع عائلته وممتلكاته إلى جزيرة "جيروم" تاركاً مدينته هرمز خالية من جميع السكان .

على ذكراها أسس مدينة أخرى تحمل نفس اسم "جيروم" ، وهي المدينة التي أصبحت الآن تؤول إلى مملكة البرتغال ، بعد ذلك عقد "جوردن شاه" اتفاقية مع ملك فارس ، بحيث أعلن له التزامه بدفع مبلغ بعينه بشكل سنوي ، وأن يرسل له سفيراً كل خمس سنوات لتجديد البيعة وتأكيد ولاءه بصفته أحد أتباعه .

بهذه الاتفاقية أصبح "جوردن شاه" عاهلاً مسالماً ليس فقط على إقليم "موغستان" بل أيضاً على الإقليم الذي انتزعه من مالك قيس ، ومن الآن فصاعداً نصب نفسه سيداً على جميع صناعة الشحن والسفن التي تدخل وتغادر موانئ فارس ، واستمر يبسط نفوذه كحاكم على الأقاليم الجديدة مدة ثلاثين عاماً .

عندما توفي "جوردن شاه" كان قد ترك اثنين من الأبناء هما "تورن شاه" و"محمد شاه" ، وقد حكم الأول مدة أربعة وثلاثين عاماً ، ونظراً لأنه لم ينجب أبناء لكي يرثوه فقد خلفه على الحكم أخوه "محمد شاه" الذي استمر يحكم مدة تسعة وعشرين عاماً بعد وفاته .

حكم "كوبادن" (ابن محمد شاه) مدة ثلاثين عاماً ، وعندما توفي ترك اثنين من الأبناء ؛ هما سيف الدين وقد حكم هذا مدة عشرين عاماً و"تورن شاه" شقيقه الذي حكام مدة ثلاثين عاماً بعد وفاة سيف الدين ، كان "تورن" قد ترك من الأبناء :

"مقصود" و"شابدين" "Shabdin" و"سارقل" "Sargel" و"شافيز" "Chavez" ، وهؤلاء حكموا جميعاً ، فالأول حكم مدة عشر سنوات والثاني إحدى عشرة سنة والثالث مدة عام ونصف ، أما سيف الدين فقد كان صبياً يبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة وهو قد خلف أخوته هؤلاء .

قد زامنت فترة حكمه وصول "أفونسو دي البوكيرك" إلى مدينة هرمز ولمزيد من الإيضاح سوف نتوقف قليلاً عند هذه النقطة . في حياة "شابدين" الشقيق الثاني "لتورن شاه" كان شقيقه "صارقل" هو الحاكم على "قلهات" ، وقد ظل حاكماً منذ فترة حكم أخيه الأكبر "مقصود" وبما أن المسلمين قد عرفوا بعدم الوفاء في معظم الأحيان ، فقد جرت العادات بأن يشك الأخ في أخيه والأب في أبنائه خاصة الذين ينتمون إلى هرمز ، حيث توجد أمثلة عديدة تبين أحداث الاغتيالات هذه ، وإذا ما كان المغتصب للحكم رحيماً ، فإنه يكتفي

بسمل عيني الملك وكما سنرى فمن هذه العائلة وحدها اكتشف "أفونسو دي البوكيرك" أكثر من عشرين ملكاً سُملت أعينهم بالنار .

بدأ "صارقل" يخشى بأس شقيقه الثاني "شابدين" الذي كان حينذاك قد توج ملكاً ، وفي النهاية ازداد خوفه ، ومن ثم هرب إلى داخل البلدان العربية حيث أسس مُلكه ، واتجه يطلب الحماية من الملك "سليمان برنابهون" الذي يحكم في تلك المناطق التي يسميها المسلمون عمان ؛ لأنه عندما كان والده "تورن" على قيد الحياة كانت هنالك خطط أعدت "لصارقل" كي .

(...)

عندما تم الاتفاق على المشروع أمر "صارقل" بأن الصهرين "ريس نور الدين" و"ريس كمال" يجب أن يذهبا بحراً بينما سيذهب برفقة ملك لاساه عن طريق البر ، على أن يلتقوا جميعاً في "جلفار" "Gulfar" ، وهي مدينة تقع على ساحل البلاد العربية التي تؤول إلى مملكة هرمز ، وهي أقرب مكان إلى هرمز في المضيق .

هكذا التقى الجميع في جلفار بعدما سلك كل منهم طريقاً مختلفاً حيث كان "صارقل" قد وصل مع مجموعته ووصل الملك "شافيز" بأسطوله الضخم لكي ينتظر شقيقه .

لكن عندما قدم الملك كي ينضم إلى المعركة وجد نفسه وحيداً حيث تخلى عنه الجميع ، واكتشف أنه ما من أحد سوى حاكمه

"خواجا عطّار" ، بصرف النظر عن "خواجا عطّار" ، فقد أخذ سجيناً حيث رغب "صارقل" أن يتم تسليم شقيقه في الحال لكن لم يرد الملك "لاساه" تسليم "شافيز" له ما لم يتعهد بأنه لن يقتله ، وبالفعل وعده بذلك ، لكن بعدما تبين "صارقل" بأنه أصبح ملكاً على هرمز قام بسمل عيني "شافيز" ومن ثم وضعه في المنزل ، حيث يتم الاحتفاظ بجميع الأشخاص الذين سُملت أعينهم .

لقد شاءت إرادة الرب أنه في نهاية فترة حكم "صارقل" والتي استمرت ثلاثين عاماً أنه لم يترك أبناء لكي يتولوا الحكم من بعده ، وبالتالي انتقل الحكم إلى سيف الدين ، وهو ابن ملكهم "شافيز" وكان سيف الدين يبلغ من العمر اثني عشر عاماً عندما وصل "أفونسو دي البوكيرك" إلى مدينة هرمز التي كانت حينها تحكم بواسطة "خواجا عطّار" بسبب الخدمات التي قدمها لوالده .

كان رجلاً فطناً حاد الذكاء مع أنه كان مخصياً وعمل خادماً لجد الملك "تورن شاه" ، وفي تلك المناطق جرت العادة بأن يقوم الملوك بتوظيف مخصيين من الرقيق من مختلف الأجناس .

عندما يكتشفون إخلاصهم وولاءهم فإنهم يولونهم كامل ثقتهم ويكلفونهم بأداء أهم المهام في الدولة ، ولعل السبب في ذلك ربما يعود إلى حقيقة أنهم طغاة ، فمن ناحية هناك الخوف الذي ينتابهم بحيث يجعلهم يتجنبون تعيين حكام أقوياء حتّى لا يكتسبون حب الجمهور ومن ثم يتواطؤون معهم في أعمال الكيد والخيانة .

من ناحية أخرى يكمن حبهم في ممارسة طغيانهم ، هذا بإذلال الناس واستعبادهم بأيدي العبيد ، وفي معظم الأحيان يقومون بنزع ممتلكات أولئك العبيد ثم يعيدون لهم سلطانهم مرة ثانية ، حتّى يتمكنوا من سرقتها مجدداً فيما بعد ، فهم يحبون هؤلاء المخصيين أكثر ؛ لأنه لا أبناء لهم كي يسرقون منهم ، ولهذا تجد العبيد مقربين جداً من العرب أما الملوك الوثنيين فإنهم لا يستخدمون العبيد في تلك الأغراض .

على الرغم من أنهم يتعاملون مع الحكام إلّا أن هؤلاء العبيد لا يتمتعون إلّا بأوضاع اجتماعية متواضعة . هؤلاء العبيد أنفسهم – سوف نرى فيما بعد – من خلال استمرارنا في رواية هذه القصة – أنهم غالباً ما يقومون باغتيال أسيادهم والاستيلاء على ممالكهم لأن الإنسان بطبيعته يمقت الخضوع والتبعية ويتحملها بصعوبة بالغة على مضض ، وبسبب حبه للحرية فإنه لا وجود لمكان في هذا العالم يخلو من وجود أسلحة للدفاع عن الحرية .

عودة للتحدث عن "خواجا عطّار" وهو واحد من أولئك الذين تحولوا إلى طغاة في مملكة هرمز بسبب أن الملك حينها كان طفلاً يافعاً يماثل التشريع أو النظام الأساس لا إرادة له في حد ذاته ، وعندما سمع عن كل الأشياء التي يقوم بها "أفونسو دي البوكيرك" على طول ساحل البلاد العربية ، فهو لم يكتف بتزويد نفسه بجميع السفن التي يحتاجها بل أنه احتجز سفناً أخرى ببضائعها كانت قد ارتادت ميناء هرمز قادمة من الخارج تنتظر وصول رجالنا .

بالإضافة إلى تمتعه بقدر وافر من الذكاء فقد حظي أيضاً بقناعة من حوله بأنه محارب ماهر عظيم ، لا يشق له غبار في المعارك والحروب والصراعات التي حدثت في هرمز ، فالمدينة تعتمد في حماية نفسها والدفاع عنها على شخصه وحده كما هو الحال أيضاً بالنسبة لترميمها وتزويدها بالمؤن الغذائية للمحاربين والتي أرسل في طلبها ؛ كي يؤتي بها من فارس والبلدان العربية .

أيضاً كان قد أعطى توجيهاته بشأن كيفية تنظيم القوات في السفن ، وهذا الأمر أكسبه أيضاً المزيد من الشهرة ، ولهذه الأسباب وغيرها كان يخشى الملك وجميع رجالنا قبل وصول "أفونسو دي البوكيرك" ، لقد كانت لديه قوة مكتملة حتّى أضحى الوجهاء يشكّون فيه ؛ لأنه كان قد ملأ المدينة بكاملها من العرب والرماة الفرس ، وعمل كل ما يلزم من التجهيزات والتحصينات للدفاع عنها حتّى أصبح الناس يعتقدون أنه يخطط حتّى يتمكن من الاستيلاء على المملكة كلها لنفسه .

أخيراً ، عندما حان وقت وصول "أفونسو دي البوكيرك" إلى مدينة هرمز كانت المدينة قد زودت تماماً بكل السلع والمؤن بشكل جيد وذلك بفضل ترتيبات "خواجا عطّار" ، وقد ملكت حوالي ثلاثين ألف محارب أكثر من أربعة آلاف منهم من الفرس الرماة وهؤلاء جنود لهم مهارات عالية في ذلك الفن ، وهناك أكثر من أربعمائة من السفن الشراعية .

تتضمن ستة من السفن الكبيرة منها واحدة تعود ملكيتها إلى ملك "كامبي" ، وهي ذات حمولة تتجاوز ثمانية أطنان ، وأخرى تؤول إلى ملكية أمير آخر ذات حمولة مماثلة ، وفي هاتين السفينتين وضعت قوات قوامها ألف جندي ، وفي بقية السفن ألف وخمسمائة جندي ، وتلك تؤول إلى بعض الوجهاء المحليين مثل "خواجا عطّار" الذي احتجز تلك السفن للدفاع عن المدينة .

أما بقية السفن الأخرى فهي سفن حربية يطلق عليها اسم طرّادات ، وتلك كانت تستخدم في جلب جميع الأشياء الضرورية من البر الرئيس إلى المدينة ، هناك حوالي ثمانين سفينة أخرى توجد في السفن قيد البناء .

العقد الثاني ، الكتاب الثاني ، الفصل الثالث :

كيف وصل "أفونسو دي البوكيرك" إلى مدينة هرمز - والحرب التي دارت بين السفن داخل الميناء . عندما وصل "أفونسو دي البوكيرك" إلى ميناء مدينة هرمز في نهاية شهر سبتمبر وكان قد اختتمها بأن رفعت السفن أعلامها ولواءاتها ، ولكي يبرهن في هذه الزيارة الأولى أنه معتاد أكثر على مثل هذه المدن ، وأن هذه الأعداد الكبيرة من السفن لم تثر اهتمامه قام بإلقاء مرساة سفينته وسط خمس من أقوى هذه السفن من بينها سفينة ملك "كامبي" "ميري" وكان قد اقترب منها كثيراً حتّى تشابكت طافياتها .

بدلاً من القيام بتحية المدينة وسكانها عند رسوه . بادر بإدهاش كل

فرد ، وذلك حين ملأ الميناء بهدير وأدخنة مدفعيته التي ظلت تهدر لمدة نصف ساعة ، بل إنه استخدم أصغر أسلحته في هذه العملية .

كان الرعب الذي سببه عنيفاً بحيث جعل المراكب والبوارج تتحرك وتتداخل في بعضها البعض ، وتحمل كل واحدة منها رسائلها التي يعتقد أن روحاً شيطانية تحركها ، وبدأت تتحرك تارة إلى الأمام وأخرى للخلف من البر نحو البحر ، كأن هذا الرعب سوف يحدث لهم بوصول هذا المضيق المخيف ، البعض منهم كان قد شهد من قبل مغبة غضبنا في المدن الواقعة على طول ذلك الساحل بينما الآخرون نالوا تحذيرا بشأن قوتنا .

من خلال ما استنتجه "أفونسو دي البوكيرك" كان كل هذا النشاط البائس ذي صلة بنقل رسائل بشأن أفضل الطرق ؛ لخوض وإدارة المعركة سيما أنهم اعتقدوا أن "أفونسو دي البوكيرك" سوف يعمل على النزول إلى البر لكي يبدأ القتال فوراً .

على العموم ولكي يظهروا لـ"أفونسو دي البوكيرك" بأن المدينة قد استعدت بشكل جيد لمواجهته وأنها ليست غير محصنة بحيث يعتقد أنه سوف يحقق نصراً سهلاً ، فقد تم حشد ثمانية آلاف من الرجال ، بعضهم مسلحون وآخرون بدون أسلحة كانوا قد خرجوا إلى الشاطئ .

كانوا يريدون أن يعطوا الانطباع بأنهم موجودون هناك ليس بهدف استعراض قوتهم ، وإنما يريدون رؤية جميع تلك السفن باختلاف

أنواعها وكل أولئك الأجانب الموجودين فيها ، ولم يكتفوا بوجودهم فقط على البر وإنما في البحر أيضاً . كانت السفن مليئة بالرجال ، ولعل أكثر السفن قوة تلك التي تعود إلى ملك "كامبي" ، بعدما طال انتظار "أفونسو دي البوكيرك" لأكثر من ساعة من الزمن لكي يأتي أحد لزيارته ، بدأ يشعر التعب من جراء هذا الانتظار ، وبالتالي أرسل زورقه يحمل رسالة إلى كبرى سفن "كامبي" ونظراً لروعتها فقد بدت له أنها سفينة العلم .

كانت الرسالة التي أرسلها قوية جداً بحيث جاءت نتيجتها بشكل عاجل ، فقد عاد زورق "أفونسو دي البوكيرك" مخفوراً بزورق آخر من سفينة المسلمين ، يحمل قبطانها وستة من الرجال .

يدل مظهرهم على علو مرتباتهم ، ولما كان "أفونسو دي البوكيرك" يحب أن يفعل كل شيء بكل رزانة وأناقة ، فقد انتظر وصول زورق المسلمين ، وهو جالس تحت ظله في وسط سفينته على كرسي عالٍ ، مغطى بالحرير فوق سجادة فخمة ، وكان قد ارتدى رداءً مقلماً بالدمقس ، ووضع درعاً آخر ، وقد وضع خوذة على رأسه مزينة بالذهب ، وعلى يساره كان يقف إلى جانبه غلامه يحمل سيفاً جميلاً .

من الناحية الأخرى ، فإذا كان قد جاء بهدف تنفيذ الأعمال التي قام بها في المدن التي تعود لسيده ملك هرمز ، فإن استقباله سوف يكون مشروطاً ومتوقفاً على وصوله إلى هناك ، لقد كان يحمل حينها هذه الرسالة من "خواجا عطّار" والحضور أيضاً ؛ لكي

يقف على حقيقة ما يريده "أفونسو دي البوكيرك" ، لكن اقتضت الضرورة أن ينتظر إلى حين توقف القصف . حينها أعرب "أفونسو دي البوكيرك" له عن شكره وتقديره ، لحضوره ولقد فهم كلماته الملتوية بالإنابة عن "خواجا عطّار" ، وبالتالي جاء رده على النوايا الخفية وراء الرسالة أكثر من الكلمات نفسها قائلاً إنه قائد الملك "دوم مانويل" ملك البرتغال .

قال إنه قد جاء مرسلاً من قبله بأسطول إلى ساحل الجزيرة العربية ؛ لكي يمنح السلام لكل من يوافق على أن يصبح تابعاً للملك "مانويل" ، ومن يقوم برفض هذا العرض فسوف يقوم بسحقه وتدميره ، وبصفته القائد الأعلى للجيش فقد نفذ الأوامر التي تلقاها من سيده جلالة الملك في أي مكان حط فيه .

لقد فعل ذلك بالتعاون مع رئيس أركان الجيش الذي قدم معه من البرتغال ، وكان رئيس أركان الجيش هذا قد واصل إبحاره بأسطوله العظيم إلى الهند لكي ينضم إلى نائب الملك هناك ، وترتب على "أفونسو دي البوكيرك" مواصلة الرحلة وحده حيث دخل إلى ساحل البلاد العربية ، وهناك وجد أناساً متكبرين ومضللين ، يرغبون في الحرب أكثر من السلام الذي عرضه عليهم .

يقف على يمينه غلام آخر يحمل خنجراً ، ووقف جميع النبلاء والوجهاء بأسلحتهم مشكلين مجازاً ضيقاً لمرور الذين يرغبون في

التحدث إليه ، وفوق سطح السفينة كان الرجال يحملون أسلحتهم وحرابهم وبنادقهم ، وقد تسلحت مجموعة منهم بالسهام والأسلحة الأخرى للدفاع عنه وحمايته . كان المسلم وسيماً حسن الطلعة أنيقاً في ملبسه ، وقد جاء وكأنه يريد أن يبدو سيداً ماجداً ، وقد وضع على رأسه عمامة من الحرير المذهب ، ارتدى التنك المصنوع من الساتان ذو اللون القرمزي والمطرز بألوان أخرى .

قد بدا باهظ الثمن ولائقاً ، وحول خصره يتدلى سيف قصير مزخرف بالذهب والحجارة الكريمة وخنجراً من نفس الطراز ، وكان يحمل في يده قوساً وأربعة سهام وقد وافقه غلام يحمل درعه ، وعندما دخل المسلم السفينة كان عليه أن يمر أمام جميع حاملات الأسلحة (بأمر من "أفونسو دي البوكيرك") .

لكن بالرغم من هذا العرض فقد كان الرجل نبيهاً وشجاعاً ، فبدأ كأن ذلك لم يثر اهتمامه أو قلقه ، وعندما مثل أمام "أفونسو دي البوكيرك" حياه بانحناءة طويلة خافضاً رأسه حتّى ساوى مستوى خاصرته ، وكانت تلك هي عادتهم المتبعة ، ومثله فعل جميع مرافقيه ، وكان "أفونسو دي البوكيرك" قد استقبله بشكل ودي وأجلسه بجنبه على نفس الوسائد الحريرية .

بعدما جلس المسلم بدأ يتحدث مستعيناً بترجمانه قائلاً إنه يرحب بالقائد "أفونسو دي البوكيرك" أجمل ترحيب واستطرد قائلاً : "إن "أفونسو دي البوكيرك" وصل بشكل غير متوقع في هرمز ، حتّى

أن الملــك لم يجد الوقت الكافي لكــي يستعد لاستقبال هذا الضيف العظيم .

حقيقة أنه كان وقت وصوله قد تلقى رسالة من سعادة "خواجا عطّار" حاكم الملك يخبره فيها عن نوعية السفن الموجودة داخل الميناء ، وفي إطار الأنباء المتوفرة أن "خواجا عطّار" ربما كان قائد ملك البرتغال الذي أحدث فوضى عارمة في الساحل العربي ، فإذا كان "أفونسو دي البوكيرك" قد جاء زائراً كصديق فألف مرحباً به كصديق وسوف يلقى كل الاحترام والتكريم كقائد لملك عظيم .

(...)

في اليوم التالي عاد المسلمون برسالة من جلالة الملك وحاكمه "خواجا عطّار" ، تفيد بأن هذه المدينة لم تتعود على دفع الجزية ، وإنما تتلقى عائدات من خلال السلع والبضائع الداخلة والخارجة من الميناء ، فإذا كان "أفونسو دي البوكيرك" يرغب في التجارة .

إنهم لم يمانعوا في ذلك وأنهم سوف يقبلون بتهديدات "أفونسو دي البوكيرك" بأنه سوف يهاجم المدينة في الحال ، وهي تهديدات أراد بها زرع الخوف في نفوسهم ، بحلول الليل كانت هناك صرخات وهتافات في المدينة وكذلك في السفن كما سمعت أصوات الطبول وأسلحة الحرب وكلمات ساخرة توجه إلى رجالنا .

لكي يضيفوا المزيد على هذه البلبلة والتشوش ، ما أن أصبح

الصبح حتّى خاضت السفن والمراكب بالرجال وجميعهم كانوا في الشاطئ ، ولما كان "خواجا عطّار" قد اعتقد أن رجالنا ربما ينزلون إلى البر ويضعون الأسلحة ، فقد امتلأ الشاطئ بكامله بالرجال .

في المدينة لم تبق نافذة أو سقف أو شرفة إلّا وقد امتلأت بالناس وكأنهم ينتظرون عرضاً مسرحياً أو عيد ، وكان بودهم أخذ رجالنا أحياء ، في ظل ما يتمتعون به من شهرة في مجال الملاحة فقد أمر "خواجا عطّار" بذلك ؛ لأنه يريد أن يوزعهم بين سفنه .

كان "أفونسو دي البوكيرك" قد فهم أن هذا الأمر لا يمكن معالجته إلّا باستخدام القوة ، لذا فقد بادر بدعوة مجلسه للانعقاد حيث اتفق القباطنة على وقت وخطة الهجوم ، وحينها تم تقسيم المسؤوليات بينهم ، وأوصاهم بألا ينزلوا إلى الشاطئ إلّا بعد صدور أمره لهم ، وسيكون ذلك فقط بعدما تقوم مدفعيتهم بالهجوم اللازم ، وقد اتجهت آماله ودعواه للرب بأن يكتب النصر لسفنهم وبعدها سوف يتجه لشن الهجوم على المدينة .

عند الصبح أعطى إشارة البدء بالهجوم ، ومن ثم شرعت المدفعية في إطلاق نيرانها ، وكانت سفننا تقطر بعضها بعضاً لكي تقترب من سفن العدو ، وحينها ردت مدفعيتهم النار – لكن لم تكن حقيقة بقوة مدفعيتنا .

كان القصف عنيفاً والدخان كثيفاً والصراخ عالياً حتّى بدا المشهد أشبه بالجحيم . تطور الأمر من فرض التشوش والارتباك

والدخان حتّى أصبحوا لا يرون أو يسمعوا بعضهم ، بينما كان كل هذا القتال مستمراً قام العدو بتنفيذ خطة كان قد أعدها مسبقاً ، حيث كان قد جهز حوالي مائة وعشرين مركباً حربياً يعمل بالمجاديف ، وكانت تلك مخبأة بين السفن ، بحيث تقوم بشن هجوم على سفننا .

ذلك في وقت محدد متفق حوله عندما يصبح الدخان كثيفاً بحيث يحجب الرؤية ، عموماً تحرك سرب من هذه المراكب الحربية ذات المجاديف الطويلة ، وشرعت في مهاجمة سفننا من أحد الجوانب وسط صرخات عالية كانت تسمع بوضوح بالرغم من هدير المدافع ، وقام الرجال بإلقاء أنفسهم على رجالنا وسط زخات من وابل السهام والحراب التي أسهمت في اختراق أجساد الكثيرين منهم .

ظلوا يهاجمون مرة وأخرى وينتقلون من سفينة إلى أخرى بشكل منظم ، وكانوا نشيطين في عملهم ويدركون أن رجالنا في السفن لا يقدرون على اللحاق بهم ، بل أنهم حاولوا الصعود إلى السفن ، لكن حقيقة كانت جرأتهم هذه قد كلفتهم الكثير عندما أسرعت سفننا بالتحرك بعيداً بحيث صعب عليهم الوصول إليها .

كانت في نفس الوقت تواصل إطلاق نيران الأسلحة الصغيرة من مدفعيتها بشكل منخفض بحيث أرسلت الكثير من مراكبهم إلى القاع ، وبعد ذلك توقفوا عن هذا الشكل من الهجوم واتجهوا ينشدون الحماية في سفنهم الكبيرة بالقرب من البر .

وخلال هذه العملية كان "خواجا عطّار" مع بعض قباطنته في أحد المراكب المجهزة بشكل جيد على مقربة من البر ، يشجع رجاله ، ويرسل لهم رسائلاً يوصيهم فيها بأن يعملوا على دخول مراكبنا باستخدام السفن الصغيرة .

على العموم ، لما رأوا الدمار الذي طال مراكبهم الحربية لم يتجرؤوا على الذهاب إلى الشاطئ ، وظل يصدر أوامره من نقطة آمنة بين البر وكبرى السفن ، حيث وجد مكاناً آمنا يحتمي به من نيران وقصف مدفعيتنا ، ومن هناك أمر مزيداً من الرجال كي يحضروا من البر لاستخدام تلك المراكب الحربية .

على الرغم من أن هؤلاء المسلمين قد عوقبوا بشدة من قبل مدفعيتنا إلّا أنه أصر أن يعودوا لكي يهاجمونا مجدداً بسهامهم ، ولما بدأ رجالنا يتأقلمون على مواجهة مثل هذا الهجوم ، فقد نجحوا في إغراق حوالي خمسة عشر أو عشرين من مراكبهم .

لما شاهد رجالنا عدداً من رجال تلك المراكب يسبحون نحو الشاطئ للنجاة بأنفسهم تماماً كالمسلمين الآخرين من السفن الذين أرعبتهم مدفعيتنا أكثر مما أرعبهم البحر ، أحسوا بالنصر ومن ثم سارعوا بالقفز من بعض المراكب الصغيرة وبعضاً من السفن ، وظلوا يلاحقون جموع السباحين ، وعملوا فيهم طعناً بسيوفهم ورماحهم حتّى تحولت مياه البحر وبدت حمراء بسبب دمائهم .

في ظل استمرار هذا القتال تمكن "أفونسو دي البوكيرك" الذي

كان مرابطاً بشكل قريب من سفن العدو من إغراق اثنتين من السفن كانت واحدة منهم تعود لملكية أمير "كامبي" ، وعندما حاول الدخول في السفينة "ميري" وجد مقاومة شرسة ، واستغرق ذلك وقتاً طويلاً حتّى تمكـن من السيطرة عليها ، وكان أول من دخلها هو الكابتن "بيرو غونسالفيس" "Pero Goncalves" الكابتن الرئيس في الأسطول ، وكان معه بحار يدعى "بيرو فيرناندس" "Pero Fernandes" .

جاء من بعدهم "قاسبار دياز" "Gaspar Dias" حامل راية "أفونسو دي البوكيرك" الذي فقد يده في هذا الاشتباك ، وكان "أفونسو دي البوكيرك" قد منحه معاشـاً تقاعـدياً بمبـلغ عشرة آلاف ريل ، كإعانة مستحقة له طيلة حياته ، بعدهم كان "جورج دا سيلفيرا جوميز تيكسيرا" "George da Silviera" ، "لورينسو دا سيلفا" وأحــد النبــلاء الصقليــين ، "جــواو تكسيرا" ، "جواو منديز بوتيلهو" "Joao Mendes Boutelho" ، "نونو فاز دي كاستيلو" ، "غونسالو كويمادو" "Goncalo Quemado" ، "جواو منديز دي إلها" "Joao Mendes de Elha" و"بيرو كام" "Pero Cam" ذلك الشاب من بلاد الملك ، وآخرون كثيرون ، وقد تمكنوا من إفراغ البحر من كل المسلمين الذي يذودون عنه والذين قذفوا في البحر ، كان خوفهم من البحر أقل من خوفهم من سيوف رجالنا .

أما قادتنا في السفن الأخرى ، فإن أداءهم بالنسبة للمهام التي أوكلت لكل واحد منهم لم يكن أقل من أداء "أفونسو دي البوكيرك"

بالرغم من قيامه بمهاجمة أكثر السفن خطورة في الميناء ، وقد تمكنوا جميعاً من السيطرة على كل السفن التي هاجموها .

لما رأى المسلمون في السفن الأخرى ما حل برفاقهم ، ما كان منهم إلّا أن تركوا مراكبهم وألقوا بأنفسهم في البحر كي يصلوا سباحة إلى الشاطئ ، بعد ذلك ترك رجالنا السفن التي خلت من وجود أية تدافع عنها ، وأبرحوا بالمراكب والطرّادات التي استولوا عليها على طول الشاطئ حيث أضرموا النار في أكثر من ثلاثين مركباً ، وقطعوا حبال مراسيها بعدما أشعلوا النيران فيها .

حملتها الرياح التي كانت تهب على الجزيرة بعيداً حتّى توقفت في ساحل فارس ، وبعدما أضرموا النار في المراكب في البحر أمر "أفونسو دي البوكيرك" بأن يصار إلى حرق عدد كبير من السفن الموجود في ترسانة بناء السفن في إحدى ضواحي المدينة ، إذا لا يوجد في المدينة من يتجرأ على الدفاع عنها إذ كان هناك خوفهم من سيوف ونيران رجالنا ، وقد كثفوا جهودهم في عمليات إنقاذ أنفسهم باللجوء إلى مخابئ داخل المدينة .

كانوا قد خافوا من أن يكون انتصارنا عامل تشجيع لرجالنا لدخول المدينة على الرغم من أن الوقت كان متأخراً في ذلك اليوم .

بينما كانت هناك سفينتان أو ثلاث من سفنهم تحترق استقبل "خواجا بيريم" مع أحد المسلمين أحد المراكب ، وبدءا يمران وسط السفن رافعين علماً أبيضاً ، وكأنهما يريدان إيصال رسالة ما . أرسل

"أفونسو دي البوكيرك" كابتن "نونو فاز" إلى "كاستيلهو برانكو" في أحد المراكب مع "قاسبار بيريس" "الترجمان" للتعرف على ما يريده الرجلان ، لكن كان المسلم الآخر الذي رافق "خواجا بيريم" ينتمي إلى "غرناطة" ويتحدث الإسبانية بطلاقة ، وكان قد جاء كمترجم ، وعندما كان يقترب من "نونو فاز" بدأ يتحدث بطلاقة لم يكن مترجمنا في حاجة لها .

عندما مثلا أمام "أفونسو دي البوكيرك" كان من ضمن ما تفوها به لإرضائه هو رسالة رئيسه مفادها أن سيده الملك و"خواجا عطّار" يطلبان منه أن يوقف هجومه ، وأن يلقي أوامره التي أصدرها لأجل إضرام النار في السفن وترسانة بناء السفن في ضاحية المدينة ، وتوسل إليه بأن يقنع بما تسبب فيه من الخسائر الجسيمة وضياع أرواح الكثيرين من الناس ، فالخسائر ألحقت بالكثير من السفن والممتلكات ، تسببت في فشل مساعيه لاكتساب صداقة الملك .

كل ذلك الدمار الذي أمر به يمكن أن يؤكد حقيقة أن المتضرر ملك البرتغال نفسه ؛ لأن ملكه ومملكته كلها هم رهن خدمته ، ومنذ ذلك اليوم وما بعده فإن ملكه سوف يخضع كل ملكه للاستجابة لكل الشروط التي يفرضها "أفونسو دي البوكيرك" باسم الأمير العظيم جلالة الملك .

تأكيداً لحديثه وللموافقة على معاهدة السلام ، فسوف يرسل ملكه مبعوثه في اليوم التالي عندما يكون الطرفان قد أخذا قسطاً من

الراحة ، وأقبلوا على المعاهدة بقلوب مفتوحة ومزاج سليم أفضل مما هم عليه في هذه اللحظة .

سوف يكون هذا مناسباً لكلا الطرفين ، لـ"أفونسو دي البوكيرك" القائد الأعلى الذي كان سعيداً بالانتصار ولملكه الذي كان حزيناً لعدم القبول بما عرضه عليه "أفونسو دي البوكيرك" بالإنابة عن حكومته الذين يرغب في معرفتهم وخدمتهم ، وفي ذلك اليوم صعب التصالح بين السرور والغضب ، أيضاً كانوا عمى بحيث لم يعرف المنتصرون كيف يطلبون والمنهزمون لم يعرفوا كيف يذعنون .

لما كان "أفونسو دي البوكيرك" قد رغب عن تدمير المدينة (ولو أنه كان بمقدوره أن يفعل ذلك ، ولكن رغب في أن يجعلها تخضع لملكه) حيث إنه بوضوح كامل كان قد أجاب بأنه مقتنع باحتواء غضب رجاله لكنه يحذرهم أنهم إذا ما احنثوا بوعدهم ، ولم يفقدوا ما تم الاتفاق عليه أو لم يستجيبوا لمطلبه فإنه سوف يصار إلى حرق مدينتهم ؛ لأن البرتغاليين يتسامحون في المرة الأولى والثانية ولكن ليست الثالثة ، وما يدفعه للقسوة والعقوبة أكثر من إثارة غضبه واستيائه أعمال الغش والوعود الكاذبة .

في إطار اعتباره للملك الذي أبلغ عنه بأنه صغير السنّ ، وأنه لم يكن مسؤولاً عما جرى ، فقد رغب في العودة إلى سفنه دون إحداث أي دمار في ذلك اليوم ، ولأنه كان قد شاهد بأن النار قد

اشتعلت في ثلاث أو أربع من السفن ، فقد أخبر "خواجا عطّار" أن يعمل على إطفائها لكن حذّره من مغبة تأجيج غضب البرتغاليين بعدم الوفاء بوعوده في اليوم التالي .

بعدما أرسل المسلمين عاد "أفونسو دي البوكيرك" وقادته إلى سفنهم وكانوا مرهقين من جراء الأعمال التي ظلوا ينجزونها من التاسعة صباحاً وحتى قبيل غروب الشمس .

لقد توفي عشرة من رجالنا وهناك أكثر من خمسين من الجرحى ، ومؤخراً علم أن أكثر من مائة وستين محارباً من المسلمين قد قتلوا ، وهناك حوالي ثمانمائة جثة من رجال العدو ظهرت طافية فوق سطح مياه البحر وكانت تلك مصدراً مريحاً من الغنائم بالنسبة لبحارتنا ؛ لأنهم استغلوا مراكبهم لجمع سيوف القتلى والكثير من قلائد الذهب والفضة والخواتم والجواهر التي يلبسها المسلمون .

لعل أكثر الأمور غرابة والتي حدثت في هذه المعركة ، والتي اعتقد رجالنا أنها لابد أن تكون معجزة ، هي حقيقة ما اكتشفوه أن الكثير من المسلمين القتلى قد توفوا بسبب السهام والرماح التي اخترقت أجسادهم ، وتبين أنهم كانوا ضحايا لسهامهم تلك ؛ لأنه لا يوجد أحد من رجالنا كان قد استخدم قوسه مثلما استخدمها العدو .

العقد الثاني ، الكتاب الثاني، الفصل الرابع :

كيف تمكن سيف الدين ملك هرمز من توقيع معاهدة سلام

مع "أفونسو دي البوكيرك" لكي يصبح فيما بعد تابعاً للملك "دوم مانويل" ، والقبول بأن يدفع له جزية قوامها ألف وخمسمائة "زرافينا" ، وكيف انتهكت اتفاقية السلام هذه؟ وما هي الأسباب؟

حسبما ذكرنا من قبل ، لم يكن ملك هرمز قد تجاوز عمره الثانية عشرة ، ونظراً لصغر سنه ، ولأنه كان تحت وصاية الطاغية "خواجا عطّار" لم تتوفر لديه حرية التصرف أو حتّى الشجاعة ؛ كي يناقش الأمور مع أي فرد آخر ، كما لم يتجرأ أي شخص لفعل ذلك بسبب غيرة "خواجا عطّار" الشديدة على سلطانه ، بحيث كان الملك نفسه وأتباعه يعيشون في خوف دائم منه .

خاصة بعدما أقدم "خواجا عطّار" (بحجة الدفاع عن المدينة) على استقدام مجموعات هائلة من أصدقائه الفرس والعرب إلى المدينة ، وفي ذاك اليوم الذي شهد اندلاع الحرب لم يقتل أحد قط من رجاله ، ورجع جميعهم أحياء وفي أحسن حال ، وكان هناك مواطنو المدينة الذي استبسلوا في الدفاع عن ثرواتهم ومقدّراتهم ونسائهم وأطفالهم ، وخسروا حياتهم وأرواحهم .

نظراً للأعداد الكبيرة التي لاقت حتفها في المدينة ، فقد أقيمت المآتم وأماكن العزاء ، ولا يكاد المرء يجد منزلاً واحداً لم يقم فيه عزاء بمناسبة موت أحد أفراد الأسرة ، وفي ظل سعيه وراء أطماعه كان "خواجا عطّار" دائم التفاخر وجافاً غليظ العشرة ، وعموماً فعندما شاهد هذا الحزن والعويل خشي أن "أفونسو دي البوكيرك"

إذا ما نزل إلى البر في اليوم التالي فإنه لن يجد من يمكن أن يدافع عن المدينة سوى القليل جداً من الرجال .

عندما يتم احتلال الجزيرة فهو بصفته القائد سوف يتعرض للعقوبة الصارمة أكثر عن أي شخص آخر ، سيما والكثيرون جداً يكنون له العداء والكراهية ، لذا قد رغب في النقاش دون أن يستجيب لمطالب "أفونسو دي البوكيرك" ، وخاف أيضاً من أن يتحول عليه غضب كل فرد ، وبالتالي فقد طرح جانباً ما كان يعتزم فعله في المستقبل لكي يقرر بوسيلة مختلفة .

في المركز الرئيس لجلالة الملك اجتمع بجميع قادة المدينة للتذاكر فيما يجب عمله ، فأخبرهم بشأن الرسالة التي وجهها الملك إلى "أفونسو دي البوكيرك" لكي يتوقف عن الاستمرار في الهجوم والرد الذي أرسله "أفونسو دي البوكيرك" إليه ، وبعد الكثير من النقاش تم الاتفاق على أن يوافق الملك على الشروط التي طرحها "أفونسو دي البوكيرك" ، حتّى ولو كان الخضوع مماثلاً للموت .

لكن يظل الأمل باقياً طالما بقي الرجال أحياء ، ومن الأفضل الانتظار وترقّب لطف أولئك الناس دون إثارة غضبهم ، أضف إلى ذلك أنهم عرفوا بالتجربة كل ما فعله رجال "أفونسو دي البوكيرك" أثناء مرورهم عبر البلاد الأخرى في هرمز ، حيث إنهم لم يؤذوا كل من أعلن لهم استسلامه ، قد قيل إنهم قوم يحاربون سعياً وراء المجد والشهرة أكثر من رغبتهم في

الاستحواذ على بلاد الآخرين ، وغالباً ما يقنعون بالحصول على الغنائم والعودة بها .

الرجال الذين جابوا البحار لتحقيق تلك الأهداف ورغب ملكهم في التأكد من حظر دخول أية شحنات من التوابل في البحر الأحمر ، يكفيهم أنهم بسطوا نفوذهم على ساحل "ملبار" ، وتحقق لنائب ملكهم بناء القلاع هناك لأجل ذلك الهدف . أنهم ليسوا مهتمين بغزو البلاد الداخلية ، وقد اتجهت الآمال إلى أن مثل هؤلاء الناس ليسوا في حاجة للتبعية لمدة طويلة ويمكن أن يصار إلى اقتداء كل شيء مقابل مبلغ مالي كبير .

لما كان قد منحوا وقتاً قصيراً من الزمن لكي يعودوا بردّ من "أفونسو دي البوكيرك" ، فبمجرد توصلهم إلى اتفاقية في الصباح سارع "خواجا عطّار" بإصدار أوامره برفع الرايات البيضاء فوق مقر سكن الملك .

بعدها أرسل اثنين من المبعوثين المسلمين وأحد القادة باسم ريس نور الدين "قوازلة" ، لكي يشرعوا في التفاوض بخصوص اتفاقية السلام مع "أفونسو دي البوكيرك" ، وفي ظل حرص "خواجا عطّار" ، فقد قرر أولاً أن يختبر ميول "أفونسو دي البوكيرك" قبل أن يلتقي به وجهاً لوجه .

بعدما تبادل الطرفان الرسائل – وافق الملك على مطالب "أفونسو دي البوكيرك" ، وفي ذلك اليوم تحديداً تم تحرير معاهدة السلام

والتوقيع عليها بواسطة كلا الطرفين ، وقد جاءت كما يلي : ولكي تعطى هذه الاتفاقية الاعتبار والأهمية اللائقة بها ، تقرر أن يتم القسم والتوقيع على هذه المعاهدة بواسطة الملك وحكومته وكذلك "أفونسو دي البوكيرك" ، بحيث يلتقي الطرفان فوق دعامة خشبية ممتدة بعيداً من داخل البحر .

بعدما تم إعداد كل شيء بشأن هذه المراسيم احتفالاً بتأكيد تلك المعاهدة قدم الملك إلى موقع الاحتفال يرافقه "خواجا عطّار" والريس نور الدين والمسؤولون والأمراء والنبلاء في بلاطه ، وبدأوا في أبهى ملابسهم وكأنهم في يوم عيد ، وكانت هناك كل مظاهر ولوازم الاحتفالات البهيجة ، كانت الدعامة قد غطيت بسجاد فاخر .

أما الظلة فقد نصبت هناك وغطيت بأقمشة حريرية وذهبية حيث جلس الملك ينتظر وصول "أفونسو دي البوكيرك" ، وعندما ترك "أفونسو" السفن وأبحر في مراكبه كان قلقاً نوعاً ما ؛ لأنه ما أن شرع في المغادرة حتّى تناهت إلى أسماعه أصوات وهدير الأسلحة المدفعية .

كانت صاخبة أحدثت ضجة عارمة ، وتمكن بصعوبة من الوصول إلى الجسر حيث تم استقبالهم هناك وسط أصوات الطبول والمزامير ، وأمامهم عرضت الأعلام كما عرضت أيضاً أنواع من الحراير والأقمشة القرمزية والعقود والسلاسل الذهبية والكثير من الحلي المصنوعة من الذهب والفضة .

بما أنه كان قد عرض الكثير من الأشياء الفارسية الرائعة أيضاً

كانت هناك المعروضات البرتغالية المرغوبة ، وقد تبارى الطرفان في عرض ما يمكن أن يلائم هذه المناسبة الرائعة ، سيما وأن ملكهم قد أصبح تابعاً لملك البرتغال "دوم مانويل" .

حقيقة ، أنهم لم يتمكنوا فقط من كسب تبعية قوم مثل هؤلاء المسلمين الهمج ، بل أيضاً كان هناك الإثيوبيون والوثنيون من "ملبار" أو من المقاطعات البدائية التي تحكم من أوروبا التي برغم ضخامة مساحاتها وكثرة سكانها تبدو قوية جداً .

لكن يلاحظ من ثيابهم المصنوعة من أرخص أنواع القطن والصوف وأثاثات منازلهم وحليهم الشخصية أنهم ما يزالون متخلفين عن بقية شعوب العالم ، وهم يتبعون لملك ينتمي إلى سلالة الفرس الملكية العريقة ، ويعتبرون قوماً لهم خبرة عريقة في مجال العلوم والأسلحة والحكم ، ويعرف عنهم الرقي في اختيار ملابسهم وممارسة عاداتهم ، وقد كتب عنهم زينوفون في موسوعته قائلاً :

"قلما يجد المرء ملوكاً مشهورين ذائعي الصيت أو شعوباً أكثر قليلاً يمكن أن يصبحوا قدوة لليونانيين" .

على الرغم من أن هؤلاء الفرس تحولوا إلى برابرة في الوقت الراهن بعد اعتناقهم مذهب محمد (صلى الله عليه وسلم) ودخول العرب في بلادهم ، لكنهم ما زالوا عظماء في تعاملاتهم ، كما أن ممتلكاتهم ومقتنياتهم مصنوعة من الذهب والفضة واللؤلؤ والحجارة الكريمة والحرير .

عندما انتهت مراسيم توقيع هذه الاتفاقية الجليلة المتعلقة بمسألة التبعية والخضوع ، استأذن "أفونسو دي البوكيرك" جلالة الملك كي يسمح له بالانصراف . عاد بفرحة انتصاره إلى السفن حيث استقبل بموسيقى مدفعيته التي يحتفلون بها في مهرجاناتهم التي يقيمونها ، وأيضاً تم استقبال الملك بعد رجوعه بواسطة جمع كبير من الناس بملابسهم الزاهية وأظهروا رضاهم وقناعتهم عن اتفاقية السلام .

لم تتوقف الاحتفالات بهذه المناسبة فقط على هذا اليوم ، بل استمرت تلك الاحتفالات لليومين التاليين في المدينة وكذلك في السفن ، حيث ظلوا هناك يقضون فترة الاحتفالات ابتهاجاً بتوقيع تلك الاتفاقية الجليلة ، وبعدها بدأ "أفونسو دي البوكيرك" يوجه اهتمامه نحو العمل في القلعة التي سميت بمبنى اللجوء ، بالنسبة للذين ترتب عليهم البقاء هناك .

بخصوص هذا العمل أمر الملك بأن يصار إلـى دفع خمسة آلاف "زيرافينا" على حساب الخمسة عشر التي يترتب عليه دفعها كجزية . أيضاً قدم مساعداته التي تمثلت في توفير مواد البناء وتوفير بعض المسؤولين والخدم الذين تم تكلفيهم بجلب وخلط الجص بمخلوط آخر يماثل البيوتين القراء الذي يستخدمونه في تلك المنطقة في أعمال المباني التي تحتاج إلى تأسيس قواعدها في المياه كما هو الحال بالنسبة لهذه .

لقد سبق أن استخدم في بناء منازل الحاكم ، حيث تم عمل مدخلين يواجه الأول ناحية المدينة ويطل الثاني على البحر مباشرة

بحيث يمكن للمرء الدخول بدون مواجهة أية خطورة والخروج دون أن يعوقه أي عائق .

لما كان قد تم تقسيم العمل بين القبطانيات ، فقد جلب رجالنا حجارة البناء في مراكبهم وذلك من بعض المباني ، وكذلك من حجر يقع في مكان ما في الجزيرة يسمى "تيرمباكا" ، وبخصوص أعمال البناء هذه كان "أفونسو دي البوكيرك" قد أدار العمل على النحو التالي : في الصباح الباكر يأتي الرجال من السفن مستقلين جميع المراكب الصغيرة والزوارق إلـى مكان العمل .

عند المغيب يعودون أدراجهم إلى السفن ، وكانت عمليات الذهاب والإياب الكثيرة والمتكررة قد أخفيت عن أعين المسلمين كيلا يكتشفوا قلة عدد البرتغاليين ، لذا فقد كان الخوف ينتاب البرتغاليين لأن المسلمين إذا ما انتبهوا لقلة العدد ، فليس بمستبعد أن يقوموا بمحاولة نزاع لإيذائهم والإضرار بهم .

نظراً للاعتقاد السائد بينهم بوجود ألفين من الرجال داخل السفن ، فلكيلا تنمحي هذه الفكرة ظل يقوم بتغيير الرجال من وقت لآخر ، وكأنه يدير ملهاة أو مسرحية كوميدية ، فأسلوب الذهاب والرجوع لهؤلاء الرجال ظل يتغير بين الفينة والأخرى ، فتارة يظهرون وهم يحملون السلاح وأخرى بدون سلاح ، كما تتغير الملابس أيضاً ، وتقوم بهذا التمويه كل السفن لأن الخطة متقاسمة بعينها .

عموماً بعد مرور عدة أيام على هذا العمل الذي يؤدى بأقصى السرعة ، أرسل "خواجا عطّار" رسالة إلى "أفونسو دي البوكيرك" يخبره فيها أنه من ميناء بندر "اتقون" الواقع على البر الرئيس – وهو ميناء يستقبل السفن الفارسية والقوافل التجارية – وصل مبعوثان من قبل ملك "شيراز" يطالبان بجزية من نوع خاص ، ظل ملوك هرمز ومنذ وقت طويل يرسلونها إلى ملوك فارس .

لما كان ملك "شيراز" تابعاً للشيخ إسماعيل الذي يعتبر ملك فارس بأكملها والأقرب من هرمز ، فهو قد طالب بدفع هذه الجزية ، سيما وأنها أصبحت مستحقة الدفع في الوقت الراهن ، وكان قد أرسل رسالة إلى السلطان ، إذ طالما كانت مملكة هرمز تلك تحت حماية ملك البرتغال الذي فرض عليها الجزية وكان هو القائد والقائم على الترتيبات تلك ، يجب أن يقوم بتحرير رسالة الرد التي يترتب على ملك هرمز إرسالها حتّى يقف سيده على ما يريد أن يقوله .

كان "أفونسو دي البوكيرك" قد أدرك إلى حد ما أن ملوك هرمز قد كانوا يدفعون الجزية إلى ملوك فارس ، لكنها لم تكن على قدر تلك الأهمية مثلما هي عليه الآن ، وبما أن "خواجا عطّار" رجل يتمتع بقدر وافر من الذكاء والحصافة ولا يفتقر للمهارة ، فقد شعر "أفونسو" أن المبعوثَين قد جاء بهما لغرض ما ربما له صلة بما خطط له .

أرسل لهما رسالة يخبرهما بأنه راغب بشدة في إرسال الرد للمبعوثين ، وعليه يرجو أن يرسلا له أشخاصاً مسؤولين لكي ينقلوا

له رسالته هذه إليهم ، وعندما مثل أولئك الرجال المشهورون أمام "أفونسو دي البوكيرك" طلب منهم أن يقسموا على القرآن ، وقام بتسليمهم بعضاً من القذائف المدفعية ، ورؤوس الحراب وحزماً من السهام .

طلب منهم أن يقسموا بأنهم استلموا هذه الأغراض ، وأن يتعهدوا بتسليمها للمبعوثين ، وأن يقولوا لهم بالإنابة عن القائد الأعلى أن الملوك والأمراء الذين يدفعون الجزية لملك البرتغال عندما يتلقون طلب "الجزيات" من الآخرين تدفع لهم بهذه العملة ؛ لأنه يمتلك مناجم مليئة منها لأجل أعدائه .

أما بالنسبة لأصدقائه فإنه يفتح لهم خزائنه إذا ما كانت لهم حاجة ، وإذا كان ملك "شيراز" يريد شيئاً من ملك هرمز – الملك سيف الدين – فإنه "أفونسو دي البوكيرك" يقوم ببناء قلعة هناك لكي يملأها بمثل تلك الأموال وبأعظم الرجال المثابرين ، وعليه فهو يطلب مثل هذه المدفوعات لذلك الغرض ؛ لأنه يترتب عليهم أن يردوا على الملك سيف الدين .

لم يكن "خواجا عطّار" مقتنعاً بهذا الرد ، سيما وهو يقوم مقام ذلك الوفد الرباعي ، وهو الأمر الذي عرفه "أفونسو" فيما بعد ، وفي ظل استمرار العمل في القلعة كان قد شعر بألم مزعج يداهمه ، وبالفعل شوهد أنه يضع طوقاً ثقيلاً حول عنقه والذي حسب اعتقاده يمثل نهاية لغطرسته وطغيانه ، هناك فئة من سكان المدينة تناهضه وتقف ضده ، لذا فيما ظل مقيماً في القلعة لم يتجرأ البعض الآخر برفع

عينه أمام أي برتغالي ، وهذا يتناسب تماماً مع مزاجه إذ إنه يبحث عن وسائل لكي يوقف بها هذا العمل المتواصل ، وعندما فشل ابتكر موضوع المبعوثين هذا ، ولم يعد ذي جدوى ، فبدأ التفكير في مشروع آخر نوجزه فيما يلي :

سعى "أفونسو دي البوكيرك" لمنع المسلمين من أن يكتشفوا حجم قوته وقلة عدد رجاله ، وأيضاً تجنب حدوث أي تصرف سيّئ وسط الرجال المسلحين ، لذا فقد أمر بأن يكون في كل سفينة من سفنه وكيلاً يعمل بالتناوب (في زمن جزئي) ، بحيث يقوم ومعه الكاتب وستة من الرجال الذين يكونون ساعتها في عطلتهم الرسمية بالذهاب إلى المدينة ؛ لشراء كميات من المؤن الغذائية والأغراض التي يحتاجها الموجودون على متن السفن .

بخصوص أمر الشراء هذا ، كان الملك "دوم مانويل" قد وجه القادة مسبقاً في الأعوام الأولى من اكتشافاتنا ، عندما لم تكن هناك أسباب لانتهاك السلام وإزعاج السكان المحليين أيضاً ، ألا يخدع الناس بعضهم بعضاً أو يتنازعون فيما بينهم فيما يتعلق بشراء البضائع وعمليات بيع ممتلكاتهم ؛ وذلك مراعاة لمصلحة الجميع .

لما كان الناس غير راضين عن عمليات الشراء التي تتم من خلال هذا الوكيل والكاتب ، فقد بدأوا يعلنون صراحة احتجاجهم إلى سعادة القائد الأعلى ، وأنهم لن يكونوا من يقومون بشراء تلك الجواهر إلّا بعدما يرونها بأعينهم ؛ لأن هذه الأمور تعتمد على

الذائقة الفنية في الاختيار ، كما أن هرمز تعتبر سوقاً تجارياً رائجاً يمكنه أن يلبي احتياجات وأدوات الكثيرين . عموماً هذا الأمر قد تطور ومن ثم بدأت قلة منهم ترافق هذين المسؤولين إلى المدينة لكي يقنعوا الناس بالعمل في القلعة .

عرف "خواجا عطّار" أن رجالنا يذهبون في فئات قليلة للمدينة من وقت لآخر للتسويق وشراء تلك الأغراض ، وعليه فقد أرسل خمسة أو ستة من رجاله .

(...)

من قبل ، اعترض بقوله : إنه برئ فيما يتعلق بموضوع الرجال الذين طلبهم ، وإنه لم يكن قط سبباً في أية تحركات يمكن أن توصف بأنها تؤدي إلى الحرب ، أما إذا كانت تلك التحركات جائرة ، فلا شك أنها سوف تقع على عاتق صانعها .

**وفي العام نفسه (١٥٠٧م)**

**جاءت أحداث اكتشاف وفتح الهند بواسطة البرتغاليين ، كما كتبه "فيرناو لوبيز دي كاستانهيدا" "Fernao Lopes de Castanheda" ، من الفصل السادس والثلاثين إلى الفصل الرابع والسبعين : (٣)**

**الفصل السادس والثلاثون :**

بعد أن ضربت عاصفة هوجاء أسطول "تريستان دا كونها" خارج مدغشقر ، اتجه به إلى "موزمبيق" ، وهناك أبلغه "لوبيز دا كوستا" بوفاة "بيرو دي أنهايا" "Pedro da Anhaya" قائد "سوفالا" . أبحر "جواو دا نوفا" من "زنزبار" حيث قضى فيها فصل الشتاء ، لكنه عاد إلى "موزمبيق" بسبب تسرب المياه إلى داخل سفنه في "رأس الرجاء الصالح" ، ولم يتمكن من مواصلة رحلته .

(٣) رقم الوثيقة والهامش.

لأن القائد العام "تريستان دا كونها" كان صديقاً حميماً "لجواو دا نوفا" ، فقد طلب منه الذهاب إلى الهند معه ، وقد فرح "جواو دا نوفا" كثيراً للقيام بذلك ، وحمل شحنته على السفينة "لاغوس" "Lagos" وبعث "أنطونيو دي سالدانها" "Antonio de Saldanha" إلى البرتغال معها . كان أنطونيو سعيداً بالذهاب ؛ لأنه أراد أن يطلب من الملك منحه أمر مسؤولية قلعة "سوفالا" .

ظل القائد العام في "موزمبيق" في انتظار بداية رياح "المونسون" حتّى يتمكن من الإبحار إلى "سوقطرة" ، كان يتوقع "روي سواريز" الذي كان عليه العمل تحت إمرة "أفونسو دي البوكيرك" على سفينة "بيرو كوريزما" .

بما أنه لم يصل أعطاه "تريستان دي كونها" الذي أراد مساعدة "أفونسو دي البوكيرك" ، أعطاه "جواو دي نوفا" بدلاً عن "روي سواريز" . كانت سفينة "جواو دا نوفا" ضخمة وتحمل العديد من البحارة وقادرة على إحضار عدد من الرجال الذين سيشكلون أسطول "أفونسو دي البوكيرك" ليصل إلى أربعمائة وخمسين رجلاً .

عند حلول رياح "المونسون" غادر القائد العام في فبراير من عام ١٥٠٧م وتبعه "افونسو دي البوكيرك" ، "جواو دا نوفا" ، "فرانسيسكو دي نافورا" ، "أنطونيو دا كامبو" ، "مانويل تيليس باريتو" ، "أفونسو لوبيز دا كوستا" ، "روى دياز بيريرا" "Rui Dias Perreira" ، "جوب كويمادو" واثنان آخران . ذهب بعد مغادرة "موزمبيق" إلى "كيلوه" "Kilwa" ووجد "بيرو فيريرا فوجاسا" "Pedro Ferreira Vogasa" ،

وكان هذا الأخير قد أرسل إلى هناك بواسطة نائب الملك الذي أعفاه من منصبه كقبطان نتيجة لمؤامرات الوكيل التجاري .

قد قدم شكوى فيما بعد لملك البرتغال حول ذلك ، وأقر الملك بخطأ نائب الملك في فصله ، وبعث برسالة إلى "فوجاسا" أبلغه فيها تقديره بما قدمه من خدمات جليلة ، كما بعث له ستين ألف ريالاً ، وأمر بإلقاء القبض على الوكيل التجاري في "كيلوه" ، بعد القيام بـذلك غـادر إلـى "ماليندي" حيث التقى "ليونيل كوتينهو" "Leonel Coutinho" .

نزل عن سفينته وذهب لزيارة الملك ، وقدم له عربياً يدعى سيدي محمد كان قد أرسل إلى ملك "ماليندي" بواسطة ملك البرتغال ، كان العربي من تونس سلمت له بعض رسائل الصداقة ؛ ليأخذها إلى البابا ، كان من المفروض أن يذهب للبابا من "ماليندي" مع عربي مسيحي كان يدعى "جواو سانشيز" ورجل برتغالي يدعى "غوميز هوجاردو" .

وعد الملك بإرسالهم ، وأبحر القائد العام إلى "هوجا" وهو مكان يقع على مسافة عشرين فرسخاً من "ماليندي" ، تشاجر فيها مسؤولو المدينة مع ملك "ماليندي" ، حتّى أن القائد العام أراد أن يدمرهم إذا لم يصلوا لاتفاق ويعيشوا في سلام معه ، وكان هذا في مصلحة ملك "ماليندي" ؛ لأن من يريد أن يكون في سلام معنا لابد أن يكون في سلام معه .

عندما وصل القائد العام إلى هناك بعث برسالة سلام إلى

مسؤولي البلدة ، لكن بما أنهم كانوا عرباً وعدائيين تجاه رجالنا ، لم يستمعوا حتّى للرسالة ، وجاؤوا للشاطئ وهم يصيحون صيحات الحرب ، ويظهرون الكثير من التفاخر ؛ بلغ عددهم ألفين ، معظمهم من حاملي النبال ، بينما كان عددنا ألف رجل .

عندما رأى القائد العام أن عرضه قد رُفض ، صمم على تدمير المكان ، وأبلغ الضباط بما اعتزمه ، طلب من "أفونسو دي البوكيرك" أن يذهب في المقدمة ، وذهب هو للشاطئ مع العديد من النبلاء ورجال آخرين ليقود الهجوم ضد العرب . قاتل العرب بشجاعة وبسالة .

عندما انتهى رجالنا من عملية الإنزال ، احتدمت معركة رهيبة ، إلّا أنها لم تستغرق طويلا لأن العرب لم يتمكنوا من الصمود أمام هجومنا ، وانسحبوا نحو مكان واسع ، سهل على رجالنا قتل كل من استطاعوا الإمساك به ، وأشعلوا النار بعد ذلك في البلدة ، وعندما رأى العرب أنهم هزموا لم يجدوا الشجاعة لمواجهة رجالنا ، وأطلقوا سيقانهم للريح تاركين المكان .

طلب القادة من رجالنا التوقف ، وعدم مطاردة العدو ؛ لأنهم اكتفوا بالعدد الكبير الذي قتلوه ، بينما لم نفقد نحن أيّاً من رجالنا ، بعد انتهائهم من إحراق البلدة عادوا للأسطول .

## الفصل السابع والثلاثون :

بعد تدمير بلدة "هوجا" "Hoga" ، واصل القائد العام تقدّمه حتّى وصل إلى مدينة "بروشا" "Brosha" أو "برافا" "Brava" كما يسميها

البرتغاليون ، وهي تعود للعرب ، وتقع على مسافة ثمانين فرسخاً من "هوجا" ، يحيط بها جدار منخفض وخندق ، لها طرق مخططة جيداً ومنازل عالية مصنوعة من الحجارة مصبوغة باللون الأبيض ، لها نشاط تجاري كبير ، ولذلك يتواجد بها العديد من التجار ، ليس لها ملك ، ولكن يحكمها رجال من كبار السن .

في طريقه إلى هناك استولى القائد العام على سفينتين من سفن "كامبي" ، كانتا تحملان حمولة غالية الثمن ؛ وعندما وصل كل الأسطول عند المدينة بعث "ليونيل كوتينهو" للشاطئ يعرض السلام ؛ فأخذ "ليونيل" عشرين رجلاً معه ، بينما طلب سفن الأسطول الحربية عند الشاطئ ، وهي تحمل الكثير من الرجال لإنقاذ "ليونيل كوتينهو" إذا ما حاول العرب التعرض له أو إيذائه .

عندما رأى العرب العدد القليل من رجالنا الذي ذهب للشاطئ ، خرج مائة منهم لمواجهتهم ، وسأل أحدهم "ليونيل" عما يريد ، أجابه "ليونيل" عبر مترجم ، وقال له بأن القائد العام أحد رعايا ملك البرتغال ويود أن يبرم السلام معهم .

تحدث العرب فيما بينهم ، وأبلغ المترجم "ليونيل" بأن ينسحب ؛ لأنهم يريدون قتله ، وهذا كان موضوع الحديث بينهم . سمع ذلك الحديث "جواو دي ليما" "Joao de Lima" الذي نزل للشاطئ ، وكان عمره ثمانية عشر عاماً ، فأبلغ عمه "ليونيل" بعدم الانتظار أكثر من ذلك ، لم يستمع "ليونيل" لنصيحة ابن أخيه ، وطلب من

المترجم أن يخبر العرب بأنه لم يأت للقتال ، وإنما لإبرام السلام ، ويريد منهم إجابة حتّى يبلغها للقائد العام .

واصل العرب حديثهم حول قتله ، فانسحب وهو يقاتل تقريباً حتّى يمر ؛ لأن العرب تابعوه حتّى البحر ، حيث أنقذه "روي بيريرا كوتينهو" "Rui Perreira Coutinho" والآخرون ، وعادوا جميعاً مرة أخرى ليتحدثوا مع العرب الذين فروا عندما شاهدوهم قادمين باتجاههم ، فعاد "ليونيل كوتينهو" للقائد العام ، وأبلغه بكل ما حدث ، عندما علم بالوضع .

استدعى المجلس وأبلغ قادة الأسطول بالرسالة التي بعث بها للعرب ، وكيف كان رد فعلهم ، فقال "أفونسو دي البوكيرك" في الحال ، أنه بما أن العرب لا يريدون السلام ويشعرون بهذا الزهو والغطرسة ، فإن علينا قتالهم ، وجعلهم يدركون الخطأ الذي ارتكبوه بعدم الاستماع للنصح والتبصر .

كان ذلك هو أيضاً رأي كل من "ليونيل كوتينهو" و"روي بيريرا كوتينهو" و"فرانسيسكو دي نافورا" ، بينما قال الآخرون بعدم مهاجمة المدينة ؛ لأنها محصنة تماماً وبها العديد من الرجال الذين يستطيعون الدفاع عنها .

من ناحية أخرى لم يأت البرتغاليون بأي معدات مناسبة لمهاجمة المدينة المحصنة ، كما أن موقع الرسو كان خطيراً جداً ، ومن يحاول الوصول إلى الشاطئ سيعاني كثيراً . عندما استمع القائد العام للجدال الذي جرى بين الجانبين ، نظر للذين نصحوه بعدم الهجوم

وقال لهم : "أيها السادة ، أعلم أنكم تتحدثون ليس لأن الحماسة والجرأة تنقصكم ، لكنكم تنظرون لمصلحة رجالكم ، كما ينظر لذلك كل قائد جسور ، وأنا أعلم أنكم كذلك ، وإن قاسمكم نصف رجالكم تلك الصفات ، فإنني أعلم أنكم ستنزلون إلى الشاطئ ، وتستولون على المدينة حتّى وإن كان هناك ثلاثة أضعاف عددكم من العرب ، وإن المخاطر داهمة وعظيمة مما هي أصلاً .

لكن بما أنكم تخشون ألا يتمكن رجالكم من الوقوف بمثل صلابتكم ، فإنكم أيضاً تخشون عدم نجاحكم في محاولتكم ؛ ولهذا السبب أعتقد أنه من غير الحكمة أن نهاجم العرب .

أعلم أنكم تخاطبونني كرجل خبير بالأمور ، لكنني أنا نفسي لست بالخبير بعد والمجرب على الأقل في هذه الأنحاء ، أود لو أشاهد كيف يهاجم البرتغاليون وكيف يدافع العرب عن أنفسهم .

أنهم واثقون جداً من أنفسهم نتيجة لتفوقهم العددي ، ولا أشك في أنهم سيأتون لمواجهتنا خارج المدينة ، فإن فعلوا ذلك فإنني أؤمن برحمة ربنا ، وإنه سيضاعف من جهد رجالنا حتّى لا يتمكن العرب من الوقوف أمامهم ، بل يذهبوا ليبحثوا لأنفسهم عن ملجأ في المدينة ، وعند هروبهم سيطاردهم رجالنا ويدخلوا المدينة معهم ، وإن لم يهربوا سنعمل جاهدين ألا يبقى منهم أحياء .

أما بخصوص مخاطر النزول من السفن والادعاء بأن العرب سيتسببون لنا بأضرار جمة خلال محاولتنا النزول ، فإننا سنحل

هذه المسألة بالذهاب للشاطئ قبل طلوع النهار ، وبهذه الطريقة عندما يأتون إلى الشاطئ سنكون نحن في طريقنا إلى المدينة . أطلب منكم الموافقة على ما أقول ؛ لأن هذا ما أود القيام به ، وحتى إن لم توافقوا فإنني على يقين بأنكم ستقدمون العون وكأنكم تستحسنون هذا الأمر وترونه صحيحاً" .

عندما رأى القادة إصراره ، قالوا بأنهم سيتبعونه في كل شيء ، وأبلغوه بأن يقوم بما يراه صواباً .

تم الاتفاق على النزول للشاطئ قبل طلوع النهار ، وأن يتقدم "أفونسو دي البوكيرك" مع أربعمائة رجل مع "ليونيل كوتينهو" ، "روى بيريرا كوتينهو" ، "فرانسيسكو دي تافورا" ، ونبلاء آخرون مثل "أفونسو دي نورونها" "Afonso de Noronha" وشقيقه "أنطونيو دي نورونها" و"مانويل دي لاسيردا" "Manuel de la Serda" و"جيرونيمو دي ليما" وشقيقه "جواو دي ليما" و"أنطونيو دي إزيفيدو" "Antonio de Azevedo" وآخرون . كان على القائد العام التحرك خلف "أفونسو دي البوكيرك" مع ستمائة رجل وبقية القادة .

## الفصل الثامن والثلاثون :

تمت تسوية الأمور بهذا الشكل ؛ في الصباح التالي قبل طلوع النهار ذهب رجالنا إلى الشاطئ دون أن يواجهوا أية معارضة ، وكانت الشمس قد طلعت عندما اتخذوا طريقهم باتجاه المدينة ، حيث تواجد أكثر من أربعة آلاف عربي ، كما عرفنا فيما بعد ،

وعندما شاهدوا رجالنا يتحركون باتجاه المدينة خرج حوالي ألفين منهم لمواجهة قواتنا ، بينما ظل الآخرون داخل الأسوار ؛ كانوا مسلحين جيداً بالسهام والأقواس والرماح والسيوف .

عند رؤية "أفونسو دي البوكيرك" لهم قادمين نحونا ، أمر رجاله بالهجوم الذي أبدو فيه شراسة شديدة . قاوم العرب بتصميم مثل حالنا لكنهم تراجعوا فيما بعد إلى المدينة يقاتلون بامتياز طوال الوقت ، نجح معظمهم في العودة إلى المدينة ، بينما ظل البعض يقاتل حتّى يتمكن الآخرون من غلق بوابات المدينة ، وقد نجحوا بينما قتل كل الذين بقوا في الخارج أو جرحوا .

عندما وصل رجال "أفونسو دي البوكيرك" ورجال القائد العام أمام المدينة بدأوا في عبور الخندق الذي حُفر في الرمال مما أوقع الكثير من رجالنا ، جرح البعض جراء السهام والرماح التي أطلقها العدو علينا من الأسوار وأيضاً الحجارة والعصي وحتى خلايا النحل ، لقد كانوا عازمين ومصممين على الدفاع عن المدينة .

استعاد رجالنا تماسكهم وركضوا نحو الأسوار وهم يدفعونها ، وكأن الرب استجاب لنا فانهارت في أجزاء منها ، واقتحم النبلاء الذين جاؤوا مع "أفونسو دي البوكيرك" عبر الفتحة مع العديد من رجالنا .

عندما وصلهم العرب كانوا قد دخلوا المدينة فعلياً ، ولم يمنعهم ذلك من القتال بضراوة ، وانتهت المعركة بعد حوالي ساعة ، أبدا فيها النبلاء والرجال الآخرون بسالتهم ، ودفعوا العرب للتقهقر إلى

شوارع المدينة . في هذا الوقت أصبح القائد العام وكامل قواتنا عند الأسوار ، وتلت ذلك معركة رهيبة انتهت بطرد العرب من المدينة ، وأصدر القائد العام أوامره بعدم مطاردتهم وإغلاق البوابات والمراقبة من خلال الأسوار ، وأمر بإصلاح السور في المكان الذي تهدم .

أبلغ رجاله فيما بعد بنهب المدينة ، وحدد بعض الشوارع لكل قائد . كان السير هنا صعباً ؛ لتناثر جثث العرب على الأرض ، وقتل منهم ما يقارب ألف وخمسمائة رجل بالسيوف وجرح آخرون ، بينما لم نفقد أحداً من رجالنا سوى قلة من الجرحى ، كما قلت فقد قام رجالنا بنهب وسلب المدينة ، وعثروا على غنائم ثمينة من الذهب والفضة والكثير من البضائع فيها الكثير من الكهرمان الذي لم يشاهده رجالنا من قبل ، وكانوا سيتركونه ، وتساءلوا ماذا يريد العرب من هذا الشيء؟

بعض الجنود العاديين كانوا يقابلون نساء يلبسن أساور من الذهب والفضة حول أذرعهن وحلقاناً على آذانهن ، ولأنهم كانوا مسرعين لم يرغبوا في تضييع زمنهم وأخذها منهن ، فكانوا يقطعون أيديهن وآذانهن .

يقال إنهم وجدوا قرابة ثمانمائة من أولئك النساء حتّى قام القائد العام بمنعهم من التصرف بتلك الصورة ، خلال السلب والنهب احتجز العديد من الناس ، وتم الاستيلاء على كمية هائلة من المؤن . عند الانتهاء من السلب أحرقت المدينة ودكت الأرض وعاد العرب فيما بعد للسكن فيها مرة أخرى .

قرر القائد العام الصعود للسفينة ، إلّا أن رياحاً عنيفة بدأت تهب وصار البحر هائجاً بالرغم من اعتقاده بعدم سلامة الصعود في هذه الظروف ، إلّا أنه صمم على القيام بذلك لعدم وجود مكان يلجأ إليه . قد يعود العرب إن علموا أن رجالنا مازالوا هناك ، وكانت هناك صعوبة كبيرة للعودة إلى السفن ، وخلال ذلك ارتطمت سفينة القائد العام التي تحمل كل الذهب والفضة بالساحل وضاع كل ما بها .

واصل الأسطول تقدمه إلى "ماقادشا" (قد تكون "مقاديشو" . "برافا" و" توجدان في الصومال الحالي) ؛ وهي مدينة كبيرة وجميلة على بعد ثمانية عشر فرسخاً شمال شرق "برافا" على نفس الساحل ، وهي ميناء تجاري مزدحم ؛ لأن العديد من سفن "كامبي" وعدن تذهب إلى هناك حاملة كل أنواع الأقمشة والتوابل ، كما تحمل تلك السفن الذهب والعاج والشمع وأشياء أخرى من ذلك المكان ، تأخذها إلى بلدانها التي جاءت منها .

كما توجد بالمدينة كميات وافرة من المؤن ، يسكنها العرب البيض وداكني البشرة على حد سواء ، ويتحدثون جميعاً اللغة العربية ، ليس معهم الكثير من السلاح ، ويستخدمون السهام المسمومة فقط ، ويحكمهم ملك . بعث لهم القائد العام "ليونيل كوتينهو" حتّى يصل أولاً ، ويؤسس معهم علاقات سلام ، حال وصوله ذهب "ليونيل كوتينهو" باتجاه الشاطئ .

لكن لعدم ثقته بالعرب حسبما جرى في "برافا" لم ينزل من

سفينته ، وبدلاً عن ذلك أبلغ أحد الأسرى من "برافا" ليذهب إلى الشاطئ ، ويطلب من العرب تصريح عبور آمن وبعض الرهائن .

يبدو أن العرب علموا مسبقاً بوصولنا واستعدوا للحرب ، وقبل وقت قليل من وصول "ليونيل كوتينهو" إلى الميناء جاء ثلاثون فارساً من الخيالة إلى الشاطئ يلبسون الدروع ، ويتبعهم الكثير من الرجال المشاة الذين ظلوا خلف كثبان الرمال . عندما رأوا الأسير الذي أرسله "ليونيل كوتينهو" إلى الشاطئ أمسكوا به ، وقطعوه إرباً دون أن يستمعوا لما كان سيقول ، ثم تقدموا نحو طرف المياه ليتحدثوا إلى رجالنا ، وأخبروهم بأنهم سيفعلون بهم ما فعلوا بالأسير .

انسحب "ليونيل كوتينهو" ، وعند وصول القائد العام أطلعه بمجرى الأحداث . اجتمع المجلس وسألهم القائد العام إن كان عندهم الوقت ؛ ليذهبوا إلى "سوقطرة" قبل حلول الشتاء؟ فأجابوا بأن ذلك لن يتم إذا تأخروا أكثر من ذلك ، فإن أضاعوا الزمن في "مقاديشو" سيحل الشتاء ، ولن يجدوا أي مكان لقضاء الشتاء فيه . لا يوجد ميناء صديق يمكن أن يستقبل هذا الأسطول الضخم ، وسيمنون بخسارة فادحة ، عليه غادر إلى "سوقطرة" في الحال .

## الفصل التاسع والثلاثون :

تقع جزيرة "سوقطرة" على مسافة سبعين فرسخاً من "مقاديشو" إن اتّبع المرء الساحل باتجاه الشمال الشرقي . وصل الأسطول إلى "رأس جوردافي" ، حيث ينتهي هذا الساحل ، ثم يستمر غرباً باتجاه

البحر الأحمر . يقع هذا "الرأس" عند مدخل مضيق مكة ، وتتوقف كل السفن القادمة من "كامبي" ، "المالابار" ، "سيلان" ، "كورومانديل" "Coromandel" ، البنغال ، "سومطرة" ، "بيجو" "Pegu" ، "مالاكا" والصين هناك قبل دخول المضيق ، ومن ثم تواصل إبحارها إلى عدن والبعض إلى "بربورة"[أ] .

في منتصف القرن السادس عشر ، ينتظر أسطولنا تلك السفن عند الرأس للاستيلاء عليها ، إن لم تكن تحمل تصريحاً من نائب الملك أو من كان مخولاً ومسؤولاً ليمنحه لهم . يقع "رأس جوردافي" في" إثيوبيا" (حالياً في الصومال) وعلى الجانب المقابل تحديداً بجانب الجزيرة العربية يوجد "رأس" آخر يسمى "رأس فرتاك"[ب] .

تقع جزيرة "سوقطرة" بين هذين الرأسين على مسافة ثلاثين فرسخاً من كل منهما ، لها ثلاثة قمم تسمى : "كالانسيا" "Calancia" ، "سوكو" "Soko" و"ديبرم" "Debrum" ، وفيها سلاسل جبال عالية .

يجد المرء هناك الكثير من اللحوم والألبان والتمور التي توفر للناس قوتاً طيباً ، للرجال والنساء على حدٍ سواء بشرة داكنة ، كانوا في السابق مسيحيين بالرغم من أن تعاليم الكنيسة قد ضاعت ؛ بسبب الاتصال شبه المعدوم مع العالم الخارجي ، إلّا أن هناك

---

(أ) تسمى في الخرائط الحديثة : بربرة و"زيلع" ، لكن في الأغلب إلى "إيودا" .

(ب) "رأس فرتاك" يقع جنوب شرق عدن ، يجب عدم الخلط بينه وبين الرأس الموجود في خليج العقبة .

مسيحيون بالاسم فقط ، لكنهم لم يعمدوا بالرغم من تقديسهم للصليب ، ولهم العديد من مذابح الكنيسة مثلما عندنا .

للنساء أسماء مثل : "ماريا" ، "إيزابيل" و"آنا" ، وللرجال نفس أسماء الرسل والحواريين ، لا يتاجرون مع أناس آخرين ولا يذهبون خارج البلاد ، ولهم لغتهم الخاصة ، ويتجول الرجال والنساء عراة ما عدا بعض الملابس القطنية التي تغطي عوراتهم ، والتي يشترونها من بعض السفن التي تتوقف هناك في طريقها للبحر الأحمر .

تأتي تلك السفن بحثاً عن "دم التنين"! الذي تتواجد منه كميات كبيرة في الجزيرة ، وأيضاً "نبات الألوه" (الذي يسمّى "سقطرين" كاسم الجزيرة بعد حصده) ، والكهرمان والأصداف البحرية .

يقول العرب أن هذه الجزيرة كانت مأهولة بواسطة "الأمازونيين" الذين جاء منهم الرجال فيما بعد . تبدو بعض الحقيقة في هذا ، حيث إن النساء هن من يقمن بالأعمال ، أما الرجال فضعفاء وغير قادرين على فعل أي شيء .

عندما علم ملك فرتاك وهو عربي بهذا هزمهم وشيد قلعة في "سوكو" ، وأوكل إدارتها لأحد أبنائه ، ويدعى "خواجا عبد الرحمن" وهو فارس شجاع لا يخاف أبداً ، ومعه مائة وعشرون جندياً في خدمته من "الفرتاك" ، وهم مشهورون هناك وفي كل مكان بشجاعتهم ، وفرح الناس كثيراً لوجودهم بجانبهم ، كما أنهم مستعدون للحرب وعليهم الدروع حاملين السيوف والخناجر والرماح والحجارة والسهام .

## الفصل الأربعون :

عندما وصل "تريستان داكونها" إلى "رأس جوردافي" ، انحرف مستديراً ناحية "سوقطرة" ، ووصلها في شهر إبريل خلال الصوم الكبير ، وتقدم مباشرة إلى "جبل كالانسيا" لجلب المياه ؛ لأن ما معه لم يكن بأكثر من برميل ، كان في نفس الليلة قد مرّ أمام "سوكو" بكل الأسطول ، وفي اليوم التالي أخذ بارجته ليلقى نظرة على القلعة ؛ كان برفقته "ليونيل كوتينهو" و"روي دياز بيريرا" ورجل عربي من "برافا" ليرشده إلى حيث يمكنه النزول من السفينة .

عندها بعث القائد بذلك العربي ليبلغ الشيخ (إبراهيم) بأن الأسطول يعود لملك البرتغال ، الذي أمره بالاستيلاء على قلعة "سوقطرة" ، وطلب من الشيخ الاستسلام له ، فإن فعل ذلك سيصبح البرتغاليون أصدقاء له ، وإلّا سيستولي عليها ويفعل بها ما فعله في "برافا" .

أجابه إبراهيم بأن والده لم يمنحه السلطة ليسلم القلعة ، وإنما للدفاع عنها حتّى الموت ، وهو ما يعتزم القيام به ، وأضاف : إن كان رجالنا شجعانا عليهم الحضور إلى الشاطئ ومحاولة الاستيلاء عليها إن استطاعوا ؛ لأنهم لن يحصلوا عليها عبر أي وسيلة أخرى .

بينما تبودلت تلك الرسائل بينهما ، تمكن القائد العام من ملاحظة موقع القلعة ؛ كانت مشيّدة على سهل أسفل جبل يقع على جانبها الشرقي ، وكانت على بعد مسافة سهم من النيران القادمة من البحر ، صغيرة الحجم ، ولها "برجان" . الجدار القريب

من البوابة الرئيسة يحيط به حصن أمامي ليست به مدفعية . قريباً منها باتجاه الجنوب تقع البلدة حيث يسكن السكان المحليون .

رسا أسطولـنا مقابل تلك البلدة ، يوجد خليج صغير باتجاه الشرق ، وبينه وبين الجبال أرض تغطيها أشجار النخيل . كان الشاطئ المواجه لمكان رسو أسطولنا مفتوحاً تماماً نحو الشاطئ والأمواج عالية مما صعّب علينا النزول . بعد نصيحة "أفونسو دي البوكيرك" والقادة الآخرين ، رأى أنه من الأفضل النزول في الجانب الشرقي عند الخليج ، وبالرغم من أن ذلك كان بعيداً من القلعة .

إلّا أنه كـان آمناً للنزول فيه ، وبجانب عدم وجود أي مدفعية بالقلعة ، فإن من الأفضل تأجيل ذلك لفترة (أي أخذ الطريق الطويل والذهاب للشاطئ عند الخليج) بدلاً من المخاطرة والوصول بسرعة للقلعة .

بعد فحص موقع القلعة وموقع النزول ، عاد "تريستان دا كونها" إلى السفن . كل ذلك الوقت لم يبد العرب منه أي توتر أو اهتمام ، لأن الشيخ إبراهيم كانت له ثقة عمياء في شجاعة رجاله ، وقد علّمته التجربة كيف يمكنه الاعتماد عليهم ؛ لذلك ضحك عندما فكر في ألا أحد له القدرة والقوة مهما كانت أن يغتصب قلعته ، لن يتمكن أي أحد في العالم من ذلك ، ناهيك عن رجال هذا الأسطول ، لذلك لم يجد ضرورة في إبداء أي مظاهر للقوة قبل بدء المعركة .

لاحظ أيضاً أن القائد العام تفحّص بستان النخيل ، وظل هناك

لفترة طويلة أكثر من أي مكان آخر ، حتّى أنه شكّ من أنه يحاول النزول هناك . عليه أصدر أوامره لبناء كوخ هناك عند الموقع في الليلة التالية ، حيث سيأخذ رجاله بعض المدفعية للدفاع عن المدخل . عند عودة القائد العام للسفن استدعى المجلس للاجتماع ، وأبلغهم بعزمه على مهاجمة القلعة .

طلب رأيهم ، ووافقوا جميعاً على النزول بالقرب من بستان النخيل ، للأسباب التي ذكرتها سيتحركون قبل طلوع النهار .

عند صعود الجميع على البوارج والقوارب قبل طلوع الشمس ، أصدر القائد العام أوامره بالتجديف باتجاه بستان النخيل ، كان برفقته "جواو دا نوفا" ، "ليونيل كوتينهو" ، "روى دياز" ، "جوب كويمادو" وضباط آخرون ، تبعهم "أفونسو دي البوكيرك" مع ضباطه وهم "فرانسيسكو دي تافورا" ، "مانويل تيليس باريتو" ، "أنطونيو دو كامبو" و"أفونسو لوبيز دا كوستا" .

تحرك "أفونسو دي البوكيرك" على ظهر قارب ؛ لأنه أعطى بارجته لابن أخيه "أفونسو دي نورونها" ، الذي أخذ معه أربعين من حاملي البنادق ، ومدفعاً ، وسلمين لتسلق أسوار القلعة . ارتفعت الشمس وهم يجدفون .

كان البحر هادئاً ورأى "البوكيرك" إمكانية أن ينزلوا في المياه بأمان عند الشاطئ المقابل للأسطول . لم يكن يريد التجديف أبعد من ذلك ، بما أنه سينزل في مسافة أقرب للقلعة من "تريستان داكونها" سيستطيع الوصول إليها أولاً ، ويحظى ببداية المغامرة .

كان هو من وصل أولاً على اليابسة ، ثم تبعه الآخرون . تحركوا في الشاطئ دون أي تعقيدات في خطى واسعة ، لأن الشيخ إبراهيم كان يتوقع الهجوم من مكان آخر ، وعندما رأى رجال "تريستان داكونها" ينزلون عند الموقع المحدد ، أي بستان النخيل ، اندفع لمواجهتهم مع جنوده . كان واثقاً جداً حتّى يظن المرء أن معه عدداً كافياً من الرجال بحيث يستطيعون الصمود ضدنا .

كان يمكن أن يحدث ذلك لشجاعة وبسالة رجاله ، وأن يصدونا شريطة أن يكون هو قد مكث في القلعة ، وأرسل التعزيزات ؛ ففي هذه الحالة كان يمكن له أن يتسبب لنا في مشاكل كثيرة ، لكن عندما اتجه نحو رجال "تريستان دا كونها" وقع نظره على "أفونسو دي البوكيرك" وهو ينزل على الموقع الآخر ، فأخذ بعضاً من رجاله وذهب لقتاله .

كان الشيخ إبراهيم يرتدي معطفاً قرمزياً وخوذة قديمة ويحمل في يده درعاً قوياً من الجلد وسيفاً مزيّناً بزخارف ثمينة عند وسطه ورمحاً في يده . اندفع نحو رجال كان "أفونسو دي نورونها" في المقدمة وهاجمهم برجاله ، كان انقضاض رجالنا عليهم رهيباً حتّى أن الشيخ إبراهيم لم يتمكن من منع رجاله من الهرب والعودة إلى القلعة ، عند رؤية الشيخ لذلك تبعهم ومعه ثمانون من رماة السهام لحماية المؤخرة لأن رجالنا كانوا يطاردونهم .

كان "أفونسو دي البوكيرك" وبعض البحارة مصممون على مطاردتهم ، وكانوا أسرع منهم ؛ لأنهم لا يحملون أسلحة ثقيلة أو

دروعاً . كان "جيمي تكسيرا" "Jamy Texiera" و"بيدرو ألفاريز" "Pedro Alvarez" و"نونو فاز دي كاستيلو برانكو" وحوالي ثمانية آخرين قريبين منهم تتبعهم بقية القوات .

أصاب الذين يركضون في المقدمة العديد من العدو ، الذي كان هروبه شاقاً ، وهو يخترق مقبرة بها الكثير من شواهد القبور .

قام الشيخ إبراهيم بأقصى ما يستطيع لمساعدتهم حتّى يتم تقهقرهم بصورة منظمة . عند اقترابه من القلعة دار باتجاه رجالنا معتقداً أنه سيخيفنا بذلك ، ويبعدنا ويمكن رجاله من العودة إلى القلعة ، لكنه منح "أفونسو دي البوكيرك" الوقت ليتقدم أكثر وكان متحمساً ، وواجه الشيخ الذي ظن أنه بما له من حنكة عسكرية يستطيع قتل "أفونسو دي البوكيرك" ، لكن جرى الأمر بغير ذلك ، وقُتل هو على يديه ، وقُتل العديد من رجاله .

كان القائد العام في ذلك الوقت قد أكمل نزوله بالرغم من المواجهة الشرسة من العرب الذين حاولوا منعه ، جُرح الرجال من الجانبين ، وقُتل بعض العرب الذين أدركوا أنهم لن يستطيعوا فعل أي شيء عند رؤية القائد العام عند الشاطئ ، فتراجع الآخرون نحو القلعة ، وطاردهم بعض رجالنا . ذهب "تريستان دا كونها" برفقة أكبر أبنائه "نونو دا كونها" ونبلاء آخرين وضباط بكل هدوء ودون اندفاع .

وصل العرب الذين هربوا من أمامهم إلى القلعة في اللحظة التي قتل فيها رجالنا الشيخ إبراهيم وجنوده ، واعترضهم البرتغاليون

أثناء مرورهم ، فالتفوا من حولهم وانضموا إلى البقية من رجال الشيخ عند البوابات ، وقاتلوا في ذلك المكان بشجاعة ضد قواتنا لمنعهم من الدخول إلى القلعة ، أُقفلت البوابات وتركوا باباً صغيراً مفتوحاً ، قتل الكثير من العرب في هذا القتال .

تمكن حوالي خمسة وعشرين إلى ثلاثين منهم من الدخول إلى القلعة ، وأغلقوا الأبواب خلفهم لمنع رجالنا من تتبعهم للداخل ، بينما ظل خمسة وثلاثون رجلاً من جنودهم بالخارج ، وعندما شعروا باليأس من إمكانية نجاتهم من رجالنا ، فروا ناحية بستان النخيل ، وتبعثروا عبر الجزيرة ونجوا بذلك .

## الفصل الحادي والأربعون :

لم يسمح "أفونسو دي البوكيرك" لرجاله بمطاردة العرب ؛ لأنه أراد دخول القلعة ، خاصة بعد أن أصبحت البوابات دون حراسة لهروب العرب فاقترب ومعه كل النبلاء الفرسان والآخرين ، أراد تحطيم الأبواب الصغيرة الملحقة بالبوابات ، والتي كانت مغلقة تماماً ، ويبدو أن الأعراب فشلوا في تحطيمها حتّى يتمكنوا من إدخال زملائهم .

اقترب "أفونسو دي البوكيرك" ومعه الآخرون من البوابات ، فانهالت عليهم حجارة ضخمة وأشياء أخرى قام العرب برميها من برج مراقبة أعلى البوابات ، وأيضاً رشقوهم بقذائف من خلال الباب الصغير ، ونجحوا في الحالتين بجرحه ، إلّا أنه لم يفقد توازنه وتقهقر طالباً من رجاله التراجع أيضاً ، حيث بعث طالباً المدفعية

وبعض الفؤوس ليحطم الباب ، كما طلب سلالم أيضاً ، وصلت الفؤوس والسلالم قبل المدفعية ، ووُضعت أمام الأسوار ليصعد عليها رجالنا ، وقام بذلك كل من "جاسبر دياز" حامل راية "أفونسو دي البوكيرك" ومعه "جوب كويمارو" وتبعهم البعض .

عندما رأى العرب علمنا وراية رمز الدولة مرفوعة على الأسوار ، رموها وغادروا البوابات وانسحبوا للبرج ، عندها أصبحت البوابات بلا دفاع ، وتمكن رجالنا من الاقتراب منها بسلام وحطموها بالفؤوس .

الرجال الذين قاموا بهذا العمل هم "أفونسو دي نورونها" وشقيقه "أنطونيو" ، "مانويل تيليس باريتو" و"جيرونيمو دي ليما" ، دخلوا معاً بعد تحطم الأبواب مع بقية الرجال .

شعر "أفونسو" بانسحاب العرب للبرج فذهب للأبواب مع شقيقه "أنطونيو" ، "جيمي تكسيرا" ، "بيدرو ألفاريز" ، "نونو فاز دي كاستيلو برانكو" ورجل آخر يدعى "بيدرو ألفاريز" واعتقدوا أن عددهم هذا كان كافياً لتحطيمها ، إلّا أنهم لم يتمكنوا من ذلك ؛ فذهب "جيرونيمو دي ليما" و"أنطونيو دي إزيفيدو" و"جواو دي ليما" و"مانويل دي تاليس" "Manuel de Talis" ليروا إن كانوا يستطيعون إيجاد مدخل آخر .

لاحظوا وجود درج على الجدار يقود إلى البرج ، فتسلقوه حتّى وصلوا قمة البرج ، دون أن يعترضهم العرب ، لأن أبواب السطح كانت مغلقة تماماً فظلوا في الطابق الأرضي ودافعوا عن المدخل بشجاعة .

رشق العرب رجالنا بالحجارة والرماح وجرحوا بعضاً منهم ، لم تستمر تلك المواجهة طويلاً لأن جنودنا نجحوا بعد وقت قصير في تحطيم الأبواب بالفؤوس . أراد الفارس الشجاع "أنطونيو دي نورونها" أن يكون أول من يدخل ودفع برأسه في الفتحة التي أوجدوها فحاول العدو طعنه بسكين لقطع رأسه ، ولكن "أفونسو دي البوكيرك" قام بحمايته بواسطة درعه .

عند تحطم الباب هرب العرب لمنتصف الدرج ، وكان عددهم خمسة وعشرين رجلاً إلّا أنهم غاية في الشجاعة ، وكانوا من الجرأة بحيث قاتلوا حتّى الموت ؛ أغلقوا الباب على أنفسهم وظلوا هناك ، بينما كان "أفونسو دي البوكيرك" يستعد للهجوم عليهم في ملجئهم ، وصل القائد العام مع ابنه "نونو دا كونها" "Nuno da Cunha" والآخرين ، فأصدر "أفونسو دي البوكيرك" أوامره لتحطيم الأبواب بالفؤوس .

تحجرت عيون العرب استعداداً للقتال ، وعند أول فتحة في الباب يأتي عبرها سيف يحاول الضرب ، مما ترك علامات على دروع "جورجي باريتو" و"جواو فيرناندس" "Joao Fernandes" وكذلك دروع الرجال الآخرين ، لصغر الباب ولدفاعهم عنه بشراسة لم يتمكن رجالنا من الدخول . عندما رأى "أفونسو دي البوكيرك" و"تريستان دا كونها" شجاعة العرب العظيمة تأسفوا كثيراً على أن يموت مثل هؤلاء الرجال .

أبلغوهم عبر مترجم بأن يستسلموا حتّى ينقذوا أرواحهم ،

لكنهم كانوا غاضبين منا وفضلوا الموت معتقدين أن بإمكانهم قتل بعض رجالنا أولاً .

عندما رأى البرتغاليون عدم نية العرب على تسليم أنفسهم ، ذهب "جواو فريرا" ، الذي كان يفكر مثل القائد العام ، إلى قمة البرج في محاولة للدخول من هناك . يبدو أن العرب قد سمعوه ، فخرجوا لمواجهته .

لم يتمكن من الدفاع عن نفسه برمحه لأن شرفة السطح كانت ضيقة جداً فقتله العرب برمح ؛ لم يكن قد توفي بعد عندما صعد "نونو فاز دي كاستيلو برانكو" إلى السطح ومعه "دينيس فيرنانديز" و"خلاسي" يدعى "ميلو" و"أنطونيو دي ليس" "Antonio de Lees" .

عندما شاهدهم العرب عادوا وانضموا للآخرين بالأسفل ، وهم يواصلون الدفاع عن المدخل من أعلى ، لخطورة الدرج الذي يقود إلى غرفتهم والمخاطرة من تعرضهم للقتل إذا ذهبوا للأسفل فضلوا البقاء أعلى الدرج ، بجانب أن ذلك كان موقعاً جيداً لإطلاق النار على العدو .

كان "نونو فاز" يحمل قوساً ، وبعد أن فتح ثقباً في السطح بسكين استطاع أن يطلق منه أربعة عشر سهماً ، واستخدم كل السهام ، بالرغم من ذلك لم يستطع إضعاف جسارة وإقدام العرب ، فهم قوم تملؤهم العزة ومن المذهل أن تراهم يتحركون ويقاتلون .

رأى "أفونسو دي البوكيرك" إن استمرت الأمور على هذا النحو فإن القتال لن ينتهي ؛ فأرسل اثنين من محطمات الأبواب دفع بها

رجلان باتجاه الباب ، تحطم الباب ودخل الرجلان يتبعهما الكثير من الرجال الآخرين ؛ وعند دخولهم قتلوا كل العرب خلال فترة قصيرة ، وأصبح رجالنا بعد قتل العرب سادة القلعة .

استغرق الأمر من الساعة السادسة صباحاً وحتى منتصف النهار للاستيلاء عليها ، وقُتل خلال ذلك الوقت حوالي خمسة وثمانين رجلاً من العرب ، وقبض على رجل واحد منهم يدعى عمر ويعمل مرشداً .

توفي من رجالنا "جواو فرير" "Joao Ferreir" فقط وجُرح خمسون ، توفي منهم سبعة فيما بعد ، تم سلب ونهب القلعة بعد الاستيلاء عليها ، ولم يكن بها الكثير من الغنائم ، لأن العرب الذين بها كانوا من المحاربين . وجد رجالنا بعض المؤن والأسلحة من ضمنها السيوف عليها كتابات عبارة عن (ليساعدني الرب) ، وأدركوا أنها صُنعت من قبل صانعي سيوف مسيحيين قاموا ببيعها للعرب .

في البلدة ، حيث يعيش السكان ، وجد رجالنا الكثير من الناس لأن العرب احتفظوا بزوجاتهم في المنازل هناك ، نُهبت المنازل التي بالبلدة ولم تُحتجز النساء ؛ لأنهن كُن من المواطنات المحليات بالجزيرة ، ولم يكن القائد العام يريد أن يستعدي سكانها ، وفضّل أن يكون على وفاق وسلام معهم حتّى يأمن سلامة رجالنا الذين سيبقون بالقلعة .

لذلك أرسل مبعوثاً للسكان المحليين يطلب منهم عدم الاكتراث بوصوله ، وأنه إنما جاء إلى هنا بناء على أوامر من ملك البرتغال

ليحررهم من هيمنة العرب ، ولأنه علم أنهم من المسيحيين مثله ، ولهذا يطلب منهم أن يكونوا أصدقاءه . تلقى كبار السن بالجزيرة تلك الأخبار بفرح غامر ، ونقلوا الأخبار لجميع أهل البلدة الذين سعدوا كثيراً لكوننا أصبحنا أصدقاء لهم .

## الفصل الثاني والأربعون :

حالما تسلموا رسالة القائد العام ، قام كبار رجال البلدة ورجال الدين بالذهاب للتحدث معه ؛ وكرر على مسامعهم الرسالة بنفسه عبر مترجم ، وأطلعوه على الكيفية التي كانوا عليها تحت سيطرة ملك "فرتاك" "Fartak" الذي حكمهم من خلال ابنه والجنود الآخرين . أبلغهم القائد العام بسبب حضوره إلى الجزيرة ، وأنه يعتزم ترك بعض رجاله في القلعة ليضمن بقاء "سوقطرة" في أمان .

وعدوه بمساعدتهم في الحصول على المؤن الضرورية خلال تواجدهم في القلعة ، وأن يصبحوا مسيحيين طبقاً لطقوس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ؛ وتحولوا في الحال داخل المسجد الذي حوّله "تريستان دا كونها" إلى كنيسة ، وذهب "تريستان دا كونها" بنفسه مع النبلاء الآخرين والضباط في موكب إلى الكنيسة وأخذوا معهم الذين تحولوا للمسيحية أولاً .

عند انتهاء المراسم ، سلم القائد العام القلعة إلى "أفونسو دي نورونها" الذي جاء من البرتغال لهذا الغرض ، وأمره بتحصينها . كان على القائد العام أن يواصل تقدمه إلى الهند بينما يتولى "أفونسو

دي البوكيرك" على هذا الإقليم ، وكلفه أن يهتم بصيانة القلعة في "سوقطرة" حتّى يعلم السكان هناك من هو السيد هناك . علم "أفونسو دي البوكيرك" بعدد بساتين النخيل التي في الجزيرة وأخذها لنفسه ؛ لأنها كانت تعود للعرب ، ثم قام بتأجيرها للسكان المحليين على أن يدفعوا له مقابل ذلك بلحاً وحنطة ، وهذه تمثل الإنتاج الرئيس للجزيرة .

العرب الذين نجوا من هجومنا وتبعثروا في البلاد ، كما ذكرت ، لم تعجبهم العلاقات الودية بين سكان الجزيرة والبرتغاليين ، كانوا يعتزمون بنا شراً ، وحاولوا إثارة بعض سكان القرى الذين يعيشون بعيداً عن القلعة ضدنا ، ونجحوا في حثهم على التمرد ضدنا ، وأقنعوهم بأننا جئنا إلى هناك لسلب أراضيهم ، وطردهم منها مع عائلاتهم وأطفالهم وأخذهم كأسرى ، فإن ثاروا ضد البرتغاليين وامتنعوا عن مدهم بالمؤن فإنهم لن يتحملوا ذلك وسيغادرون .

عمل السكان المحليين بنصيحتهم وبدأوا في خلق المشاكل مما أدى لنشوب صراعات بيننا وبينهم ، تكرر ذلك كثيراً إلّا أن الصراعات لم تستمر طويلاً ، وقد حدثت أثناء وجود "تريستان دا كونها" بالجزيرة ، وكان الوقت شتاء ، مما شكل خطورة على الإبحار إلى الهند ، وكانت السفن خلال الشتاء راسية بالقرب من "بينيم "Benim" وتعني شدة العواصف .

كان القائد العام دائماً ما يقضي الليل في البحر مع رجاله حتّى

يمنع العرب من التسبب للأسطول بأي أضرار كإشعال النيران في السفن مثلاً . كان على "أفونسو دي البوكيرك" التعامل مع السكان المحليين عند ظهور أي مشكلة .

## الفصل الثالث والأربعون :

كان يحكم "كانانور" في هذا الوقت ملك تولى العرش خلفاً لملك كانت له علاقات صداقة مع البرتغاليين ، وكان ملك "كاليكوت" هو من قام بتعيين الملك الجديد ، الذي أبدا عداء واضحاً تجاهنا ، وأراد أن يطــردنا ، وينتظــر الفرص لتنفيذ ذلك والهجوم على قلعتنا ، حانت له الفرصة عنـدما استولـى "جـونـزالو فـاز دي جـويوس" "Goncalo Vaz de Joyos" على سفينة عند جبل "ديلي" "Deli" وقتل قبطانها وأُلقيت جثته في البحر عند حاجز "كوتشين" "Cochin" .

اشتكى الملك عند ملك "كاليكوت" وطلب مساعدته وإرسال رجال وأسلحة لمهاجمة البرتغاليين . كان ملك "كاليكوت" يحثه دائماً على القيام بمثل ذلك العمل ، وفرح كثيراً على تقديم المساعدة له ، وقام بإرسال بعض الجنود وأربعة وعشرين قطعة من المدفعية ، وشكره على ما يود القيام به ، وعرض عليه المزيد من المساعدة إن احتاج لها ، وشجعه على القيام بالهجوم .

أسعد ذلك ملك "كانانور" "Cananore" كثيراً ، وكان ذلك في شهر إبريل ، وهو بداية الشتاء ، وهو أفضل وقت ممكن لتنفيذ خطته ؛ وبدأ في إجراء استعداداته . اعتمد في حساباته على أن القلعة لن

تكون بها حماية كافية خلال الشتاء ؛ لأن الإبحار على الساحل سيكون خطيراً في ذلك الوقت ، وعليه قام بحفر خندق بين المدينة وبئر كانت بالقرب من المدينة ، اعتاد رجالنا الشرب منها . امتد الخندق من أحد جوانب الساحل إلى الجانب الآخر ، وأصدر الملك أوامره لرجاله بترك مساحة ضيقة جداً بينها وبين البئر .

لم يكن "لورنزو دي بريتو" "Lorenco de Breito" يعرف هوية ذلك الأمر ، لكن حمداً لله فقد علم من خلال أمير "كانانور" وعمه ، اللذان كانا من أصدقائه المقربين ، بما يخطط له الملك ، وأبلغاه بأن يأخذ حذره ، وأخبراه بأن الممر الذي يؤدي من الخندق إلى البئر قصد منه منع رجالنا من الحصول على المياه ولمهاجمتهم هناك ، كما أن بعض المنازل كانت ستُبنى في مواجهته ، حيث سيحتفظ العدو بمدفعيته .

حذره الأمير وعمه أيضاً بخصوص المساعدات التي بعث بها ملك "كاليكوت" إلى ملك "كانانور" ، وأن الأخير يملك قوة الآن تقدر بستين ألف رجل ، أرسل لهما "لورنزو دي برينو" الكثير من الهدايا القيمة لتحذيرهم له ، ووعدهم بالمزيد إن ظلوا يطلعونه بما يستجد من خطط الملك ، ووعدوه بذلك ؛ لأنهما أصدقاء أوفياء له ، كما أنهم فرحوا بتلك الهدايا .

كتب "لورنزو دي بريتو" في الحال إلى نائب الملك طالباً منه تعزيزات ، وأبلغ رجالنا بعدم الذهاب لأي بلده أو قرية للعرب . عندما وصلت الرسالة لنائب الملك كان مشغولاً بمحاكمة القادة

الذين أشاروا لـ"دون لورنزو" بعدم مقاتلة "ميميم" ، إلّا أنه بعث في الحال "دون لورنزو" إلى "كانانور" وبرفقته العديد من النبلاء ورجال آخرين ، وأبلغه نائب الملك بطاعة "لورنزو دي بريتو" في كل شيء حتّى وإن طلب منه البقاء في القلعة أو العودة .

انزعج "لورنزو دي بريتو" كثيراً عندما وصل "دون لورنزو" لقضاء فصل الشتاء هناك . كان انزعاج "لورنزو دي بريتو" ؛ لأن ذلك سيتسبب في مخاطر لسفينة "دون لورنزو" ، وتمنى لو يعود إلى "كوتشين" .

أبلغه "دون لورنزو" بأوامر والده ، ولذلك سيعود إلى "كوتشين" ؛ وعاد فعلاً ، وترك كل الرجال الذين جاء بهم في القلعة ، وارتفع العدد هناك إلى أربعمائة رجل من البرتغاليين و"المالابار" ، مع أن عدد "المالابار" أقل . عاد "دون لورنزو" إلى "كوتشين" بصعوبة بالغة لشدة العواصف والرعود .

## الفصل الرابع والأربعون :

بعث ملك البرتغال في العام ١٥٠٧م بأسطول حربي آخر إلى الهند ، على أن يقسم إلى ثلاث مجموعات ، تمت القيادة فيها على التوالي : بواسطة "جورجي دي ميلو" "Jorge de Milo" و"فيرناو سواريز" .

أرسل "فاسكو جوميز دي أبريو" "Vasco Gomez de Abrio" ليتولى مسؤولية القلعة في "سوفالا" وليقوم ببناء أخرى في "موزمبيق" ، والتي ستكون أيضاً تحت سلطته ، كما أمروا أيضاً بالطواف في

الساحل الإفريقي الشرقي لمنع سفن العرب من أخذ الذهب إلى البحر الأحمر والهند وأي مكان آخر ، وسيجعل ذلك من المستحيل على العرب الاتصال بأي من السكان المحليين ، وبهذه الطريقة سيكون من السهل علينا أن ننشر ديننا المقدس ، والحصول على أرباح أكثر في "سوفالا" . غادروا البرتغال في منتصف إبريل .

## الفصل الخامس والأربعون :

بعد عودة "دون لورنزو" إلى "كوتشين" ، بدأ "لورنزو دي بريتو" في الاستعداد للمعركة التي ينتظرها ، وكان قد نصب تجهيزاته بين القلعة والبئر ، لكنها أقرب للبئر عن القلعة ؛ حتّى لا يتمكن رجالنا من المشي بعيداً عندما يريدون إحضار المياه ، وكما قلت ، لا يوجد مكان آخر لجلب المياه منه .

مثلما أعد العدو خندقه ، امتد حاجزنا نحن من أحد جوانب الساحل إلى الجانب الآخر ، وله أيضاً ممر وجسر على خندق ، قمنا بحفره خارج الحاجز ، يرفع وينزل من خلال سلاسل . وضعت بعض قطع المدفعية عند الحاجز والممر في داخل منازل صغيرة . عندما شاهد ملك "كانانور" الطريقة التي يستعد بها القائد أراد أن يتعجل بالتحرك ، وجمع رجاله الذين يبلغ عددهم ستين ألف من الهندوس والعرب .

في أول مايو ، عند جوانب معاقله أمام القلعة ، كانوا جميعاً مسلحين بطريقة جيدة بالسهام والرماح والسيوف والدروع ، وبإعداد مهولة ، حتّى أنهم غطوا المنطقة في منظر مدهش ، خاصة عندما بدأوا

بإطلاق صيحات عالية ، قاموا بعدها بإطلاق نيران مدفعيتهم من المنازل ، وبادلهم رجالنا بالمثل من مواقعهم . عيّن القائد ضابطاً لكل منزل ، إلّا أنني لم أتمكن من معرفة أسماء أولئك الضباط ، جاء "لورنزو دي بريتو" لمساعدة رجاله عند الحواجز لقرب بدء المعركة ، وبدأ فعلاً تبادل إطلاق النيران واستمر ذلك لبعض الوقت .

تراجع خلاله العدو إلى منازلهم ، وقام القائد في الحال بتوزيع ثمانين من رجاله إلى أربع مجموعات لمراقبة الحواجز خلال الليل ، والدفاع عنها ضد هجمات العرب ، كما أصدر أوامره الأخرى بمراقبة جانب "كانانور" عند موقع المحطة التجارية ومنازل أخرى يسكنها البرتغاليون .

كان للعدو أسطوله في البحر ، وخشي القائد قدومهم إلى الشاطئ خلال الليل لإحراق المنازل ، وعليه طلب مراقبتها وحراستها ، واحتفظ ببقية الرجال حتّى يسرعوا لنجدتهم إذا دعت الضرورة .

تم بناء كوخ كبير بالقرب من باب الحواجز ، تحيط به مقاعد طويلة يمكن لرجالنا النوم عليها بعد انتهاء المراقبة ، منذ ذلك الوقت ورجالنا يقاتلون العدو لعدة مرات ، وذلك عندما هاجموا التحصينات ، وعندما ذهب رجالنا لإحضار المياه ، قاتل العدو وبشراسة لمنعنا من الوصول إلى البئر لمعرفتهم بمدى اعتمادنا عليها ، أدرك القائد ذلك ، فكان يبعث ببعض الرجال لتغطية الذين يذهبون لإحضار المياه .

أمد الرب رجالنا بشجاعة عظيمة لأن عددهم لم يكن يتجاوز

مئتي رجل ، بينما يبلغ عدد رجال العدو عشرين ألف ؛ وبالرغم من ذلك استطاع البرتغاليون صدهم غير آبهين بالأعداد الهائلة من السهام والحراب والسكاكين والقذائف الأخرى التي ظلت تتطاير باتجاههم ، غير نيران مدفعيتهم ، وبعد أن أخذوا المياه عادوا إلى معاقلهم ، وقتلوا خلال ذلك العديد من العرب .

كان الذهاب لإحضار المياه مكلفاً ، حيث يموت الكثيرون في طريقهم إلى هناك أو يصابون بجروح ، وبما أن عددنا قليل ، فإن خسارة فرد واحد من رجالنا كان أمراً عسيراً ، ولا يوازي حتّى خسارة العدو لخمسين من رجاله مقابل واحد منا ؛ لأنهم كانوا أكثر منا عدداً . صعب الأمر كثيراً وأصبح أكثر سوءاً ؛ لأن على رجالنا الذهاب يومياً لإحضار المياه .

كان نتيجة لذلك أن فرض القائد نظاماً صارماً لتقليل نصيب الفرد من المياه ، مما زاد من فترات العطش ، وجعلهم يرغبون في قتال العدو ، ويطلبون من القائد تركهم يذهبون .

لكن لما يترتب على ذلك من مخاطر لم يسمح لهم ، لكن قد يعصون أمره ، وعليه كان عليه أن يسمح لهم بحرية أكثر ، إلّا أنه حزن كثيراً لفقدان بعض الأرواح . انتهى الحصار بعد شهر ، وأدرك رجالنا أن الوضع إذا استمر حتّى قدوم الشتاء ، فلن يعيش أي منهم .

بدأوا يفكرون في حل للمشكلة ، واعتقد القائد أنه وبعون من

الرب قد يجد "توماس فيرنانديز" كبير بنائين جلالته في الهند حلاً للوضع ، كان مسؤولاً عن بناء كل القلاع وكان كفؤاً وعبقرياً ، وسأله القائد إن كانت هناك وسيلة آمنة للحصول على المياه .

اقترح "توماس" حفر نفق بين القلعة والبئر وبدأ الحفر في الحال وعند اكتمال أي جزء تبنى أقواس بدعامات من الحجارة حتّى وصل النفق إلى البئر ، وتمكنوا من الحصول على المياه من البئر ، كان النفق واسعاً وعالياً بحيث يمكن لرجلين على ظهر الخيل عبوره ، احتفل رجالنا بفرح غامر عند اكتمال النفق ، وحمدوا الله وشكروا كبير البنائين "توماس" على فكرته الرائعة ، أصبح رجالنا يجدون كمية وافرة من المياه دون التعرض لأي خطر عند الحصول عليها .

خشي القائد أن يغضب ذلك العدو ؛ لأنهم لم يعودوا يجدون الفرصة لقتل أي من رجالنا ، وربما يدفعهم لتسميم المياه لإدراكهم بأننا تمكنا من الحصول على المياه ، وقام القائد بتغطية المياه بسيقان النخيل حتّى يمنع العدو من إسقاط أي شيء في المياه .

**الفصل السادس والأربعون :**

عندما شعر ملك "كانانور" بصعوبة الأضرار برجالنا وهم يحصلون على المياه ، طلب النصح من العرب في الكيفية التي يمكن اتباعها لتحقيق ذلك . اقترحوا عليه مهاجمة المعاقل التي صنعها البرتغاليون بصورة مستمرة ؛ إلّا أن ذلك لم ينفع ، وقتل العديد من رجاله في الميدان ، بعدها أصبح العرب يخشون الاقتراب من

معاقلنا ، وتوقفوا عن مهاجمتنا حتّى مع أوامر الملك المستمرة ، واستمر التوقف مدة عشرين يوماً دون أي غارة .

لم ينزعج الملك لأن العرب فكروا في خطة تمكنهم من الفوز ، وبدأ الملك في الاستعداد للمعركة التي عبرها سيتم الاستيلاء على المعقل .

أراد أن يرتاح رجاله وأبلغهم بالانسحاب مع المدفعية . عندما رأى القائد أنهم لا يهاجمون بل يتقهقرون اندهش كثيراً وشكّ في أن العدو يدبر أمراً ما ، فكر من ناحية أخرى إن كان الأمر كما يظن ، يفترض أن يقوم أمير "كانانور" بتحذيره ، إلّا أنه اعتبر أن قرابته للملك والرغبة في إنقاذ المملكة كانت عنده أقوى من رابطة الصداقة التي تجمعه به ، كما أن القائد والأمير لم يلتقيا قرابة الشهرين ولا يدري هل يثق فيه أم لا .

لكنه بالرغم من عدم يقينه أراد أن يكشف لماذا لم يعد العدو يهاجم المعقل كالسابق . أراد خادم "تريستان" الذي كان أحد النجارين بالقلعة أن يجد مترجماً ، وطلب أن يُسمح له بعمل كمين بالخارج ؛ ليلقي القبض على أحد الأعداء إذا ما مر أحدهم من هناك ، وحتى يلفت انتباههم ، أمر القائد بأربعين من المشاة بالتحرك نحو "كانانور" حيث يعسكر العدو ، عندما شاهدوا رجالنا هرع الكثيرون منهم لقتالهم وقتلهم .

تراجع رجالنا باتجاه المكان الذي حُفر فيه الكمين ؛ وعند اقترابهم استداروا لمواجهة العدو مرتين ، ثم تظاهروا بالهرب ، فطاردهم العدو

وسقط قائدهم في الكمين ، تقدم رجالنا مرة أخرى للهجوم للقائد الذي سأله عن السبب الذي جعلهم يتوقفون عن مهاجمة المعقل وما هي خططهم ، أجابه الرجل بأنهم انسحبوا لعدم قدرتهم على إيذائنا ، ولا يعلم أي شيء غير ذلك ، كان هذا المحارب قد أُصيب بجروح فطلب القائد علاجه .

بعد أيام قليلة وصل مبعوث من أمير "كانانور" الذي نصحه ببناء معقل قوي جداً ؛ لأن العدو يخطط لعمل كرات ضخمة من القطن تحميهم من مدفعيتنا وحتى تقلل من ضربات قذائفنا التي ستسقط على كتل القطن دون الإضرار بهم ، وباستخدامها كدروع سيقتربون من الخندق ويملؤونه بكل أنواع المواد التي سيأتون بها من ناحية البحر ، كما كان يحمل دجاجاً وتيناً وجوز هند كهدية من الأمير .

سُلِّمت الرسالة للقائد في سرية تامة ، أرجع القائد المبعوث وحمّله بعض الهدايا القيمة لسيده ، وشكره كثيراً . قام في اليوم التالي بإبلاغ بعض النبلاء بطريقة سرية عما أطلعه به الأمير واستعد للقتال بعد تحسين المعقل الذي هم فيه جيداً ، حتّى أصبح أكثر قوة عن ذي قبل .

## الفصل السابع والأربعون :

عندما انتهى العدو من أعداد كرات القطن (أشبه بالوسائد) التي اقترح استخدامها في الهجوم على قلعتنا ، أبلغ الملك قادته بأنه يتمنى تدميرنا بكل ما يملك من قوة وأن يمسح اسمنا من البلاد ، وقدم

لهم أسبابه لهذا الفعل والكم الهائل من المكاسب التي سيجنيها ومدى الخسائر التي سيمنى بها إن فشلت الخطة . كانوا سينالون هيبة كبرى طالما أن ملك "كاليكوت" الذي كان إمبراطور "المالابار" قد ساعدهم وأمدهم بكل شيء لتلك المعركة .

اعتقد ملك "كانانور" بأنه ناجح لا محالة ، إلّا أن الأمير اختلف معه وقال له بأن ملك "كاليكوت" الذي يفوقه قوة بثلاث مرات لم يتمكن من هزيمة البرتغاليين عند ممر "كامبالان" "Campalan" ، بالرغم من أنهم لم يكونوا أكثر من ثمانين رجلاً ليست لهم قلعة يحتمون بها وليس معهم أكثر من سفينتين قديمتين . حاول ملك "كاليكوت" استخدام ملك "كانانور" ليثأر لنفسه بغض النظر عن التكلفة ، ولم يكن قد بعث له بالكثير من المساعدة ، إلّا أنه يريد المكاسب بثمن قليل .

كان ذلك أمراً صعباً ، كيف ينجح ملك "كانانور" بينما حتّى ملك "كاليكوت" كان بلا حيلة ولا قوة ضد البرتغاليين ، في وقت كان يملك فيه جيشاً جراراً ، بينما يملك البرتغاليون حفنة من الرجال ، والآن يوجد الكثير منهم ويتمترسون خلف مواقع محصنة . على ملك "كانانور" أن يتجاهل أفكار وآراء ملك "كاليكوت" عديمة الجدوى ونصائح العرب السيئة .

أراد له العرب أن يقاتل دون أن تكون لهم الرغبة في الحصول على مصالح من وراء ذلك ، وإنما ؛ لأنهم هم أعداؤنا ، وإن فشلوا في طردنا فليس عند العرب ما يخسروه ، وسيذهبون إلى مكان آخر

يعيشون فيه ومعهم كل بضائعهم ، بينما على ملك "كانانور" البقاء في أرضه ضعيفاً وفقيراً ، كما كان حال ملك "كاليكوت" قبل ذلك ؛ عليه أن يتعلم من تجربة ملك "كاليكوت" كانت نصيحة الأمير هي الأفضل ، لكن كان للعرب نفوذهم عليه .

لسوء تقدير الملك وبصيرته العمياء أمر قادته ببناء أكواخ بطول الخندق حتّى يعتقد رجالنا بأنهم لن يغادروا حتّى يستولوا على معقلنا . جرى كل ذلك في سرعة فائقة ، واكتمل خلال ثلاثة أيام بعد وصول تحذير الأمير الذي بعث به لنا .

وصل العدو في عصر أحد الأيام ، وهم يحملون أدوات حرب كثيرة إلى المقدمة ، وأصدروا ضجيجاً رهيباً ، كما جاؤوا أيضاً بكراتهم المصنوعة من القطن والتي تبدو أطول من قامة الإنسان حتّى تمتص ضربات القذائف .

شاهد القائد ذلك وذهب في الحال لرؤية كل الأكواخ التي على جانب المحطة التجارية والمعاقل ، وكان هذا هو المكان الذي وضع فيه رجالنا المدفعية ، وبدأوا بإطلاق النيران على العدو دون تحقيق أي نجاح ، استمر ذلك حتّى حلول الليل وكان العدو قد أكمل بناء أكواخه أثناء ذلك ، استدعى القائد البرتغالي كل قادة الجيش وأطلعهم على مكيدة كرات القطن والغرض التي صنعت من أجله ، لكنه كان على ثقة بأن الرب سيحقق له النصر .

كما خشي أيضاً ، بينما يقوم العدو بمهاجمة المعاقل ، أن يذهب

آخرون ويهاجموا من الناحية الأخرى (أي المحطة التجارية والمنازل التي يعيش فيها البرتغاليون) ؛ وعليه بعث برسالة للضباط المكلفين عنها بعدم مغادرة المكان تحت أي ظرف ، وطمأنوه بألا يقلق ، تناولوا العشاء جميعاً وتظاهروا بأنهم يحتفلون كل الليل حتّى يعلم العدو بأنهم ليسوا خائفين منهم .

بدأ جيش "كانانور" بالاستعداد قبل طلوع النهار ، وبدأوا التحرك باتجاه المعقل في وضح النهار ، وهم يصيحون بأصوات عالية حاملين كرات القطن أمامهم . كانت هناك مسافة بينهم وبين المعقل ، ويقوم رجلان بدحرجة الكرات للأمام ؛ مما شكّل جداراً كالدرع لكل الجيش الذي يتحرك خلفه ، وكما قلت كانوا يعتزمون الاقتراب من الخندق وتعبئته معتقدين أنهم حالما يعبرونه سيستولون على معقلنا نسبةً لأعدادهم الكبيرة .

كان رجالنا جاهزين ، وبدأوا بإطلاق النيران وهم على ثقة بأن القذائف ستمزق كرات القطن ، إلّا أن الأمر لم يتم كما اعتقدوا ، بالرغم من ضخامة قذائف المدفع ، وامتصت كرات القطن الضربات ، طغى فرح غامر على العدو ، وبدأوا يطلقون الصيحات العالية التي شقت عنان السماء . كان لفشل نيراننا في إحداث أي إضرار بالعدو تأثيراً نفسياً رهيباً على رجالنا ودمر معنوياتهم وباتوا يعتقدون باستحالة الدفاع عن القلعة .

أحس القائد بذلك فتحدث إليهم بصوت عال قائلاً : "ما الذي تخافون منه؟ آمنوا بالله الذي حماكم من أولئك الكلاب خلال إحضار المياه ، فهل سيتخلى عنكم الآن؟ وتذكر فجأة أن هناك

قطعة مدفع معدنية في القلعة تعرف باسم "سيرب (الثعبان)" كانت أقوى من بقية القطع ، فأرسل لإحضارها ، لو لم يتذكر تلك القطعة لكان العدو أكمل ملء الخندق ووضعنا في مأزق خطير .

أحضر رجالنا المدفع "سيرب" وأطلقه الجندي ، أصابت القذيفة إحدى كرات القطن التي طارت في الهواء ، وصاح رجالنا عند ذلك المشهد ، ودب الخوف في قلوب العدو ؛ لأنهم شاهدوا كرات القطن تتمزق ، وأدركوا أن الكرات لن تكون ذات جدوى ، وواصل رجالنا القذائف من نفس المدفع ، وأصبح العدو بلا حماية ، وستقع القذائف بين رجالهم ، وبترت بالفعل بعض سيقان رجالهم ورؤوس آخرين ، وقطعت البعض إلى نصفين مما أخاف الجميع بصورة عظيمة ، فهربوا مسرعين .

غادر رجالنا مواقعهم عندما شاهدوهم يتقهقرون ، واندفعوا خلفهم ؛ واعترض الخندق هروبهم ، فقتل منهم رجالنا أعداداً كبيرة ، وغطت الجثث كل ميدان المعركة مع العديد من الجرحى لم تكن هناك خسائر من جانبنا ، وانتهت المعركة بعد أربع أو خمس ساعات إلّا أنني لم أعرف اليوم الذي جرت فيه ، لكنها كانت في شهر يونيو . عاد رجالنا إلى القلعة بعد عودة العدو لمعسكره ، شكر رجالنا الرب كثيراً لفضله عليهم ، وشكرهم القائد على شجاعتهم وبسالتهم .

## الفصل الثامن والأربعون :

وصلت أخبار تلك الحادثة إلى ملك "كانانور" في الحال ، وأحزنته كثيراً بل زادت من كراهيته للبرتغاليين ، وتمنى تدميرهم بالكامل .

ذهب العرب لزيارته وتعزيته ، وقالوا له إن فشل الكرات القطنية ليس بالأمر المهم ، ووعدوه بالتفكير في حيلة أخرى يستولي بها على المعقل ، وأقنعوه بأن التدابير خلال الحرب تأتي في الغالب بنتائج غير متوقعة ، وعليهم عدم الاستسلام ، ويجب التفكير في وسائل مؤثرة لتحقيق ما يريدوه ، وأشاروا عليه بعدم فقدان الأمل ، وأن يطلب من قادته عدم إخلاء المعسكر ، بل البقاء هناك ومراقبة معاقل البرتغاليين ، كما نصحوه بإرسال أشخاص لجانب المحطة التجارية من ناحية البحر ، وإشعال النار في قريتهم .

يقال إن الملك ذهب بنفسه لمواساة قادته وتشجيعهم على مهاجمة المعقل ، ووعدهم بجوائز عظيمة ، وقال نفس الحديث لآخرين طلب منهم إحراق القرية . حاول الفريقان تنفيذ أوامره ، إلّا أنهما فشلا ، لأن رجالنا دافعوا عن المعقل ، بينما قامت القرية بالدفاع عن نفسها لصعوبة النزول على ساحلها .

انزعج القائد البرتغالي لبقاء المعسكر في مكانه ، مما تسبب لنا في ضيق شديد من خلال مدفعيتهم ، وأيضاً من غاراتهم التي أجبرت رجالنا على البقاء في حالة تأهب طيلة النهار والليل ، ولم يجدوا فرصة للراحة .

اعتقد القائد بأنهم سيتخلون عن المعسكر بعد تدمير كرات القطن بواسطة مدفع "سيرب" الذي سبب لهم أضراراً كثيرة إلّا أنهم لم يغادروا ، وانزعج القائد من ذلك . سأل أحد الإسبان والذي يُكني "جوادا لاجارا" – على اسم مدينة في إسبانيا – وكان

فارساً شجاعاً ورجلاً طيباً ، عن سبب قلق القائد وهو يملك القدرة على علاج الأمر ، وإذا أراد أن يرفع العدو معسكره عليه تحقيق ذلك بقوة السلاح وليس بالشعور بالانزعاج .

طلب من القائد السماح له بمهاجمة العرب في إحدى الليالي ؛ لأنه يعقد وعبر مساعدة من مائة وخمسين رجلاً يختبئون ليلاً ، سيجعل من الأفضل للعدو الهرب ، وسيقود أولئك الرجال بهدوء إلى المعسكر ، وعند وصولهم سيباغتونهم بهجوم كاسح مع أصوات وصيحات عالية ؛ وطلب "جوادا لاجارا" عرض خطته على المجلس ، فإن وافقوا سينفذها في الليلة التالية ، شكره القائد على فكرته ، ولعرضه القيام بها ، واستدعى المجلس في الحال وعرض عليهم الخطة التي أشادوا بها وعرضوا خدماتهم .

كانت الليلة التالية حالكة الظلام ، واستمر رذاذ المطر طويلاً . قبل خروجهم أمر القائد بوضع مدافع حول المعقل ، وعند اشتباك رجالـنا مع العدو يقوم رجالنا الذين بالمعقل بإطلاق النيران لتخويف العدو ، وبصورة أكثر ، عند حلول الليل أخذ "جوادا لاجارا" "Joada La Gara" مائة وخمسين رجلاً اختيروا للمهمة (تلي قائمة بأسماء العديدين منهم) .

انطلق بهم ، بسبب الظلام الحـالك والمطر المنهمر لم يرهم أو يسمعهم العدو ، حتّى وصلوا إليهم ، بدأوا بالصياح بدأ رجالنا بالمعقل إطلاق النيران من كل المدافع في نفس الوقت ، تحول الليل

إلى شيء مخيف ، بسواده الحالك والمطر المنهمر والصيحات العالية من رجالنا وضجيج المدافع .

بدأت الصورة وكأن الأرض والسماء قد انهارتا وصنعتا مشهداً مخيفاً حتّى أن رجالنا أنفسهم أصيبوا بالرعب ، ناهيك عن العدو الذي وقع عليه كل ذلك ، فأخافهم أكثر مما كانوا يشعرون . أطلق رجالنا قذيفة اقتربت من المعسكر ، ودمرت الكثير من الأكواخ الملاصقة للمعسكر ، وأصابت العديد من الرجال الذين ما عادوا يتحملون الوضع ، فهربوا ، كل ينجو بنفسه ، سقط البعض للظلام الدامس والأرض المبللة وانزلق آخرون للأسفل وغادروا المعسكر تاركين أكثر من ثلاثمائة قتيل .

عاد جنودنا للمعقل ، وثمن القائد بإعزاز جهود "جوادا لاجارا" والآخرين ، وأمر عند صباح اليوم بنهب المعسكر الذي وجدت فيه الكثير من المغانم ، خاصة الأسلحة ومن بينها سبعة قطع من المدافع الجديدة . بعد أخذ كل الأشياء الثمينة أُحرق المعسكر عن آخره .

## الفصل التاسع والأربعون :

التدمير المفاجئ لمعسكر العدو أذهل ملك "كانانور" ، وأضعف تصميمه على هزيمتنا هزيمة منكرة ، طالما قله قليله من رجالنا تجرأت وهاجمت جيشاً قوياً مثل جيشه ، أصابه اليأس بعد فشل القتال وعنّف قادته ؛ لأنهم رفضوا إنشاء معسكر آخر بالقرب من معقلنا . أبلغه القادة بأنهم سيواصلون الغارة على المعقل شريطة أن يسمح لهم باتخاذ قاعدتهم في المدينة ؛ لأنهم بهذه الطريقة يستطيعون

تحقيق شيء ما ، لكن بقاءهم في المعسكر فيه المخاطرة باحتراقهم أحياء في إحدى الليالي بسبب بسالة البرتغاليين وجسارتهم ومعرفتهم لفنون الحرب وكرها ، وبذلك لن يتمكنوا من استخدامها إن قاموا هم بمهاجمة المعقل أثناء النهار .

تجادل العرب كثيراً حول تلك الخطط . ظل الأمير في محاولاته لمنع ذلك ووقف الحرب ، لكن الملك استمع لنصيحة العرب . توقف العدو بعد ذلك من نصب أي معسكر ، وواصلوا غاراتهم على المعقل دون أي تهديد لنا لعدم استخدامهم لمدافعهم .

استراح رجالنا من مضايقات العرب لكن حدث دمار هائل لم يكن في الحسبان ، وضعنا في موقف سيّئ ؛ ففي إحدى الليالي نسي خادم يعمل عند "لوبو كابريرا" الوكيل التجاري في "كانانور" أن يطفئ شمعة مشتعلة في المحطة التجارية ، وكان للمنزل سقف من القش شبت فيه النيران ، ثم انتشرت في كل المنازل الأخرى واحترقت جميعها بما فيها البضائع والمؤن .

بذل الرجال جهداً خارقاً إلا أنهم لم يتمكنوا من إطفائها وفقدنا كل شيء . كانت الخسارة الكبرى هي المؤن التي بالمحطة التجارية والمنازل ، وأصاب الجوع الجميع ، ولم تنج إلّا مؤن ملك البرتغال التي كانت محفوظة داخل القلعة ، ونجت بذلك من الحريق ، لكنها كانت قليلة بالنسبة للأفواه التي كانت تنتظر الطعام والفترة الزمنية التي لابد من قضائها هناك . أخفى القائد تلك المعلومة عن

الناس حتّى لا تنقل للعدو ويعلموا بالمحنة التي نعيشها (لعله يشير للسكان المحليين الذين يقاتلون مع البرتغاليين) .

بدأ الجوع يدب في رجالنا وأراد القائد أن يأسر أحد الأعداء ليحصل على المعلومات ، فأمر ابن أخيه في يوم عيد "سانت جيمس" أن يذهب خارج المعقل مع "فيرناو دي أندرادا" "Fernao de Andrade" و"بيرو فيرنانديز تنوكو" و"فرانسيسكو سيراو" "Francisco Serao" و"جونزالو فاز دي جويز" وحوالي عشرة أو اثني عشر آخرين لينصبوا كميناً .

وأخذوا معهم ستة من حاملي البنادق الذي طلب منهم القائد أن يبقوا على مسافة داخل الحقل حتّى يراهم العدو ، وعندما يطاردهم عليهم أن يتراجعوا للموقع الذي يختبئ فيه الآخرون حتّى يتمكنوا من القبض على واحد منهم .

عند مشاهدة العدو لرجالنا طاردهم أحد القادة مع أربعمائة محارب ، معتقدين أنهم سيلقون القبض على رجالنا الذين ركضوا باتجاه الآخرين وهم يصيحون على العدو خلفهم . غضب المحاربون جداً ؛ لأنهم عرفوا أن أولئك هم الرجال الذين جعلوهم يغادرون المعسكر .

لم توقفهم البنادق واقتربوا من رجالنا حتّى أمسكوا بأحد الرجال وقطعوا يده ، كانوا قريبين من الكمين ، أسرع ابن أخ القائد لنجدتهم مع زملائه وهاجموا العدو .

قاتل العرب بشراسة وأحاطوا البرتغاليين ، واعتقد العدو أن ابن أخ

القائد هو القائد نفسه ، وكان يرتدي درعاً رفيعاً وأنيقاً ، فحاولوا جهدهم للقبض عليه لكنه دافع عن نفسه بشجاعة إلّا أنه أصيب بجروح بالغة منها فوق الأنف بواسطة سكين ، وتدلى جزء كبير من وجهه على صدره ، وقام زملاؤه بدعمه حتّى لا يقع ، وواصل القتال كالأسد والعدو يضغط بشدة . صاح "جيل أفونسو" من أعلى المعقل للقائد طالباً منه نجدة الرجال وإلّا قتلوا جميعاً ، وقفز من مكانه وأسرع لمساعدتهم .

عندما سمع القائد النداء التقط رمحاً وذهب إلى الباب لمنع أي شخص من الخروج (كان البعض قد خرج) لأن حدوث أي شيء سيتمكن معه العدو من الدخول ، وقد بدأ عددهم يتزايد فعلاً .

عندما رأى الرجال أنهم منعوا من الخروج عبر الباب استخدموا رماحهم للقفز من على جدار المعقل وذهبوا لنجدة الذين بالخارج . عندما رأى القائد ذلك وان الرجال يتركونه غضب جداً ، ونظر نحو السماء وصاح : "آه خائنون للرب ، للملك ولشخصي ، لماذا تسلمون القلعة للأعداء"؟

لم يمنعهم ذلك من الاستمرار في القفز حتّى يهاجموا العدو . سقـط "فـيرنـاو بيريز" "Fernao Perez" و"بيرو فيرناندز تينوكو" "Pero Fernandes Tinoko" وآخرون جرحى على الأرض بعد أن هدهم القتال ، لكنهم قتلوا وجرحوا الكثير من الأعداء .

أخذ العدو ابن أخ القائد بعيداً تتدلى ساقاه بجروح مميتة ،

معتقدين أنه القائد شخصياً . من أوائل الرجال الثلاثة الذين ذهبوا لنجدته كان شاب من "الجارف" يدعى "جواو جريجوريو" "Joao Gregorio" يبلغ من العمر خمساً وعشرين سنة ، معه اثنان قاتلوا العدو بشراسة وفتحوا ممراً تمكنوا من خلاله إعادة ابن أخ القائد ، جاؤوا به دون يتمكن العدو من اعتراضهم .

عندما رأى القائد ابن أخيه وقد أُنقذ من الأسر ، وكيف قاتل الرجال صرخ فيهم طالباً العودة إلى داخل المعقل ، دخلوا مخلفين وراءهم ثلاثمائة من قتلى العدو ، وتوفي أربعة من رجالنا ، ومنهم "جونزالو فاز دي جيوس" وجرح العديدون من ضمنهم "فيرناو بيريز" و"بيرو فيرنانديز تينوكو" .

## الفصل الخمسون :

بالرغم مما لملك "كانانور" من أسباب يتوقع عبرها أن تسير الحرب بصورة سيئة بالنسبة له ، وقد حدث ما توقعه وزادت عنده الكراهية للبرتغاليين بشكل أشد ، أعماه ذلك عن أن كل جهوده ستذهب سداً وأن عليه التوقف ، لكن العرب أقنعوه عبر جدال كاذب وغير صحيح بأن يواصل التصميم والإصرار على المواجهة ، بالرغم من محاولات الأمير ورعاياه الآخرين إقناعه بالتخلي عن ذلك ، وذكروه بأن كل صراع يتم بينه وبين البرتغاليين يخرجون فيه منتصرين عليه ، لكن عناد الملك جعلهم يصرفون النظر عن الجدال معه .

توقف العدو بعد المعركة الأخيرة من الذهاب لمهاجمة المعقل

لعدة أيام ؛ وخلال هذه الفترة وجد الرجال أنهم في حاجة للمؤن ؛ لأن القلعـة أصبحت خاوية بعد تقليل نصيب الفرد من الطعام والشراب ، لم يكن هناك سوى الأرز الذي يطبخ على الماء بدون زبده أو زيت ، وفي أحيان قليلة يتناولون السمك عند اصطياده من البحر سقط الكثيرون مرضى وأصبح الوضع خطيراً .

علم العدو بذلك من بعض الأسرى السود الذين هربوا من القلعة بسبب الجوع ، واعتقدوا أنهم سيجدون الطعام في المدينة .

فرح ملك "كانانور" كثيراً عندما سمع بتلك الأخبار ، واعتقد أنه يستطيع الآن هزيمة البرتغاليين .

استدعى الملك قادته وشرح لهم أسباب سعادته ، وأن النيران التي أحرقت المؤن والمواد الخاصة بنا كانت بسبب آلة أرادت تدميرنا بهذه الطريقة حتّى نعاني كثيراً ، وأبلغهم بنيته للهجوم علينا وبأن البرتغاليين الآن جياع وضعفاء ولن يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم . يمكن أخذ بقرتين ووضعهما أم القلعة وعندما يخرج رجالنا لأخذها يهاجموهم ويقتلونهم .

لم يجد الأمير الفرصة لإبلاغنا بتلك الخطة حتّى نمنع رجالنا من الخروج . خرج الرجال عند رؤية الأبقار وهاجمهم العدو معتقدين أنهم سينتصرون عليهم لضعفهم بسبب الجوع إلّا أن ما حدث هو العكس ؛ هاجمهم رجالنا وجعلوهم يهربون وغنموا البقرتين .

لم يحاولوا تلك الخدعة مرة أخرى أصاب الرجال بالقلعة جوع رهيب بعد احتراق المؤن حتّى أنهم أكلوا القطط والكلاب والفئران ، قتلت امرأتان سحلية مياه صغيرة وأكلتاها .

في يوم من أيام أغسطس - يوم القديسة - ورجالنا يعانون من جوع رهيب ، هاج البحر بصورة عظيمة وتسكرت الأمواج على الشاطئ ، وجاءت بكميات ضخمة من سرطان البحر ، فالتقطه رجالنا وشكروا الرب على تلك النعمة فقد رفعت معنوياتهم وطلب القائد أن يقدم منها للمرضى الذين تحسنت صحتهم بعد فترة وجيزة ، وانتهت تلك المؤنة مع سرطان البحر بعد عشرة أو اثني عشر يوماً .

## الفصل الحادي والخمسون :

أحزن عرب "كانانور" كثيراً أن يروا القدر القليل من النجاح في مقابل جهودهم . عرفوا أن فصل الصيف لم يكن بعيداً ، وأنه قائم طالما تمكن الحصار من الاستمرار ، لأن بعد فترة الصيف من الممكن أن يصل نائب الملك أو يبعث مساعدة ، لذلك اعتقدوا أن الملك كان مضطراً إلى أن يقيم سلاماً معنا ، وإلّا فقد تاجه .

كان العرب مضطرين كثيراً إلى أن يخسروا من هذا وكانوا منزعجين جداً ، وعلى ذلك أرادوا أن يجبروا حظهم مرة ثانية ، لكي يروا عما إذا أمكن للقدر أن يكون بجانبهم .

أخبروا الملك كيف كان الصيف قريباً جداً ومن الممكن لأسطولنا أن يأتي بسرعة لكي ينقذ رجالنا ، لذلك قبل أن يحدث هذا ينبغي

على الملك أن يحاول مهاجمتهم ، ليس فقط في البر بل أيضاً في البحر ؛ لأنه مع اقتراب الصيف كانت المياه أقل هياجاً . أكدوا له إذا هو فعل ذلك ، فمن المحتمل أن تتم هزيمة البرتغاليين ؛ لأنه لم يكن هناك من عدد كافٍ منهم لكي يحارب على اثنتين من الجبهات ، وأنهم أضعفوا كثيراً بواسطة الجوع الذي أصابهم .

لهذا الغرض يجب أن يمتلك الملك اثنتين من القلاع مبنيتين ، مثل تلكما اللتين كان ملك "كاليكوت" قد استخدمهما ضد "دوارتي باشيكو" "Duarte Pacheco" ، هاتان اللتان من المحتمل أن تمكنهم من النزول إلى البر دون إصاباتهم بالأذى من مدفعية الفرنجة (التي تعني البرتغاليين مثلما هو موضح في ملاحظة سابقة) . بهذه الطريقة كانت نتيجة معروفة مقدماً أنهم لن يكونوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم ومن الممكن أن يتم القبض عليهم جميعاً أحياء .

فكر الملك جيداً في نصيحتهم وعلى الفور أصدر أوامر بأن يتم بناء القلاع . حينما كانوا يقتربون من الاكتمال في البناء أرسل الأمير تحذيراً إلى القبطان ، مخبراً إياه عما كان يدبر من مؤامرة ، وأن الهجوم الأقوى من الممكن أن يأتي من البحر . لأن القبطان عرف أن أفراد العسكر الهنود "الكشاترياس" لم يكونوا ماهرين جداً في إنزال الركاب ، وبخاصة في مواقع الإنزال السيئة فقد شعر بالراحة لكي يعلم بأن الهجوم من المحتمل أن يأتي من البحر .

على الرغم من هذا كان يمتلك مدفعاً قوياً جداً مرسلاً إلى

الساحل ، توقع منه أن يدمر قلاع العدو . أرسل أيضاً مدفعية أخرى إلى المنازل على الساحل ووضع هناك رجالاً أكثر من ذي قبل .

كان ملك "كانانور" أيضاً مشغولاً بالاستعدادات للقتال ، ومنظماً للهجوم بحراً وبراً ، الغرض الذي من أجله كان لديه خمسين ألف رجل ، كان قد تم إرسال معظمهم من قبل ملك "كاليكوت" ، بالإضافة إلى بعض القباطنة .

مع ذلك ، فإنهم العرب الذين كانوا مسؤولين عن المبادرة الكاملة ، وفي اليوم الذي كان من الممكن أن تحدث ، قبل طلوع النهار ، بدأ الرجال في القلعة يسمعون صوت الآلات الموسيقية الخاصة بالعدو ومدفعيته .

في هذا الوقت كان القبطان يتفقد موقعنا ، مشجعاً كل رجل أن يدافع عنه بصورة حسنة . بدأ العدو بعد طلوع الشمس يتقدم نحو الحاجز ، محدثاً كثيراً من الضوضاء ، وبالمثل بدأ أسطولهم رحلته تجاه منطقتنا الممتدة على الساحل ؛ وهي تتكون من عدد كبير من السفن والقوارب الكبيرة والصغيرة ، التي امتلك معظمها شاشات مراقبة للحماية ولديهم كثير من أسلحة المدفعية ، بالإضافة إلى حمل رجال كثيرين .

تُبعث خلف الأسطول القلعتان الاثنتان العائمتان ، كل منهما كانت كبيرة جداً للحد الذي كان من المتوقع أن تحمل مائة رجل تقريباً ، بالإضافة إلى بعض المدفعية .

بالتأكيد كان هذا منظراً مخيفاً ، لأن البحر كان مغطى بالسفن

والأرض بالرجال كان هناك فقط برتغاليون قليلون بين هاتين القوتين الاثنتين ، كلهم أوهنهم الجوع ، بينما لم يكن البعض قد برئوا تماماً من جروحهم . كان الآخرون مرضى بسبب المشاق التي كانوا قد تحملوها لمدة ستة شهور ، لكنه على الرغم من هذا لم تنقصهم الشجاعة لكي يقاوموا العدو بمساعدة الرب ، إلهنا .

وصل أولاً هؤلاء الذين أتوا من البر ؛ لأنهم واجهوا صعوبة أقل من الأسطول في تقدمهم ، وصلوا إلى خندقهم ، غير عابئين بالنار الكثيفة من الحاجز الدفاعي .

أرسل رجالنا ، الذين ظلوا يستخدمون مدفع "السرب" ومدفعاً آخر ، في طلب قطع أخرى . بهذا ضربوا أفراد العدو بالقنابل لدرجة أنهم توقفوا . في هذه المرحلة وصل الأسطول ، وبدت الضوضاء الهائلة التي أحدثتها المدفعية التي كانت تطلق نيرانها على كل القوات البحرية والبرية ، تهز السماء والأرض والبحر .

كان هناك دخان ونار في كل مكان ، لكنه نظراً لأن مدفعية أفراد العدو لم تكن جيدة ولا دقيقة في إصابة الهدف مثل مدفعيتنا ، فقد كبدهم رجالنا خسائر فادحة ، ولم تكن أيضاً شاشات مدفعية سفنهم مستخدمة كثيراً لأن اصطدام قواتنا النارية هشم بعضاً منها ، وأغرق الآخرين ، قاتلاً في نفس الوقت عدداً كثيراً من الناس ، حينما رأوا كيف كانت تسير الأمور بشكل سيّئ ، تحركوا بعيداً في اتجاه رأس بحرية ، مفسحين الطريق للقلاع العائمة التي

تحركت إلى الإمام ، واقتربت من الشاطئ ، لكنها كانت عديمة التأثير مثل شاشات العرض .

رجعت السفن ذات الشاشات تجاه القلاع لكي يهاجموننا مرة ثانية ، لكنها كانت في حالة أسوأ .

سارت الأمور بشكل سيّئ على البر كما في البحر وعلى الرغم من جميع جهودهم كانوا غير قادرين على الوصول إلى الحاجز الدفاعي ، أو إلى الشاطئ من خلال البحر ، إلى حد ما ، حينما حاولوا أن يفعلوا هذا ، كانت القلاع مدمرة ، مما أدى إلى إثباط عزيمة أفراد العدو لدرجة أنهم لم يجرؤوا على الانتظار طويلاً وفروا من القتال .

حينما رأى القبطان أنه كان آمنا من الخطر من البحر ، ذهب إلى الحاجز الدفاعي ، حيث خارت عزيمة أفراد العدو بسبب الخسائر التي كانوا قد جلبوها على أنفسهم ، لذلك هربوا تحت نيران كثيفة من البرتغاليين .

كانت هذه المعركة شرسة جداً وطويلة ، مستمرة من الصباح حتّى المساء ، الوقت الذي فقد فيه العدو عدداً كبيراً من الرجال في البر والبحر على السواء ، بينما لم يمت أحد من جنودنا .

## الفصل الثاني والخمسون :

بعد هذا القتال أدرك ملك "كانانور" في النهاية أن قوته الكبيرة لم تستطع أن تحقق شيئاً ضد البرتغاليين ، ليس ذلك فحسب ،

بل إنه بدأ يندم على شنه الحرب عليهم ، وأقر بكيف أنه كان من الضروري جداً أن يكون على علاقات ودية معهم ، لأن استمرار الحرب من الممكن أن يحدث سقوطه .

لأن العرب يفضلون الحرب ، فإنه لم يخبرهم عن تأسفاته ولم يحدِّث عنها إلى الأمير ؛ لأنه كان يشعر بالخجل حيث لم يكن قد أخذ بنصيحته عاجلاً ، ولهذا السبب أخفى مشاعره عن كليهما ، على الرغم من أنه أخبر رجاله بألا يهاجموا الحاجز الدفاعي لعدد قليل من الأيام لكي يستريحوا من أعمالهم .

شعر العرب بالحزن الشديد منها ، ونظراً لأنهم رأوا الناس بدأوا يدركون كيف كانت نصيحتهم سيئة وكيف أن الملك قد فقد كثيراً عند اتباعها ، لم يجرؤوا على حثه على مواصلة العدوان .

علاوة على ذلك ، كان قبطاننا في روح معنوية مرتفعة وتصرف كما لو كان النصر النهائي له . بعد المعركة بعدد قليل من الأيام أمر رجاله بأن يطلقوا النار على المدينة ، في اتجاه المسجد ، الذي كان ممتلئاً بالعرب ؛ لأنه يوم أحدهم (يعني يوم جمعتهم) . صوّب الرب إلهنا طلقاتنا بدقة شديدة لدرجة أنها جعلت جزءاً من أحد الجدران يسقط ، قاتلاً كثيراً من العرب الذين كانوا بداخله .

بالمثل ، تم حدوث دمار شديد في المدينة ، وسقطت بالفعل منازل عديدة ، قاتلة عدداً كبيراً من الأهالي،كان الناس خائفين جداً ؛ لأنهم أدركوا أنه إذا استمر هذا فمن الممكن لهم أن يرحلوا من المدينة ، السبب

الذي من أجله توسلوا إلى الملك بأن يقيم سلاماً مع البرتغاليين . في يوم السابع والعشرين من شهر أغسطس من عام ١٥٠٧م بينما كان القبطان في حفلة عشاء ، سمع رجالنا يصيحون بالقرب من الشاطئ .

اعتقد الناس في القلعة أن أفراد العدو كانوا يهاجمون ، وذهبوا بسرعة شديدة لإنقاذهم،لكنهم رأوا أنّ سفينة برتغالية كانت تقترب من الشاطئ ، وفهموا أن ذلك هو السبب في لماذا كان الرجال قد بدأوا بالصياح ، كانوا يمتلكون السبب الأكيد تماماً لكي يفعلوه حينما رأوا سفناً أخرى تأتي بعدها .

كان هذا أسطول "تريستان دا كونها" ، في طريقه من "سوقطرة" إلى بلاد الهند . عندما أدرك القبطان أن هذا كان أسطولاً برتغالياً ، أرسل على الفور قارباً لكي يعلم "تريستان دا كونها" بالموقف ويطلب منه المعونة .

رد الأخير بأنه لا يمكن أن يترك الميناء حتّى تكون القلعة آمنة . حينما رأى ملك "كانانور" هذا اعتقد بأنهم قصدوا إعلان الحرب عليه ، لذلك قرر بأنها اللحظة المناسبة لكي يبحث عن السلام مثلما رغب فيه ، تحدث إلى تاجر عربي موقر جداً كان صديقاً حسناً للبرتغاليين وكان دائماً ضد الحرب . أخبره برغبته وتوسل إليه بأن يساعده بالتوسط له ؛ لأنه كان صديقاً للبرتغاليين .

ذهب هذا العربي لزيارة القبطان مرات عديدة ، وكان من المتفق عليه أن وقفاً لإطلاق النار من الممكن أن يتم الترتيب له

على الرغم من أن القبطان لم يكن له أية سلطة بأن يوقع معاهدة سلام دون مشاورة نائب الملك أولاً . في تلك الأثناء تمكن من أن يرسل "تريستان دا كونها" إلى نائب الملك ، طالباً منه تصديقاً على المعاهدة . عندما كان هناك سلام ، كان المواطنون يشعرون بالسعادة واستأنفوا علاقاتهم معنا كما سبق .

سألنا المحاربون على الفور عن رجل برتغالي كانوا قد أبصروه في أثناء الحصار قال إنه كان موجوداً حينما كنا قد بدأنا القتال ، وكان جسمه أطول كثيراً ولافتاً للنظر بشكل أكثر من البقية . في أثناء الوقت الذي كنا قد اضطررنا فيه للخروج لجلب الماء العذب كان ذلك الرجل قد مشى إلى المقدمة ، وقتل على الأقل عشرين جندياً من أفراد العدو .

قال المحاربون إنهم دائماً ما رأوه عن كثب ، وفي بعض الأحيان تمكن خمسمائة منهم من التجمع لكي يتعاملوا معه في أثناء القتال ، وتمكنوا من إطلاق النار عليه على الفور ، وأن يتأكدوا من أنهم أصابوه . إلّا أن هؤلاء الخمسمائة رجل دائماً ما افتقدوه وتمكن من الرجوع إليهم سالماً من الضرر . زعموا أن هذا الرجل بمفرده كان قد كبدهم خسائر أكثر من البقية المحتشدة .

بخاصة في أثناء المعركة التي دارت في يوم القديس "سانت جيمز" عندما سمع رجالنا بهذا ، اعترفوا بأنها معجزة ، لأن انتصاراتنا من غير المستطاع أن تتم بدون عون إلهي ، واعتقد البعض أنه هو الرسول القديس "جيمز" "James" نفسه ، وأخبرهم بأنه لم يعد موجوداً فيما

بينهم . قالوا إنه لم يكن برتغالياً لكنه إله البرتغاليين ، إله كل الآلهة وسيد كل الأسياد ، صدقهم المحاربون ، مخبرين إياهم أن العرب قد رأوا أيضاً هذا الرجل ، بل وإنهم كانوا خائفين منه أكثر مما كانوا .

قال العرب أيضاً أنه كان قد أعطاهم إياه . أصبح ملك "كانانور" من حينها أكثر ولاءً في صداقته تجاه رجالنا . سافر "تريستان دا كونها" إلى "كوتشين" التي وصلها في أمان مع الأسطول ، وهو الذي كان قد بقي حتّى ذلك الحين في الميناء ، تم استقباله بصورة حسنة من قبل نائب الملك .

على الرغم من أن "تريستان دا كونها" لم يكن في نطاق صلاحية نائب الملك فيما يتعلق بالأمور التجارية والسلطة على رجاله ، فإنه لم يرد أن يستفيد من امتيازه ويستخدم صلاحيته . بدلاً من ذلك ، تخلى عنها لصالح نائب الملك مخبراً إياه بأنه لم يرد أن يكون له مسؤولية مستخدمة بشكل سيّئ تجاه رجاله مثل كل الجنود . شكره نائب الملك عدة مرات واعتنى بتحميل السفن .

## الفصل الثالث والخمسون :

مكث "أفونسو دي البوكيرك" في ساحل بلاد العرب كقائد عام للقوات . احتفظ بأربع سفن كبيرة واثنين من المراكب الأصغر التي كان قباطنتها يقفون إلى جانبه ، وهم "مانويل تيليس باريتو" و"فرانسيسكو دي تافورا" و"أنطونيو دو كامبو" و"أفونسو لوبيز دا كوستا" ، بالإضافة إلى جميع رجالهم الذين وصل عددهم إلى

أربعمائة وستين ، وكان معظمهم مرضى ، كان هناك بينهم عدد كبير من النبلاء والفرسان .

بعد مغادرة "تريستان دا كونها" من الهند ، في يومٍ العاشر من شهر أغسطس ، ولأن القلعة في "سوقطرة" كانت مجهزة جيداً بالمواد التموينية ، التي كان القائد العام قد تركها وراءه ، فقد قرر الإبحار على طول الساحل لكي يكتشف هرمز ويغزوها بالإضافة إلى جميع ممتلكاتها . فكر في أن يخدم ملك البرتغال في هذا بصورة أحسن مما إذا هو فقط أبحر في كل جبهة مستولياً على السفن على مقربة من "رأس غواردافوي" .

أبحر على طول ساحل بلاد العرب إلى أن وصل إلى رأس "روكال جيت" (من الوصف تبدو لنا هذه بأنها رأس الحد) ، يتم نطق الكلمة البرتغالية على نحو مماثل ، النقطة التي عندها يتحول خط الساحل شمالاً إلى خليج بلاد فارس . تقع بلاد العرب على أحد الجوانب وعلى الآخر تقع بلاد فارس .

يحكم ملك هرمز على أراضي تقع على كل من جانبي المضيق ، وتبدأ أملاكه على الساحل العربي من "كيب روكال جيت" . يمتلك في بلاد فارس أراضي كثيرة حيث ينمو هناك كثير من القمح والشعير ، وحيث توجد أيضاً كمية كبيرة من اللحوم والسمك والتمور ، والمواد التموينية الأخرى .

في كل من بلاد فارس وبلاد العرب توجد أماكن حيث يوجد ذهب كثير وفضة وخيول وإبل . كل هذه هي الموانئ البحرية حيث

يوجد قدر كبير من النشاط التجاري . البلدة الأولى التي يتوقف فيها المرء على الساحل العربي تسمى "كاليات"(أ) ، يسكن هذه المدينة عرب كثيرون ، مثلما هم جميعاً منتشرون أمام المدينة . بعث رسالة إلى الشيخ قائلاً إنه قائد عام قوات ملك البرتغال وإنه سوف يدمر المدينة إذا لم يدفع له جزية .

عرف الشيخ أن "سوقطرة" كانت قد وقعت في أيدينا ، وبما كنا قد أحدثناه هناك ، وخاف أن يحدث نفس الشيء "لقلهات"،ولهذا السبب قال إنه كان مستعداً بأن يقيم صداقة مع القائد العام وأن يقدم له كل ما يحتاج إليه . أما فيما يتعلق بالجزية ، فإنه من الممكن أن يرسل اثنين من العرب لكي يهتما بدفعها ، لكنه أيضاً طلب من القائد العام أن يرسل بعض الرهائن إلى الشاطئ ، وإلّا فإن الرجلين من غير الممكن أن يذهبا .

حينما تسلم القبطان هذا الرد ، بعث على الفور الرهائن إلى الشاطئ ، مخبراً "لوبيز دا كوستا" و"جواو دا نوفا" أن يحملاهم إلى هناك . كان الرهائن هم : "جواو إستاو" سكرتير الأسطول وواحد من خدم القائد العام اسمه "ماتشادو" والمترجم "جاسبر رودريجيز" ، أُرسل الأخير من قبل "أفونسو دي البوكيرك" ، حتّى يستطيع أن يفهم ما قاله العرب ؛ لأنهم لم يعرفوا بأنه مترجم .

أخبر القباطنة الاثنين اللذين حملوهم إلى البر أن يبقوا هناك

---

(أ) قلهات ؛ وتقع بين صور ومسقط .

مع سفنهم ؛ لكي يتسلموا الرسائل من كل من الطرفين ، عندما وصل القباطنة ، سلموا الرهائن إلى العرب وأخذوا الرجلين الاثنين اللذين كان في وسعهما أن يبصرا القائد العام عائداً إلى الأسطول ، استقبلهم "أفونسو دي البوكيرك" .

طبقاً للطريقة التي يرتدي بها ملابسه ، ارتدى زوجاً من السروال القصير ، له لون بني فاتح ، مصنوعاً من القطيفة وجوارب وبعض الملابس الفرنسية المصنوعة من القطيفة ، ذات لون قرمزي ، ومبطنة بقماش الساتان الذي له لون بني فاتح ، وعلى رأسه قبعة من القطيفة ذات شبكة مصنوعة من الذهب ، ارتدى أيضاً قلادة ذهبية مطلية بالميناء ، تتدلى على صدره .

كان جالساً على كرسي فخم ، موضوعاً على منصة مغطاة بسجاد ووسائد من القطيفة . وضع قدميه على واحدة منها في أثناء جلسته ، وكان محاطاً بجميع قباطنة الأسطول والنبلاء والفرسان المسلحين .

كانت غرفة السفينة الكاملة مغطاة بسجاد حينما دخل العرب كانوا مندهشين أن يروا مشهداً رائعاً كهذا ، الذي جعل القائد العام يشبه أميراً عظيماً ، وأرادوا أن يقبلوا قدميه ، الوضع الذي لم يسمح به .

كرّمهم واحتفى بهم إلى حدٍ ما ، ثم تحدث معهم عن تنفيذ العلاقات الودية ؛ لأنه كان قد جاء إلى هنا لكي يقيم اتفاقية سلام مع ملك هرمز .

نظراً لأن "قلهات" كانت مُلكاً له فقد رغب في أن يبدأ هناك ، ويقدم له أي مزايا في استطاعته ، ومع ذلك فهم مضطرون إلى أن يدفعوا جزية سنوية ، حيث كانت تلك هي ضريبة الجمرك البرتغالي .

رد العرب أن مدينتهم تخص ملك هرمز ، وأن الشيخ كذلك ليس له أي سلطة في أن يوقّع اتفاقية بدون إذنه ، تناقش القائد العام معهم لفترة من الوقت ، وفي النهاية كان من المتفق عليه أن مسألة الجزية السنوية هذه المدفوعة من قبل الشيخ من الممكن تسويتها عندما يزور القائد العام ملك هرمز .

في تلك الأثناء أرادوا تزويد الأسطول بالمواد التموينية اللازمة ، وتمكنوا من إعطائهم تموراً وبعض الماشية . كان القائد العام مسروراً جداً من هذه الاتفاقية ، ولم يصر كثيراً في الحصول على الجزية ؛ لأنه من الممكن أن يقدموا لهم المواد التموينية التي كانت هي أكثر ما احتاج إليها . كان من المتفق عليه بشكل أكثر عدم استهداف أية سفينة راسية هناك تنتمي ملكيتها إلى تجار من عدن بالأذى ، إلّا عند الضرورة .

أعطى التجار "أفونسو دي البوكيرك" مبلغ مائة "أشرفي" لهذا الغرض . رجع واحد من الرسل العرب إلى الشيخ الذي كان مسروراً لشروط الاتفاقية ، حيث إنه لم يكن يأمل بشيء أحسن من هذا .

أرسل على الفور التمور إلى الأسطول ، بينما كان يفعل هذا رغم إرادته ، أصدر أوامر لرجاله بأن يختاروا عينات من أردأ الأنواع فيها ، بالإضافة إلى أنه كان هناك البعض من روث الماشية مخلوطاً معها ،

الشيء الذي اكتشفه رجالنا مؤخراً فقط ؛ لأن الجوالات التي احتوت عليها لم تكن مفحوصة ، فيما عدا البعض منها في أعلى الكمية ، لأن الجوّ كان مظلماً حينما وصلوا .

بينما كانت هذه الرسائل يتم تبادلها ، طاف العرب بالرهائن حول المدينة ، قائلين إنهم أرادوا أن يطلعوهم عليها ، وبينما هم يفعلون ذلك ، التقوا صدفة مع رجالنا ، وأهانوهم بلغتهم الخاصة التي فهمها المترجم الذي أعلم "جواو دا نوفا" على الفور بها من خلال "طباخ" ، لكي يقوم هو و"أفونسو لوبيز دا كوستا" بإخبار القائد العام عنها ، لكنهما لم يرغبا أن يفعلا ذلك .

بعد أن كانت التمور قد تم إحضارها إلى السفينة ، الأمر الذي حدث قرب منتصف الليل ، أرسل القائد العام الأفراد العرب الذين كانوا قد بقوا على ظهر السفينة إلى "جواو دا نوفا" لكي يعيدهم هو و"أفونسو لوبيز دا كوستا" ويسترد الرهائن ، عندما تم فعل هذا ، رجعوا جميعاً إلى الأسطول وبدأ القائد العام في الإبحار .

في الواقع حينما كانوا في طريق إبحارهم أخبره المترجم عن كيف كان العرب قد تصرفوا نحوه هو ورفاقه ، الوضع الذي أزعجه . كان أيضاً متضايقاً من القباطنة لعدم إخبارهم به ، ولولا الحقيقة بأنهم كانوا فعلاً يبحرون في طريقهم ، لكان من المتوقع أن يثأر من أجل الإهانة .

## الفصل الرابع والخمسون :

واصل الإبحار في طريقه بقصد إخضاع كل المدن التي تقع على

الساحل والتي تخصّ ملكيتها ملك هرمز . كانت المدينة التالية التي واجهها هي "قريات" التي تم بناؤها على سهل مستو ، وتقع على مسافة ثمانية فراسخ من "القريات" إلى الشمال . كانت محاطة ببساتين نخيل واسعة . في الداخل فيما بينها توجد قرية أخرى . امتلكوا ثلاثة آلاف جندي انتشروا فيها ، وتم حمايتهم جيداً بواسطة حاجز دفاعي على طول الشاطئ .

وقع هذا الحاجز الدفاعي على مسافة أبعد من مرمى نيران البندقية ، وامتلك بعض المدفعية ، كانت توجد بداخله خمس سفن من مكة (يبدو هذا أنه يعني ضمنياً أن الحاجز الدفاعي كان في الواقع مبنياً في الماء) ، وإحدى عشرة سفينة إضافية جانحة على الشاطئ ، كان هناك على بعد مسافة ما موقع إنزال لركاب السفن ، في المقابل أخذ مكانه فوق جزيرة صغيرة متصلة باليابسة ، وهنا وجد أسطولنا يظهر للعيان . كانت سفننا قد ألقت مراسيها بعيداً عن الشاطئ لأن مواقع إنزال الركاب كانت سيئة جداً .

أرسل القائد العام وقتئذ مترجماً ؛ لكي ينزل على ظهر زورقه ليتحدث إلى العرب ، الشيء الذي فعله من الماء ، دون النزول على الشاطئ ، حينما علموا أن القائد العام أراد أن يقيم علاقات ودية ، أخبروه أنه لا يمكن أن يرجع بدون رد أكثر تحديداً . على هذا ردوا بأنهم ليس مثل رجال "قلهات" ومن غير الممكن أن يكون مفروضاً عليهم الأمر دون قتال .

لم يكن عند القائد العام أي أوهام أكثر حول ما استطاع أن يتوقعه منهم ، وقرر أن يهاجم المدينة في اليوم التالي ، لأن الوقت حينئذ كان متأخراً .

في الليل أرسل "أنطونيو دو كومبو" و"أفونسو لوبيز دا كوستا" في سفن النقل الخاصة بهم إلى الجزيرة الصغيرة التي كانت قريبة جداً من البر الرئيس ، كما وصفت ، لكي يقدّروا أي الأماكن التي من الممكن أن تكون أحسن موقع إنزال للجنود .

حاولا أن يذهبا بشكل هادئ جداً لكن البعض من أفراد العدو الذين كانوا على ظهر سفينة سمعوا صوت تحركهم وأطلقوا عليهم النار ، لكن دون إصابة سفينتي "البارج" بأي ضرر ، رجع القبطانان الاثنان لكي يخبرا القائد العام عن مواقع إنزال الجنود والحواجز الدفاعية ؛ وبعد ذلك أبلغ "أفونسو دي البوكيرك" القباطنة وأعضاء المجلس بما خطط أن يفعله في اليوم التالي .

قال : "أيها السادة ، نظراً لأن هؤلاء العرب جعلونا نعرف أنهم أرادوا أن يحاربوا ، فإننا سوف نجعلهم يعرفون كيف أنهم كانوا مخطئين في رفضهم عروضنا للسلام ، وفي الاعتقاد بأنهم سوف يتغلبون علينا بسرعة لأننا قليلون في العدد . إنني أثق في الرب الإله بأن الحال سيكون بالعكس ، وأنه من خلال وساطة الرسول القديس "جيمز" سوف يعطيكم الشجاعة التي دائماً ما يعطيها لكم في مثل هذه المناسبات .

على الرغم من أنه يوجد عدد كبير من أفراد العدو ، إنكم سوف

تكونوا أفراده المختارين ، لأنكم تعرفون جيداً كيف أن عدداً قليلاً من الأخيار يسحقون عدداً كبيراً من الأشخاص الأشرار ، مثل هؤلاء هم أفراد العدو ، وانظروا كيف هم أعداء الإله ربنا ، لذلك قادنا إلى هذه الدولة لكي ندمر سكانها ، الذين يحتلون أرضه مثل الطغاة ، ويسبون اسمه المقدس ، بينما خلقه لكي يشكره ويحمده الناس ، كما نفعل ، لذلك فإنه سوف يضعها في أيدينا ويسلمها لنا .

دعونا لا نتأخر حينئذٍ ، ونهاجم بإيمان في قلوبنا ، بدون الخوف من مدفعيتهم . دعونا نحطم حواجزهم الدفاعية ، لأن "أنطونيو دو كومبو" و"أفونسو لوبيز دا كوستا" قد أخبراني أين يكون موقع النزول الأحسن للجنود" .

وافق الجميع ، وعندما تقرر هذا ، أصدر القائد العام الأوامر للرجال لكي يتم إخبارهم بالهجوم القادم ، وأن يبدأوا الاستعداد له قبل الفجر أرسل "أفونسو لوبيز دا كوستا" و"أنطونيو دو كومبو" و"مانويل تيليس باريتو" مع رجالهم لكي يضعوا أنفسهم بين الشاطئ والجزيرة الصغيرة ، وأن يبدأوا ضرب المدينة بالقنابل .

بهذه الطريقة يعتقد أفراد العدو أننا يمكن أن نكون مهاجمين لهم هناك ، ويمكنهم جميعاً أن يحتشدوا في ذلك المكان للدفاع عنه . عند هذه النقطة يمكن أن يهاجم "أفونسو دي البوكيرك" الحواجز الدفاعية الأخرى ، ويبدأ في النزول من السفن مع رجاله ، واضعاً في الاعتبار أن أي من الأعداء من الممكن أن يأتي نحوه .

تم تنفيذ الخطة ، ولاقى القباطنة مقاومة كثيرة من مدفعية العدو ، وبالضبط قبل الصباح نزل إلى البر القائد العام عند الحاجز الدفاعي الذي بالقرب منه أرست السفن .

جاء أفراد العدو لملاقاته بسرعة خاطفة دون توقف ، وعندما وجدوه عند الحاجز الدفاعي ، بدأوا يدافعون عنه بضراوة ، استمر هذا لمدة قصيرة ، لكن رجالنا ضغطوا بشدة على العدو ، لذلك على الرغم من سهامهم ورماحهم ، بدأ عدد كبير منهم في السقوط قتلى أو جرحى .

أثبط هذا من عزيمتهم كثيراً لدرجة أنهم رجعوا وفروا إلـى المدينة ، التي كما ذكرت تقع على مسافة أكثر من مرمى طلقة بندقية من هناك ، وبهذه الصورة كانوا يعطون رجالنا فرصة لكي يقتلوا عدداً كبيراً منهم .

حينما أبصرت النسوة اللائي بقين في المدينة رجالهن يفرون ، تركنها وهن يحملن ممتلكاتهن الأكثر قيمة معهن . عندما دخل رجالنا المدينة ، غيّروا مواقعهم ؛ لكي يواجهوا رجالنا لمدة قصيرة ، لكنهم بعد قليل فروا مرة ثانية ، بينما لاحقهم البرتغاليون ، وهم يسيرون خلفهم على مقربة منهم ، لكن ليس لفترة طويلة ، لأن القائد العام أمرهم بأن يعودوا إلى المدينة ، حيث وجدوا أربعة وأربعين رجلاً من القتلى العرب ، بينما لم يُقتل أحد من رجالنا .

عندما كانت المدينة مهجورة ، حرسها القائد العام مع بعض النبلاء والفرسان ، آمراً الآخرين بأن يعزلوها في تلك الأثناء ، هذا

ما فعلوه ، دون إيجاد أشياء ذات قيمة على الرغم من ذلك ؛ لأن العرب كانوا قد حملوها إلى مكان آمن ؛ لكن كانت توجد كمية كبيرة من الإمدادات التموينية ، التي تعنى الدقيق والقمح والأرز واللحم والسمك المجفف وجراراً من العسل والسمن والتمور ، التي كانت محملة على ظهور السفن ؛ لكي تقدم كطعام لطاقم بحاراتها .

استمرت عملية جمع الغنائم ثلاثة أيام وليلتين اثنتين . بعد ذلك رغب القائد العام في العودة على ظهر السفينة ، وأصدر أوامر بأن يتم إشعال النيران في المدينة ، بما فيها المسجد الواسع جداً والجميل ، وجميع السفن التي كانت جانحة على الشاطئ بالقرب من الحاجز الدفاعي ، ورجع عائداً إلى الأسطول ، مقدماً الشكر الجزيل للرب على منحه نصراً كهذا .

## الفصل الخامس والخمسون :

"القريات" قد تم تدميرها . أبحر القائد العام إلى مدينة أخرى تسمى مسقط ، هذه التي هي أكبر حجماً وأكثر سكاناً من "القريات" ، بالإضافة إلى أنها تمتلك مرسى كبيراً جداً ، يجعلها هذا ميناءً تجارياً مشغولاً جداً ، وهي تقع على مسافة عشرة فراسخ في جهة الشمال بشكل أبعد من المدينة السابقة ، كما تحتل موقعاً بين اثنتين من سلاسل الجبال ، حيث يشكل البحر خليجاً لها . منازلها بيضاء ومبنية من الحجر ، وكانت تحكم حينئذٍ من قبل رجل مخصي كان عبداً لملك هرمز .

على الرغم من أنها مبنية في منطقة سهلية ، فإنها كانت محصنة جيداً ، لأن حاجزاً دفاعياً مزدوجاً كان قد تم بناؤه ، واصلاً كلا الطرفين لكل من السلاسل الجبلية ، تم تعبئة الفراغ بين الحاجزين الدفاعيين بتراب الأرض ، وكان هذا في المكان الذي كان يجري فيه تحميل السفن ؛ لأنه مواجه للبحر .

كانت هناك فقط اثنتان من الفتحات متصلتين بالبحر ، وكانتا ضيقتين للحد الذي من المستطاع لشخص واحد فقط أن يمر من خلالهما ، هاتان كانتا مغلقتين بالأبواب ومحميتين بواسطة مدفع في داخل كل واحدة ، إلى جانب ذلك كانت هناك مدفعية أخرى على طول الحاجز الدفاعي .

وصل القائد العام إلى ميناء هذه المدينة في يوم الثاني من سبتمبر ، مبحراً في داخل الخليج ، ومرسلاً "بيرو فاز دا هورتا" ، وهو فارس موقر وخادم لجيش الملك ، إلى الشاطئ . كان هو الوسيط للأسطول ، ويتحدث اللغة العربية ، لذلك جرى إخباره بأن العرب يطلبون المجيء والحديث إلى القائد العام مباشرة دون وساطته ؛ لأنهم رغبوا في أن يكونوا آمنين بشكل تام .

حمل "بيرو فاز" الرسالة إلى الحاكم ، الذي كان قد جاء إلى الشاطئ مع عدد كبير من الأهالي ، وأرسل على الفور رجلاً موقراً إلى القائد العام ، بالإضافة إلى بعض الوجبات الخفيفة من الطعام والشراب . كان خائفاً جداً عندما رأى أسطولنا يظهر للعيان ،

لدرجة أنه لم يكن قد تذكر بأن له قلعة ورجالاً للدفاع عنها . لم يرغب القائد العام في أن يقبل الهدية التي حملها العرب إليه ، قائلاً بأنه لم يرد أن يأخذها إلى أن يعرف عما إذا كان الحاكم راغباً في أن يقيم اتفاقية معه .

كان هذا حتّى لا تتم إعاقته بكونه مديناً له إذا هو كان عنده سبب لكي يقطع رأسه . تحدث بهذا متقمصاً شخصية رجل كان سيداً للمدينة التي ترهب العرب كثيراً .

طلب منه الأخير أن يقبل الهدية ، لأن الحاكم وكل أعيان المدينة كانوا في خدمته ومن الممكن أن يفعلوا أي شيء أمر به . رد "أفونسو دي البوكيرك" بأنه نصحهم أن يفعلوا ذلك ؛ لأنه لا يرغب في تدمير أي مدن لملك هرمز ، إذا لم يكن مجبراً على أن يفعل ذلك ، إذا هم ضايقوه ، فليس في وسعه إلّا أن يدمرهم على الرغم من أن هذا يزعجه .

كانت مسقط هي المدينة المعنية ، وأخبره عما كان قد حدث في "قلهات" ولماذا هو لم يكن قد دمرها ، إضافة إلى لماذا هو كان قد دمر "قريات" . لم يخبره عن كل هذا بشكل تفاخري بل لكي يدخل الخوف في روع العرب ، ونجح بالتأكيد في ترويعهم أكثر مما كانوا عليه من ذي قبل ؛ لأنه في اليوم التالي بعد أن كان قد سمع تقرير المبعوث ، أرسل حاكم مسقط قاضي المدينة ، وهو رجل عربي موقر ، بالإضافة إلى الرجال الذين كانوا قد اشتروا الهدية ، لكي يقرروا أية اتفاقية أرادها القائد العام .

بعد أن قدم احتراماته إلى "أفونسو دي البوكيرك" أخبره القاضي من خلال المترجم أن الحاكم وسكان مسقط اعتقدوا بأنه كان قبطاناً عظيماً ، مفضلاً على الآخرين بواسطة الحظ ، وعلى الرغم من أن المدينة امتلكت قلعة وحواجز دفاعية وسلاح مدفعية وذخائر وكثيراً من الجنود .

هكذا يكفي في الحقيقة لمقاومة أية قوة تهاجمها ، فإنهم لم يتمكنوا من مقاومة القائد العام ؛ لأنهم كانوا قد سمعوا بأنه لم تنقصه الثقة في إصدار الأوامر أو الشجاعة لقيادة هجمات ، إضافة إلى الحظ الحسن لكي يؤكد نجاح مشاريعه،لذلك فهم كانوا متأكدين أنه من غير المستطاع لأية قوة أن تهاجم ، ولأنهم كانوا يمتلكون هذا الرأي عنه ، كان الحاكم وسكان المدينة منزعجين مما كان قد فعله في ال ورغبوا في الدخول في سلام معه على شرط أن تكون البنود مقبولة .

توقف القاضي عن الحديث وكان من المتفق عليه أنه نظراً لأن القائد العام كان قد جاء إلى هذه المناطق لكي يجعل ملك هرمز يطيع ملك البرتغال ، فمن الواجب عليه أن يذهب إلى هرمز لهذا الغرض ، وسوف يقدم أهالي مسقط وعداً له بأنه إذا رفض ملك هرمز هذا الطلب ، فإنهم أنفسهم لا يمكن أن يرفضوه ، ويمكن أن يكونوا أتباعاً لملك البرتغال إلى الأبد،علاوة على ذلك ، إذا رفض الطاعة ، فإنهم من الممكن أن يضعوا كل إيراداتهم في خدمة ملك البرتغال ، هذه التي يأتي القائد العام لكي يجمعها في كل عام .

في تلك الأثناء ، إذا هو لم يبحر إلى هرمز ، عليهم أن يدفعوا

الإتاوة لأي من أساطيلنا التي يجب أن تمر في المنطقة في شكل أرز وتمور وأغنام ودجاج . رغبوا أيضاً في أن يدونوا كل هذا كتابة ، كدليل على أنهم كانوا أتباعاً لملك البرتغال ، بالتالي فإن القائد العام سوف يعطيهم علماً يحمل الأسلحة الملكية البرتغالية ، الذي يتشرفون برفعه على مسجدهم .

أخبرهم القائد العام أن يقدموا له منتجاً ذا نوعية جيدة ، وألا يفعلوا مثل رجال "قلهات" الذين كانوا قد أعطوه مواد تموينية ذات نوعية رديئة .

رجع القاضي إلى الحاكم بهذه الرسالة ، حاملاً اتفاقية للقائد العام التي يمكن أن تؤكد له سلامة كل أولئك الذين يرغبون في المجيء وبيع بضاعتهم إلى الأسطول . أتى الكثير منهم في أثناء النهار الكامل وهم يحضرون المياه العذبة . على الفور بدأ الحاكم في إرسال المواد التموينية التي كان قد وعد بأن يقدمها له .

إلا أنه في اليوم التالي جاء قبطان من الداخل مع ألف رجل . حث الحاكم على قتالنا وألا يستسلموا بمثل هذه الطريقة ، قائلاً إنه من غير المستطاع أن يوجد أكثر من مائة رجل في كل واحدة من سفننا ، وسبعمائة في كل السفن ، بينما هو كان قد أحضر ألف رجل وكان هناك فعلاً ثلاثة آلاف رجل في المدينة . الذين بلغوا في مجموعهم إلى أربعة آلاف رجلاً ، فكيف لعدد أربعة آلاف رجل أن يخفق في قتال ضد سبعمائة رجل ؟

لذلك أخبره القبطان ألا يستسلم بدون قتال ، لأن شيئاً كهذا كان مخزياً جداً ، وهنا كان كل العرب في هياج ، وأخبروا الحاكم أن ينقض السلام الذي كان قد اتفق عليه مع القائد العام ، وأن يثور عليه ، أهانوه ؛ لأنه لا يريد أن يفعل ذلك وحبسوه كسجين في داخل منزل ، نتيجة لهذا الاضطراب والفوضى أوقف العرب حمل المواد التموينية إلى قواربنا على الشاطئ ، الذي منه كانوا يحملونها إلى الأسطول .

قرر العرب أن يحاربوا رجالنا وبدأوا يقرعون طبول الحرب ويعدون أسلحتهم . جاء حشد منهم إلى الشاطئ ، وهم يصيحون وبدأوا يضربون بعضاً من رجالنا ، الذين كانوا يحملون الماء العذب ، رجعوا إلى القارب ، تاركين براميل الماء وراءهم ، وذهب "بيرو فاز دا هورتا" الذي كان فيه لكي يخبر القائد العام عما كان قد حدث ، عندما سمع الأخير هذا ، أمر بعض السفن الأصغر حجماً التي كانت في مكان أقرب إلى البر أن تبدأ في إطلاق النار ، وهذا ما فعلوه على الفور .

أطلق العرب أيضاً نيران مدفعيتهم من البر ، لكن القائد العام لاحظ أنه لم يكن هناك من عدد كبير من الناس في الحراسة في الجانب الذي على الجهة اليمنى من الحاجز الدفاعي ، وأصدر أمراً إلى القبطان "أفونسو لوبيز دا كوستا" مع رجاله بأن يستولوا عليه .

على الفور قفز الأخير إلى الشاطئ مع رجاله واستولى على الجانب الأيمن من الحاجز الدفاعي ، حيث كان هناك منزلاً ، في أسفل الجبال .

عند رؤية هذا ، هجم عليه عرب كثيرون هناك ، حيث أطلقوا عليه سهاماً عديدة وأصابوه بجراح ، بالإضافة إلى خمسة أو ستة من رجاله .

لهذا السبب ، ولأن العرب كانوا كثيرين اضطر إلى الرجوع إلى سفينة "البارج" الكبيرة التابعة له دون الاستيلاء على مدفعية العدو ، بعد هذا قرر القائد العام أن يقاتل العرب في اليوم التالي ، ولكي يجهدهم ، ويجعلهم يستنفذون كل البارود الذي عندهم دون جدوى ، أخبر "مانويل تيليس باريتو" و"وافونسو لوبيز دا كوستا" أن يطلقوا النار على المدينة بأكبر قدر ممكن طول الليل بأكمله ، معتقدين أن القائد العام أراد النزول إلى البر ، أطلق أفراد العدو نيران مدفعيتهم من الشاطئ بقدر كبير ، واستمروا دون توقف طول الليل بأكمله .

## الفصل السادس والخمسون :

في اليوم التالي ، الأحد الخامس من سبتمبر ، نظّم القائد العام رجاله في شكل ثلاث فرق ، واحدة منها بإمكانها أن تهاجم نهايات الحاجز الدفاعي بقيادة "فرانسيسكو دي تافورا" و"أفونسو لوبيز دا كوستا" ، ويمكن "لجواو دا نوفا" و"أنطونيو دو كومبو" أن يهاجما النهاية الأخرى ، بينما القائد العام و"مانويل تيليس" يقودان هجوماً على القسم الأوسط ، حاملين العلم الملكي .

عندما كانوا جميعهم قد أبحروا ، كانوا كلهم مباركين في صلاة من قبل رجل الدين ، وقف على مقدمة سفينة القيادة حاملاً صليباً في يديه ، حثهم جميعاً بأن يتذكروا كيف أن السيد المسيح قد عانى

لكي ينقذهم ؛ لأنه بهذا الفكر لا يمكن أن يترددوا في القتال من أجله . بعد أن كان قد انتهى من حديثه ، سُمعت أصوات الأبواق النحاسية وبدأ الرجال يصطفون نحو الشاطئ في اتجاه المكان الذي يمكن لكل منهم أن يهجم عليه . كان بعض من أفراد العدو يطلقون سهاماً كثيرة ويقذفون الحجارة بالقرب من الماء .

حينما أبصر بعض منهم القوارب وهي تقترب من البر ، دخلوا في البحر بعيداً وقذفوا بحرابهم على رجالنا ، كان الصراع شديداً جداً وساخناً بين الجانبين . أطلق أفراد العدو صيحات عالية لكي يخيفوا رجالنا ويبثوا فيهم الرعب ، هؤلاء الذين على الرغم من ذلك قاتلوا بشدة لدرجة أنهم نجحوا في النزول على الشاطئ ، لكن مع ذلك كان هذا خطيراً جداً ، لأن المياه وصلت إلى رقابهم وصدورهم .

قتلوا بعضاً من أفراد العدو واخترقوا صفوفهم ، ووصلت جنود رجالنا إلى الحاجز الدفاعي . كان رجال "فرانسيسكو دي تافورا" و"أفونسو لوبيز دا كوستا" من بين أول الذين وصلوا ، بينما حارب البعض أضرم آخرون النار في الحاجز الدفاعي ، حتّى أنه كان مشتعلاً بحدة بعد وقت قليل ، لم يستطع أفراد العدو مواجهتها وهربوا إلى القسم الأوسط حيث كان القائد العام يقاتل في ذلك الحين .

عندما جاء جميع أفراد العدو إلى هذا الجزء ، كان رجالنا لديهم الكثير لكي يفعلوه هناك ، مواجهين مقاومة شرسة ، ومع ذلك لم يستطع أفراد العدو الصمود ومقاومة الهجوم لفترة طويلة ؛ لأنه مات

منهم مائة رجل ، وجرح آخرون نتيجة لطلقات الرصاص والسهام . انسحبوا إلى المدينة بينما تبعهم رجالنا في ملاحقة ، قاتلين وجارحين لبعضهم ، إلى أن قذفوا بهم خارج المدينة وأخرجوهم منها . استمرت المعركة لثلاث ساعات تقريباً للاستيلاء على المدينة وتطهيرها .

كان من أول الهاربين الحاكم الذي أخذ معه عشرين رجلاً من رماة السهام ، ووجد ملجأ على تل يقع بالقرب من المدينة بجوار البحر . حينما صعد فوق منحدر كان ملاحقاً من قبل اثني عشر من رجالنا ، هؤلاء الذين كان من بينهم "أنطونيو دي نورونها" ورجال آخرون موقرون ؛ نظراً لأنهم كانوا يطبقون عليه المطاردة ، ولأنه كان سميناً ممتلئ الجسم ، ولم يستطع الجري بالسرعة التي أرادها ، فقد اختبأ وراء صخرة واستدار بوجهه نحوهم ، متحدثاً إليهم ، لكنهم لم يستطيعوا أن يفهموه ، لأن أحداً لم يفهم لغته .

افترضوا أنه كان يطلب منهم أن يعفوا عنه ويبقوا على حياته ، لأن السلام المتفق عليه قد تم انتهاكه ضد رغباته ، لكن البحارة الذين لاحقوه لم يرغبوا في أن يستمعوا منه لأية أعذار ، وهجم عليه أحدهم مستخدماً حربة قاتلاً إياه . على الفور اندفع الآخرون بقوة على رماة السهام التابعين للحاكم وقتلوهم جميعاً ، في هذه الأثناء طارد القائد العام المجموعة الرئيسة لجيش العدو حتّى حافة ميدان مفتوح ، يقع خارج المدينة ، لكن ليس أبعد من هذا ؛ لأنهم صعدوا إلى الجبال وكان رجالنا قد أصابهم التعب .

على الرغم من أن البرتغاليين قتلوا في هذه المطاردة كثيراً من معارضيهم ، لكنهم لم يستطيعوا أن يأسروا أحداً وهو حي .

عاد القائد العام بعد ذلك إلى المدينة وأمر "نونو فاز دي كاستلو برانكو" أن يحتفظ بثمانية رجال تحت الحراسة . كان ممكناً أن يتم وضعهم في منزلين كبيرين ، استطاعوا أن يشرفوا منهما على الميدان الذي كان فيه رجالنا يلاحقون العرب ، كان هذا لأنهم كانوا خائفين من أن يعود أفراد العدو ، نظراً لأنهم كانوا كثيرين جداً في عددهم .

ذهب القائد العام بصحبة جميع الرجال إلى المسجد الذي كان يقع في وسط المدينة ، هنا اكتشف أن أحداً لم يكن مفقوداً ، وأن سبعة عشر فقط كانوا قد جرحوا في المعركة التي كانت معجزة عند تقدير التفوق العددي الكبير للعدو ، تم فيما بعد الاكتشاف أن الرب إلهنا قام في الحقيقة بمعجزة من أجلنا ؛ لأنه بعد أن كان الأسطول قد أبحر من هناك .

سأل رجل عربي موقر كان "نونو فاز دي كاستيلو برانكو" قد قبض عليه وأسره في المنزلين اللذين احتفظ فيهما به تحت الحراسة ، من فارس كان قد تمت رؤيته فيما بيننا ، وقد امتطى حصاناً أبيض وارتدى درعاً أبيض ذا علامة حمراء على لباس الدرع الذي فوق صدره ، مقاتلاً بعدة أسلحة وقاتلاً رجالاً كثيرين لدرجة أن أحداً لم يستطع الاقتراب منه .

في الحقيقة أنهم كانوا قد خافوا من أن تحل بهم الهزيمة على يد هذا الرجل وحده . من هذه العلامات اعتقد القائد العام ، محتفظاً

برأيه لنفسه ، أن الرجل كان الرسول "القديس جيمز" الذي كان محباً له كثيراً جداً ؛ لكنه لم يرغب في أن يخبر الرجل العربي عنه ؛ لكي يعتقد أن هذا الفارس دائماً ما قدم له المساعدة ، ولذلك أخبره أن الفارس كان على ظهر الأسطول .

كان قبطاناً اسمه "جواو دا نوفا" له درع أبيض مثل الذي كان قد وصفه ، الوصف الذي أدهش الرجل العربي . قال الأخير أنه لا عجب من النصر على أي عدو من الرجال عندما يمتلك المرء فرساناً كهؤلاء يقاتلون في صفه .

بعد أن تم الاستيلاء على المدينة ، مكث فيها القائد العام لمدة ثمانية أيام ، الفترة التي في أثنائها جعل القائد العام المدينة معزولة بشكل تام .

هناك على الأغلب كانت تتوافر فيها مواد تموينية ، وأصدر أمراً بأن يتم نقل قطع المدفعية على ظهر سفن الأسطول . أُضرمت النار في الحاجز الدفاعي ، وأُحرقت جميع السفن التي كانت ترسو هناك ، وجرى فعل نفس الشيء للمدينة كاملة ، هذه التي أُحرقت بشكل سريع جداً ، وتم هدم المسجد .

كان هذا المبنى كبيراً وله قبة فوقه وشرفة ، اعتمدت القبة على أعمدة حجرية منممة . ثلاثة من رجال مدفعيتنا بدأوا في قطع حجر الأعمدة بقصد وضع البارود فيها لتفجيرها ، وبالإضافة إلى هذا ما كان يوجد أحد بداخل المسجد ، فجأة انهارت القبة ، وكانت تكفي

لمقتل ألف رجل إذا ما تواجدوا تحتها ، ولكن سيدنا المسيح أراد أن يُظهر سروره ؛ لانهيار وتحطم هذا البيت الملعون ، وذلك لحماية الذين حطموه ، وبدون أن يضطر أحد للحفر لإخراجهم من بين الحجارة ؛ لأنهم فجأة ظهروا دون أن يصيبهم أي مكروه ، كما لو أنه لم يسقط أي شيء فوق رؤوسهم . شكر القائد والقباطنة الآخرون الرب وكانوا سعداء بهذه المعجزة .

## الفصل السابع والخمسون :

في يوم السادس عشر من شهر سبتمبر غادر القائد العام للأسطول مدينة مسقط ووصل إلى إحدى مدن العرب تعرف باسم "صوار" (في الخرائط الحديثة تعنى "صحار") ، وتعود هذه المدينة لملكية ملك هرمز ، وتحتوي على حصن منيع بنيت حوله حيطان عالية ، وزود بمجموعة من الجنود الخيالة ، وفي ذلك الوقت لم يكن القائد موجوداً ، إذ إنه ذهب في زيارة لملك هرمز تاركاً وراءه "ألكيدي"[أ] صهره .

كان الأخير هذا قد علم مسبقاً بما فعله "أفونسو دي البوكيرك" بالمدن الأخرى التي تقع على طول الساحل ، وفي ظل مخاوفه أن يحدث له ما حل بالآخرين ، قرر أن يخضع ويسلم الحصن ضماناً لسلامته ، وعندما ألقى قائد عام الأسطول مرساته في البحر بعيداً عن الشاطئ الذي وجده عاصفاً ، أرسل القاضي أحد العرب لمقابلته

(أ) في قاموس أكسفورد البريطاني إشارة إلى لفظ "اليكيد" ، وهو مصطلح إسباني . وبالنسبة له فإنّ أصل الكلمة يعني "القاضي" بالعربية .

حاملاً راية السلام لكي يسأله ماذا يريد منه ، فأجابه قائلاً إنه قدم إلى هنا بأمر ملك البرتغال بصفته أحد رعاياه بغرض اكتشاف وغزو البلاد ، ولكي يوجد اتفاقيات سلمية ويقيم علاقات صداقة مع كل من يرغب في صداقته .

بعدها أخبر المبعوث لكي يبلغ سيده ما إذا كان يرغب في ذلك وأن يرسل له الرد عاجلاً ، ولقد فعل ذلك بواسطة العربي نفسه ، إذ أرسله لكي يبلغ القائد بأنه قد بقي في القلعة بأمر صهره الذي يحكم القلعة ، وبالرغم من ذلك فسوف يسره أن يدخل معه في اتفاقية السلام التي يرغبها ؛ فأجاب قائد عام الأسطول مبيناً له أنه طالما أن هذه رغبته ، فإنه يعده بأن يحظى باحترامه ومساعدته في كل أمر يخصه ، وأضاف مشيراً بأن القاضي مصيب بتصرفه هذا ، ومن العبث والخطأ إذا أتى تصرفه بشكل مغاير .

طلب القاضي بعض الرهائن كي يضمن سلامته ؛ لأنه يرغب في مقابلة قائد عام الأسطول ، وكان له ما أراد ، إذ أرسل القائد بعض الرهائن بواسطة أحد النبلاء وهو "جورج باريتو كراستو" ، وعند استلامهم قاد "جورج باريتو" القاضي لمقابلة "أفونسو دي البوكيرك" الذي سعد للقائه ، واستقبله بكل احترام ، وقد خاطبه القاضي ، عبر ترجمانه ، بقوله :

"أنت أيها القائد القوى في البر وفي البحر ، قائد عام أسطول ملك البرتغال أعظم الملوك قوة ونفوذاً ، لقد تلقيت أخبار انتصاراتك

على وكيف تمكنت من سحق وقتل الكثيرين من العرب في مسقط الذين رفضوا عرض السلام الذي قدمته لهم بروح الود والسلام التي لا يعرفونها ، وارتكنوا لصلفهم وغرورهم ، وهذا ما أدى بك لاستخدام سيفك الغاضب لتعمل فيهم ذبحاً وقتلاً ، أما أهالي فإن نيران أسلحتك كانت كفيلة بتأديبهم ، ففي ذروة نذالتهم لم يتبعوا خطوات رجال الذين قبلوا على الفور صداقتك ، فعوقبوا لقاء عنادهم ومماحكتهم ، وبالرغم من ذلك ظلوا أشداء أقوياء بحيث زرعوا الرعب والخوف في نفوس أعدائهم .

لكن أنت من فاقت قوتك قوة الأقوياء كانت ضربتك التي سددتها لهم كفيلة بسحقهم وإضعافهم ، حتّى بدت وكأنها موجهة لهم من قبل الرب وليس من الرجال ؛ لأن لدى العرب رجالاً تفوق أعدادهم أعداد رجالك ، وفوق كل هذا كانت لديهم دفاعات وتحصينات قوية ناهيك عن مدفعيتهم وأسلحتهم التي تفوق أسلحتك .

إننا نرى أنك تنتقل من نصر إلى آخر وتسحق كل شيء ، لذا فإنني أدرك أنها مشيئة الرب وليس لي رغبة في تحدّي الرب ومواجهته ؛ لأن في الاعتراض والتصدي لك ما يُعد تحدياً للرب ، ولأنه من الحماقة والجنون تحدي إرادة الرب ، فإنني لا أريد أن أعول ، وأعتمد على رجالي في القلعة ، بل سوف أرضخ وأرضى بإرادته .

إنني أتيت لعقد اتفاقية السلام معك ، وباسم ملك البرتغال

فإنني أعلن أنني من اليوم فصاعداً سأكون ومن معي من رجال "صحار" أتباعاً نخضع لنفوذ ملك البرتغال ، شريطة أن أصبح حراً بمجرد توقيعك معاهدة الصداقة مع ملك هرمز ، وإذا ما رفض ملك هرمز ذلك سوف أظل تابعاً لملك البرتغال" .

تملك السرور نفس قائد عام الأسطول لسماعه هذه الكلمات التي جاءت على لسان هذا البربري وهو عدو طبيعي له ، وهو قد فعل ما فعل ؛ لأنه لا يملك أي خيار آخر ، وأخبره أن ما يبين أن الشخص واع ومتصالح مع نفسه في هذا العالم هو قدرته على فهم زمانه ومشكلاته ، خاصة إذا ما أدرك أن كل ما يصيبه هو أمر تحدده أرادة الرب ومشيئته .

طالما جاء تصرف هذا القاضي على هذا النحو ، فإنه جدير بالثناء على حصافته وتعقله ؛ لأنه لم يفعل ذلك جبناً أو خوفاً وإنما تعقلاً وحصافة ، وليس في مقدور الرجل أن يكون مقداماً ما لم يحارب لسبب معقول ، ومن يحارب لأجل لا شيء ، فإن أقل ما يوصف به هو الغباء والجنون ، وما دام يتصرف بحكمة فسوف يدرك أي صديق مخلص التقاه وسوف يكتشف الكثير من الفوائد التي ستعود عليه بعدما اتخذ قراره بأن يكون تابعاً لملك البرتغال وليس مقاوماً له .

لقد تم الاتفاق ساعتها على أن يرسل القاضي من يعلنون ذلك جهراً في المدينة ، وفي الحصن بأن أهالي "صحار" قد أصبحوا الآن أتباعاً لملك البرتغال ، وتأكيداً لهذا الحدث سوف يرسل لهم قائد

عام الأسطول علماً يحمل شعار النبالة الملكية البرتغالية الذي سيحمله المنادون ، وهم يعلنون البيان ، وعندما تصبح القلعة والمدينة في حكم تبعية ملك البرتغال فيترتب عليهم دفع جزية للحامية التي سوف تبقى هناك لمقابلة احتياجاتها .

بالفعل تم تحرير وثيقة تحتوي على هذه الشروط التي كتبت باللغة العربية وتُرجمت للبرتغالية ، وتُقرأ كما يلي : "نحن قاضي وسكان قلعة "صحار" هذه ، نقر بأننا فوّضنا أمرنا وأودعنا نفوسنا للرب ووضعنا نفوسنا في أيدي "أفونسو دي البوكيرك" قائد عام أسطول ملك البرتغال وسيد "الانديز" الذي وصل إلى هذه القلعة في السادس عشر من شهر سبتمبر لسحقنا .

لكننا ركعنا تحت قدميه طالبين منه أن يرحمنا من حربه ؛ لأننا نريد أن نصبح أتباعاً لملك البرتغال ، وسوف نقوم بتسليم القلعة له إذا ما رغب على الرغم من أنها تؤول إلى ملك هرمز .

طالما أن ملك هرمز لم يأتِ لحمايتنا والدفاع عنا وأننا رغبنا في أن نصبح أتباعاً لملك البرتغال ، فقد تمت الموافقة على أن يعمل على حمايتنا منه أو من أي حاكم أو ملك آخر يضمر لنا سوءاً ، ولقد وافق على أن نصبح أتباعاً له ، ووعد بضمان سلامتنا ومنحنا علمه الذي نرفعه الآن فوق سارية الحصن ، وابتداءً من هذا اليوم فصاعداً نتعهد بطاعة ملك البرتغال بأن نصبح أتباعه ، ونقوم بتسليم قلعتنا له عندما يحتاجها هو أو يحتاجها قادته .

نتعهد بألا نذعن أو نطيع أي ملك آخر ؛ وبالمثل نعده بأن نقدم خدماتنا لأساطيله ، وإن نقدم لهم ونزودهم ببعض المؤن والأغذية مما لدينا ، وإذا ما عجزنا عن تنفيذ ما ورد فسوف يكون له الحق في البطش بنا وقتل رجالنا وحرق بضائعنا .

على كلٍّ ، فعندما يوقع قائد عام الأسطول اتفاقية مع ملك هرمز ، يلتزم فيها الأخير بطاعة ملك البرتغال ، فإننا بدورنا سوف نطيع ملك هرمز وبخلاف ذلك فسوف ندين بالطاعة الكاملة ونذعن لسيادة البرتغال .

أما بالنسبة للمزارعين فالقائد العام وحده سوف يحدد لهم أي نوع من المؤن يترتب عليهم تقديمها له ؛ لأنه ما من وسيلة أخرى يمكنهم دفع الجزية بها ، وعليهم دفع هذه الجزية لأساطيل البرتغاليين متى ما قدموا إلى هنا ، وفي ظل قناعتنا التامة بهذه الشروط قمنا بتحرير هذه الوثيقة التي تحمل توقيعاتنا" .

على الفور وضع القاضي توقيعه عليها ثم ناولها إلى القائد العام ، الذي قدم له بدوره قبعته الحمراء الخاصة به وإناءً كبيراً من الفضة ومعه بعض القطع الأخرى ، تم تقديمها له بواسطة بعض وجهاء الأسطول والفرسان . أما "نونو فاز دي كاستيلو" فقد قدم له القرآن قيمة النسخة منه بمبلغ مئتين "بارادوس"[أ] ، ونظراً لحلول الظلام تم الاتفاق على أن يصار إلى تسليم العلم صباح الغد في الشاطئ .

(أ) لا أعرف أيّ نوع هذا من العملات .

في صباح اليوم التالي السابع عشر من شهر سبتمبر ، خرج القاضي لاستقباله على الشاطئ واستقبال حاشيته ، وكان رجالنا وبعض العرب قد استقبلوه ، وهم على صهوات خيولهم تتقدمهم فرق الموسيقى وقارعوا الطبول ، وساروا إلى القلعة ، وفي مقدمة هذا الموكب سار المنادون يهتفون باسم ملك البرتغال ، وفي كل مرة يتم قرع الطبول هكذا كانوا قد اتجهوا إلى القلعة ، حيث تم رفع العلم فوق البرج حيث بقي هناك .

جميع تفاصيل هذه الفعاليات كانت قد سجلت كتابهة بواسطة أحد كتبة الأسطول ، وتم التوقيع عليها بواسطة القاضي واثنين من الوجهاء . بعدها عاد رجالنا إلى سفنهم .

لما كان رؤساء القلعة في حاجة لبعض المال فقد أمر قائد عام الأسطول المواطنين في "صحار" بمراعاة هذا الأمر ، ولما أبحروا إلى "أورفكان" "خورفكان" ، وهي مدينة أخرى تحتل موقعاً على نفس الساحل ، تحيط بها سلسلة من الجبال وتحتوي على العديد من الطرق والمساكن الجميلة ، وعلى الأسوار توجد عدة مدافع .

كانت هذه المدينة تُحكم بواسطة ممثل عن ملك هرمز ، وكان لديه مجموعة من الجنود تحت إمرته ، كانت معظم بضائعها قد بيعت ، وبالتالي لم تكن هناك أية سفن في الميناء .

كان قائد عام الأسطول قد وصل إلى هذه المدينة في يوم الحادي والعشرين من سبتمبر ، وكان جميع العرب قد انتشروا على طول

الشاطئ لمشاهدة أسطولنا ، كما كان بعض منهم يحومون في المنطقة على صهوات خيولهم ، لكن لم يجرؤ أحد منهم على الاقتراب للتحدث مع القائد العام الذي أرسل بدوره عامله في مركب ؛ لأجل فحص خط الساحل أثناء الليل وليكتشف ما إذا أقدم رجل للتحدث معه ، وأمره بألا يبادر للتحدث قط ما لم يتحدث العرب أولاً ؛ لكنهم لم يفعلوا ذلك .

عندما علم القائد العام بهذا الأمر أمر رجالنا بأن يكونوا على استعداد ، ومن ثم شنّ هجومه على المدينة في اليوم التالي ، لكنه لم يواجه أية مقاومة على طول خط الساحل بسبب هروب الحاكم نفسه مع العديد من الوجهاء ، ولم يبق منهم سوى فئة قليلة في المدينة ، وحتى هؤلاء فروا منها نحو الجبال عندما رأوا رجالنا يدخلون المدينة ، وهنا لاحقهم البعض من رجالنا ، حيث قتلوا البعض منهم وأسروا البعض الآخر .

أيضاً رصد رجالنا مجموعة من الرجال فروا بعيداً داخل الوادي في المنطقة الداخلية ، لحقت بهم مجموعة أخرى على ظهور الجياد ، عندما تيقن "أفونسو دي البوكيرك" من عدم وجود أي شخص يمكن أن يخرج إليه لمواجهته من أهل المدينة ، أرسل ابن أخيه "أنطونيو دي نورونها" على رأس مائة من الجنود لملاحقة تلك الفئة التي لاذت بالوادي ، بينما سيعمل هو على الملاحقة بواسطة بقية القوة .

بينما كان "دوم أنطونيو" يقوم بملاحقتهم كان البعض من الفئة

المطاردة يدور لكي يواجهه ، بينما يبدأ الرجال الهاربون في إطلاق العديد من السهام لكي يحموا الآخرين ويمكنونهم من الهرب .

كان البرتغاليون قد طاردوا أهل المدينة لمسافة فرسخ كامل ، حيث ألقوا القبض على مجموعة تضم عشرين رجلاً وامرأة ، وكان التعب قد بلغ منهم مبلغاً بحيث لم يعد أحد منهم يستطيع المشي ، وكذلك كان الحال نفسه بالنسبة لرجالنا ، وبعدما ظلوا يطاردون العدو لمسافة فرسخ قفلوا راجعين إلى حيث يوجد القائد العام مع بقية الجنود ، ومن ثم عادوا جميعاً إلى المدينة .

هنا مكثوا مدة ثلاثة أيام ، حيث عملوا على تفريغ المدينة من كل المؤن والبضائع التي توجد فيها ، وبعدها أضرموا النار فيها ، ولما كانت هذه المدينة تمثل حدود ممتلكات ملك هرمز في الساحل العربي قبل دخول الخليج الفارسي ، قرر القائد العام التوجه إلى جزيرة هرمز .

هذا ولقد أعلن نواياه إلى بقية القباطنة الذين وافقوه ، وبالتالي شرع في الإبحار حتّى وصل إلى رأس على نفس الساحل يعرف باسم "رأس موساندونو"[أ] ، وكان هذا يمثل حدود إقليم ملك هرمز في الجانب العربي ، ومن هنا وإلى ما بعده يبدأ الخليج الفارسي الذي يمتد حتّى مدينة البصرة التي تفصلها مسافة مئتين وخمسة وعشرين فرسخاً عن جزيرة هرمز ، وبين رأس مسندم وساحل الخليج الفارسي

(أ) وردت في الخرائط الحديثة باسم "موساندان" مسندم .

يوجد مدخل الخليج الفارسي ، ويبلغ عرضه خمسة عشر فرسخاً ، وهنا توجد بعض الجزر الصغيرة ؛ وتعتبر جزيرة هرمز أكبر هذه الجزر .

تقع جزيرة هرمز هذه على مسافة ثلاثة فراسخ من البر الرئيس ؛ أما محيطها فيبلغ حوالي ثلاثة أو أربعة فراسخ . الغطاءات الخضراء والأشجار تكاد تنعدم في هذه الجزيرة وبالمثل الأنهار ومصادر المياه . هناك سلسلة جبلية صغيرة تحتوي على منجم ملح على أحد جانبيها ومنجم آخر للكبريت على الجانب الآخر ، وهنا يبدو بياض الملح كالثلج في الداخل وأحمر من الخارج ، ويتم استخراجه في شكل قوالب أو كتل تماماً كالتعامل في قطع الحجارة من المحاجر .

أما السفن الأجنبية التي ترتاد المنطقة ، فإنها تستخدمه كثقل للموازنة ، وما عدا ذلك فلا يمكن أن يجد المرء في هذه الجزء أي شيء آخر يستفيد منه ، وعلى مبعدة فرسخ واحد من المدينة توجد ثلاث آبار تصلح مياهها للشرب ، وبخلاف هذه لا توجد مصادر للمياه قط في هذه الجزيرة ، وبغض النظر عن المياه التي يتم تجميعها في الصهاريج ، فإن مياه بقية المصادر ليست صالحة للشرب .

بالرغم من الجفاف الذي يميز هذه الجزيرة إلّا أن موقعها وحقيقة احتوائها على ميناءين جعلتها تعتبر من أفضل الموانئ التي يتمنى المرء العثور عليها ، قد دفعا العرب كي يوجدوا فيها مدينة هرمز ، لقد قاموا ببنائها في طرف الجزيرة حيث يوجد خليجان يقومان مقام الميناء ؛ يوجد أحدهما في الجانب الشرقي ، والآخر في الجانب

الغربي ، هناك يمكن إصلاح وترميم السفن ، ولو قارب وزنها أربعمائة طن ، وبالتالي لا عجب أن يشاهد المرء كميات وفيرة من القطران (القار) في الميناء ، وكذلك نسالة الكتان والحبال وكل المواد التي تعتبر ضرورية لعمليات الصيانة وأشرعة السفن .

أما المدينة فتبدو مسطحة لا يوجد بها حصن آخر غير مقر الملك ، لكنها تحتوي على العديد من المساكن الجميلة التي تمتاز بطولها ، ومواد بنائها من الحجر الأبيض ووجود "الفرندات" والشرفات العليا ، ونظراً لطول موسم الصيف الحار فقد أوجدوا في هذه المنازل مباني تبريد تبدو كالمداخن حيث توضع في منتصف المبنى تهب نحوها الرياح "براجيل" وتتخللها إلى حيث يجلس الناس للاسترخاء .

السكان هنا يعتنقون الديانة الإسلامية "دين محمد (صلى الله عليه وسلم)" ، ومعظمهم من الفرس والعرب ، ويتحدثون اللغتين الفارسية والعربية ، فالعرب يوصفون بأنهم ذوي قامات طويلة وسحنات داكنة ، أما الفرس فهم بيض ذوو قامات طويلة .

جميعهم مغرمون باللهو والمرح ، بالأكل والمتعة الجسدية ، خاصة الشهوانية ، وهم خيالة فرسان من الطراز الأول ، وكثيراً ما توجد المثاقفة (مقارعات بالسيف بين فارسين) ، أيضاً اشتهر هؤلاء القوم بحبهم للموسيقى وأدواتها .

أخيراً لا يتورعون عن الانغماس في نوع من الرذائل ، إنهم شديدو الغيرة على زوجاتهم لا يسمحون بأن ينكشفن لأي رجل

آخر ؛ نظراً لحسنهن ولجمالهن الأخاذ ، وعندما يخرجن أحياناً ، فهن يحرصن على تغطية أجسادهن بالكامل بواسطة ملاءة توجد بها فجوات في المواجهة ؛ كي ينظرن من خلالها (الشادور) ، وتعرف النساء أيضاً بأنهن شهوانيات .

الرجال والنساء يرتدون أبهى الملابس وأحسنها ؛ فالرجال يرتدون معاطف وسترات مصنوعة من الصوف الفاخر ومن الحرير أو القطن الأبيض وتحته يرتدون السراويل والقمصان ، أيضاً يضعون أحذية مستدقة الرأس من الجلد أو الحرير وعلى رؤوسهم يضعون العمامة فوق غطاء رأس أحمر .

أما أسلحتهم فهي جميلة تماماً كملابسهم ، ويحملون أسلحة كالسيوف والدروع ، كما يحملون النشابات التركية وهم رماة نبال من الطراز الأول الممتاز ، أما الدروع التي يحملونها ، فإنها تعرف باسم "كوفوس" ، وتصنع من الحرير والقطن ، وهي من القوة والصلابة بمكان بحيث يصعب اختراقها .

هم يحملون أسلحتهم هذه بحيث إنها ترافقهم في كل أوقات السلم أو الحرب . جميع السكان هنا أثرياء ؛ لأنهم جميعاً يعملون بالتجارة ، أيضاً استقر في هذه المنطقة الكثيرون من شعوب بلدان العالم الأخرى ، جاؤوا بمختلف بضائع وتجارات تلك الدول إلى المنطقة ، فمن الهند جاؤوا بجميع أنواع التوابل والحبوب والحجارة الكريمة والمنسوجات ، ومن "ملقا" أتوا بالثوم والقرنفل والجوز وحطب

الصندل والكافور و"البورسلين" ، ولبان "الجاو" و"الكالامين" ؛ ومن البنغال يؤتى بأنواع مختلفة من أنواع القطن الفاخر الذي يجد تسويقاً جيداً .

من الإسكندرية والقاهرة يؤتي بالزئبق ، و"كيريتوز" الزئبق والزعفران والنحاس وماء الورد والثياب المطرزة والمخمل و"التفتة" ، والذهب والفضة والنقود المعدنية والسجاد ، ومن الصين يؤتى بالمسك والأعشاب الطبية والحرير .

بالإضافة لهذه البضائع التي تُجلب بحراً ، فإنهم قد حصلوا على بضائع أخرى لا حصر لها كانت تجلب لهم عن طريق البر من فارس ومن بعض المقاطعات الآسيوية الأخرى ، وفي المقابل امتلكت السفن التجارية حبوب اللؤلؤ ، واللؤلؤ ، والخيول العربية ، والحرير الخام والتمور ، وأنواع العنب والملح والكبريت ، وأشياء أخرى كثيرة في هرمز .

على الرغم من عدم وجود أي منتج في الجزيرة إلّا أنها تزخر بالكثير مما يجلب لها من مؤن لا يماثلها أي بلد آخر في العالم ، فهي تمتلك القمح والأرز واللحوم والزبد والأسماك وجميع أنواع الطرائد ، وكذلك جميع أنواع الفواكه كالتي يمكن أن توجد في إسبانيا ، الطازج منها والمجفف والمعلب والمحفوظ وأنواع أخرى ليست معلومة بالنسبة لنا .

السكان هنا على علم بجميع طرق حفظ السكر والخل الذي لم نعتاده ، وحتى المياه والأخشاب التي تُجلب أيضاً من خارج

البلاد ، ونتيجة لذلك فإنه يوجد الكثير مما يمكن أن يؤكل في الماء ، فالعرب يأكلون جيداً ويقومون بطبخ لحوم الخراف دون سلخها ، وهذا يعطيها مذاقاً رائعاً . هنا يباع كل شيء بعد وزنه وتفرض عليه ضرائب باهظة ، حتّى الأخشاب عليها ضرائب .

كل من يبيع أغراضه دون أن يسدد ما عليه من ضرائب أو يحاول ممارسة الغش بالتلاعب بالأوزان سوف يلقي العقوبة الصارمة ، فالعدالة هنا تنفذ بشكل صارم ، ويطبق القانون بحق أي فرد وعلى الجميع .

أما العملة المعدنية المستخدمة ، فهي عملة العرب وتضرب من الذهب قليل الجودة والفضة والنحاس ؛ فالقطع الذهبية تسمى هنا باسم "سيرافين" - "أشرفي" ، وتساوي ثلاثمائة "ديساً" بينما تساوي القطع الفضية ثلاث (فنتمز) ويسميها العرب "لارينز" ؛ لأنها تضرب في مدينة تسمى "لار" وهي تقع في البر الرئيس . أما قطع النقود المصنوعة من النحاس ، فإنها تعرف باسم "فالوز" ، وتعادل "سبعة سيتز" .

هناك محلات كثيرة للترفيه في المدينة من بينها نوع مخصص للرجال الذين يستهويهم السماع لقصص الماضي ، وفي أوقات بعينها خلال اليوم هناك رجل عجوز يقف في برندة ، وهو يقرأ في الصباح وبعد الظهر مقتطفات من تاريخ فارس القديم ، وعن "الإسكندر الأعظم" وشخصيات تاريخية ، وهم يفعلون هذا لكي يأتي الشباب للاستماع وتثقيف أنفسهم .

هذه المدينة تمثل عاصمة المملكة ، وقد أخذت اسمها من اسم

المملكة التي تتألف من عدة مدن وحصون في كل من الساحلين العربي والفارسي ، وفي كل منها تنتشر مزارع الكرم وحقول النخيل والبساتين ، لقد دأب ملك هرمز على دفع جزية من تلك المدن إلى الشيخ إسماعيل أو "الصوفي" ، حسبما يعرفونه في هذه الأنحاء ، فهو صاحب مقام رفيع يحكم الكثير من الأقاليم في فارس وفي البلدان العربية والهند (أي ما يعرف بالهند الأولى والتي تعني شمال الهند) ، وممالك أخرى ، ولقد دأب ملوك هرمز على الإقامة في كل الأوقات في المدينة ، حيث يعيّنون حكاماً آخرين في المدن الأخرى .

أيضاً كان لديهم حاكماً في هرمز نفسها ، وكان هذا الحاكم يولى اهتمامه لكل الأمور تقريباً ، نظراً لجهل حكام هرمز بتسيير أمور المملكة ، كان كل همهم أن تسير الأمور بسلام ، وإذا ما رغبوا في التعلم كيف يحكمون المملكة ويستخدمون سلطاتهم ، فإن "القاضي" في هرمز - أو هذا لقب الحاكم - سوف يلجأ إلى اعتقالهم ويقوم "القاضي" بسمل عين الملك ، وبمعاونة الوجهاء الآخرين سوف يودعونه أحد المنازل التي تستخدم خصيصاً لهذا الأمر ؛ وهنا يخصصون له علاوة من دخل المملكة لإعانته على العيش ومقابلة ظروف الحياة .

بعد ذلك يعمدون إلى تنصيب ابنه أو أقرب أقربائه ، وسوف يستخدمون نفس الأسلوب معه إذا ما رغب في الحكم ، وكانت نتيجة هذا وجود الكثيرين من الملوك العميان في هذا المنزل ، وتظل الأسرة الحاكمة في خوف دائم من لقاء هذا المصير ، وبمعزل عن هذا فإن ملك هرمز

يعيش في بذخ وبهاء ، فهو ينفق الكثير من الأموال ، وهناك مجموعة من رجاله يقومون بحراسته في كل الأوقات ، وينالون منه معاشات مقدرة .

عموماً فهو يعيش حياته في يسر تام مستمتعاً بكل أنواع الراحة والمتعة ، خاصة عندما يحب الذهاب إلى جزيرة ("قشم") التي تقع على بعد ثلاثة فراسخ من هرمز ؛ وتتوفر فيها مصادر عديدة للمياه العذبة وتنتشر فيها الغطاءات الخضراء والأشجار ، وفي هذه الجزيرة يوجد الكثير من الطرائد التي تشجع الملك لممارسة الصيد .

## الفصل التاسع والخمسون :

في وقت ما وقبل أن يعتلي الملك "تشورا" عرش هرمز ، عُرف أن لديه ثلاثة أبناء ، كان أكبرهم يسمى "كورقول" ، وفي حياة الملك كان قد تم تعيين "كورقول" حاكماً على منطقة "كاليات" ، وعندما كان يمارس سلطاته هناك علم عن موت أبيه في هرمز ، وكان هذا الحدث قد أدى إلى أن يرفع السلاح في وجه أخيه ويتولى السلطة ، وفي خطوة منه لتقليل عدد أعدائه قام بسمل عيني أخيه ، وعندما علم "كورقول" بهذا الأمر أبحر فوراً إلى جزيرة "البحريم" (البحرين) التي سوف أتناولها بالحديث فيما بعد .

هناك طلب من أحد ملوك الجزيرة العربية أن يساعده في سعيه للاستيلاء على هرمز ، ومقابل ذلك فإنه سوف يعطيه تلك الجزيرة (البحرين) وهي جزيرة كبيرة وغنية ، وإلى جانب ذلك فسوف يعطيه أيضاً قلعة القطيف التي تقع قبالة الجزيرة على الساحل العربي .

هذا ولقد وافق الملك العربي ، بل أنه اقترح وسيلة للقبض على أخيه الذي كان قد سملت عيناه من قبل . عموماً أصبح "كورقول" ملكاً واستمر في الحكم لأكثر من ثلاثين عاماً .

كان أحد أبنائه يرغب في الحكم ، وقد رأى أن أباه قد عمّر طويلاً . لذا فقد رشا مجموعة من الأحباش من خدمه المخلصين ؛ لكي يتولوا عملية قتل الملك ، وبعد أن يتولى عرش المملكة سوف يقوم بترقيتهم ؛ لكي يصبحوا سادة ووجهاء للقوم ، تم تنفيذ الخطة ؛ وعمل الملك على سمل عيني جميع إخوته ، كما فعل الشيء نفسه في أناس آخرين كان يعتبرهم مصدر خوفه .

بعد ذلك أصبح أكثر سطوة وطغياناً ، حتّى أن الأحباش الذين جعلوا منه ملكاً استاءوا من جبروته هذا ، لذا فقد أقدموا على قتله بعد شهرين فقط من جلوسه على المملكة ، ومن ثم بدأوا في إدارة شؤون المملكة بأنفسهم .

كانت هذه الأخبار قد نقلت إلى ملك "لار" وهي مدينة في الإقليم الداخلي لفارس ، وكان هذا الملك صهراً للملك "كورقول" ، وقد فكر بأنه وبمجموعة قليلة من رجاله بوسعه الاستيلاء على هرمز ، لذا فقد اتجه إلى جزيرة "قشم" بنية التوجه بعدها إلى هرمز .

عندما سمع الأحباش بذلك جمعوا رجالهم وشرعوا في ملاحقته ، بما أن ملك "لار" لم يكن قد جاء بكامل قوته ورجاله ، فقد لقي هزيمة نكراء من الأحباش الذين تمكنوا من قتل وأسر

الكثيرين من جنوده ، وهكذا استمروا يحكمون هرمز ويبسطون نفوذهم فيها ، وفي هذا الوقت كان هناك أحد المخصيين من البنغال اسمه "كوجيتار" "Cojitar" ، وكان قد عمل في خدمة الملك "تشورا" "Chaura" الذي قربه منه كثيراً وأصبح من ثقاته ، وكان الملك "تشورا" يستشيره في أكثر الأمور صعوبة وخطورة .

كان "كوجيتار" يسعفه بنصائحه المفيدة ، إذ إن هذا الرجل اتسم بالكثير من الدهاء والحصافة . عرف "كورقول" خصائص هذا الرجل ومميزاته ، فعينه حاكما على "كاليات" بعدما أصبح ملكاً ، وعندما علم "كوجيتار" بما حدث في هرمز ، جمع الكثير من السفن ، وكوّن أسطولاً عظيماً .

اتجه به لمهاجمة الأحباش والقبض عليهم ، وقد وجدهم في "قشم" ، بداية أرسل لهم رسالة يخبرهم فيها بأنه صديق لهم ؛ طالباً منهم أن يسمحوا له بالمشاركة في الحكومة بصفته واحداً منهم ؛ لأنه رجل حكيم يمتلك خبرة مثل خبراتهم ، وبعدما أصبح "كوجيتار" عضواً في هذا الحلف مع الأحباش ، فإن مستشاري الأحباش أخبروهم بأن يوافقوا على عرضه هذا .

أقنعوهم لكي يذهبوا إليه للتحدث معه في البحر ، وهناك قام باعتقالهم جميعاً ، ثم أخذهم إلى هرمز حيث قضى عليهم كلهم بكل وحشية . لم يكن "كوجيتار" يريد أن يترك الانطباع في نفوس الناس بأنه يريد الحكم لنفسه ؛ ولكي يتجنب التعرض لأي هجوم من قبل ملك "لار" – لأن هذا سيحول دون تنفيذ نواياه – كان

"كوجيتار" ، بعدما قضى على الأحباش ، أن أعطى تاج الحكم إلى شاب أعمى هو أحد أبناء الملك "كورقول" وحفيد ملك "لار" ؛ ولهذا السبب لم يقدم الأخير على مهاجمة هرمز .

الآن بعدما تحرر "كوجيتار" من هذه المخاوف ، قام بقتل ذلك الشاب الأعمى الذي عيّنه ملكاً ، وأعطى التاج لأحد أقربائه وهو ابن أخ الملك "كورقول" ، وكان هذا الصبي في السادسة عشر من العمر ، وهو أعمى أيضاً ، في هذا السياق أصبح "كوجيتار" طاغية في مملكة هرمز ، تركزت في يديه سلطات مطلقة ، سيما وقد أصبحت لديه قوة ضارية عظيمة تقوم بخدمته .

كان ينفق الأموال الطائلة في سبيل تأمين حمياته ، وبسبب ذلك لم يعد في مقدور أي أحد الوقوف في وجهه أو تحديه ، بالرغم من أنه لم يكن محبوباً لدى الشعب نظراً لجبروته وغطرسته ، ولقد استمر في الحكم نحو عشرين شهراً يحتفظ خلالها بالملك في الأسر ، كان "كوجيتار" يعلم بما فعله القائد العام تجاه المدن الأخرى التي تؤول إلى هرمز ، فقد اكتسب رجالنا سمعة بحيث أخبره الناس بأنهم "أكلة لحوم البشر" .

بما أنه علم بأن البرتغاليين أصبحوا على مقربة من البلاد ، فقد افترض بأنهم سوف يتجهون إلى هرمز وبالتالي تحدث إلى ملاك مائة من السفن الأجنبية كانت قيد الشحن في الميناء ، وكانت إحدى هذه السفن تعود لملكية ملك "كامباي" (واسم السفينة "ميري")

قد حملت بـ ثمانمائة طناً وتحمل على متنها ألف محارب ، وسفينة أخرى تعود إلى أبناء ملك "كامباي" وهي سفينة ضخمة أيضاً ، وكانت كلتا السفينتين تمتلكان مدافع ثقيلة ، أيضاً كانت لدى "كوجيتار" بعض السفن التي تعرف بالطرّادات بحجم الغليون .

أبلغ "كوجيتار" قائدي السفينتين وبقية قباطنة السفن الأخرى بأنه يتوقع قدوم البرتغاليين ، بعدما حدثهم عما فعلوه وناشدهم ألا يخذلوه ولا يبخلوا عليه بالمساعدة ، وهذا ما وعدوه به ، حيث إنهم شرعوا في الحال في الترتيب ؛ لكي يستولوا على أسطولنا .

## الفصل الستون :

في الوقت الذي شهد قيام هذه الاستعدادات ، كان "أفونسو دي البوكيرك" قد وصل قريباً من هرمز ، وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر سبتمبر ، أي في الساعات الأولى من صباح ذلك اليوم كان قد استدعى جميع قادة سفن الأسطول للاجتماع في سفينته ؛ للتشاور معهم فيما يعتزم القيام به .

هنا طرحت عدة اقتراحات وأفكار في الاجتماع ، تقول بأن العدو يمتلك أسطولاً ضخماً ، وبالطبع لابد أن يكون قوامه من الرجال أكبر أيضاً ، أي بحجم ذلك الأسطول ؛ لأنه يبدو واضحاً للعيان بأن ملك هرمز قد سعى لجمع أكبر قدر من القوات للدفاع عن نفسه بعدما سمع عما فعلناه في طول الساحل .

قالوا أيضاً أنه حتّى إذا ما نجحنا في التغلب على قوات الأسطول ، فإننا لا نملك العدد الكافي من الرجال للقتال على البر ؛ لأن المدينة تبدو كبيرة جداً ، وأيضاً لا فائدة من تدميرنا الأسطول إذا عجزنا عن الاستيلاء على المدينة ، بصرف النظر عن قتل فئة من رجال العرب ، فإذا فشلنا في الاستيلاء على المدينة ، فلا شك إننا سنكون معرضين للهزيمة ، وبالتالي لا يجب أن نغامر بذلك ، إذ ربما تكبدنا خسارة فادحة وتحديداً خسارة الأسطول والهيبة التي تحققت لنا .

عليه بمجرد تعرض هيبة البرتغال للتشويه وسوء السمعة وتضيع سمعة قوته ، فإن هذا لن يقتصر على التأثير فقط على موقفنا في المنطقة ، وإنما سيمتد إلى الهند حيث إن هذا المجد شيء أساسي لازم ولا غنى لنا عنه .

هذه أمور لا يجب أن نخوض أية مغامرة بشأنها لأجل تحقيق شيء قليل الأهمية مثل نجاحنا في تدمير أسطول العرب هذا ، وعليه فيجب عليهم التخلي عن هذه الفكرة ، وألا يعتبروها من واجباتهم ؛ لأنهم لن يرتكبوا هذا الخطأ ، وبدلاً من ذلك يجب عليهم تنفيذ الواجب الملقى على عواتقهم وتحديداً العودة إلى "رأس غوارافوي" والقيام بحمايتها حسبما أمرهم به الملك .

إذا ما فشلوا في هذا الأمر ، فحينها فإنهم يستحقون أن تُنزل بهم العقوبة على فشلهم في أداء ما كُلفوا به ، لكن هناك آخرون يعتقدون في أنه بالرغم من كبر حجم أسطول العدو إلّا أنهم لن

يتوانوا في مواجهته ولا يهم مدى الصعوبة التي يواجهونها ، وهذا لأن العدو يدرك أنهم هناك ، وإننا ربما نجرؤ على قتاله ، ومع إننا حظينا بانتصارات عديدة تمكنا من الاستيلاء على الكثير من المدن سواء بقوة السلاح أو بإجبار العدو على الاستسلام .

ليس هناك خطر يمكن أن يكون أعظم من منع العدو من أن يفقد احترامه أمام قوة ملك البرتغال وإقدام وشجاعة البرتغاليين ، بالإضافة إلى أن الانتصارات التي حققناها سوف تكون لنا معيناً لإحباط معنويات العدو ؛ لأنهم عندما يرونا نهاجمهم سوف يضعون في حسبانهم كيف أننا دمرنا المدن الأخرى ، وهذا أمر كفيل بزرع الرعب في نفوسهم ، وسلب إرادتهم وشجاعتهم وإضعاف موقفهم .

أيضاً إذا ما هاجمناهم بشراسة وعنف فإننا سوف نهزمهم ، وإذا ما تغلبنا على الأسطول ، فلن يبقى في المدينة سوى القليل منهم ، وحتى في حالة عدم حدوث هذا سوف تثبط هممهم بحيث إن ملك هرمز سوف يشعر بأنه مجبر على الوصول إلى تفاهم واتفاق معنا ، ومهما حدث ، فإن ذلك سوف يرفع من قدرنا .

كان القائد العام للأسطول قد أعجب بهذه الفكرة ، لكنه أضمر موافقته هذه مشيداً بالذين عارضوها حتّى لا يشعروا بالقلق ، ولقد أخبرهم بأنه يعلم أنهم تحدثوا من واقع حرصهم على المصلحة العامة أكثر من الحرص على المصالح الشخصية ، إذ إنه من خلال ملاحظة أسلوبهم في القتال يستشعر المرء حقيقة أنهم يقدمون

أرواحهم رخيصة في سبيل الوطن ، وبهذا الأسلوب لم يتكدر أي أحد أو تجرح مشاعره .

تم الاتفاق على أن نتجه لمحاربة أسطول العدو ، وبالإضافة ، فإن قائد عام الأسطول سوف يتقدم من السفينة "ميري" و"جواو دا نوفا" ، سوف يتقدم إلى سفينة الأمير (ابن ملك البنغال) ، بينما سيبحث "فرانسيسكو دي تافورا" عن السفن التي تبدو أعظم تسليحاً ، وعلى بقية القباطنة أن يحذوا بالمثل ، وبالتالي فعلوا ذلك حتّى أصبحوا أمام الأسطول تماماً وفق تفاصيل الخطة .

كانت الأعلام تزين سفن العدو ، حيث كان "كوجيتار" قد أمر بذلك بمجرد أن رأى أسطولنا ، كما أمر ملاكها بإخفاء جميع أسلحتهم المدفعية والبدء في ضرب الطبول عند وصول قائد عام الأسطول ، وبهذه الطريقة سيبدو إليه أنهم يرحبون به .

لقد هدف "كوجيتار" خداعه بغية تأخير المعركة لمدة يوم ؛ لأنه كان يتوقع وصول أسطول آخر قادم من الداخل لكي ينضم إليه في معركته هذه ، لكن على العموم لم يسمح له قائد عام الأسطول بتمرير هذه الخدعة ، إذ إنه أرسل رسالة إلى قائد السفينة ميري يخبره فيها بأنه إذا لم يأت إليه فوراً ، فإنه سوف يقوم بإغراق سفينته .

فرد الكابتن (قائد السفينة) "ميري" بأنه سوف يأتي ، ولما علم قائد عام الأسطول بذلك أعد له استقبالاً جليلاً وفخماً ، بحيث يتوافق مع أهمية المهمة التي كُلف بها ، والذي من شأنه أن يجعله

موضع احترام وتقدير عند العرب ؛ فقد أعد كرسي نُجِّد بأفخم أنواع المخمل ووُضع فوق سجادة فخمة ووضع درعه الذي يضع المحارب على جسده كغطاء واق للجسم مصنوع من الدمقس ، وكذلك درع الصدر ووضع على رأسه الخوذة الذهبية ووقف بقربه غلامان ، واحد على يمنه والثاني على يساره ، يحمل الأول الدرع ويحمل الثاني السيف المستقيم .

أما بطانته فقد تكونت من جميع رجاله من النبلاء والقباطنة الذين لبسوا دروعهم وبزاتهم العسكرية وجلسوا حول المظلة التي تغطيه .

أيضاً تم تسليح جنود الأسطول واصطفوا على أهبة الاستعداد ، وقد مثّل هذا مشهداً عظيما أذهل كابتن السفينة "ميري" عندما أتى للأسطول ، وما كان منه إلّا أن انحنى نحو الأرض رغبة في تقبيل قدمي قائد عام الأسطول ، الذي لم يتركه بفعل ذلك ، وسارع لرفعه إلى أعلى ، وعندما سأله عن هذه السفينة الضخمة "ميري" أخبره الكابتن بحقيقة إلى من تؤول السفينة ، وبيّن له أنه يتولى قيادتها وأنه استعد للمغادرة .

في رده على أسئلة "أفونسو دي البوكيرك" أكد الكابتن أن "كوجيتار" هو من يحكم هرمز ، وأن الملك ما يزال صبياً يافعاً ، وكان قد تحدث بالحقيقة ، حيث كان خائفاً لا يجرؤ أن يكذب . كان القائد العام قد سأله كل هذه الأسئلة لرغبته في احتجازه هناك ؛ لأنه تبين له كم كان هذا الكابتن خائفاً ، وتمنى أن يعلم "كوجيتار"

ليأت إلى مساعدته خاصة عندما يعلم برسالته ، وتحديداً أنه قائد عام أسطول ملك البرتغال ، المكتشف والنازي الذي استولى على جميع مدن هرمز في الساحل العربي ، بعضها عنوة والأخرى بعد اختيار سكانها الاستسلام طوعاً .

الآن قدم إلى هرمز لكي يجعلها إما أن توافق على دفع الجزية إلى سيده الملك أو يقوم بتدميرها ، وعلى الحاكم أن يختار بين هذين الأمرين ، فإذا ما رغب في النزال والحرب فسوف يكون هذا من دواعي سرور "أفونسو دي البوكيرك" ؛ لأنه يهوى الحروب ولا يطيق البقاء في السلم ، أضف إلى ذلك سيكون له عظيم الشرف بالاستيلاء على مدينة عظيمة كهذه بقوة السلاح ، وكان ينطق هذه الكلمات بشكل يعطي الانطباع بأنه يقاتل بالفعل .

كان هذا العربي قد تملكه رعب شديد ، وهو يتطلع لقوة شخصية "أفونسو" حتّى شحب لون هذا العربي ، وأجاب بقوله : إنه سوف ينقل هذه الرسالة إلى "كوجيتار" ، مؤكداً له أنه سوف يبلغه الرسالة بنفس تلك الكلمات ، وسوف يخبره أيضاً أن يتوخى الحذر ؛ لأنه لن يستطيع أن ينافس هذا الرجل "البوكيرك" وأنه (أي الحاكم) سوف يحتاج إلى الكثيرين من الرجال لمحاربته .

أخبر "كوجيتار" الكابتن أنه قد أرسل في طلب تعزيزات من البر الرئيس ، وأنه يتوقع وصولهم في اليوم التالي ، لذا فإنه سوف يراوغه لكسب الوقت ، وسوف يوهم "أفونسو" بأنه على استعداد

لعمل كل ما يطلبه منه ، ومن خلال الكابتن نفسه بعث "كوجيتار" بوثيقة موقعة باسمه وباسم الملك يُعد "أفونسو" بأنه مستعد لتوقيع أية اتفاقية يرغب فيها "أفونسو" ، وإلى جانب هذه الوثيقة أرسل له هدايا وكمية كبيرة من الفاكهة المحفوظة (المعلبة) ورسالة ترحيب بمقدمه ، ذكر له أنه سعد كثيراً لمجيئه .

أخذ قائد عام الأسطول الوثيقة ، إلّا أنه رفض قبول الهدايا ، ورد عليه قائلاً : إنه لن يقبل هدايا من شخص لن يتردد في الإطاحة برأسه ، إذا ما رأى ذلك ضرورياً ، وهكذا رد عليه هديته ، ومعها رسالة يقول فيها أنه سوف يمهله حتّى الساعة الثامنة من صبيحة الغد لكي يعطيه الرد .

قال الكابتن أنه سوف يرد على الحاكم لكنه لم يأت قط ؛ لأن الأسطول الذي كان "كوجيتار" ينتظر وصوله قد وصل بالفعل في تلك الليلة . هذه التعزيزات ، وهذا الأسطول الذي ضم طرّادات الحاكم نفسه ، ويبلغ عددها مائة طراد إلى جانب السفن الأجنبية المائة ، قد جعلت قوام حملة "كوجيتار" مئتي سفينة ؛ أما عدد الرجال من المحاربين في حملة هذه السفن ، وكذلك في المدينة فقد بلغ ثلاثين ألف محارب ، وكانت حقيقة مصدر سعادة "كوجيتار" ؛ لأنه ظن أن رجالنا لن يتمكنوا الآن من الإفلات والهروب .

قد أصدر الأمر لرجاله ألا يقدموا على قتل أي فرد من البرتغاليين من الجرحى ، بل يقبضوا عليه حياً ؛ لأنه علم أنهم

رجالاً يتحلون بشجاعة نادرة ، وأنه سوف يستفيد منهم في حروبه مستقبلاً . بعد ذلك قام بتوجيه القباطنة كي يضعوا الأسطول على طول الشاطئ ؛ حتّى تتمكن السفن الكبيرة من خلق حاجز أشبه بالحصن ، ويتمكن المحاربون من القتال . أما الطرّادات الخفيفة فسوف يستخدمها في الهجوم في عرض البحر وفي الإحاطة بسفننا ومحاصرتها حتّى لا تتمكن من الهروب .

## الفصل الحادي والستون :

في صبيحة اليوم التالي ، رأى قائد عام الأسطول سفن العدو تقترب من الشاطئ وأعتقد أن هذا إشارة سيئة ، وإلى جانب هذا لاحظ أيضاً أن حجيرات أسلحة السفينة ميري ، وكذلك سفينة أمير "كامباي" مفتوحة ، وقد وضعت المدافع في مواقعها في كلا السفينتين ، كما شاهد أيضاً وجود الكثير من الرماح ، ولكي يوهم العدو بأنه ليس خائفاً منهم ، أمر فوراً بإرسال مراكبه لرفع مراسينا في البحر من الموقع الذي انسحب منه أسطول هرمز ، ومن ثَم حمّلها وتقدم بها نحو سفن العدو .

كان الأمر غريباً أن يلمحوا شجاعتهم ، وهم يقومون بهذا العمل ؛ لأنهم توغلوا وسط الأسطول الضخم بعد ذلك أرسل قائد عام الأسطول كلمته للسفينة ميري متسائلاً لماذا لم يأته الكابتن برد من الحاكم ، فأجاب عليه طاقم السفينة بأنه موجود في القصر وسوف يأتي عاجلاً ، بعدها سألهم القائد العام السؤال نفسه مرة أخرى فقالوا : إنه لم يأت بعد ، وأن غيابه لن يطول .

كان العرب قد ردوا على تلك الرسائل نظراً لأن "كوجيتار" قد أصبح مستعداً لبدء المعركة ، كما تبين ذلك بعد ردهم في الرسالة الثانية ، عندما بدأوا يلوحون بسيوفهم ويطلقون صيحات عالية ، وحينها بدأت السفن العاملة بالمجاديف بالتحرك مكونة كتيبتين اتجهتا رأساً نحو أسطولنا ، قد اتضح مؤخراً أن "كوجيتار" قد كان ضمن أحدهما ، لكي يشجع رجاله ، وكان قد ترك صديقاً له على قيادة السفن التي التزمت الشاطئ .

عندما أبصرهم قائد عام الأسطول يقتربون أصدر أوامره بتوجيه نيران مدفعيته نحو السفينة (ميري) ، كما وجه قباطنته بضرب السفن الأخرى ، وبالمثل كانت ردة فعل أسطول العدو الذي وجه نيرانه نحو أسطولنا .

لكن لم يصبنا أي ضرر قط ، عكس جنودنا الذين كبدوا العدو خسائر فادحة بشجاعة ، خاصة في سفينة العلم ، وعندما انطلقت أول قذيفة صوب السفينة (ميري) كانت النتيجة موفقة بحيث إنها قتلت الكثيرين وسببت الجراح للعديدين من جنود العدو ، والشيء نفسه فعلته القذيقة الثانية ؛ وهكذا تبادل الطرفان القصف بحيث كان كثيفاً ، ولم يعد لأحد أن يسمع شيئاً نظراً للصخب والضوضاء العارمة التي أحدثتها المدفعية .

كما أن الرؤيا تعذرت أيضاً بسبب كثافة الدخان الذي غطى كل شيء تقريباً ، وفي هذا الوقت كانت الطرّادات قد بدت تقترب شيئاً

فشيئاً ، عندما رأى مسؤول سفينة العلم أن الطرّادات قد اقتربت بشكل كبير ؛ كي تطلق قذائفها من النوع المعروف باسم "أورتيقا" التي تستخدم صواريخ حجرية ، وقد أصابت هذه الهدف ، لكن بما أن الطرّادات تبحر قريبة أو ملاصقة لبعضها البعض ، فإن حوالي ستة أو سبعة منها قد تعرضت للتدمير في وقت واحد تاركة وراءها أعداداً كبيرة من الجنود القتلى والجرحى ، بينما سقط البعض الآخر في البحر .

في نفس الوقت شرعت بقية سفننا الأخرى في إطلاق نيران أسلحتها ، وقد أحرزت نتائج رائعة ، وتسببت في إحداث دمار كبير في جانب العدو ، بحيث إنها أوقفت تقدمه ، لكنهم استمروا في إطلاق الكثير من السهام من مناطق وجودهم ومواقعهم ، أيضاً كانت سفنهم الكبيرة تواصل إطلاق نيرانها .

كان من المثير حقاً أن يشاهد المرء هذا الاضطراب العنيف ، سيما وهناك أشخاص يصرخون وآخرون يتقاتلون مستخدمين في ذلك كافة أنواع الأسلحة ، ومن جانب تنهمر القذائف المدفعية ، ومن جانب آخر تنطلق السهام لا تلوي على شيء .

بينما تجد أيضاً أناساً يقاتلون بالسيوف والحراب والأسلحة الأخرى ، وفي كل هذا وذاك كانت قوات العدو هي الحلقة الأكثر ضعفاً وتضرراً ، فقد هلك الكثيرون منهم ، حتّى أصبحت سفنهم تضج بأجساد الجرحى وجثث القتلى . لقد كان الله في عوننا في حربنا هذه ؛ لأن القذائف التي كانت قوات العدو تطلقها كثيراً ما

تسقط على اليابسة ؛ لتقتل الكثيرين من الرجال والنساء الذين قدموا إلى الشاطئ لمشاهدة القتال .

نظراً للضجة العارمة والصراخ الصاخب شعرت الكثيرات من النساء الحوامل بآلام الولادة ، كما إن الكثيرين من تجار العرب البدينين لاذوا بالفرار من المدينة ؛ خشية وخوفاً مما شاهدوه من ذبح وقتل في المعركة التي لم يشاركوا فيها ، بحثاً عن ملاذ يأويهم ، فاتجهوا إلى مسجد بُني فوق الجبال ، وكانوا يكنون لهذا المسجد الكثير من الاحترام والتبجيل ، ويعتقدون أنهم سوف يكونون آمنين فيه .

أما بالنسبة لرجالنا ، فبالرغم من كل ما بذلوه من جهد إلّا أن همتهم لم تضعف ولم تلن ، فقد كانت عزيمتهم قوية على مواصلة القتال كي يفوزوا بالنصر في تلك المعركة ؛ ولأجل تحقيق هذه الغاية كان أهم هدف لهم هو تدمير السفينة (ميري) وسفينة أمير "كامباي" وبالفعل كان قائد عام الأسطول قد ركز هجومه بصفة خاصة عليهما مستخدماً في ذلك أسلحته المدفعية .

واصل في قصفه لهما دون انقطاع ولو للحظة واحدة ، وتسببت إحدى قذائفه في إصابة سفينة أمير "كامباي" فأغرقتها ، واضطر بحارتها للخروج منها ورمي أنفسهم في مياه البحر .

لما شاهد جنود العدو في السفن الأخرى هذا الأمر ، وأدركوا حقيقة الهزيمة التي مُنيوا بها ، بدأوا يقذفون بأنفسهم في مياه البحر للابتعاد سباحة من موقع المعركة ؛ لكي ينقذوا حياتهم ،

وعندما رأى الجنود الموجودون في الطرّادات هذا الأمر ، شرعوا في التجديف ؛ كي يبتعدوا عن الجزيرة باستثناء "كوجيتار" الذي اتجه إلى الشاطئ ؛ حيث وضع سفينته مقابل "سارم" الملك (الموقع الخاص بحريم الملك أمام القصر) ، وهو الموقع الذي قيل عنه أن الملك اتخذه كموقع يمكنه من مشاهدة المعركة .

كان قائد عام الأسطول قد ابتهل كثيراً للرب وحمده ؛ لأنه حباه بهذا النصر المؤزر ؛ وقد أمر القائد البوارج والقوارب كي تتقدم نحو أسطول العدو ؛ لكي يتمكنوا من قتل الأعداء قبل أن يلقوا بأنفسهم في مياه البحر ويفلتوا من قبضة الجنود البرتغاليين .

كان هنالك حوالي عشرين رجلاً من رجال سفينة العلم قد صعدوا إلى أحد المراكب وشرعوا في التجديف متجهين بها نحو السفينة ، وقد ضمت هذه المجموعة كلاً من "جورج باريتو كراستو" ، "جورج دا سيلفيرا" ، "جيمي تشييرا" "Jamy Cheira" ، "نونو فاز دي كاستيلو برانكو" ، "جواو تشييرا" "Joao Cheira" ، "غاسبار دياز" (حامل أغراض قائد عام الأسطول) "لين منديس بوتيلهو" "Lein Mendes Boutelho" - "لورينسو دا سيلفا" ، "غونزالو كويمادو" ، "لين مندريس دا إلها" "Lein Mendes da Elha" (رئيس القباطنة) وآخرين لم تحضرني أسماؤهم .

ما زالت هنالك بقية من العرب موجودة في السفينة "ميري" ، وعندما أبصروهم سارعوا بالاختباء بعيداً ، وعندما وصل رجالنا

هناك اكتشفوا أنها طويلة أكثر مما هو متصور ، وتبينوا عدم وجود أية أشرعة أو صواري في هذه السفينة ، ولهذا كان صعباً أن يتمكنوا في الصعود إلى متنها ، أما رئيس القباطنة والذي يعتبر أكثر خبرة عن الآخرين في هذا الأمر ، فقد كان أول من تمكن من الصعود للسفينة ، وعندما وصل للسطح لم يجد أي شخص هناك .

بناء عليه افترض عدم وجود أي عربي هناك ، ونقل هذا الخبر إلى بقية رفاقه ، وكان نتيجة ذلك أن عاد الذين بدأوا في الصعود إلى البارجة كي يحتلوا سفينة أخرى .

في هذه اللحظة برز العرب الذين رأوا رئيس القباطنة من مخابئهم ، واتجهوا نحوه لقتله على نحو عاجل ما أمكنهم ذلك باستخدام سهامهم ، وفي الحال كان هناك رجلان من رجالنا قد أبصرا هذا المشهد ومن ثم شرعا يناديان على زملائهم في البوارج الأخرى حيث طلبا منهم ألا يبتعدوا لأن السفينة مليئة بالأعداء .

عندها رأى الموجودون في البارجة عدداً وافراً من السهام التي انطلقت من صوب السفينة لذا عادوا ؛ وحينها بدأ كل من "جيمي تشييرا" و"جواو تشييرا" ، "غاسبار دياز" ، "نونو فاز دي كاستيلو برانكو" . "لين منديس بوتلهو" و"لورينسو دا سيلفا" و"لين مندريس دا إلها" في الصعود إلى أعلا لكن في ظل عدم وجود حبال للأشرعة والصواري في جوانب السفينة فقد استغرق الأمر بعض الوقت لكي يصلوا إلى السطح .

في هذا الوقت كان قد ترتب على رئيس القباطنة ، وبعض الرجال

الذين صعدوا إلى السفينة أن يحاربوا بعنف لأجل حماية أنفسهم ؛ لأن العرب حملوا عليهم بعنف شديد . كان رئيس القباطنة قد أصيب بجراح عظيمة في هذا الاشتباك ، وكاد أن يلقى حتفه لولا وصول تلك الفئة التي ذكرتها لكي تنفذه ، وعندما رآهم العرب تملكهم الحزن ، ومن ثم انسحبوا إلى مؤخرة السفينة التي عملوا على تحصينها حيث وضعوا صاري السفينة وشراعها بينها وبين "الجؤجؤ" .

للحظات وجيزة كان هذا التحصين قد مثل عائقاً بالنسبة لرجالنا ، حيث فشلوا في الوصول إلى موقع العدو الذي كان يطرهم بالسهام ، لكن بالرغم من كل هذا فقد تمكنوا من تخطي هذه الحواجز ، وأثناء ذلك برز أحد العرب مصوباً سهماً نحو "غاسبار دياز" اخترق ساعده ، لكن بالرغم من الألم الذي عاناه "غاسبار" إلّا أنه لحق بذلك الأعرابي حيث أصابه بجرح .

هنا قفزت فئة من المحاربين العرب فوق سطح السفينة ، وحملت على "غاسبار دياز" حتّى تمكن أحدهم من قطع يده التي سقطت على الأرض ، ولما كان العربي ما يزال قابضاً على سيفه ؛ لكي يسدد له ضربة ثانية لقتله وصل "غونزالوا كويمادو" و"نونو فاز دي كاتسيلو" لنجدته ، حيث تمكنا من قتل العربي ، حينئذٍ وصلت فئة أخرى من أصحابهم لمواجهة العرب ؛ حيث تمكنت من قتل البعض منهم ولاذت البقية بالفرار ، حيث قفز كثير منها في البحر خوفاً ورعباً .

بعدما فرغوا من مواجهة العرب الذين تواجدوا في السفينة

"ميري" ، اتجه رجالنا لمساعدة رفاقهم الذين لحقوا بسفن العرب الأخرى ؛ كي يحدثوا فيها دماراً هائلاً ، وتقريباً تم رمي جميع العرب خارج الأسطول الذي سقط بكامله في أيدي رجالنا .

عندما لم يجد رجالنا أحداً قط ؛ ليقتلوه اتجهوا في مراكبهم وزوارقهم لملاحقة وقتل العرب الذين رموا بأنفسهم في مياه البحر ، وظلوا يسبحون للنجاة بأنفسهم ، وحقيقة لوحظ وجود جثث عديدة طافية فوق مياه البحر التي بدت كلون الدم ، وعندما لم يجد رجالنا من يقتلوه آثروا التوجه نحو أسطول العدو لكي يضرموا النار فيه .

أما قائد أعلى الأسطول فقد أخذ قاربه تتبعه بارجة تحمل أسلحته المدفعية واتجه إلى حيث يوجد الملك ، وكان هناك كل من الملك و"كوجيتار" اللذين أُصيبا بدهشة عظيمة وهما يراقبان منظر هذا الدمار وهو دمار لم يسبق لهما أن شاهداه من قبل .

على كل حال ، يبدو أن "كوجيتار" ما يزال يمني نفسه بشيء من الصمود ؛ إذ إنه أمر رجاله بأن يوجهوا نيران أسلحتهم نحو البارجة والقارب واستخدام بعض المدافع التي وضعت في المبنى .

هنا رد قائد عام الأسطول على هذه الخطوة بفتح نيران مدفعيته بشكل عنيف حتّى اضطر الملك و"كوجيتار" لمغادرة (الحرم) موقع المراقبة ، ويذهبا إلى المدينة خوفاً من مجيء رجالنا إلى الشاطئ ، وفي الحقيقة لم يأت قائد عام الأسطول إلى الشاطئ ؛ لأنه لم يكن مستعداً لهذا الأمر ، وإنما شوهد وهو مبحر على طول خط الساحل

حتّى وصل إلى موقع رسو السفن ؛ حيث كانت هناك حوالي مائة وأربعين سفينة ، ثم دهنها كلها بالقار وأصبحت على أهبة الاستعداد للإبحار ، سيما ورياح "المونسون" قد بدأت تنشط .

قريباً من الشاطئ كانت هنالك قرية يوجد فيها مسجد ، تم تحصينه بشكل جيد حتّى أصبح كقلعة منيعة ، وكان هذا المسجد يحتل موقعاً على مسافة مدى قذيفة مدفعية من مقر إقامة الملك ، أما موقع رسو السفن فإنه يوجد بينه وبين المدينة .

وصل قائد عام الأسطول إلى هذا المكان يرافقه القباطنة الآخرون في مراكبهم وزوارقهم ، حيث تلقوا أوامره بضرب القرية ؛ لأنها تقع بالجوار ، وبالفعل قاموا بتنفيذ الأوامر حيث استولوا على المسجد الذي كان الكثيرون من الناس قد اجتمعوا به ، وقد دار الاشتباك في هذه المعركة بين الطرفين بالسيوف وبعد ما تم إلقاؤهم في الخارج ، عمل رجالنا على إضرام النار في القرية .

في هذا الوقت المتخلل كان قائد عام الأسطول الذي فضل الانتظار في موقع رسو السفن ، قد أمر بإشعال النار في السفن ، وعندما بدأت تحترق وصل بقية القباطنة،وحينها قفز الرجال الذين كانوا في المراكب والزوارق إلى الشاطئ ، وظلوا يطلقون صيحاتهم العالية ؛ تعبيراً عن سعادتهم وفرحتهم باحتراق تلك السفن .

في غمرة حماسهم الجياش هذا شرعوا في الزحف على المدينة حتّى وجد "أفونسو دي البوكيرك" صعوبة كبيرة في السيطرة عليهم ؛

وكانوا يقولون إنهم طالما قطعوا هذه المسافات الطويلة للوصول إلى هنا ، فلابد لهم من حرق كل شيء .

لكن كان القائد الأعلى للأسطول قد انتابه الخوف على رجاله ، إذ إنهم قلة والمدينة تبدو كبيرة جداً ، وربما يصبحون لقمة سائغة إذا ما انقلب عليهم العرب للفتك بهم ؛ لذا فقد منعهم من الاستمرار في التقدم نحو المدينة ، وأمرهم أن يعودوا إلى المركب ، وأخبرهم بضرورة البقاء في الشاطئ وإحكام مراقبتهم عليه ، بينما عاد إدراجه إلى الأسطول .

لقد منحه الرب نصراً عظيما في ست ساعات دون خسائر في الأرواح في جانبه ، بالرغم من أن أحد عشر جندياً من قواته قد أصيبوا بجراح خطيرة .

أما بالنسبة للعرب ، فقد تبين فيما بعد أن عدد قتلاهم في المعركة قد بلغ ثلاثة آلاف قتيلاً وعدداً أخر لا حصر له من الجرحى ، أيضاً كان كثير من العرب قد هربوا من المدينة خوفاً على حياتهم ؛ واستولى رجالنا على غنائم كثيرة ، مثل كميات من السيوف الجيدة والدروع والنبال والملابس والحلي والجواهر .

## الفصل الثاني والستون :

لم يصدق "كوجيتار" أن قوته العظيمة هذه قد هزمت بكل سهولة بواسطة هذه الفئة القليلة ، وقد أدرك أنه لا يوجد حل وأن أطراف المدينة قد بدأت تحترق ، خاصة وهناك الكثير من المساكن التي

بنيت بالقش ، ولاشك أن ألسنة النيران سوف تنتشر لتطال بقية أجزاء المدينة حتّى تأتي على آخرها ، ويبدو أنه بسبب خوف رجال المدينة من رجالنا فلن يخرج أحد من العرب لإطفاء تلك النيران .

أضف إلى هذا أن النيران قد طالت أيضاً السفن ، ولو استمر الأمر على هذه الحال ، فإن النيران سوف تقضي على كل مقدرات المدينة ومواردها ؛ لأنها كلها تعتمد على الجمارك التي تفرض على البضائع القادمة بحراً .

لأجل تفادي التعرض لخسائر بليغة توجه للحديث إلى ريس نورالدين كبير "القضاة" ، وأخبره بأن يذهب لمقابلة قائد عام الأسطول ليطلب منه الرأفة ، فأرسلوا رسالة بواسطة اثنين ، كان أحدهما من مواطني تونس مقيم في هرمز ومتزوج من إحدى نسائها .

بالفعل ذهب الرجلان في مركب طويل ضيق وأخذا معهما راية السلام ، وهناك توقفا بمركبهما على مبعدة من سفينة العلم ينتظران جواز المرور الذي تم تسليمه لهما بواسطة الترجمان "غاسبار رودريغيز" و"نونو فاز كاستيلو برانكو" .

بعد ذلك ذهبا إلى السفينة وأيضاً رميا بأنفسهما تحت أقدام "كاستيلو برانكو" ، وبعد ذلك ذهبا إلى السفينة وألقيا بأنفسهما تحت أقدام قائد عام الأسطول . بعدما رفعهما القائد العام من الأرض ، كان التونسي أول من تحدث بصوت عالٍ كشخص منهار القوة قائلاً : "أيها القائد الشجاع ، إن جميع سكان هذه البلاد والبلاد الأخرى قد أُعجبوا بأخبار انتصارك العظيم ، وقد قدمت إليك وأنا

لا أدري أي مجازفة خضتها لكي أحظى بلقائك ، فأنت رجل رائع ، لكن طالما إن كل رجل يحب الحياة ، فإنني أقول لك إن سعادتي بهذه الفرصة التي تهيأت لي بلقائك تماثل سعادتي بالحياة نفسها .

لأنه من خلال ما أرى ، لا يجب أن تأخذنا الدهشة بشجاعتك فقط ، وإنما أيضاً بكرمك وإحسانك الذي استقبلت به الناس الذين هزمتهم ، ويجب على كل إنسان أن يعتبر أن هذه سجايا نادرة سيما إذا ما لمسها مجسّدة في شخص شجاع ذي إرادة قوية .

لقد اعتقدت أن انتصارك الباهر الذي حققته سوف يملؤك فخراً وكبرياء ، يجعلك تحتقر من حاربتهم في هذه المدينة ، وتفضل أن ترى بهائمهم بدلاً منهم ، لكن بعدما تبين لي عطفك ، وتفضلك بمقابلتي أدركت أنك أشجع الشجعان ، أفيدك بأن ملك هرمز و"كوجيتار" يطلبان الرحمة والعفو ، وأن تصفح عن مدينتهم وسكانها ، مدينتهم التي كادت النيران أن تلتهمها عن آخرها ، كما ترى من الدخان المتصاعد منها .

أيها القائد العظيم أرجو أن تأخذك الشفقة بسكانها الذين شعروا بالحزن والالتياع والألم ، فهم يطمعون في لطفك وتكرمك بإصدار أوامرك لوقف القصف والدمار في المدينة أو في السفن ؛ لأنها تجلب للمدينة تجارتها ومؤنها ، وأنك إذا ما فعلت هذا فإن انتصارك سوف يكون خالداً إلى الأبد ، لكن إذا ما دمرت هذه المدينة ، فإن نصرك سوف يموت معها ؛ إذ حينها لن يبقى هناك من الأحياء ما يمكنه أن يصف للأجيال القادمة وينقل لهم أخبارك وكيف كان هذا الدمار .

أما إذا أبقيت عليها فستكون لك بمثابة شاهد على الزمن وشاهداً على أعمالك ؛ لأن ملك هرمز هو الأمير العظيم والسيد على العديد من البلدان يمتلك ثروات طائلة وهو مع "كوجيتار" الذي يحكم هذه البلاد يريدان أن يكونا أتباعاً لك إذا ما منحتهما الأمن والسلام ، وسوف يكونان مطيعين لملك البرتغال وسوف يقومان بتقديم مملكتهما بكاملها إليك بصفتك ممثل ملك البرتغال ، إنهما سيقدمان لك الكثير إذا ما رغبت ؛ لأنهما يدركان من واقع خبرتهما ضرورة هذا الأمر" .

كان سرور القائد العام عظيماً عند سماعه من الترجمان ما قاله العرب بأن ملك هرمز و"كوجيتار" مسؤولان عن تصرفهما ذلك ؛ لأنهما رفضا شروط السلام عندما عُرضت عليهما ، وطالما أنهما ينشدان الآن السلام فإنه لن يرفضه ، سيما وقد فاز بالمعركة ، وفي ظل اعتراف الملك و"كوجيتار" بخطئهما ورغبتهما في السلام ، فإنه سوف يرسل أوامره لرجاله الذين يعملون في حرق المدينة والسفن ؛ كي يتوقفوا عن ذلك .

عموماً في هذا الوقت أخبر مبعوث الملك الآخر أن يأخذ رسالته هذه إلى الملك على أن يرد الملك رسالته إلى القائد العام مشيراً لقبوله بالشروط التي طرحها عليه القائد العام ، ويعلن موافقته على دفع الجزية لملك البرتغال ، وفي الحال عاد المبعوث راجعاً حاملاً الرسالة ، وصحب أحد البرتغاليين المبعوث الثاني لمقابلة القباطنة ؛

كي يخبرهم بالتوقف عن إشعال النيران في السفن وأطراف المدينة ، وتوضيح الأسباب التي اقتضت ذلك .

عاد الرجل الذي أرسل إلى الملك كي يخبر القائد بأن الملك قد قبل تلك الشروط ، وأنه سوف يرسل مَن يقوم بتسوية كل الأمور مع "أفونسو دي البوكيرك" ، وإنه إذا لم يصل في هذا اليوم فلا شك سوف يصله في اليوم التالي ، نظراً لتأخر الوقت وهبوط الظلام ، وخلال هذا الوقت كان البرتغاليون قد احتجزوا بعض العرب كرهائن في الأسطول .

لو كان لدى القائد الأعلى قوة كافية من الجنود لأمكنه احتلال المدينة بكاملها دون أن يدخل في أية مساومة مع "كوجيتار" ، وعموماً كما ذكرت من قبل كانت لديه قوة قليلة لا تكفي بأن يضع في كل طريق فرداً واحداً من رجاله،

في إطار حرصه ألا يعلم العرب حقيقة هذا الأمر ، فقد أراد أن تتم الموافقة بشأن تسليم المدينة على الشاطئ وليس في البر . أما "كوجيتار" الذي فاته هذا الأمر ، فقد حسب أن لدى القائد الكثير من الجنود ، ومن ثم خشي أنه ربما يغير رأيه بشأن السلام ، لذا فقد عجّل بإرسال الريس نورالدين في اليوم التالي لمقابلة القائد العام .

أخيراً تم الاتفاق على شروط السلام وهي : أن يمنح القائد العام مملكة هرمز إلى ملك هرمز ، بعدما تمكن القائد من الاستيلاء عليها بقوة السلاح ، وبالتالي يصبح ملك هرمز تابعاً لملك البرتغال . أن يدفع له جزية سنوية مقدارها عشرون ألف "أشرفي" ("أشرفي" =

واحد "كروزادو") بعملة البرتغال ، وعلى ملك هرمز أن يقدم للقائد العام مبلغ خمسة آلاف "أشرفي" في الحال كتعويض له عما تكبده من خسائر في الحرب ، وأن يدفع أيضاً للجنود البرتغاليين .

أيضاً يترتب على ملك هرمز أن يمنح القائد العام موقعاً مناسباً يحق للأخير أن يختاره بنفسه ؛ لكي يقوم ببناء حصن فيه ، وسوف تبنى فيه محطة تجارية بمستودع لحفظ السلع التجارية ومتطلبات رجاله ، أثناء عملية بناء الحصن يجب على ملك هرمز تخصيص أنسب وأفضل المساكن للعاملين البرتغاليين ، وتحمل نفقاتها حتّى يتمكنوا من بناء المحطة هناك .

عموماً في هذه الاتفاقية تم تحرير وثيقتين تتضمنا هذه الشروط ، كُتبت واحدة منهما باللغة الفارسية احتفظ بها القائد الأعلى ، وكُتبت الأخرى باللغة العربية ، وسوف تُرسل هذه إلى ملك البرتغال ، وقد كُتبت الأخيرة هذه على صفيحة من الذهب بحجم الورقة ، ونُقشت حروف كلماتها ، ووُضعت في مغلّف من الفضة على هيئة كتاب ممكن إغلاقه بواسطة إبزيمات ثلاث .

تم التوقيع على كلا الوثيقتين بواسطة كل من الملك و"كوجيتار" والريس نور الدين ، ووُضع الختم على كليهما ، وقد وضع ختم الملك - وهو من الذهب - في الوسط ، بينما وُضع توقيع "كوجيتار" على الجانب الأيمن ، ووُضع ختم الريس نور الدين على اليسار وكلا التوقيعين من الفضة .

كانت الوثيقة التي حُررت باللغة الفارسية قد كُتبت كلماتها على ورقة بحروف ذهبية ، ووُضعت النقاط باللون الأزرق ، وقد غُلِّفت أيضاً بغلاف أشبه بصندوق فضي ، وتحمل نفس أختام الوثيقة الأخرى .

بعد مضي ثلاثة أيام على المعركة ، وأثناء استمرار هذه المحادثات ، شاءت إرادة الرب أن تكشف للعيان المعجزة التي حدثت ، وأن نتبين جميعاً كم كان الرب رحيماً بنا في صراعنا ضد العدو ، فقد شاهد جنودنا أن مجموعات هائلة من جثث العرب بدت تطفو فوق سطح البحر .

معظمها قد اخترقتها السهام ، وعندما علم القائد العام بهذا الأمر ، تملكته الدهشة ، فأمر بأن تؤخذ بعض الجثث وتوضع في السفينة ، قد رأى أن الجثث تؤول للعرب ، وأن السهام التي اخترقت هذه الجثث هي ذات السهام التي كان العرب يطلقونها عليهم ، فانخرط القائد باكياً من الفرح ، وأخبر الجميع بأن هذا الأمر أبلغ دليل على معجزة الرب الذي أيدنا وحقق لنا النصر ؛ لأن السهام التي صوبها نحونا العرب ارتدت عليهم لتقتلهم .

لهذا السبب فلابد لنا أن نشكر الرب ونمجّده ، وكان القائد العام أول من خر ساجداً على الأرض شكراً للرب ، ولمدة ثمانية أيام تالية ظلت الجثث تطفو فوق سطح البحر حتّى تمكن الكثيرون من العرب من مشاهدتها ، وقد استغربوا كثيرا للأمر ، وقالوا إن الرب كان يقاتل لأجلنا . أمر القائد الأعلى بإحصاء جميع هذه الجثث ، حيث

بلغ تعدادها تسعمائة جثة ، وجميعهم يتقلدون سيوفهم الرائجة ودروعهم ، وقد أضافت هذه المزيد إلى ما غنمناه .

## الفصل الثالث والستون :

بعد التوقيع على معاهدة السلام هذه ، تم الاتفاق على ضرورة توثيقها باجتماع آخر ، وذلك حتّى يصار إلى التأكد بأن جميع الشروط قد وفيت ، وأتفق على أن يقابل القائد العام للأسطول ملك هرمز في حرمه ، حيث سيكون "كوجيتار" والريس نور الدين ضمن الحضور ، وفي اليوم الذي حدد لأجل هذا اللقاء ، ارتدى القائد العام ثيابه الملكية في هذه المناسبة لحضور اللقاء المرتقب ، وقد ارتدى ملابس فرنسية من المخمل المطرز بالسيتان .

وضع قلنسوة من المخمل الموشى بالحرير الأسود وحذاء فاخراً من المخمل ، وامتشق سيفاً مستقيماً موشى بألوان زاهية تتدلى من جانبيه ، واصطحب غلاماً وقف إلى جانبه ، يحمل له درعه ويرتدي ملابس من نفس خامة ملابسه .

أما حاشيته التي رافقته ، فقد ضمت جميع قباطنة أسطوله والنبلاء من رجاله ، وجميعهم ارتدوا ملابس فخمة زاهية ، وتبعهم أيضاً موكب من الزوارق والمراكب التابعة للأسطول تقدموا جميعاً نحو الشاطئ تصحبهم الموسيقى والطبول ، وهناك تم استقبالهم بواسطة ملك هرمز الذي انتظر قدومهم في موقعه ومعه الريس نور الدين و"كوجيتار" ورئيس حرسه الخاص ، وحامل أغراضه وأبرز رجالات القضاء والوجهاء .

بالفعل أعدوا له استقبالاً ملكياً حافلاً ملائماً لملوك هرمز ، إذ إنهم من كبار الأمراء العظام فيما يتعلق بأقاليمهم وثرواتهم . فور علم الملك بوصول قائد عام الأسطول تقدم فوراً لاستقباله ، وإلى جانبيه الريس نورالدين و"كوجيتار" وآخرين من حاشيته ، ووقفوا جميعاً ينتظرونه ، بعدما وصل ، تقدم الملك نحوه وانحنى برأسه أمامه ، وهي أبلغ تحية احترام ممكن لأن ملوك هذه المناطق لا يحيون أحداً بهذه الانحناءة إلّا لنظرائهم فقط من الملوك الآخرين .

أما القائد العام ، فقد تقدم نحوه الملك بكل احترام وإجلال وأمسك بيدي الملك ، وهذه دلالة على الود والصداقة بين العرب ، وظل ممسكاً بيدي الملك الذي تحدث إلى نور الدين و"كوجيتار" اللذين أظهرا أيضاً احترامهما البالغ ، ثم طلب منه الجلوس فوق كرسي كانوا قد وضعوه هناك لاستقباله .

بينما جلس الملك ونور الدين و"كوجيتار" فوق سجادة على الأرض ، إذ إن هذه هي العادة المتبعة أن يجلسوا كالنساء ، وبالفعل ظلوا جالسين على الأرض قرابة الساعتين خلال هذا الوقت كان الملك و"كوجيتار" والريس نور الدين قد أدوا القسم بأنهم سوف يظلون مخلصين ، ويتعهدوا بمراعات الشروط التي وردت في اتفاقية السلام التي أُبرمت بينهم وبين قائد عام الأسطول .

أيضاً كانوا قد اتفقوا على مسألة تحديد الموقع المقترح لبناء القلعة ، وأقروا ضرورة الشروع في بنائها في الحال ، ولقد التزم الملك

بتوفير جميع المسؤولين الذين سيقومون بعملية البناء وتوفير منزل للوكيل ، وقد أعطى للقائد "أفونسو دي البوكيرك" ، وبعدما تم النقاش حول هذه الأمور ، عاد القائد للأسطول ، حيث قدم له الملك هدية عبارة عن حزام من الذهب ملبس بالأحجار الكريمة قدرت قيمتها بحوالي ألفي "كروزادوس" .

هذا بالإضافة إلى درع مصنوع بنفس الطريقة يبلغ خمسمائة "كروزادوس" ، وأربعة خواتم على كل واحد منها حجر كريم وعدة (طقم) خيل عربي ، وقطعتين من القماش المطرز ، كما أرسل أيضاً بعض الحرير لكل قبطان .

أما القائد العام ، فقد أرسل بدوره هدية كان قد جاء بها لهذه المناسبة ، وفي اليوم التالي ، كان "بيرو فاز دا هورتا" الذي سيتم تعيينه في منصب كبير القضاة في القلعة ، وهو منصب منحه إياه ملك البرتغال ، قد أُرسل إلى الشاطئ ؛ وذلك لكي يتم تسليمه مبنى المحطة التجارية ، ولقد تم بناء هذه المحطة قريباً من الشاطئ ، وكذلك قريبة من الموقع الذي ستبنى فيه القلعة ، وفي هذا المكان استقر "بيرو فاز" مع مسؤولي المحطة التجارية وبعض الرجال .

أيضاً أمر بأن تجنح سفينته وكذلك السفينة "ري جراندي" التي يقودها الكابتن "فرانسيسكو دي تافورا" ، وبعدها وُزعت شحنتيهما على سفن "أنطونيو دو كامبو" و"أفونسو لوبيز دا كونها" وسفينة "مانويل تليس" ، وبعدما تم هذا الأمر أمر قائد عام الأسطول باخراج

أحد الطرّادات التي استولى عليها ؛ وذلك حتّى يتم تسليحه بأكبر قدر من مدفعية الميدان ، كان قد صنع بالكامل من المعدن ؛ وبعد ذلك تم وضعه بحيث رسا في شاطئ رملي يمتد إلى داخل الجزيرة متاخم للمدينة وقصر الملك .

كان ذلك موقع القلعة المزمع بناؤها ، وبينما كان العمل يتقدم شيئاً فشيئاً في بناء القلعة ظل الطراد مرابطاً هناك حتّى اليوم ، وبسبب هذا الأمر عمل على تقسيم جنوده إلى أربعة أقسام ، حيث أعطى كل قسم عدداً من السفن يترأسها قباطنة الأسطول وبعض النبلاء ، ويترتب على بعضها أخذ الرجال إلى المحاجر لجلب الحجارة .

بينما يترتب على البقية نقل الحجارة إلى الموقع ، وكلف البقية بمسؤولية تجهيز مختلف أنواع مواد البناء ، وبهذه الطريقة كانت الآلية التي دفعت بالعمل إلى الأمام بشكل ملحوظ ، حيث واظب كل فرد على جدية العمل .

دأب القائد العام للأسطول على فحص كل شيء بشكل دقيق ؛ حتّى يتأكد من سير العمل على الوجه الصحيح ، وكان قد أدرك أن العرب إذا ما رأوا قلة عدد الرجال (ليس أكثر من أربعمائة فرداً) ، فسوف يتملكهم الندم فيما يتعلق بموافقتهم على اتفاقية السلام ، ومن ثم سوف يثورون ضدنا ، لذا فهو قد أمر قادة الأقسام الأربعة بأن يظل كل فرد يوجد على الشاطئ حاملاً معه سلاحه ، ولقد تم تنفيذ ذلك ، بحيث كانوا يحملون مختلف الأسلحة والدروع بمختف

أشكالها وألوانها ، كانوا قد أُمروا أيضاً بتنويع الأسلحة بحيث لا يجوز لأحد أن يحمل سلاحاً واحداً ثابتاً .

كانوا كل يوم يظهرون كتيبة حربية جديدة ، وبهذه الطريقة حسبوا أن عددنا ألف ومئتي جندي في القلعة ، وحدثوا "كوجيتار" بهذا الخبر ، لم يكن الأخير هذا سعيداً ببناء هذه القلعة ؛ لأنه يعلم أنه عندما يكتمل البناء سوف يفقد سيطرته ونفوذه في هرمز ، أيضاً كان العرب مستائين ، وطالما أنهم لا يتمنون لنا خيراً ، فإن كراهيتهم للبرتغاليين سوف تزداد عندما يرونهم يسيطرون على بلادهم .

كانت الغالبية العظمى من العرب والبعض من الرومان الذين يقيمون هناك غير راضين ، سيما وهم يكتمون غيظهم وغضبهم ، ويعبّرون عنه بشكل فردي ، حيث يتعمدون الاصطدام برجالنا عندما يلتقون بهم ، متعللين بكثرة الناس في الطريق والازدحام الذي يعيق حركتهم ، وبالفعل تلك هي الحقيقة . على العموم ، أدرك رجالنا السبب الحقيقي وراء تصرفهم هذا ؛ لأن العرب كانوا قليلي الاحترام للآخرين .

أبلغ رجالنا القائد العام بهذا الازدراء الذي يواجهونه ، لكنه نصحهم بألا يستجيبوا لهذا الاستفزاز ، ولكن يجب أن يلطمونهم في الحال إذا ما بدر منهم مثل هذا التصرف ، وبهذه الطريقة سوف يكسرون شوكة العرب ، ومن هناك فصاعداً ، ففي أي وقت يعملون على إهانة رجالنا فإنهم يلاقون ما يستحقونه ، إذ إن البرتغاليين يلطمونهم على الفور على وجوههم ، وبما أن لهؤلاء العرب أهميتهم

ومن ذوي المكانة ، فقد كان يسوءهم أن يُعاملوا من قِبل البرتغاليين بمثل هذه الإهانة ، وكثيراً ما كانوا يتجهون إلى القائد الأعلى يشكون إليه تصرف رجاله ، وكان القائد يحسن استقبالهم ، ويدعي أنه مندهش جداً ومتضايق بما حدث لهم من جانب رجاله .

كان يسأل الفرد منهم عمن أساء له ، فيجيبون قائلين إن رجالك فعلوا بنا كذا وكذا ، وهنا يرفع القائد حاجبيه ، ويقول لهم إن رجالي شياطين بحق ، فحتى العمل لم يتعبهم ، والآن قد نفد صبرهم إذ إنهم لا يجدون من يقاتلهم ، فالحرب أكثر الأشياء التي يجيدونها ويحبونها .

هاهم الآن قد بدأوا يعصون أوامري! إنني سوف أعاقبهم ، إليَّ بمأمور التنفيذ ، وعندما يرى العرب القائد يتصرف بهذا الشكل ، فإنهم يسألون الترجمان عما يقوله فيخبرهم ، وبالتالي يصدقونه ويعجبون لرجال كل همهم هو الحرب والقتال .

عندما يصل مأمور التنفيذ ، فإنه يسأل العرب من منكم قمت بإهانته وسوف يخبر المأمور بالبحث عن المتهم لكي يصار إلى عقابه ، فإذا ما ردّ العربي بأنه لا يعرف الرجل الذي أساء له ، فإنه سيقول له أنه آسف كثيراً لما حدث ؛ لأنه يريد أن يعاقبه على ما بدر منه ، ومن ثم سوف ينصح العربي كي يجدوا في البحث عنه الأمر الذي سوف يكون مدعاة لسرور الشاكي .

أما إذا قال العربي بأنه يعرف الرجل الذي ضربه وإنه سوف يتعرف عليه إذا ما رآه "أفونسو دي البوكيرك" ، سوف يرسل المأمور للقبض عليه ، ولكن في نفس الوقت يرسل رسالة للمتهم يحذره فيها بأنه قيد البحث

عنه ، وبعدها فإذا ما تمكن العربي من الإشارة إلى المتهم ، فإن المأمور سوف يغمز للمتهم - وهذه إشارة له بالهروب بعيداً ، هذا ما أمر به القائد الأعلى نفسه ، وهكذا فالمتهمون يهربون دائماً ويختفون حتّى لا يُقبض عليهم ولا يمكن للعرب أن يسترد منهم شيئاً من حقوقه .

عموماً لم يكونوا يأخذون في نفسهم شيئاً من القائد الأعلى ، فكثيراً ما يقتنعون بأنه عمل كل ما في وسعه ؛ لكي ينصفهم في قضاياهم ويعاقب الجناة ، وأيضاً كيف شاهدوه ساخطاً على ما فعله رجاله وأظهر استياءه على ما يعانيه العرب ، فيقولون إنهم لم يروا قائداً مثله قط في العالم بأكمله ، وإنهم عندما يشتكون إلى "كوجيتار" عما بدر من رجالنا نحوهم ، فإنهم يخبرونه عن القائد العام وعن رد الفعل الذي بدر منه . على العموم فبعدما أدركوا أن جهودهم باءت كلها بالفشل ، فقد فعلوا ما رأوه نافعاً لهم ، فتوقفوا عن ممارساتهم باستفزاز مشاعر رجالنا وإهانتهم .

قبل حدوث هذا الأمر مضت عدة أيام كان الرجال قد جدوا في البحث عن الحجارة وتجهيز القار والمواد الأخرى ، وفي هذا الوقت أصدر "بيرو فاز دا هورتا" أوامره بوضع الأساس لواحد من أبراج القلعة ، واقتضى العمل لحفر ستة أذرع في الأرض لأن التربة رملية ولا يمكن حفر أقل من ذلك ؛ نظراً لأنه لن يكون آمناً بما يكفي ، وعندما كان العمل قائماً ومستمراً ظل القائد العام يتجه إلى الطرادة في الصباح ، ويبقى هناك حتّى المساء لكي يعود إلى سفينته .

يأمر رجاله بإحكام المراقبة في البر والبحر . أيضاً كان الملك و"كوجيتار" قد أرسلا حوالي أربعمائة من رماة السهام لحراسة ومراقبة المحطة التجارية ، وحقيقة كان هذا بإيعاز من الريس نور الدين الذي تربطه علاقة صداقة بالقائد الأعلى ، ولقد طلب من "البوكيرك" أن يساعده في استرجاع اثنين من أبنائه ، كان قد تم نفيهما إلى بلاد الشيخ إسماعيل إثر قيامهما بمحاولة لقتل ملك هرمز ، كان أحدهما يدعى "ريس دلايشا" وكان رئيس الحمالين ، ويدعى الآخر ريس شرف وكان رئيس الحرس .

قد طلب منه الريس نور الدين أن يعفو عنهما والسماح لهما بالعودة ، خاصة وقد أصبح حاكماً في هرمز وممثل ملك البرتغال . لم يرغب قائد عام الأسطول في إعطاء موافقته له ؛ لأن الأمر جد خطير ، وعلى العموم طلب البوكيرك من الملك و"كوجيتار" أن يقوما بهذا العمل ؛ وبالفعل وافقا على طلبه حيث أرسلا جواز مرور للمبعدين الموجودين في بلاد الشيخ إسماعيل ؛ ونتيجة لهذه الرسالة علم أهالي تلك البلدان بأخبار كل ما فعله القائد العام في هرمز .

## الفصل الرابع والستون :

بعدما تم تجميع كل مواد البناء اللازمة لبناء القلعة ، أمر قائد عام الأسطول رجاله بالشروع في العمل . حدث هذا في اليوم الأول من شهر أكتوبر ، وقد حضر إلى الشاطئ ومعه جميع قادة السفن والنبلاء ، حيث قام بنفسه بوضع حجر الأساس ؛ وحينما كان يقوم

بهذه الخطوة تم إطلاق قذيفة من الأسطول احتفاءً بالمناسبة ، وكان الرجال الذين تجمهروا في الشاطئ قد أقاموا احتفالاً رائعاً عزفت فيه الموسيقى ، وضربت الطبول والجميع في نشوة بالغة طرباً للغناء ، وقد سعد كل فرد من الحضور بل حتّى القائد العام بدا منتشياً فرحاً .

قد ألقى كلمة رائعة حث فيها رجاله بالجد وأطلعهم على الكيفية التي ستُبنى بموجبها أسوار القلعة ، وبالرغم من توفر البنائين من أهالي البلاد ، إلّا أن القباطنة والجنود وقادة السفن والنبلاء قد شرعوا في العمل بكل جهودهم حيث جهزوا مختلف أنواع مواد البناء ، وكانوا يحملون الحجارة ، وحقيقة شارك كل فرد بجهده بشكل تعاون فيه الجميع دون فرز ، وفي هذا اليوم أرسل ملك هرمز إلى جميع المسؤولين غداء وفيراً .

كما أعطى "أفونسو دي البوكيرك" هدية عبارة عن كمية من الفواكه المعلبة والجافة قام بتوزيعها على النبلاء وبقية رفاقه المشاركين في عملية البناء وذلك لكي يقوم البناء . بسرعة أصبح قسم الأساس جاهزاً ، تم الشروع في بناء الحيطان فوقه ، وقد بلغ طول الحائط عشرين قدماً ، كان القائد قد اعتزم بناء برج مزدوج مقسم في النصف ، بحيث يحتوي أحدهما على مستودعين ودكة (مسطبة) وشرفة ، بينما يرفع الآخر مستودعين فوقه .

في ذروة استمرار العمل هذا كان قد وصل سفير الشيخ إسماعيل في المنطقة قادماً من الساحل الفارسي ، وبما أن الشيخ إسماعيل

يُعتبر واحداً من أقوى أمراء المنطقة ، فقد أرسل سفيره لمقابلة ملك هرمز ؛ لكي يطالبه بدفع الجزية التي أُلزم بدفعها سنوياً ، وبالرغم من أن الشيخ بات تحت قائد عام الأسطول الذي استولى على المملكة منه حسبما علم من أبناء ريس نور الدين اللذين يقيمان في بلاطه عندما أرسل ملك هرمز و"كوجيتار" طلبهما ؛ لكي يسمح لهما بالعودة ، فإنه ما يزال يطالبه يدفع الجزية .

كان "كوجيتار" قد انزعج كثيراً لزيارة السفير ، لذا فقد صحب معه الريس نور الدين واتجها لمقابلة القائد العام حيث أبلغاه عن مجيء مبعوث الشيخ إسماعيل وأسباب زيارته هذه لبلادهما ، وأخبراه عن كيفية مجيئه بعدما علم الشيخ إسماعيل أن "أفونسو" قد غزا هرمز .

طلبا من "أفونسو دي البوكيرك" أن يخبرهما بما يفعلانه خاصة ، وأن السفير ما يزال ينتظر استلام الجزية ، وأخبرهما "أفونسو" عدم إعطاء السفير أي شيء ؛ لأنه لم يصبح تابعاً لملك البرتغال لكي يدفع الجزية لأي ملك أو أمير آخر ، بغض النظر عن قوته ، وأخبرهما أنه لا يجب أن يخشيا أياً من كان ؛ لأنه هو وقادته سيتكفلون بحمايتهما ضد جميع قوى العالم ، وعليهما أن يبلغا رده هذا للسفير ، ويخبراه أنه في حالة رفضه فسوف يغضب وسوف يعاقبه وكأنه ارتكب جريمة .

عندما عاد "كوجيتار" والريس نور الدين ، أمر "أفونسو دي البوكيرك" رجاله بضرورة إخراج مجموعة من المدافع الكبيرة الصغيرة وتجهيزها ، بالإضافة إلى تجهيز بعض البنادق والأقواس ، ثم

أمر بأخذهما إلى سفير الشيخ إسماعيل قائلاً له : هذه هي العملة التي يتعامل بها البرتغاليون ، ويدفعونها لمن يحتاج الجزية من الملوك أو الحكام الذين يعتبرون أتباعاً لملك البرتغال في "الانديز" وهرمز .

أما الفارس الذي يبعثه "أفونسو دي البوكيرك" بهذه الرسالة ، فقد أخبر السفير أن ينقلها للشيخ إسماعيل ، ويخبره أن يكون على ثقة بأنه سيهاجمه ويهاجم مدنه وقراه وسوف يخضعهما بقوة السلاح ، وبعد ذلك سوف يلتقيه لكي يدفع له الجزية التي يحتاجها (من المؤكد أنه يخاطبه بكل سخرية) .

أصيب السفير بالدهشة عند سماعه هذا الرد ، ولم يقل شيئاً ، لكنه كان أشد استغراباً عندما سمع من "كوجيتار" نفس الرد ، الذي طلب منه "أفونسو دي البوكيرك" أن يعطيه السفير . أما الشيخ إسماعيل ، فعندما سمع هذا الرد ازداد احترامه للقائد "أفونسو دي البوكيرك" ، وفيما بعد ، أي عندما أصبح الأخير هذا نائباً للملك في الهند ، أرسل له مبعوثاً ؛ كي يزوره ومعه هدية .

من ذلك الوقت لم يعد يطالب بأن تدفع له الجزية من هرمز إلّا بعدما علم أن "كوجيتار" قد ثار ضد قائد عام الأسطول ، وأنه لم يعد في الجزيرة برتغالي واحد ، بعد ذلك أعلن الحرب ضد ملك هرمز .

بعدما أرسل القائد العام هذا الرد إلى سفير الشيخ إسماعيل ، حدث أن أبحرت إحدى سفن العرب من ميناء هرمز متجهة إلى الهند ، فأرسل القائد العام رسالة إلى نائب الملك بواسطة أحد

التجار العرب الذي كان مسافراً على متنها يخبره عن كل شيء فعله منذ وقت رحيله عن "سوقطرة" حتّى تاريخه ، وعندما وصلت السفينة إلى "كوتشين" قام العرب بتسليم الرسالة إلى نائب الملك الذي كان على وشك المغادرة إلى بانان .

## الفصل الخامس والستون :

عندما وصل "تريستان دا كونها" إلى "كوتشين" قام بتجهيز وصيانة جميع سفنه ، ومن ثم شرع في تحميلها . خلال هذا الوقت كان نائب الملك قد تلقى أخباراً خاصة تفيد بأن العديد من تجار العرب من "كاليكوت" قد عملوا على إيقاف سفنهم وجنوحها على طول مدخل النهر بعد منطقة بانان ، وهو ميناء بحري يؤول إلى مملكة "كاليكوت" ، ويقع على مبعدة أربعة عشر فرسخاً من "كوتشين" ، وكان بحوزتهم كميات ضخمة من التوابل والحبوب في البر يعتزمون أخذها إلى مكة .

أرسل ملك "كاليكوت" أحد قادته ويدعى "كوتيالي" ومعه ما يقارب سبعة آلاف رجل من المحاربين العرب والهنود ؛ لحراستهم وتأمين سلامتهم حتّى يتجاوزوا منطقة الساحل الهندي .

كان هؤلاء الرجال قد أبحروا في العديد من السفن ، أما ملاك هذه السفن فقد حلقوا شعر رؤوسهم ؛ وهذه إشارة تعنى أنهم مستعدون للموت في سبيل حماية بضائعهم ومقدراتهم في حالة قدوم رجالنا لمحاربتهم ، وكانوا مستعدين بشكل جيد لصد أي هجوم ، حيث شيدوا العديد من بيوت المدفعية بالقرب من المدينة

التي تبعد مسافة ميل واحد شمال النهر ، وكذلك في مدخل النهر ، حيث يصعب على المراكب الطويلة الملاحة فيه باستثناء السفن الصغيرة حيث يمكنها الدخول فيه ، وعندما علم نائب الملك بهذا الأمر قرر فوراً الحرب ضد الأسطول .

كما أن "تريستان دا كونها" طلب منه أن يفعل ذلك ؛ لأنه يريد أن يشارك بنفسه في الحملة مؤملاً بأنه إذا ما ساعده الرب في تحقيق النصر في هذه المعركة ، فإن ابنه "نونو دا كونها" سوف يتوج فارساً .

بعدما تم تحميل سفن "تريستان دا كونها" ، شرعت جميعها في الإبحار إلـى "بانان" "Banan" في يوم الثالث والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٥٠٧م .

كان من ضمن قادة سفن أسطول نائب الملك ، الكابتن "دوم لورنسو" و"بيرو باريتو دي ماجيلهاس" "Pero Baritto de Maguilhas" و"فرانسيسكو دي انهايا" و"أنطونيو لوبو تشييرا" "Antonio Lopo Cheira" و"بيرو كاو" و"دوارتي دي ميلو" و"بايو دي سوسا" "Bayo de Susa" و"فيليب رودريغيز" "Phillip roderigues" و"لوكاس دا فونسيكا" "Lucas da Vonsica" و"لوبو شارنوكا" " Lopo Shernoca" و"سيماو مارتنز" "Simao Martins" ، وهناك حوالي سبعمائة من البرتغاليين في هذا الأسطول ، وكذلك في أسطول "تريستان دا كونها" .

لقد وصلوا إلى بانان بعد الظهيرة ، وبعد مضي يومين على مغادرتهم "كوتشين" ، حيث رموا مراسيهم عند مدخل النهر ، وعند

حلول الليل استدعى نائب الملك مجلسه للاجتماع الذي عقد في سفينة "ديوقو بيريس" التي يقيم فيها بنفسه،أيضاً كان "تريستان دا كونها" الذي أبحر على متن سفينة "بايو دي سوسا" قد حضر .

عندما حضر جميع أعضاء المجلس تحدث إليهم نائب الملك قائلاً : "أيها السادة الأفاضل ، إننا طالما قررنا أن نحارب ضد العدو ، فإنني أناشدكم بأن تتذكروا دائماً أننا نحارب في سبيل دين سيدنا المسيح عيسى ، ولابد من وضع ثقتكم فيه حتّى يمنحنا النصر ، كما فعل في معارك سابقة حينما دحرتم هؤلاء الكلاب الذين نعتبرهم أعداءه وأعداءنا .

آمل أن تتذكروا أنكم ستنالون ثوابكم من خلال نجاحكم في الدفاع عن هذه العقيدة ، وكذلك من خلال الغنائم التي من المؤكد أنكم ستحصلون عليها ، فعليكم بذل أقصى جهودكم تماماً كما كنتم تفعلون دائماً ؛ لأنه إذا تخاذلتم فإنكم سوف تفقدون الشهرة التي تحققت لكم من خلال أعمالكم المجيدة .

عموماً ولكي تتبينوا إلى أي مكان نحن ذاهبون ، أحب أن أطلعكم على المدينة التي رسمتها بواسطة أحد المواطنين" ، وبعد قوله هذا قام بتحديدها في قطعة من الورق ، حيث كانت قد رسمت فوقها ، مبينة عليها جميع التحصينات والتعزيزات ، أيضاً أخبرهم بحقيقة ما تتمتع به المدينة من متاريس وتحصينات منيعة ، كما أطلعهم على عدد الرجال الذين يتوقع مواجهتهم .

على الرغم من علمهم بأن المدينة قد حظيت بتحصينات قوية إلّا

أنهم قد وافقوا على الهجوم وقتال الأعداء ، وقد قرر نائب الملك أن يرسل بيرو باريتو فوراً مع ثلاثين من الرجال تسلحوا جيداً لتكون بمثابة رأس الرمح في الهجوم ، على أن يبحر بمركبه في شمال النهر صوب الموقع الذي انجرفت فيه سفن العرب .

أما "ديوتو بيرير" فعليه أن يستقل مركباً آخر مع نفس العدد من الرجال ؛ لكي ينزل بهم مقابل مدفعية العدو التي وضعت على مسافة قصيرة في مدخل النهر وراء بعض التلال ، ويجب أن يتبعهما "دوم لورينسو" و"نونو دي كونها" وكل واحد في مركب ، ومن بعدهم بقية القادة ، و"تريستان دي كونها" في اثنتين من السفن ، وعلى الجميع انتظار الإشارة التي سوف تعطي بواسطة قارعي الطبول قبل انطلاقهم .

عموماً كان الجميع قد صعد إلى السفن قبل الفجر ، حيث كان قبطان نائب الملك ، وهو رجل دين وقور قد بدأ في الوعظ والتبشير من سفينته مخاطباً الرجال الموجودين في المراكب التي تجمعت كلها حوله ، وفي موعظته تلك ظل يذكر كل فرد بأن كل شيء يفعله يجب أن يكون خالصاً لسيدنا للمسيح حتّى يكون جزاؤه دخول الجنة .

ما عدا ذلك ، فإن كل عمل لا يراد به أن يكون في سبيل سيدنا المسيح لن ينال فاعله شيئاً غير الدعاية والإثم ، وليس هناك من عمل يمكن أن يمحو خطاياه وذنوبه سوى الأعمال التي تبذل في سبيل الدين الحق .

كانت هذه الموعظة قد أُلقيت على مسامع الجنود الذين استمعوا لها باهتمام عميق وتبتل ، حتّى انخرط الكثيرون منهم في البكاء

والنشيج ، وهكذا أصبحوا أكثر شوقاً لمواجهة الأعداء ، وما أن طلعت الشمس حتّى التهبت رغباتهم للقتال .

عندما دقت الطبول معطية الإشارة شرعوا في الإبحار متجهين إلى شمال النهر حسب الأوامر التي أعطيت لهم ، ولم يبق أحد قط سوى نائب الملك و"تريستان دا كونها" حيث بقيا في مدخل النهر ، بما أن المياه لم تكن عميقة بما يتناسب بإبحار السفن الكبيرة ، فقد بدأ العدو بروح معنوية عالية واثقين من قوتهم عدداً وأسلحة ، والتي أطلقوا نيرانها دون توقف .

كان أمراً مخيفاً أن يلمح المرء كل هذا الدخان الصادر من أسلحتهم وسماع ذلك ، لم يكن هناك ما يمكن أن يثني ويمنع "بيرو باريتو" من الوصول إلى المكان الذي طلب منه الوصول إليه .

عندما وصل المكان وجد أكثر من عشرين رجلاً حالقين رؤوسهم مقسمين على النصر أو الموت ، وكانوا جميعاً في الماء في انتظار رجالنا ، عندما اندلع القتال ، كان "بيرو باريتو" ورجاله قد حاربوا بشكل جيد بحيث إنهم تمكنوا من قتل جميع العرب ، بالرغم من أن عدداً منهم قد أصيبوا بجروح في الاشتباك ، وكان أحد الفرسان باسم "جيل كاسادو" قد لقي حتفه .

بعد ذلك اتجه "بيرو باريتو" إلى الشاطئ ، وفي الوقت المتخلل هذا كان "ديوقو بيرس" قد نزل في الموقع الذي حدد له مسبقاً ، حيث وجد نفس العدد من الرجال الذين حلقوا رؤوسهم ، وهؤلاء

الرجال الذين وجدهم بيرو باريتو والمجموعة السابقة التي ورد ذكرها ، فهم مجموعة الملاك وقباطنة السفن التجارية ، ويحاربون هنا بنفس الأسلوب ، وخلال هذا الصراع قدم جيش العدو لإنقاذهم ، وكان قد حارب ضد رجالنا بشراسة .

كان "دوم لورينسو" قد نزل في هذا الموقع يصحبه "رودريقو ريبيلو" و"قونزالو دي بافيا" وبقية قادة السفن الآخرين الذين خفضت رتبهم (مراتبهم العسكرية) بعد الأحداث التي وقعت في شول ، ولقد واجه هؤلاء وبقية القباطنة الآخرون عناء شديداً وصعوبة بالغة في الوصول للشاطئ ؛ نظراً لكثرة عدد جنود العدو ، وتحلّي قواته بالشجاعة ومواصلته رمي النبال .

على العموم كان البرتغاليون قد حاربوا بإقدام وبسالة ، خصوصاً "دوم لورينسو" الذي كان يستخدم في الحرب مطرداً تمكن به من قتل ستة من العرب ، ويبدو أنه خلال هذه المعركة كان أحد العرب قد انتبه لما يفعله "دوم لورينسو" بسلاحه ذاك (حسبما يتأكد بعد ذلك) لكي يقضي عليه ، وعندما أبصره اتجه نحوه لكي ينال منه .

غير أن "دوم لورينسو" سارع برفع مطردة قبله موجهاً له ضربة تمكن العربي من تفاديها أيضاً بسيفه ؛ وبرغم ذلك استطاع "دوم لورنسو" من أن يصيبه في يده مرة أخرى ، ولما رأى رفاق "دوم لورنسو" ما حدث تجمعوا حول العربي ؛ كي يقضوا عليه ويتركوه يتضرج في دمائه .

هنا أتت مجموعة من العرب لإنقاذ رفيقهم ، ولم يعد "دوم

لورنسو" قادراً على التقدم وذلك ليس لافتقاره للشجاعة ، سيما وقد أثبت شجاعته بالقضاء على ستة من العرب في دقائق معدودة من الزمن ، وإنما كان قد جرح في القتال وبينما كان رجاله يحملونه إلى الأسطول وصل "بيرو باريتو" لكي يبلغه قائلاً له :

سيدي عندما شاهد أحد الرجال أن صديقه قد أصيب بجراح لم يبق إلى جانبه ، وإنما أخذ ثأره من الرجل الذي تسبب في جرحه ، وكذلك فعل حيث اندفع نحو حشود المقاتلين يضربهم بغير رحمة .

في هذا الوقت كانت السفينة التي جنحت قد أصبحت نهباً لألسنة النيران ، إذ إنه عندما توقف "دوم لورنسو" عن القتال بسبب إصابته بالجراح ، فإن "نونو دا كونها" الذي كان يقاتل خلفه قد اتجه بفرقته لإضرام النار في السفن التي بلغ عددها ثلاث عشرة سفينة .

كان نتيجة ذلك أن قد واجه الكثير من ذلك ، إذ اشتدت مقاومة العرب ، وفي هذا الاشتباك كان النبيل "جورج فوقاسا" قد سقط على الأرض بسبب إصابته برمح اخترق درعه قريباً من القلب ، وكان الجرح عميقاً لكن لم تكن الإصابة في القلب .

على العموم كانت الإصابة قوية حيث أسقطته أرضاً ، ومات هناك نظراً لتكالب العرب عليه ، ولولا ذلك المحارب الذي يدعى "ألفارو دوكنتال" الذي هب لنجدته مدافعاً عنه بشراسة ، حيث تمكن من تشتيت العدو ورفعه من على الأرض ، وبما أن أعداد العدو كانت كبيرة إلّا أن رجالنا قاوموهم بشكل مستميت لمدة طويلة ،

إلى أن بدأت حركة المد وارتفاع الموج الذي ساعد في دخول السفن النهر ، وعندما فعلوا ذلك شرعوا في إطلاق النار من المدافع ، بينما نزل سعادة نائب الملك واتجه نحو الشاطئ مع حرسه ، الأمر الذي نتج عنه تدهور وضع العدو .

أما "تريستان دا كونها" فإنه لم ينزل بسبب علة أصابته ، ونظراً لذلك انضم رجاله إلى نائب الملك الذي عمل بعد ذلك على مهاجمة العدو الذين أعيتهم مقاومته ، ولم يستطيعوا أن يصمدوا أمام قوة الهجوم ، ففروا منهزمين متجهين نحو المدينة ، ومن ورائهم قواتنا يلاحقونهم ويعملون فيهم ذبحاً وتقتيلاً أثناء مطاردتهم .

بعد ذلك أعطى سعادة نائب الملك أوامره بإشعال النار في المدينة ؛ لأنه أراد منع رجالنا من دخولها تحسباً وخشية من أن يجمع العرب أطرافهم ، ويعودوا مرة أخرى لمهاجمة رجالنا . سوف يكون هذا أمراً مربكاً ؛ لأن الكثيرين من البرتغاليين قد أصيبوا بجراح في الاشتباك بما فيهم "فيرناو بيريس دي اندراد" ، الذي أُصيب بجرح في وجهه .

أما في جانب العدو ، فقد بلغ عدد القتلى حوالي المائتين وعدداً لا يحصى من الجرحى ، وبعدما أُضرمت النار في المدينة انسحب نائب الملك إلى الشاطئ ، ولكن ليس قبل جمع غنائمه من أسلحة مدفعية العدو التي استولى عليها ، وفي الاحتفال بذكرى هذه الأعمال كان قد منح مجموعة من الرجال لقب الفرسان ، بينهم "نونو دا كونها" و"لويس باتريسو" الروماني الذي سبق أن ذكرته .

بعد ذلك صعدوا جميعاً السفن ، وأبحروا إلى "كانانور" ، حيث أُرسل "دوم لورنزو" للعلاج ، ومن هناك أُرسل "تريستان دا كونها" ليبحر للبرتغال ، وتحرك في سبعة ديسمبر ، وأخذ معه أربع سفن من أسطوله ووصل إلى موقعه بسلام .

## الفصل السادس والستون :

كان "أفونسو دي البوكيرك" في عجلة من أمره لتكملة بناء القلعة ؛ ومكث مع الرجال الذين يعملون فيها مبدياً سعادته للمشروع ، وظل يذكّرهم بمدى أهميتها وفائدتها لسيدهم الملك .

حتى يشجعهم ويحثهم على العمل بهمة ؛ لوجود الكثير من العمل الذي لابد أن يُنجز ، أثنى عليهم ، فأبدوا حماسة كبيرة في العمل ، خاصة الذين يطمحون في أن يصبحوا قادة للقلعة ، وهم "جورجي باريتو كراستو" ، الذي بُعث من البرتغال لتولي ذلك المنصب ، الذين يأتون بعد "أفونسو دي نورونها" في التفضيل ، وأيضاً "أفونسو لوبيز دا كوستا" و"جوو دا نوفا" الذين يتمنون نيل هذا المنصب جراء خدماتهم ، إلّا أن القائد العام لم يبد أي مفاضلة بينهم .

عندما رأوا أن البرج قد ارتفع بطول رجل ، وأن "أفونسو دي البوكيرك" لم يعلن بعد من سيصبح قائداً اعتقدوا أنه يريد المنصب لنفسه ، ومن ثم يهاجم ملك هرمز لوجود العدد الكافي من الرجال معه للقيام بذلك ، عندها سيبقى رجاله معه ودعمه ، لوجود كمية وافرة من المؤن في هرمز . بدأوا التآمر ضده والتقوا بالآخرين قائلين

إن عليه أن يذهب للشيطان ؛ لأنه ليست له اهتمامات بالبرتغال ، ولا يكن لها الحب ولن يذهب إلى هناك أبداً .

قالوا : "سترون كيف يبرهن على أنه خائن ، وإنما يبني القلعة فقط للوقوف ضد ملك هرمز ويستولى على المملكة لنفسه . ليس من الصحيح أن نسمح بذلك خاصة كوننا من نبلاء وضباط وخدام الملك البرتغالي الذي وثق فينا لأداء هذا العمل" .

قالوا أشياء أخرى كثيرة لا يعلم عنها القائد العام أي شيء ، ولم يشك في كل ذلك .

عندما وصل البرج لمرحلة السقف الخشبي للطابق الأول وجدوا أن القائد العام لم يعيّن بعد قائداً للقلعة ، فبعثوا له بالتماس كتابي ، قالوا فيه إن رياح "المونسون" قد بدأت ، وستمكنه من الإبحار إلى رأس "جوردافي" لحراستها ، وهو الغرض الذي قام ملك البرتغال بتسليمه أسطوله ، وكان واجبه حيوياً لمصالح الملك وبالنيابة عنه ، وهم كقادة له حثوه على الذهاب وحراسته ، وعدم إضاعة الوقت في تشييد قلعة ؛ لأن ذلك قد يتيح للملك أرباحاً عظيمة .

سلم ذلك الالتماس له باليد بواسطة كاتب الأسطول وفي حضور القبطان .

قال القائد العام رداً على ذلك بعدم ضرورة تقديم الالتماس ، وإن نصيحتهم خاطئة ، ولم يكن يتوقعها منهم ، لكن بالرغم من ذلك رأوا

أن من المستحسن تقديمها له ولا ينتظرون منه أي رد ؛ لأنه لا يمثل أهمية بالنسبة لهم ، وإنما لسيده الملك الذي يعلم من يخدمه بصورة جيدة ، وإن كان عليه حراسة "رأس جوردافي" أو بناء القلعة ؛ لأن هدف حراسة "رأس جوردافي" كانت تقتضي الاستيلاء على السفن .

بينما بناء القلعة كان لتأمين أداء الجزية لملك هرمز ، وأيضاً سلامة المحطة التجارية التي كان يأمل في إنشائها لحساب ملكه . كان متأكداً من الكسب من ذلك بدلاً عن الاستيلاء على السفن في "رأس جوردافي" ، لذلك طلب من القباطنة تركه لوحده .

لم يقبل القباطنة تلك الإجابة ، وحقيقة شعروا باليأس من توليهم رئاسة القلعة ، وعليهم التفكير أكثر بأمورهم ومصالحهم الشخصية ؛ لأنهم سيستفيدون أكثر من الاستيلاء على السفن في "رأس جوردافي" (لأنهم سيحصلون دائماً على نصيب جيد من الغنائم) ، فهم ليسوا بمهتمين بمصالح الملك التي يرى القائد العام أن خدمتها أفضل في هرمز ، لذلك أصروا على طلبهم ، وطلبوا منه التقيد بها .

غضب عندما رأى أنهم لن يتركوه ، فأخذ الالتماس ومزقه ووضعه تحت حجر بالقرب من بوابة القلعة دون أن يرد عليهم .

انزعجوا كثيراً لذلك ، وعندما رأوا عدم قبوله لالتماسهم ورفض الرد عليهم ، اقتنعوا تماماً بأنه يريد حمل السلاح من القلعة ، وأن ذلك هو السبب في بنائه للقلعة ، سيتقابلون ويتحدثون عن تلك الأشياء ، لم يبد القائد العام أي امتعاض بعد التصرف الذي قاموا

به ، وإنما عاملهم بمنتهى الود كالسابق ، وحثهم على خدمة الملك بصورة جيدة ، مع أنهم رأوا ذلك وأدركوا أن التماسهم لن يكون له أي تأثير ، أحسوا بالكراهية تجاهه ، وبدأوا في البحث عن طريقة يسقطونه من خلالها حتّى وإن كان فيها الإضرار بمصالح الملك ؛ لن يكون ذلك بأفضل من محاولة وقف أعمال بناء القلعة وطرده من الجزيرة وتأليب ملك هرمز "وكوجيتار" ضده .

تمكنوا من إخطارهم (أي الملك و"كوجيتار") عن الالتماس الذي قدموه له ، وعرفوهم بأن سبب الالتماس هو خدمة مصالح ملك البرتغال ، وأن الملك لم يأمر ببناء هذه القلعة ، إنما يكفي حراسة "رأس جوردافي" فقط .

فرح "كوجيتار" بتلك الأخبار ؛ لأنه تأسف كثيراً على منح موقع القلعة وتألم لبنائها ، ولأنه علم أنها عندما تصبح جاهزة وتحوي المحطة التجارية ، فسيحرم من كل سلطاته على هرمز .

عندما علم بوجود خلاف بين القائد العام وقباطنته ، اعتقد أن تلك فرصة جيدة بالنسبة له ليتمرد ويحمل السلاح ، لكن لعدم امتلاكه لمدفعية لم يجرؤ على القيام بذلك بصورة مكشوفة في الوقت الحاضر ، وذهب بدلاً عن ذلك لمقابلة القائد العام ، واقترح عليه مغادرة الجزيرة لأن ملك هرمز وهو أحد رعايا ملك البرتغال سيكمل القلعة بنفسه بمساعدة السكان .

قال "كوجيتار" إن السبب في اقتراحه ذلك هو علمه بأن العديد

من سفن التجار التي اعتادت القدوم إلى هرمز لم تعد تقوم بذلك ؛ لأنهم يخشونه ، وبما أن ملك هرمز يحصل على كل عائداته المالية من التجار الذين يأتون بالبحر ، فإن تخلفوا عن القدوم لن يكون معه المال الكافي لدفع الجزية لملك البرتغال ، وقد تعهد له بذلك .

لم يكن ذلك هو السبب الحقيقي وراء طلب "كوجيتار" ، وإنما عزم على قتل الذين كلفهم القائد العام بمسؤولية القلعة وسرقة البضائع التي بالمحطة التجارية ، هذا ما اعتقد القائد العام أنه فكر فيه ، وعليه تقاعس في أداء ما طُلب منه قائلاً إن سيده الملك قد منعه من مغادرة أي قلعة قبل اكتمالها .

شك "كوجيتار" في أن القائد العام ضمن ماهية نواياه ، لكن بالرغم من إمكانية استخدام هذا الاجتماع كذريعة ليعلن الحرب عليه ، إلّا أنه لم يكشف عن خطته ؛ لأنه لم يكن مستعداً للقتال ، وفوق ذلك لم تكن معه مدفعيته التي بدونها لن يستطيع الإضرار بالبرتغاليين .

حاول في الوقت الحاضر الحصول على قطعتي مدفع من الحديد والمعدن من السباكين الذين يعملون معنا ، وهم ثلاثة من اليونان وواحد من البرتغال من جزيرة "ماديرا" ، جميعهم بحارة من الأسطول وهم يصنعون تلك القطع في سرية ، وسيحصلون على رشوة ضخمة .

كما قدموا لـ"كوجيتار" تفاصيل وافية عن الخلاف بين القباطنة والقائد العام ، وأن هناك عدداً قليلاً منا ، وهذا ما شجع "كوجيتار" للثورة علينا ، وليجد ذريعة لشن الحرب رتّب مع السباكين الأربعة

أمر النزول للشاطئ والبقاء معه وسيقوم القائد العام بطلبهم ، وسيرفض هو تسليمهم ، وسيشكل ذلك ذريعة للحرب ، وعلى هذا الأساس قام بجمع الكثير من الناس في البلدة والذين جاؤوا متنكرين في شكل تجار .

تم كل ذلك في سرية تامة ولم يشك القائد العام في أي شيء ، استمر الوضع لعدة أيام ، واحتفظ "كوجيتار" والعرب الآخرين بالسرية التامة ، بينما استمر السباكون المسيحيون في صنع قطع المدفعية له .

عند صنع بعض منها أثار ذلك العرب الذين بدأوا استفزاز رجالنا ، ومتى ما ذهب البرتغاليون إلى المدينة كانوا يحتكون بهم عن قصد أو يوجهون سهامهم نحوهم ، وكأنهم يطلقونها عليهم ، ثم يضحكون وكأن الأمر مزحة ، قاموا بأشياء أخرى كثيرة لإثارة واستفزاز رجالنا الذين ذهبوا وأبلغوا القائد العام بذلك .

فكر القائد العام في التماس الضباط له وكيف أن بعد ذلك بقليل جاءه "كوجيتار" طالباً منه المغادرة ، والآن يقوم العرب بإثارة رجالنا مرة أخرى .

حتى الآن علاقتنا معهم ودية! عليه رأى أن تلك إشارة سيئة ، وشك في أن ثورة ما قادمه لا محالة ، وأن العرب لابد وقد عرفوا بقلة عددنا ، لهذا السبب رأى أن من الأفضل إخفاء شكوكه بدلاً من إصدار الأمر لرجاله بأخذ الثأر ، كما فعلوا في المرة الأولى .

أمرهم بالتظاهر بمشاعرهم الحميمة تجاه العرب وقد أجادوا ذلك ، لكن

قام القائد العام فوراً بوضع مدفعين كبيرين على قاربين وأخذهما بالقرب من الشاطئ ، لم يقدم أي توضيح عن ذلك لأي شخص .

## الفصل السابع والستون :

أكمل السباكان المدفعين اللذين كلفهما "كوجيتار" بصنعهما ، وتقذفان كرات من الحجر وبعض القطع الحديدية والمعدنية حتّى يقوم باستخدامها من بعض الفتحات التي على سور مقر الملك المواجه للبحر ، وترك الأسوار التي تواجه المدينة خالية حتّى لا يراها رجالنا ويعلمون بالخطة التي يدبرها ، كما أرسل في طلب تعزيزات من البحرين و"لار" طالباً منهم أسطولاً ، وهو يملك العديد من الرجال في المدينة ومدفعية كافية تمكنه من بدء الحرب ، قرر الهجوم .

لم يكن يرغب في إعطاء انطباع بأنه يفعل ذلك دون سبب ، ولذلك أبلغ رجالنا الأربعة أن يذهبوا إلى مقر ملك هرمز .

عندما علم القائد العام بذلك تأكدت شكوكه بخصوص التمرد إلّا أنه ظل متظاهراً وبعث الوكيل التجاري "بيرو فاز دي كامينها" برسالة إلى "كوجيتار" يبلغه فيها بهروب أربعة مسيحيين إلى المدينة ، وكان يشعر بأن "كوجيتار" سيصاب بالدهشة ، وقالوا إنهم لا يعرفون أي شيء عنهم ، لكنهم سيعرفون ذلك في أقرب فرصة وسيعاقبون من كان يأويهم عنده .

بعد يومين أو ثلاثة بعث الملك برسالة للقائد العام أبلغه فيها بأنه

و"كوجيتار" قد أصدرا أمراً بالبحث عن المسيحيين الأربعة الذين قال إنهم هربوا إلى المدينة ، تأكد فعلاً أنهم كانوا هناك إلّا أنهم غادروا إلى البر الرئيس ؛ لأنهم خشوا أن يبعث القائد العام في طلبهم .

غضب "أفونسو دي البوكيرك" بتلك الإجابة ؛ لأنها بدت له كعذر لهم بعدم إعادة رجاله . كان يدرك تماماً أنهم يصنعون قطع مدفعية وضمن حاجة "كوجيتار" لهم ، إلّا أنه تظاهر بغير ذلك لقلة الرجال الذين معه ، وحث رجاله على الانتهاء من بناء القلعة بسرعة . كان الطابق الأول من البرج قد اكتمل .

أبلغه أحد أشراف التجار العرب يدعى "خواجا إبراهيم" وكان صديقاً وفياً له بطريقة سرية عما يخطط له "كوجيتار" وعن قطع المدفعية التي يجهزها المسيحيون الأربعة ، وأطلعه على عدد القطع التي قاموا بصنعها ووضعها على فتحات السور ، وأن المسيحيين في جانب "كوجيتار" ، وقالوا له إن معنا قلة من الرجال ، وأن هناك خلافاً بين الضباط والقائد العام ، وأضاف أن بعض الضباط مسؤولون عن إرسال المسيحيين الأربعة إلى "كوجيتار" .

استغرب القائد العام عن الضعف بين المسيحيين الذي أغضب الرب وملكهم ؛ ولأنهم يغيرون منه وهم حاقدون عليه،ظل ساكتاً ولم يطلع أي أحد بأنه حذر ؛ لأنه كان يعلم بأن الضباط سيفرحون بثورة العرب .

أصبح العرب أكثر غروراً في تصرفاتهم تجاه رجالنا ، وقالوا لهم إن محمد (صلى الله عليه وسلم) لن يقبل بأن يبني قلة من الرجال

قلعة في أرضه . عندما علم القائد العام ما علم به من صديقه "خواجا إبراهيم" اعتبر أن من الضروري مفاتحة الملك بتلك الأمور حتّى وإن أدى ذلك لتجديد الحرب بينهما ، إن فعل ذلك وذهبت الأمور في ذلك المنحى سيقتل العرب رجالنا واحداً تلو الآخر ، أو أن يفر جنودنا من العامة إلى جانب العدو خوفاً على أنفسهم .

إن المسيحيين الأربعة في المدينة ، لكنه لا يدري بمكانهم بالضبط ، وإن الرجال الذين أُرسلوا للبحث عنهم ، وقالوا إنهم ذهبوا للبر الرئيس يكذبون . أبدا "كوجيتار" دهشة عظيمة بتلك الرسالة ، وقال إنه بذل جهداً في البحث عنهم إلّا أنه لم يتمكن من إيجادهم ، ولم يترك مجالاً للقائد العام ليفكر في أنه والملك يعلمان عن مكانهم ، بل وأبدوا انزعاجهم الشديد حول اختفائهم .

حزن القائد العام من تلك الرسالة ؛ لأنه أدرك أن حرباً وشيكة ستنشب بينهم ، كما أن الضباط كانوا قد نصحوه بعدم الإصرار في طلب المسيحيين الأربعة وإلّا سيستخدم "كوجيتار" ذلك كذريعة لخرق السلام ، وذكّروه بقلة عدد الرجال الذين معه وإنه سيُجبر على مغادرة الجزيرة . كان يعلم أن ذلك ما يريدونه ، فأخبرهم حتّى وإن كان معه قلة من الرجال ، فإنه لن يستحمل أي فعل يثير حفيظته من جانب "كوجيتار" وإنه سيقاتل لوحده إذا لم يجد المساعدة من أحد ، أسكتهم بتلك الكلمات .

بعد إرسال الرسالة الأخيرة لم يسمح لأي من رجاله بالذهاب

إلى المدينة ، ولم تجلب أي مواد منذ ذلك الوقت ، وكان ذلك بناء على أوامر من "كوجيتار" الذي أغضبه بناء القلعة التي حاول منعها ، ويعلم القائد العام ذلك جيداً .

قرر القائد العام أن يتخذ أي خطوات يبعث عن طريقها بالوكيل التجاري إلى "كوجيتار" ؛ ليسلمه رسالة يبلغه فيها بأنه يعلم باحتجازه لرجاله الأربعة ، ولا يريد إعادتهم ، وأنه يقصد من وراء ذلك شن الحرب على البرتغاليين ، وهذا مالم يقسم عليه هو والملك عند التوقيع على معاهدة السلام بعد هزيمة "أفونسو دي البوكيرك" لهم ، وبما أنه يريد خرق السلام ، عليه أن يحدد موقفه ، وإن لم يسلّم المسيحيين الأربعة خلال يومين فإنه سيبدأ الهجوم ، وبعون الرب سيتسبب لهم في أضرار كبيرة لهم مع الحق .

أبدا "كوجيتار" خوفاً شديداً بتلك الرسالة خاصة فيما يتعلق برغبة القائد العام في خرق السلام ، وأجاب أنه مندهش لكون شخص حكيم مثله يعتقد أنه والملك يحتفظان برجاله وأنه يرغب في شن الحرب ، ولابد أنه وحسب تجربته يعلم الفائدة البسيطة التي تأتي عبرها ، وإن شن حرباً أخرى ، فسيخسر البرتغاليون كثيراً بغض النظر عن أربعة رجال لا فائدة من ورائهم .

قال "كوجيتار" إنه والملك في غاية الحزن والأسف ؛ لأنه طلب منهما شيئاً لا يستطيعان تقديمه له ، وأنهما أقسما بعدم معرفتهم عن المسيحيين الأربعة بخلاف ما ذكراه له ، وعليه أن يصدق إن كان في مقدوره منعهما من الذهاب إلى البر الرئيس لما تردد .

حتّى "كوجيتار" والملك لم يصدقا أن القائد العام سيشن الحرب عليهما وهما رعايا ملك البرتغال لأمر بهذه التفاهة ، وهما سيرسلان مبعوثين عبر البر والبحر ليشتكوا عند الملك إن قام هو بخرق معاهدة السلام التي أُبرمت معهم ، وطلب من الوكيل التجاري أن يطلب من الضباط نيابة عنه بمحاولة حث القائد العام على عدم الغضب منه ومن ملك هرمز .

يقال إنه وعند تبادل تلك الرسائل دس "كوجيتار" السم للوكيل التجاري الذي توفي فيما بعد في "سوقطرة" ، وكان السم عبارة عن مسحوق الماس ، عندما أخذ الكاتب التجاري الرد إلى القائد العام تسلمها في وجود كل الضباط ؛ لأنه أراد إبلاغهم بما قرر القيام به .

عندما استمع الضباط لرد الملك و"كوجيتار" اندهشوا كثيراً ، وإنه بذلك قد عرّض سلامته للخطر من أجل أربعة رجال ، وحتى كانوا عشرة كان عليه أن يحتفظ بهدوئه ليمنع الحرب .

أجابهم : حتّى وإن كانوا الأربعة موضوع المشكلة ، فإنه يدرك تماماً بأنه لم يكن ليتابع الموضوع وحتى إن أطلق "كوجيتار" سراحهم ، فإنه لن يتنازل عن عزمه لشن الحرب ، وسيواصل في بناء القلعة ، وقال إنه إذا كان يعتقد أن "كوجيتار" سيسمح ببناء القلعة لما طلب منه إعادة المسيحيين الأربعة ، وأبلغهم بكل ما قاله "خواجا إبراهيم" باستثناء الجزء المتعلق بذنبهم ؛ لأنه لا يشك بأن ذلك هو السبب في ثورة العرب .

بالرغم من تقديمه لكل تلك الأسباب إلّا أن بعض الضباط

كرهوه ؛ لأنه من الخطأ تتبع مسألة الرجال الأربع ، بل إغفال الأمر . وافق القائد العام على عدم الإصرار ، لكنه أمر رجاله عند منتصف الليل أن يحملوا أكبر قدر ممكن من المؤن من المحطة التجارية إلى السفن ، بعضاً منها كان لابد أن يبقى ؛ لأنهم لم يتمكنوا من حملها كلها ، كما أمر كل الرجال المسؤولين عن العمال بالعودة إلى ظهر السفن مع كل الذخيرة ، ومنع أي أحد آخر في الأسطول بالنزول إلى الشاطئ ؛ لأنه رأى في اليوم التالي كل فتحات مدفعية العدو تفتح والمدافع في مواقعها .

عندها استدعى الضباط وأخبرهم بأن يشاهدوا كيف أن "كوجيتار" يريد السلام في تلك الأوضاع ، وأمر بأن يقترب القاربان المحملان بالمدافع ، أن يقتربا من أسوار قلعة العدو حيث ظهر الكثير من الرجال المسلحين على الأسوار وعلى أسطح مقر الملك ، وبدا كأنهم يريدون أن يظهروا لنا عددهم الضخم بالمدينة .

طلب من رجاله عدم الابتعاد وإطلاق النيران من القوارب ، ورد العدو بالمثل ؛ جرى تبادل كثيف بين الجانبين ، وبدأت المعركة بعد حوالي شهر من قدوم البرتغاليين إلى هرمز ؛ لأن الحرب نشبت في نهاية نوفمبر ، وكان بناء القلعة بدأ في أكتوبر .

خلال المعركة كان لـ"كوجيتار" بعض السفن على مسافة في البحر ، جيء بها إلى الشاطئ ؛ لأنه خشي أن نشعل فيها النيران . كان خوفه بسبب أن القائد العام بعث بمركب لهذا الغرض مع بارجة

"فرانسيسكو دي تافورا" وتحملان قطعاً من المدفعية ، وهي تأخذ طريقها بطول خط شاطئ العدو ، أطلقت نحوهم نيرانها في المواقع التي كانوا قد أعدوها ، ولم يذهب رجالنا إلى الشاطئ لكثرة عدد الأعداء ، إلّا أنهم أطلقوا مدافعهم باتجاههم ، لم يكونوا في وضع آمن ، وعند أول إطلاق نار من العدو قُتل ربان "فرانسيسكو دي تافورا" ، وصل القارب والبارجة إلى السفن وأشعلوا فيها النيران واحرقوها .

في ذلك الوقت كانت البوارج الأخرى والقاربان اللذان عند الموقع المواجه لمقر الملك قد قامت بإطلاق النيران ، وتسببوا بأضرار جسيمة للعدو ، وفشلوا هم في تكبيدنا لأي أضرار بالرغم من قذائفهم المتناثرة .

كان المد المنخفض هو السبب مما جعل قذائفهم تطير فوق مراكبنا وسفننا ، توقفت المعركة عند حلول الليل،كان العدو قد أحرق بارجة لم يكن قد اكتمل بناؤها ، ذهب أحد المرتدين الأربعة (المسيحيين) الذين مع العرب وصاح بصوت عال مبدياً احتقاره للقائد العام : "أذهب يا "أفونسو دي البوكيرك" وأنقذ البارجة التي اشتعلت فيها النيران بواسطة "مارتيم" (اسم أحدهم)! وسخروا منه .

أمر القائد العام الرجال بإطلاق النار عليه . السبب الوحيد الذي منعهم فيه بالذهاب إلى الشاطئ كان العدد الضخم للعرب هناك . كان "كوجيتار" يخشى من محاولتنا النزول ، فهو قد وضع أعداداً غفيرة لحراسة مدفعيته ، ومنعنا من النزول إلى الشاطئ ؛ لأن القائد العام إن تمكن من ذلك سيحرق كل المدينة ، لكنه أدرك عدم وجود

العدد الكافي من الرجال معه ليقاتل في اليابسة ، ولذلك قرر شن الحرب من البحر .

**الفصل الثامن والستون :**

علم رئيس الأركان أن هؤلاء الضباط سوف يعارضون الحرب ، وفقاً لما قد فعلوه له من قبل ، لذلك لم يرد أن يخبرهم عن خططه ، وأمر الرجال في صباح اليوم التالي بأن يقوموا بإشعال النيران في المدينة مرة أخرى ، مثلما فعلوا في اليوم السابق ، لم تكن نيته إلحاق الأذى بالعدو بقدر تعذيبه لهم ؛ لأنه كان يعلم إلى جانب ذلك أن أكبر ضرر يمكن أن يلحقه بهم هو أن يقوم بقطع الإمدادات عنهم ، التي كانت تأتي جميعها من الخارج ، كما ذكرت سابقاً .

من أجل إتمام ذلك قام بإرسال "مانويل تيليس باريتو" و"أنطونيو دي كامبو" و"أفونسو لوبيس دا كوستا" لحراسة المعابر الثلاثة التي تمر منها سفن التجار دائماً ، وقد أخبرهم أن يقوموا بحراسة المعابر جيداً بسفنهم ، كي يمنعوا أي مؤن من الوصول إلى المدينة ، وقد ردوا على ذلك بأن ملك البرتغال لم يأمره بشن حرب على هرمز .

لم يكن من الصائب أن يقاتل بعدد قليل من الرجال ؛ لأن ذلك يعتبر مضيعة للوقت ولنقود الملك ، وبدون جدوى ، إن كان على الأقل لديه عدد كافي من الرجال فسوف يكونوا مستعدين لتكبد فتنة الحرب ؛ لأنهم في تلك الحالة سوف يتوقعون النتائج ،

وكما هو الحال لم يمكن تحقيق أي شيء ، سوى ما قد حصل عليه في الشهرين اللذين أمضاهما هناك في بناء القلعة .

في النهاية أخبروه أن العدو قد منعه من إتمام بناء القلعة عندما رأوا أن عدد رجاله قليل ، وبدلاً من إضاعة الوقت هناك كان عليه أن يذهب إلى "رأس جواردافوي" كما أمره الملك ، وكان حقق الكثير من المكاسب من خلال الإمساك بالسفن التجارية الكبيرة ؛ لأن ذلك كان الهدف من مهمة الأسطول ، وقد طلبوا باسم الملك بأن يذهب "أفونسو دي البوكيرك" إلى "رأس جواردافوي" ؛ ليوقف إهدار الوقت والنقود بلا داعي ، وقد اخبروا كاتب الأسطول بأن يقوم بتدوين كل ما يقولونه ، وأن يسلمهم نسخة من ذلك .

بالرغم من أن رئيس الأركان قد علم أنهم كانوا متهمين بارتكاب جريمة ضد الله والملك ، إلّا أنه لم يرد أن يبدي ذلك ، حيث إنه لم يكن الوقت المناسب لذلك ، وبدلاً من ذلك فقد أخبرهم أنه يرى جيداً أنهم كانوا مخلصين للملك ، ولكن بالرغم من أنهم لم يتفقوا مع آرائه ، فقد رأى أن خطته سوف تخدم الملك بشكل جيد جداً .

كان مستعداً لتبرير ذلك أثناء حضوره ، وقد أضاف بما أنه سوف يتولى مسؤولية الخسارة كاملة ، فيجب عليهم أن يجعلوه يتصرف كما يريد ، وقد طلب امتثالهم لذلك باسم الملك ؛ لأنه كان رئيسهم ، وأنه يجب عليهم أن يذهبوا لحراسة المعابر كما أمرهم ، ومن ثم منع الكاتب من تسليمهم النسخ التي طلبوها تحت تهديد القتل .

حدثت أيضاً العديد من الوقائع المماثلة ، مع ذلك فقد ذهبوا وقاموا بحراسة المعابر كما أُمروا ، وتمركز كل واحد على بعد ميل من الآخر ، وفي المساء كانت البوارج تحرس الساحل للتأكد من عدم وصول أي مؤن إلى الشاطئ بعد حلول الظلام كما هو الحال في الصباح ، وقد أمر أيضاً رئيس الأركان بأن تتقدم المراكب الشراعية الصغيرة بامتداد خط الشاطئ ، وتطلق النيران على مواقع مدفعيات العدو ، وقد كان ذلك سبباً في إزعاج العرب ؛ لأنه بمجرد أن يتم إشعال الأضواء يتم قصفهم .

إلا أن هذا لا يعتبر شيئاً مقارنة بقلقهم من حقيقة أن البرتغاليين كانوا يقومون بالاستيلاء على كل مؤنهم ، حيث إنه قد تم الإمساك ببعض سفن الطرّادات الصغيرة التي جاءت إلى المدينة حيث لم تكن مدركة للموقف ، وبعد ذلك تم أخذها إلى رئيس الأركان ، الذي قام بالإمساك بطاقمها ، وقد أمر بقطع أنف وأذن وأيدي كل من الرماة والبحارة ؛ كيلا يتمكنوا من التصويب أو التجديف مرة أخرى .

من لم يكونوا رماة أو بحارة تم بتر أنوفهم وآذانهم ، بالإضافة إلى قطع قدم واحدة من المنتصف ، كيلا يتمكنوا من المشي ، لم يقم بذلك بسبب طبيعته القاسية بل من أجل إخافة سكان هرمز .

في المساء قام بإلقائهم على الشاطئ مع خطابات تم كتابتها باللغة العربية إلى "كوجيتار" ، وقد ذكر فيها الأسباب التي دفعته لمعاقبة هؤلاء الرجال ، مهدداً بالقيام بالشيء ذاته لأي شخص يقوم

بإحضار المؤن إلى المدينة ، وقال إنه لن يقوم بإنهاء الحرب حتّى يموت الجميع من الجوع في هرمز . في المرة الأولى التي رأى فيها أهل المدينة العرب على الشاطئ ، في الصباح ، كانوا مندهشين وكذلك الفرس الذين جاؤوا للمساعدة .

لأنهم كانوا يعانون بشدة من الجوع والعطش ، ويئسوا من إيجاد حل بسبب سفننا التي كانت تقوم بحراسة المعابر ، وذهبوا ليشتكوا إلى الملك و"كوجيتار" ، وقد تحدثوا بصوت مرتفع طالبين منهم مساعدتهم في الحصول على المياه والمؤن وإلّا سوف يموتون ، وقد أخبرهم "كوجيتار" بأن يتحملوا معاناتهم للمزيد من الوقت ، حيث إن هناك أسطولاً من البحرين و"لار" سوف يصل قريباً ، وقتها سوف يقاتل البرتغاليين ويجبرهم على رفع الحصار . في غضون ذلك وعد بإعطائهم بعض المياه ليرووا عطشهم .

قد كان من الممكن الحصول على ذلك من آبار "تورومباق" ، حيث قام بوضع حراسة تتضمن الضابط (سيد أحمد) ومئتين من الرماة وخمسة وعشرين فارساً ، والذين قد عسكروا جميعاً هناك ، لأن "كوجيتار" كان خائفاً من أن يقوم رئيس الأركان بتلويثها ، وكما قلت سابقاً ، فإن ذلك هو المكان الوحيد الذي يمكن الحصول من خلاله على مياه في هرمز ، بالإضافة إلى بعض الصهاريج في المدينة .

لهذا السبب ذهبوا إلى "كوجيتار" يومياً في حالة من الذعر ، خاصةً أنهم في كل صباح كانوا يجدون عرباً مشوهين على الشاطئ ، كما

وصفت ، وقد تم أخذهم من سفينة "الطرّادات" أو قد تم الإمساك بهم من السفن الكبيرة "المادياس" حيث قامت إحداها بالوصول للشاطـئ في اللـيل بعد أن أدركوا أنه من المستحيل القيام بذلك في النهار .

## الفصل التاسع والستون :

بعد عشرة أو أحد عشر يوم من بدأ القتال ، قرر رئيس الأركان محاولة تلويث آبار "تورومباق" ، كي يحصل العدو على كمية أقل من المياه ، وقد أوكل إلى "جورج باريتو كراستو" تلك المهمة ، وقد ذهب الأخير في بارجة الرائد ، وتبعه "أفونسو لوبيز دا كوستا" و"جواو دا نوفا" ، كلٌّ في بارجته ، بالإضافة إلى النبلاء والفرسان ، وقد أعطاهم رئيس الأركان تعليمات بما يجب عليهم القيام به ، وقد غادر الثلاثة إلى "تورومباق" قبل الفجر ، وأخذوا معهم حوالي سبعين رجلاً .

عندما اقتربوا من "تورومباق" ، وكانت الشمس لم تشرق بعد ، أخبر "جورج باريتو كراستو" "جيمي تيشيرا" و"سيمو فيلهو" و"نونو فاز دي كاستيلو برانكو" و"لورينسو دا سيلفا" بأن يذهبوا إلى الشاطئ وأن يمسكوا بأي أحد قد يخبرهم بما يحدث في المدينة ، وقد نجحوا في الإمساك باثنين من العرب الذين أخبروهم عن الحراسة الموجودة على الآبار ، وأن هناك العديد من الرماة الذين ذهبوا إلى هناك من أجل حراسة الأشخاص الذين يقومون بإحضار المياه .

عندما اكتشف الضباط ذلك أمروا الرجال بالتجديف سريعاً كي يصلوا إلى الآبار ؛ لأن الناس القادمين من المدينة وقد وصلوا

إلى هناك في الصباح ، وفي ذلك الوقت كان العدو نائماً ، ظناً منهم أنه لن يقوم أحد بمهاجمتهم ، لهذا السبب تمكن رجالنا من الدنو منهم بدون تحمل الكثير من المخاطر ، وقاموا على الفور بقتل العديد من رجال العدو ، بينما هرب الآخرون ، بما فيهم الضابط ، الذي هرب باتجاه التلال مع العديد من رجاله .

لكن "أنطونيو دي نورونها" ، الذي نزل من سفينته مع القليل من الرجال قبل وصول البوارج إلى المخيمات ، ظهر فجأة أمامه ، وقتله وسبعة عشر من الرماة الذين ظلوا معه ، حيث إن الآخرين قد تركوه .

في غضون ذلك ، عندما لم يبعد للرجال الذين هاجموا المخيم أي أحد آخر لقتله ، بدأوا برمي الجثث في المياه ، وبعدهم الأحصنة والجمال ، وقد كانوا متعصبين جداً لدرجة أنهم كانوا يقومون بإلقاء من كانوا لا يزالون أحياء ، في النهاية ، قاموا بإلقاء أم وولديها،عندما رأى الولد الأكبر أنه قد تم إلقاء أمه وأخوه طلب منهم الرحمة ، وقال يكفي أنهم قاموا بقتل أمه وأخيه ، وتوسل لهم بحياته ، وقد تم إبعاده ، وأخذه "جورج دا سيلفيرا" كسجين .

بعد ذلك هرب رجالنا إلى البوارج وعادوا إلى "أفونسو دي البوكيرك" ، الذي وجدوه في طريق عودتهم إلى المدينة ؛ لأنه جاء لإنقاذهم ، ذلك لأنه رأى العديد من الرجال المسلحين يغادرون المدينة باتجاه الآبار ، وقد أخبره الضباط بما حدث وعادوا جميعاً ، وقد كان رئيس الأركان مسروراً جداً لأن رجاله قد حققوا ما أخبرهم

به بنجاح ، إلّا أنه رأى أنه إن لم يكن قد ترك أي أحد لحراسة الأبار لكان العرب سيقومون بتنظيفها ؛ لأنهم كانوا متواجدين على بعد أكثر قليلاً من مسافة مجال إطلاق القوس والنشابة من البحر ، على منحدر تلة شديدة الانحدار مواجهة لها .

قد ظن أنه يمكن أن يضع عشرين رجلاً بمدفع على التلة ، كي يمكنهم حراسة الأبار ، ويطلقوا النيران على العرب الذين يذهبون لجلب المياه .

يمكن الوصول إلى هناك فقط عبر طريق واحد ممتد بين التلة والبحر ، والذي جعل الحراسة أسهل إلى جانب أنه لم يكن خائفاً من أن يقوم العدو بالاستيلاء على المدفعيات ؛ لأن الطريق الممتد من الأبار وصولاً إلى التلة كان ضيقاً وصخرياً ، حيث إن الطريقة الوحيدة الممكنة لعبوره هي السير في طابور واحد .

بعد اتخاذ هذا القرار بنفسه قام بإبلاغه إلى الضباط ، والذين اختلفوا معه ، قائلين إن ما اقترحه يعتبر حرباً واسعة النطاق ، وأن هذا ليس الوقت المناسب لذلك ، خاصةً إذا تم شن الحرب على البر ، بسبب النقص في عددهم ، إلى جانب أن خطته لم تكن سهلة التنفيذ كما كانت تبدو ، وإذا كانت ستكون ناجحة فسوف تتطلب على الأقل مائة رجل ، بينما أراد إرسال عشرين رجلاً فقط ، وعندما يرى العرب قلة عددهم فسوف يقومون بمهاجمتهم بأعداد كبيرة ، وسوف يصلون لهم بالتأكيد .

مهما كانت عدد المرات التي يطلقون بها المدفع ، حتّى وإن قُتل الكثيرون منهم خلال ذلك .

لذلك نصح الضباط رئيس الأركان بهجر تلك الفكرة ، وأن يوقف شن الحرب على المدينة ؛ لأن ذلك يعتبر مضيعة للوقت ، ويمكنه أن يترك هذا الأمر لوقت آخر ، عندما تكون هناك قوة عظيمة تحت تصرفه ، قد أخبروه بدلاً من ذلك بأن يذهب لحراسة "رأس جواردافوي" ؛ لأن ذلك يعتبر مهماً أكثر بالنسبة لمصالح ملك البرتغال ، وقد رد بأنه قد أخبرهم من قبل أنه يعلم ما هو أكثر أهمية ، ويجب عليهم أن يتأكدوا من أنه لن يستسلم في الحرب .

أخبرهم بألا يتحدثوا معه عن ذلك مرةً أخرى ؛ لأنه قد قرر بالفعل . بناء على ذلك أمر "لورينسو دا سيلفا" بالذهاب على متن بارجة "أفونسو لوبيز دا كوستا" مع عشرين رجلاً ؛ كي يقوم بوضع المدفع على التلة ولحمايتها ، وقد أمر أيضاً "أفونسو لوبيز دا كوستا" باتباعه ومساعدته .

غادروا جميعاً قبل الفجر ، وقد غادر رئيس الأركان بنفسه في الصباح على متن بارجته ، وأخذ معه أكبر عدد يمكن من النبلاء والفرسان ممكن أن تتحمله البارجة ، وقد تبعه "أنطونيو دو كامبو" في بارجته .

## الفصل السبعون :

بينما كان كل من "أفونسو لوبيز دا كوستا" و"لورينسو دا سيلفا" يحملون المدفع إلى التلة رآهم العرب ، الذين ذهبوا على الفور وأخبروا "كوجيتار" .

أرسل الأخير على الفور العديد من الرجال المسلحين للإمساك بالبرتغاليين أو ليقتلوهم إن لم يتمكنوا من الإمساك بهم أحياء ، في غضون ذلك قام هو والملك بتجهيز قوة أخرى كي تتبعهم ، وقد هرعت أول كتيبة إلى الموقع ، ووصلت إليه بسرعة ، حيث كان هناك العديد منهم ، قاموا بإحاطة التلة من الجانب المقابل للمنطقة الداخلية .

عندما رأى "أفونسو لوبيز دا كوستا" و"لورينسو دا سيلفا" عددهم الهائل ، وعندما كانوا مقررين الصعود على التلة ، لم يروا أنه من الحكمة انتظارهم وعادوا إلى البارجة ، آخذين معهم المدفع .

عندما رأى العدو أن رجالنا قد انسحبوا ، نزلوا إلى التلة ومكثوا عند الجانب المقابل للمنطقة الداخلية ، أي ليس بجانب الآبار ، في غضون ذلك وصل كل من الملك و"كوجيتار" على ظهر الخيول ومعهم العديد من المشاة والفرسان الآخرين ، وبدأوا في تنظيف الآبار ، وبمجرد أن أخذوا في طريقهم إلى هناك ، تبعهم رئيس الأركان بامتداد الساحل .

عندما رأى أعدادهم الهائلة أمر رجاله بالتجديف سريعاً كي يمكنه إنقاذ "لورينسو دا سيلفا" ، والذي وجد أنه قد عاد على متن السفينة مع "لوبيس دا كوستا" والآخرين .

قد أخبروه بما قد حدث ، ولكنه نزل من السفينة على الفور بهدف وضع المدفع في المكان الذي قد قرر وضعه فيه ، وقد رأى أن لديه حوالي مائة وخمسين من أفضل رجاله تحت تصرفه ، وقد زاد ذلك من رغبته في القتال ؛ لأنه رأى إن كان حجم العدو ضخماً

جداً ، فإنه قد يمنعهم من الصمود أمامهم ، وسيكون من الممكن الانسحاب وقتما شاءوا ، وقد أخبر الضباط بقراره ، وأمرهم بالتقدم ، وقد أخبروه بأن يقوم بما يراه مناسباً .

لذلك أمر "بيرو فاز دا هورتا" ، وقد كان فارساً شجاعاً ومحنكاً ، بأن يذهب إلى المقدمة مع ثلاثين رجلاً ؛ ليرى ما كان يحدث ، وقد أمر "أنطونيو دي نورونها" بأن يتبع في الخلف مع حوالي ثلاثين رجلاً أيضاً ، وقد كان من بينهم "جورج باريتو كراستو" و"جيمي تيشيرا" و"جواو تيشيرا" و"نونو فاز دي كاستلو برانكو" و"جورج دا سيلفيرا" و"ديوجو نيتو" و"جواو ميند يس بوتيلهو" و"جواو ايستاو" و"كريستوفاو دي فيجيريدو" ، وهو أحد تابعي رئيس الأركان .

عندما وصل "بيرو فاز دا هورتا" ، الذي ذهب إلى المقدمة إلى قمة التلة ، كان عليه أن يرتاح ؛ لأنه كان ممتلئ الجسم وقد أرهقه المجهود ، من هناك كان من السهل رؤية المدينة بالإضافة إلى جزء كبير من الأرض المجاورة ، وقد لمح رجالنا فارساً عربياً معه بعض الرماة ، حيث كانوا في وادي قريب من التلة ، وقد كان هؤلاء تابعين لسرية الريس "دلاميشا" رئيس بوابي الملك ، وكانوا أمامه هو و"كوجيتار" ، وقد دخلوا في التو إلى الوادي .

عندما رأى رجال "بيرو فاز دا هورتا" الفرسان ورماة السهام أسرعوا باتجاههم ، وقد هرب العرب إلى نهاية الوادي حيث كان الريس "دلاميشا" يركب الخيل مع ثلاثين فارساً وثلاثمائة من

الرماة يسيرون على أقدامهم ، قد ارتدى تنورة ذهبية من الدروع وصفائح من الفولاذ ، وعمامة على رأسه ، وحمل في يديه رمحاً مطلية بحلقات ذهبية وزرقاء ، وكان يعلق في حزامه سيفاً خلاباً ، ويوجد في سرجه قوس وسهام .

كان حصانه مغطى بغطاء مزركش من نفس خامة تنورته ، وغطاء رأس أرجواني ، كله من الذهب .

عندما انطلق "بيرو فاز دا هورتا" باتجاه العدو ، وصل "دوم أنطونيو" وانضم إليهم . في ذلك الوقت ، انطلق ثمانية من فرسان الريس "دلاميشا" أمام سريتهم ، وقاموا بتصويب رماحهم بشكل منخفض على رجالنا لقتلهم ، قد تبعهم بعض الرماة الذين أطلقوا سهامهم ، ولكن تراجعوا على الفور .

لأن "ديوجو جيسادو" و"نونو فاز دي كاستيلو برانكو" اللذين كانا من بين رجالنا ، انطلقوا باتجاه سريتهم ، وبدأوا في إطلاق القوس والنشاب ، وقد أصاب "نونو فاز" حصاناً في مقدمة رأسه وأصاب "ديوجو جيسادو" واحداً آخر في صدره ، مما جعل كل الخيول تجفل للهروب .

خلال ذلك قامت كل قوات العدو بمهاجمة رجالنا ، وضغطوا كثيراً عليهم بحيث أصبحوا في خطر ، وقد كان أكثر من تعرض للخطر هو "نونو فاز" و"ديوجو جويسادو" ، حيث أطلقوا عليهم العديد من السهام ، وقد قام البرتغاليون بالدفاع عن أنفسهم من خلف بعض الأشجار ، حتّى وصل "دوم أنطونيو" مع الآخرين . من

ثم بدأت المعركة بشكل جدي ، لأن الريس "دلاميشا" وصل أيضاً مع رجاله ، وانضم إليهم المزيد والمزيد من رجال "كوجيتار" والملك .

قد ذهب هؤلاء أمام سريتهم ، حيث أخبر أحد السحرة الملك و"كوجيتار" بأنهم سيندمون إذا تقدموا أكثر من ذلك ، ولذلك ظلوا في الخلف ، ولكن كما قلت ، فقد أرسلوا رجالهم إلى الأمام للانضمام إلى الريس "دلاميشا" ، الذي حارب من أجلنا قليلاً ، وقد دافع رجالنا عن أنفسهم بشجاعة كبيرة ، بالرغم من أعداد العدو المفرطة ، وقد ساعدهم أن الأرض كانت مغطاة بالرمال ، لذلك علقت الخيول بها ولم تقدر على الحركة ، لم يكونوا ليتحركوا أبداً إن لم يتجردوا من أغطيتهم المزركشة .

بينما رأى العرب ذلك ، أعطوا رجالنا مهلة ، وانسحبوا إلى بعض الجدران القديمة المجاورة المواجهة للعد ، وقد قاموا بذلك لأن مشاة العرب لاحقوهم بلا هوادة ، وكذلك قام الفرسان ، بمجرد أن أزالوا الأغطية المزركشة،وخلال الانسحاب أسقط "جواو ايستاو" أحد العرب من على حصانه ، ولكن الريس "دلاميشا" أنقذه ، وساعده بفضل ركاب السرج (لم يسقط بشكل كامل ، ولكن قام بإمساكه في منتصف الطريق ، بالقرب من جانب الحصان) .

في المقابل قتل العرب تابع رئيس الأركان ، الذي حاول "دوم أنطونيو" و"جورج دا سيلفيرا" و"نونو فاز" إنقاذه ، ولكن بدون جدوى ، بل جرحوا بشكل سيّئ في أرجلهم ، خاصة "دوم أنطونيو" الذي أصيب

بستة أسهم ، و"جورج دا سيلفيرا" الذي أصيب أيضاً بعشرة سهام ، قد أصاب سهمان أرجل "نونو فاز" ، وقد أصيب الآخرون أيضاً جميعهم سواء بدرجة أكبر أو أقل ، وقد نجوا جميعاً من خطر الخسارة ، ولولا مساعدة ربنا لكان رئيس الأركان قد وصل مع ثمانين رجلاً .

بينما كان رجالنا مشغولين في القتال وصل هو إلى قمة التلة ، بينما ظل عند السفح الريس "دلاميشا" ، الذي ترك المعركة كي يذهب لجلب الرجال الذين قام "كوجيتار" بإرسالهم إلى المقدمة .

عندما رأى رئيس الأركان وفرة عدد العدو ندم على أنه قد أصدر أوامر بحراسة القلعة ؛ إلّا أنه لم يصرح بمشاعره "لأنطونيو دي كومبو" و"أفونسو لوبيز دا كوستا" ؛ لأنهم عارضوه أكثر من أي شخص آخر ، وقد رأى أنه ليس من الحكمة التقدم أكثر من ذلك ومقاتلة العدو ، وأن أفضل شيء هو العودة إلى البوارج ، وإلّا فسوف يخسر .

لذلك أرسل رسالة إلى دوم أنطونيو ، طالباً منه أن يحاول الانضمام له ، كي يمكنهم جميعاً الانسحاب ، قد أخبر أيضاً "أنطونيو دو كامبو" بأن يأخذ ثلاثين من رجاله وأن يتمركز بين التلة والبحر ، من أجل الدفاع عن المعبر ؛ كيلا يتمكن العدو من احتلاله ويمنع رجالنا من الصعود على متن السفن .

وقد أمر "أفونسو لوبيز دا كوستا" بأن يعود للبوارج ، وأن يضعها بالقرب أكثر من الشاطئ ، كي يكون مستعداً لإطلاق المدفعيات على العدو ، حيث إن ذلك سيكون ضرورياً عندما يتراجع

البرتغاليون ، وقد أبقى بنفسه عشرين رجلاً ، معظمهم من النبلاء ، وقد تم تنفيذ معلوماته ، وعندما تركه الضابطان ، رأى "أنطونيو دو كامبو" قادماً باتجاهه مع رجاله .

بينما كان العدو يضغط بشدة عليهم ، وقد ذهب "أفونسو البوكيرك" على الفور للانضمام له وواجه العدو ، صارخاً "سانت جيمس سانتيجو" ؛ إلّا أنه لم يكن قادراً على إيذائهم بأي طريقة ؛ لأنه كما قلت كان هناك الكثيرون منهم ، وقد انهمرت سهامهم علينا بكميات كبيرة بحيث أصبحت مثبتة في رماح رجالنا وانشقت العديد منها في الوسط .

تم إصابة "غونسالو كويمادو" حامل الراية بسهم في عينه ، حيث استقر بين مقلة العين والحاجب ، وذلك بدون أن تثبط عزيمته أو أن تقع منه الراية ، ولو لم يكن رئيس الأركان مرتدياً تنورة من الدرع والتي جعلت السهام ترتد ، لكان قد جرح بشكل خطير ، كما حدث للآخرين ، قد ضغط العدو عليهم بشكل شديد لدرجة أنهم لم يستطيعوا الصمود أمام الهجمات واضطروا للرجوع إلى الشاطئ حيث لم يبتعدوا عن معارضيهم أكثر من مسافة طول رمح .

عندما تراجعوا تحت تلك الظروف الخطرة ، وبمجرد أن وصلوا البحر ، وصل الريس "دلاميشا" أمام قواته ، وقام بإلقاء رمح على رئيس الأركان ، ولكنه فشل في جرحه ، وأوقف رجاله ، ولم يتمن التقدم أكثر من ذلك ؛ لأنه رأى مدى قرب رجالنا من البحر .

قد توقف أيضاً ؛ لأنه رأى خلف الصخور على الشاطئ العرب الذين جاؤوا ؛ ليحاولوا منع رئيس الأركان من الصعود على متن السفن ، وقد جعلوا من المستحيل على "أنطونيو دو كومبو" و"أفونسو لوبيز دا كوستا" أن يقوموا بتنفيذ أوامر رئيس الأركان ، ولكنهم لم يطيعوهم عندما وصلوا البوارج .

لكنهم أخذوا السفن بعيداً عن الشاطئ خوفاً من العرب ، لذلك السبب وجد رئيس الأركان صعوبة كبيرة في الصعود على متن السفينة ، ولم يكن هناك من رجل واحد بدون جرح ، بعضهم كان مصاباً إصابات طفيفة ، والبعض الآخر مصاب إصابات خطرة .

قد كان بين العرب الكثير من الجرحى ، وقد كان الريس "دلاميشا" أحد ضحاياهم ؛ لأنه عندما ألقى الرمح على رئيس الأركان تم إطلاق أحد مدافعنا عليه ، وجاءت القذيفة في إحدى وركيه ، لذلك انسحب رئيس الأركان وعاد إلى السفن ، بعد أن كان قد هزم تقريباً في القتال .

نتيجة لذلك طلب الضباط مرة أخرى بإصرار بأن عليه أن يغادر ويترك الحرب ، وقد كان من الواضح من طلبهم أن مصالح الملك لم تكن متواجدة في قلوبهم ، وفي المقابل كانوا يفكرون في المكاسب التي سيحصلون عليها من الاستيلاء على الغنائم في "رأس جواردافوي" .

كان "أفونسو دي البوكيرك" مدركاً لذلك ، ورأى بوضوح أنه إن أكمل شن الحرب من البحر ومنع كل الإمدادات من الوصول إلى

المدينة ، سيضطر "كوجيتار" بالسماح له ببناء القلعة ، لذلك أصر على الحرب ولم يكترث لمطالب الضباط .

على الرغم من ذلك أمر هؤلاء الضباط الذين كانت سفنهم تحرس المعابر بالعودة لها وأن يستمروا بحراستها ، وإلّا سيتم محاكمتهم بتهمة الخيانة ، وقد أطاعوه وأكملوا ما كانوا يفعلوه سابقاً ، وقد استمر الضابط في فرض الضغوط على المدينة من البحر لبضعة أيّام .

## الفصل الحادي والسبعون :

وصل "فاسكو جومس دي أبرو" الذي قد تم إرساله لقيادة القوات في "سوفالا" و"موزمبيق" ، وصل "سوفالا" في الثامن من سبتمبر عام ١٥٠٧م بعد رحلة عاصفة جداً ، وقد قام "نونو فاز بيريرا" الذي أرسله نائب الملك ؛ ليحل محل "بيرو دي أنهايا" بعد موت الأخير ، قام بتسليم القلعة إلى "فاسكو جومز دي أبرو" "Vasco Gomez de Abro" . بعد ذلك غادر "نونو فاز" إلى "موزمبيق" وفي الطريق مقابل "بيليم" ، سفينة "جورج دي ميلو بيريبيرا" .

قد كانت إحدى السفن الثلاث التي تم إرسالها من البرتغال هذا العام ، ولكنهم عبروا خلال العديد من العواصف ، لم يكن "جورج دي ميلو" يعلم أين كان الآخرون ، وقد حمل بنفسه العديد من الرجال المرضى على متن السفينة ، وتبقى القليل من المياه ، وقد تقدموا جميعاً إلى "موزمبيق" في الثامن عشر نوفمبر ، وغادروا إلى الهند ، عدا "جورج دي ميلو بييرا" ، الذي كان رجاله مرضى .

إلّا أن "ديوجو دي ميلو" و"مارتيم كويلهو" (الذي كان تابعاً لسرية "نونو فاز بيريبيرا") واجهته رياح غير مواتية أوصلته فقط حتّى جزر "مالفين" . هنا وصل قاربان للعرب أمامهم وقام رجالنا بالإمساك بهم ، ولكنهم لم يتمكنوا من التقدم واضطروا لقضاء الشتاء في "موزمبيق" .

## الفصل الثاني والسبعون :

بعد أن أدرك أنه لا يوجد طريقة يمكنه قتال العرب بها براً ، قام "أفونسو دي البوكيرك" بمحاصرة مدينة هرمز ، وقرر أن يقاتل بلا هوادة من جهة البحر ، ليلاً ونهاراً ، ولم تتوقف نيران مدفعياته ، تارة تقصف مقر الملك ، تارة مواقع مدفعيات العدو ، وأحياناً أخرى تقصف المدينة بشكل عشوائي ، وقد سبب ذلك أضراراً وخيمة .

إلى جانب ذلك وبفضل يقظته على الشاطئ ، قام رجالنا يومياً بالاستيلاء على العديد من المؤن ، بالإضافة إلى التي كانوا يحضرونها من العرب .

قد أرسلها رئيس الأركان إلى "كوجيتار" بالطريقة التي ذكرتها من قبل ، وقد كان أهالي المدينة يائسين بسبب جوعهم وضغوط الحصار الأخرى ، لم يتمكنوا تحمل أكثر من ذلك وخلال المساء كانوا يأخذون نساءهم وأطفالهم إلى مقر الملك ، صارخين بصوت عالي وطالبين من الملك و"كوجيتار" الشفقة عليهم ، وبعقد السلام مع رئيس الأركان ؛ لأنهم لم يستطيعوا تحمل الجوع أكثر من ذلك .

إلّا أن النبلاء نصحوه عكس ذلك ؛ لأنهم كانوا خائفين من "كوجيتار" ، حيث كانوا يعلمون أنه ضد السلام .

قد خافوا جميعهم منه ؛ لأنهم كانوا يعلمون مدى قوته على كل المملكة ، وقد ظل رئيس الأركان الذي كان يعلم ما يحدث في المدينة ، ظل باقياً بدون أن يسرع ؛ لأنه كان لديه كمية وافرة من المؤن ، تكفي للأسطول ولإرسال البعض منها إلى "سوقطرة" ، حيث كان يعلم أن هناك حاجة إليها هناك ، وقد كان على وشك إرسال "مانويل تيليس باريتو" إلى هناك ؛ لأنه كان يحمل المؤن في سفينته .

حيث إن الضباط كانوا يعلمون بكل ذلك ، وقد يئسوا من قدرتهم على رفع الحصار ، لم يتوقفوا من طلب رئيس الأركان من المغادرة ، ولكنه لم يهتم بهم .

لذلك قرروا عصيانه وألا يتبعوا تعليماته ؛ لأنه بدا لهم أنه بتلك الطريقة سيكون مضطراً لرفع الحصار ، إلّا أنهم اضطروا القيام بذلك بطريقة بدت وكأن الرجال هم من لم يريدوها إطاعة رئيس الأركان ، وبعد أن وافقوا على ذلك ، وقد اعترف أحد العرب من بين من كنا نقوم بالإمساك بهم دوماً ، اعترف تحت ضغط التعذيب أن عدداً من "الطرّادات" العملاقة والمسلحة قد غادرت البحرين ، وكانوا سينضمون لغيرها من السفـن في "لار" ، ليكونوا ستين سفينة ، أسطولاً قوياً ، وسوف يأتون لإنقاذ هرمز ، ويحاربونه بحراً .

عندما علم بذلك أمر بإعطاء إشارة إلى "فرانسيسكو دي تافورا"

و"جواو دا نوفا" ، واستدعاهم لسفينته ، وقد جاء "فرانسيسكو دي تافورا" ؛ لأنه لم يكن مجتمعاً مع الآخرين ، بينما كان "جواو دا نوفا" ، وعندما استعد للذهاب منعه الطاقم ، قائلين بأنهم يجب ألا يسمحوا له بالذهاب ؛ لأنهم لم يريدوا الإذعان لرئيس الأركان ؛ لأنه كان مختلاً ولم يكن لديه حس يكفي لقيادة قارب صغير ، ناهيك عن أسطول مثل أسطولهم ، وقد تلفظوا بألفاظ أخرى مشينة ، وقد سمعها كلها رئيس الأركان ؛ لأن سفينته كانت قريبة جداً .

قد صرخ "جواو دا نوفا" بصوت عالي ، وقال لهم بألا يقولوا مثل تلك الألفاظ ؛ لأنهم سوف يدفعون الثمن غالياً جراء ذلك ، في غضون ذلك تظاهر بأنه يصارع لترك سفينته بينما كان رجاله يمنعونه من القيام بذلك ، قد تمكن رئيس الأركان من رؤية كل شيء ، ولأنه كان رجلاً حاد الإدراك ، فقد أدرك ما كان يحدث ؛ لأنه تذكر عريضة الملك ، وقد صعد على الفور إلى بارجته بأسلحته وبعض الرجال المسلحين ، وذهب إلى سفينة "جواو دا نوفا" .

بمجرد أن صعد على متن السفينة ظل الجميع ساكنين ، وتقدم منه "جواو دا نوفا" ، شاكياً بشأن رجاله ، وقد رد "أفونسو دي البوكيرك" بحسم وسأله لماذا لم يعلمهم أن يكونوا مهذبين بشكل لائق ؛ لأنه في كثير من الأحيان يكون الضابط مسؤولاً عن سوء تصرف رجاله ، وعندما كان يقول ذلك أمسكه من صدره وقبض عليه ، وقد حاول وقتها أن يصرخ ، قائلاً بأن رئيس الأركان كان

يناديه بألفاظ مهينة ويقبض عليه بدون سبب مقنع ، وقد نادى على كل الحضور أن يشهدوا بأنه أمسكه من لحيته واقتلعها .

قد أراهم أربع أو خمس شعرات ، والتي يبدو أنه قد قام بشدها بنفسه كي يصدقوا بأن شكواه كانت مبررة ، وقد قال رئيس الأركان أنه لم يهنه ، ولكنه قبض عليه ؛ لأنه حاول خيانة قائده ، والذي كان ممثلاً لملك البرتغال ، وقد نادى بعد ذلك على بعض الرجال كشهود وسألهم عما إذا كان ما شك فيه صحيحاً ، وقد قال إنه كان صحيحاً .

لذلك ترك ضابطاً آخر مسؤولاً عن السفينة وأخذ "جواو دا نوفا" إلى سفينته ، وبسبب الطريقة التي كانت تسير بها الأمور فقد قرر بألا يقوم باستدعاء مجلسه ؛ كي يمكنهم التفكير جيداً في الطريقة التي سيتعاملون بها مع وصول أسطول العدو .

قد كان يعلم أنهم سوف ينصحونه بالابتعاد ، وقد أرسل بعد ذلك خطاباً إلى الذين كانوا يحرسون المعابر طالباً منهم بأن يقوموا بمراقبة فاحصة ؛ لأن الأسطول كان في طريقه . عندما رأى الأخير أن عريضتهم ضد رئيس الأركان تعتبر بلا جدوى ؛ لأنه يقوم دوماً بما يريده هو تماماً بدلاً من كل الخدع التي لجأوا إليها من أجل حثه على تغيير رأيه ، وعندما رأوا كيف أنه قام أيضاً باعتقال "جواو دا نوفا" ، فقد فكروا أنه من الأفضل ألا يكونوا على خلاف معه أكثر من ذلك ، بل الذهاب إلى الهند .

عندما وافق مرشد سفينة "أفونسو لوبيز دا كوستا" على أخذهم

إلى هناك غادروا في إحدى الليالي ، ولم يتذكروا أنه مع قيامهم بذلك فإنهم يقدمون للملك خدمة سيئة جداً ؛ لأنهم إن لم يذهبوا وقد ساعدوا بدلاً من ذلك رئيس الأركان في القتال في حربه ، كان "كوجيتار" سيسمح بإتمام بناء القلعة ، إلّا أنهم لم يغادروا فقط ، بل أخذ "مانويل تيليس باريتو" معه أيضاً المؤن التي كان ينوي رئيس الأركان إرسالها إلى "سوقطرة" ، إلى "دوم أفونسو" ، والذي كان يعلم أنه في حاجة ماسة لها .

إلى جانب ذلك ، فقد أخذوا أيضاً مؤن الأسطول ، ولم يفكروا في شيء سوى مصلحتهم الشخصية ، لذلك تركوا الحملة محرومة من الطعام ومعها القوات المسلحة ، وقد أخبر رئيس الأركان أحدهم بعد ذلك بأن "فرانسيسكو دي تافورا" قد تآمر ضده وكان ينوي أيضاً هجره والمغادرة ، سواء كان السبب هو أنه ظن أن ذلك الأمر حقيقي أو لأن ذلك بسبب ما أخبره عنه الرجل ، فقد قام "أفونسو دي البوكيرك" بالقبض عليه وسلم سفينته إلى "جيرونيمو دي ليما" ، ولكن حيث إن الأخير كان أحد أقرباء "لتافورا" فلم يرد قبول المهمة .

بدلاً من ذلك أخبر رئيس الأركان بأن "فرانسيسكو دس تافورا" ولم يكن مذنباً ، ولا يمكن أن يكون كذلك ؛ لأنه كان غير قادر تماماً على القيام بهذا التصرف ، حتّى وإن جاءت الفكرة على باله ، فقد كان دوماً في رفقة النبلاء البارزين الذين لن يسمحوا لهم أبداً بالقيام بأي شيء واجب عليه القيام به ، وقد كرر الشيء ذاته كل

من "جواو دي ليما" و"كريستوفاو دي ليما" "Christofao de Lima" وإخوان "دوم جيرونيمو" ، بالإضافة إلى "مانويل دي لاسيردا" و"أنطونيو دي سا" و"بيستياو دي ميراندا" "Bestiao de Miranda" ، ورجال آخرين من سرية "فرانسيسكو دي تافورا" .

لكن لم يكن هناك من جدوى ، لأن رئيس الأركان أصبح شكاكاً جداً بسبب كل ما حدث ، وكان يثق فقط في القليلين . مع ذلك فقد عهد بالسفينة إلى "دينيس فرنانديس دي ميلو" "Denis Fernandes de Milo" ، الذي كان سيخدم لاحقاً (كمدافع؟) عن الهند ، لهذا السبب لم يرد هؤلاء النبلاء الذين كانوا مع السفينة البقاء عليها وذهبوا إلى رئيس الأركان بدلاً من ذلك .

## الفصل الثالث السبعون :

بالرغم من كل تلك العقبات التي وقفت في طريق قراره في شن الحرب على المدينة ، فلم يغير "أفونسو دي البوكيرك" رأيه . بدلاً من ذلك ، فقد أكمل كالسابق ، عدا أنه كان قلقاً من أسطول العدو ، والذي أخذ يظن انه كان في طريقه إلى هرمز ، ويبدو أن هذا من اختراع الضباط ؛ لأنهم ظنوا أن ذلك سوف يخيف رئيس الأركان ، وسوف يترك الحصار ويغادر نتيجة لذلك . عندما رأى أنه لا يوجد أي إشارة من هذا الأسطول ، فقد قرر أن يذهب إلى جزيرة تسمى "قشم" ؛ لأنه كان في حاجة ماسة إلى المؤن ، ونتيجة لذلك قام الضباط بأخذها بعيداً .

قد كانت تلك الجزيرة على بعد ثلاثة فراسخ من هرمز وتمتلك

مدينة والكثير من المؤن ، والتي اعتاد ملك هرمز أن يتركها هناك طوال العام ، حيث كان يقيم أحياناً هناك ، وقد خصص ضابطاً على القلعة لحمايتها ، ومعه ثلاثون فارساً ومئتان من المشاة الرماة من أجل منع رجالنا من أخذ المياه من هناك . يوجد للملك في المدينة حصنين يقومان بدور القلاع ، وقد كان الضابط ورجاله يبقون هناك ، حيث إن "أفونسو دي البوكيرك" كان مضطراً للذهاب إلى تلك الجزيرة ، فقد عفا عن "جواو دا نوفا" وأرجع له سفينته .

فعل الشيء ذاته مع "فرانسيسكو دي تافورا" ، بمجرد أن أصبحوا أصدقاء مرة أخرى أبحر إلى "قشم" في إحدى الليالي ، وأخذ معه مائة رجل في البوارج التابعة لكل السفن التي ظل ضباطها معه .

قد وصل المدينة قبل الغروب ونزل من السفينة في كل هدوء ، وقد شاءت إرادة الله أن يكون سكان كلا المدينتين ومعظم الحراس نائمين في الخارج ، حيث كانت النتيجة أنه كان من الأسهل على رجالنا قتلهم ، عندما لاحظ العدو وصول رجالنا لم يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم وهربوا بعيداً ؛ لأنهم صدموا عندما استيقظوا ، وقد هرب بعضهم أبعد نحو الجزيرة ، والبعض الآخر نحو منازل الملك ، حيث كان الضابط مقيماً ، عندما سمع الأخير الصراخ والفوضى قام وأدخلهم من أجل الدفاع عن المنازل ضد البرتغاليين .

قد كان "جواو دا نوفا" أول من وصل إلى المنازل وبدأ على الفور في هدم الأبواب من خلال الطرق عليها بشكل مستمر ، بالإضافة إلى

"جيمي تيشيرا" و"جورج باريتو" و"جواو تيشيرا" و"نونو فاز دي كاستيلو برانكو" وخمسة وعشرين آخرين ، بينما ظل باقي الرجال مع رئيس الأركان ولاحقوا الهاربين ، بالرغم من أن أبواب المنازل كانت قوية فقد كسرها رجالنا ودخلوا ، بالرغم من العرب الذين دافعوا عنها بشراسة .

عند الدخول ، قتل أحد رجال "جواو دا نوفا" ، وبمجرد أن أصبحوا جميعاً في الداخل ازداد القتال أكثر وأكثر ؛ لأن العرب تمركزوا عند السلالم وخلف الأبواب ، وبدأوا بالقتال من هناك بشكل عنيف ، خاصة الضابط ، قد جرح "جواو دا نوفا" في إحدى يديه وإحدى ذراعيه عندما كان يصعد أحد السلالم ، ووقع أرضاً من علّية .

أثناء ذلك جاء لإنقاذه كل من "جيمي تيشيرا" و"جواو تيشيرا" و"نونو فاز" وغيرهم ، وأجبروا الضابط على التراجع إلى أحد المنازل التي لجأ إليها العرب ، حيث قتلوا جميعهم هناك ، وقد قتل غيرهم الكثيرون في منازل أخرى ، بحيث تم التغلب على كل المواقع المحصنة .

بعد ذلك ذهبوا للبحث عن رئيس الأركان الذي كان لازال يلاحق العدو ، وعندما لم يتمكنوا من إيجاد أي أحد آخر ليقتلوه ، ذهبوا لنهب المدينة حيث وجدوا تموراً وأرزاً ، وقد قاموا بحملها إلى البوارج ، وفي اثنتين من السفن ، الطرّادات التي أحضروها ، وقد أخذوا مياهاً أيضاً وعادوا إلى السفن ، ولم يكن هناك من خسائر في الأرواح من جانبنا ، غير الرجل الذي ذكرته ، والقليل من الجرحى ، وعندما علم "كوجيتار" بذلك أرسل على الفور المزيد من الرجال إلى "قشم" .

## الفصل الرابع والسبعون :

بعد القيام بتلك الاعتداءات ، تلقى رئيس الأركان أخباراً بأن الرجال في "سوقطرة" كانوا في حاجة ماسة ؛ لأنهم كانوا جائعين وبسبب العرب والحرب التي شنوها عليهم ، وهاجم الجزيرة العديد من المرات ، بدعم من السكان المحليين من أجل مساعدتهم .

لأنه رأى أنه لم يكن لديه ما يكفي من القوات لإكمال الحرب من جهة البحر (لأن أسطول العدو إذا جاء سوف يلحق به الكثير من الضرر) ، وقد قرر المغادرة إلى "سوقطرة" ، وقد قرر أيضاً أن يشن غارة أخرى على "قشم" ؛ كي يمكنه تقسيم مؤنه مع الناس الموجودين في القلعة (أي في "سوقطرة") .

قد كان مقرراً شن تلك الهجمة على بلدة تسمى "ملوال" ، حيث ظن أنه لن يكون هناك حراسة ، وقد جهّز للهجوم ، وغادر في إحدى الليالي على متن بارجة واثنتين من الطرّادات ، ووصل إلى هناك قبل بزوغ الفجر ، إلّا أنه اكتشف أن الهجوم لن يكون سهلاً كما كان يظن ، حيث ظل هناك اثنان من أبناء أخ ملك "لار" .

كانوا في طريقهم لإنقاذ ملك هرمز مع خمسمائة من الرماة ، وقد توقفوا عند الجزيرة ليكملوا إلى هرمز ، ولكن حيث إنهم علموا بما قام به رئيس الأركان خلال اعتدائه الأخير فكانوا على استعداد لمقابلته .

قد تم وضع اثنان من الحراس ليقوموا بالتحذير ؛ كي يمكنهم القتال إذا عاد ، وقد قاموا بالفعل بذلك ؛ لأنهم كانوا مستعدين ، وعندما وصل تلك

البلدة نزل من السفينة على بعد نصف فرسخ من هناك ، ومعه ثمانون رجلاً ، قد جاء الأخوان لمقابلته على بعد مسافة قليلة من البلدة ، إلّا أن رجالنا كانوا شجعاناً أمام هذا الظهور غير المتوقع ، وقد أصدر "أنطونيو دي نورونها" الذي كان في المقدمة مع بعض النبلاء صرخة الحرب "لسانت جيمس" وقام بمهاجمة العرب .

قد واجه الأخير رجالنا وقاتل بشجاعة ، واستمر في القيام بذلك بعد بدأ المعركة ، وقد قتل رجالنا بعد ذلك بعضاً من رجالهم ، لذلك تراجعوا إلى البلدة ، وكانوا يغيرون الاتجاهات باستمرار من أجل تضليل المهاجمين ، عندما وصلوا إلى البلدة واجهوا رجالنا واستأنفوا القتال ، وقد استمر برهة ، وقتل خلاله ابني أخ ملك "لار" ، بالإضافة إلى العديد من رجالهم ، نتيجة لذلك هرب الآخرون وتركوا المدينة .

لذلك تم الاستيلاء عليها من قبل البرتغاليين الذين نهبوها لمدة أربع ساعات تقريباً ، ووجدوا هناك العديد من المؤن ، حيث ملأوا كل البوارج والطرّادات بها ، وقد وجد "نونو فاز" و"جورج باريتو" سجادة ضخمة داخل المسجد ، بحيث لم يقدر أربعة رجال على حملها ، وقد قاموا بإعطائها إلى رئيس الأركان ، والذي طلبها ؛ لأنه تمنى إرسالها إلى "دير سانت جيمز" ، وهو ما قام به لاحقاً .

عندما علم أن هؤلاء الأشخاص الذي كان يقاتلهم قد جاؤوا لإنقاذ هرمز ، حيث كان قادتهم هناك ، قام بإرسال جثث أبناء شقيق الملك إلى "كوجيتار" في الطراد ، بالإضافة إلى جثث البعض الآخرين .

من ثم أعطى أوامر بإشعال النيران في البلدة ، وتم إشعالها كلها بما فيها المسجد ، وهو يعتبر بناءً مقدساً ، وقد وجدوا هناك ناسكاً عربياً قام رئيس الأركان بالحفاظ على حياته ، كي يمكنه الذهاب إلى "كوجيتار" بالجثث ، وفي الليلة التالية تم إلقاؤه على الشاطئ وأخبر "كوجيتار" بكل ما حدث ، مما أحزنه هو والملك ، وقد عول أهالي المدينة على موت أبناء شقيق الملك لأن لديهم العديد من الأقارب هناك .

على الرغم من ذلك كان النبلاء قد قاموا بعقد السلام مع رئيس الأركان ، لولا "كوجيتار" ، الذي كان لديه سلطة قوية عليهم ، ولم يسمح لهم بالاحتجاج ، بالرغم من أن الجميع تمنوا له المرض ، كما ذكرت سابقاً .

رغم أن رئيس الأركان قد قرر المغادرة فقد كان متردداً بشدة للقيام بذلك ، ولم يستطع إن يتخذ قراراً حيال إن كان سيذهب أو لا ، لذلك مكث هناك لمدة تسع ليال ، عقب الاعتداء على "ملوال" ، خلال هذا الوقت سبب للمدينة الكثير من المشاكل ، وبعد ذلك أخبر ضباطه أنه تمنى الذهاب ، وقد وافقوا جميعهم على ذلك ، في تلك اللحظة طلب "جواو دا نوفا" إذنه للإبحار إلى الهند ، وقد وافق له على ذلك ، على شرط أن يتبعه أولاً إلى "كالاياتي" "Kalayati" وألا يبتعد عن الأسطول بدون رضاه .

إن رئيس الأركان أراد أن ينتقم من (الشيخ) بسبب ما فعله له عندما توقف عند البلدة ، وقد طلب كل من "جورج باريتو"

و"جاسبار دياس" الذي كان حامل الراية له والذي قطعت يده أثناء القتال على متن سفينة "ميري" ، طلبوا الشيء ذاته ، وقد وافق لهم ، وأرسل خطاباً إلى نائب الملك من خلالهم ، حيث ذكر فيه ما ينوي القيام به إذا لم يأت الضباط له ، وقد ذهب "جورج باريتو" و"جاسبار دياس" إلى سفينة "جواو دا نوفا" على الفور ، وقد أبحر رئيس الأركان في إحدى الليالي وتوجه إلى "سوقطرة" ، كان ذلك في نهاية ديسمبر عام ١٥٠٧م .

بالرغم من أن "جواو دا نوفا" قد وعد بألا يتركه حتّى بعد أن يصلوا إلى "كالياتي" ، وبتصريح منه فقد اختفى بعيداً عن مسقط وذهب إلى الهند .

لهذا السبب لم يستمر رئيس الأركان في خطته في معاقبة "كالياتي" وأبحر في اتجاه "سوقطرة" ، وقد وجد هنا "أنطونيو دي نورونها" في مأزق كبير ، وقد كان الرجال في القلعة مرضى من الجوع ومتهالكين من الحرب والتي انتهت بمجرد وصول "أفونسو دي البوكيرك" ، لأن العدو لم يتجرأ على الهجوم أكثر من ذلك .

عندما أدرك رئيس الأركان بأن المؤن التي أحضرها لم تكن كافية للجميع ، قام بمشاركة أكبر قدر ممكن مع الناس الموجودين في القلعة ، وقد أرسل بعد ذلك "فرانسيسكو دي تافورا" إلى "مالندي" في سفينته ، لإحضار المزيد ، وقد صعد بنفسه على متن سفينته الخاصة إلى "رأس جواردافوي" ، ومعه رجاله الثمانون ، كي ينتظروا السفن العربية التي قد تعبر حتّى مارس القادم .

**وفي العام نفسه (١٥٠٧م)**

**تم ذكـر الأحـداث السابقـة ، كمـا جـاء في كـتاب : سجل أحداث تاريخي للملك السعيد "دوم إمانويل داميأو دي جويز" "Dom Emanuel Damiao de Goes" ، ١٥٠٧م ، في الفصل الحادي والثلاثين :** (٤)

حول ما فعله "أفونسو دي البوكيرك" في "سوقطرة" بعد رحيل "ترستان داكونها" ، وكيف غادر من هناك إلى جزيرة هرمز ، وماذا فعل حتّى وصوله إلى هناك .

عندما غادر "تريستان داكونها" "سوقطرة" إلى الهند كما هو موصوف أعلاه ، قدّم "أفونسو دي البوكيرك" مباشرة كل ما هو محتاج إليه للقلعة ، ولأن أولئك الذين على أرض الجزيرة كانوا سعداء ، ولأنه بدا له أنه يمكن أن يكون أكثر نفعاً للملك بأن

(٤) رقم الوثيقة والهامش.

يغزو مملكة هرمز من أجله من أن يذهب لكي يستولي على "رأس جاردافوي" ، أبحر إلى مرسى "رأس الحد" ، نقطة على الساحل العربي تبدأ منها مملكة هرمز في يوم العشرين من شهر أغسطس من نفس العام ١٥٠٧م .

كان القباطنة الذين أخذهم تحت لوائه هم : "فرانسيسكو دي تافورا" و"عمانويل تيليس" و"أفونسو لوباز داكوستا" و"أنطونيو دوكامبو" و"جواو دي نوفا" و"نونو فان دي كاستيل برانكو" ، وهذا الأخير كان مبحراً في سفينة "فوستا" صغيرة ، قد صُنعت في "سوقطرة" من خشب تم إحضاره جاهزاً من البرتغال . كما قدّر أن يكون هناك أربعمائة وسبعين برتغالياً في هذا الأسطول .

وصل "أفونسو دي البوكيرك" مع هذه الجماعة إلى بلدة "قلهات" في يوم الخامس والعشرين من نفس الشهر ، كانت هذه البلدة هي الأولى من تلك التي تم حكمها من قبل ملك هرمز على طول الساحل العربي ، ووصل إليها بعد أن دار حول الرأس من خلال مضائق بلاد فارس .

وافق الشيخ ، القبطان الذي مثل ملك هرمز ، على أن يقدم إليه هدية من الإمدادات ، ولذلك فإن "أفونسو دي البوكيرك" وجد نفسه مُلزماً بألا يشن الحرب ضده قبل التفاوض مع الملك .

بمجرد أن تم الاتفاق على هذا ، تم تسليم الإمدادات في نهار ومساء اليوم الذي وصل فيه "أفونسو دي البوكيرك" ، وفي صباح

اليوم التالي أبحر إلى بلدة أخرى تسمى "قريات" التي تنتمي أيضاً إلى ملك هرمز .

في الطريق أصدر أمراً بأن يتم تسليم الإمدادات من "قلهات" إلى الرجال ، ولكنه عندما فتحت عبوات التمور ، وجدوا روث الماشية مخلوطاً معها بالإضافة إلى أشكال أخرى من القذارة التي بسببها أصبح "أفونسو دي البوكيرك" محتداً بشدة وصمم على أن ينتقم لهذه الإهانة ، (وقد) فعلها فيما بعد .

كان أيضاً غاضباً عندما سمع من المترجم "جاسبر رويز" "Gaspar Ruis" أن المسلمين في البلدة التي قد دخلوها ، كانوا مُسيئين وغير راضين عن تقديم الإمدادات على النحو المطلوب . وصل "أفونسو دي البوكيرك" إلى القريات ، التي هي بلدة مستوية ، وتقع على مسافة ثمانية "فراسخ" من "قلهات" ، وتحدها من الداخل غابات النخيل .

بعد ذلك وجد نفسه في حرب ؛ لأنه ما أن عرف القبطان الذي وضعه ملك هرمز هناك أن "أفونسو دي البوكيرك" قد مرّ من خلال "قلهات" ، خائفاً أنه يكون أيضاً قد طلب إمدادات أو هدية أخرى منه حتّى أمن نفسه بالحواجز الدفاعية والخنادق والرجال .

عندما أرسل إليه "أفونسو دي البوكيرك" رسالة سلام وصداقة ، أجاب أنه لا يستطيع أن يعطي رداً بدون الرجوع إلى سيده ملك هرمز ، بهذه الصورة نزل "أفونسو دي البوكيرك" إلى البر بعد مشاورة قباطنته الآخرين . على الرغم من بعض من الصعوبة

بسبب المقاومة التي أبداها أفراد العدو ، الذين وصل عددهم إلى ثلاثة آلاف ، والذين غالباً ما كانوا عند الحاجز الدفاعي القريب من الشاطئ حيث احتشد الرجال الأوائل .

من هناك ذهب إلى المدينة ، ثم من خلال غابات النخيل ، حيث مات أكثر من ستين من رجالهم بالإضافة إلى ثلاثة من رجالنا ، بينما جرح عشرون .

بمجرد أن تمت هزيمة العدو ، أمر بسلب المنطقة ، ولكنهم لم يجدوا نهباً فيما عدا الطعام ؛ لأن النسوة وأولئك غير القادرين على القتال قد جعلوهم يتركون المنطقة وقد حملوا معهم كل شيء ذي قيمة . كانت الإمدادات كثيرة لدرجة أنه ، في خلال مدة ثلاثة أيام واثنتين من الليالي التي كانوا فيها هناك ، لم يكونوا قادرين على تحميل السفن .

في نهاية ذلك الوقت أمر "أفونسو البوكيرك" رجاله أن يشعلوا النار في المنطقة وفي خمس سفن من مكة وأحد عشر طرّاداً ، كانت قد جنحت إلى الشاطئ ، وقبل أن يبدأ الأسطول في الإبحار تم إحراق كل هذه السفن وكذلك المسجد الذي كان جميلاً جداً .

من هناك ذهب إلى مكان آخر ، ينتمي إلى هرمز ، ويقع على مسافة عشرة "فراسخ" من جهة الشرق ، كان هذا هو مسقط ، الموقع الذي كان أكثر خصوبة ، وأكثر ازدحاماً بالسكان وأوسع مساحة . تقع مسقط بين سلسلتين من الجبال ، حيث يوجد خليج يحتوي على مرسى رائع جداً ، ولأنها كانت مسطحه مثل "القريات" ، فإن الدخول إلى الميناء كان

مغلقاً من سلسلة إلى أخرى بواسطة حاجز خشبي ، والذي كان قائماً على الأرض في كل من الجانبين ، ولديه بعض قطع المدفعية عليه ، وهو ذو بوابتين ضيقتين جداً تواجهان المدخل من جهة البحر .

وصل "أفونسو دي البوكيرك" إلى هناك في يوم الثاني من سبتمبر ودخل الميناء دون مقاومة ؛ لأنه كان قد وصل إلى اتفاق مع الشيخ الذي وعده بالإمدادات كشكل لدفع الأتاوة لكل منه وجميع القباطنة الذين أتوا باسم ملك البرتغال .

عندما وصل قبطان لدى ملك هرمز بالإضافة إلى ألف جندي واكتشف تفاصيل الاتفاق ، تم معاملة الشيخ بصورة سيئة ؛ لأنه لم يوافق على انتهاك اتفاقه مع "أفونسو دي البوكيرك" .

عندما وصل القبطان ، وضع المكان تحت السلاح وجهزه بعدد ثلاثة آلاف رجل مقاتل ، وتجار وسكان ، إلى جانب الألف رجل الذين قد جاؤوا معه . عندما رأى أنه كان يقوم بالتخطيط ، أمر "أفونسو دي البوكيرك" أن يتم ضرب المكان بالقنابل طوال ليلة واحدة ، وفي اليوم التالي ، الخامس من سبتمبر عند الفجر .

نزل هو ورجاله الذين تم تقسيمهم إلى ثلاث وحدات ، كان على القباطنة "فرانسيسكو دي تافورا" و"أفونسو لوبيز داكوستا" أن يهاجما جانباً واحداً من الحاجز الدفاعي ، وعلى الجانب الآخر كان يوجد "جواو دانوفا" و"أنطونيو دو كامبو" ، بينما كان يجب على "أفونسو دي البوكيرك" و"عمانويل تيليس" أن يهاجما الوسط .

كان أول من يصل إلى الحاجز هو "فرانسيسكو دي تافورا" و"أفونسو لوييز داكوستا" ، اللذان وصلا إلى البر تحت نيران المدفعية والسهام ، ولكن استطاعوا أن يطوقوا عدداً كبيراً من المسلمين الذين قد جاؤوا الحراسة المكان ، أشعلوا النار في الحاجز ، التي أضاءت المكان في الحال ، وبذلك لا أحد كان يستطيع أن يتحمل الحرارة ، وتجمع المسلمون في الوسط حيث كان "أفونسو دي البوكيرك" وحيث كانت هناك معركة شرسة .

في النهاية أحاط رجالنا بأفراد العدو هناك ، واستطاعوا أن يقذفوهم بعيداً ويكسبوا المعركة في خلال أربع ساعات ، مكث رجالنا هناك لمدة ثمانية أيام دون مهاجمة السكان مرة ثانية ، وخلال هذا الوقت نهبوا وخرّبوا المسجد الذي كان المبنى الأكثر جمالاً ، ثم أشعلوا النار في المنطقة التي احترقت بشكل تام .

كان بين أولئك الذين ماتوا من أفراد العدو الذين زاد عددهم على أكثر من ثمانين الشيخ الذي وقع الاتفاق مع "أفونسو البوكيرك" ، فقد فرّ ، وبينما كان متسلقاً جانب التل استدار إلى أولئك الذين كانوا يطاردونه ، مخبراً إياهم بأنه يجب ألا يوضع عليه اللوم للحقيقة القائلة إن سكان المدينة قد هاجموا ، ولكن لم يتعاطف معه أحد ، وبينما هو مستمر في السؤال عن الرحمة به ، تم قتله .

كان "الدون أنطونيو" هناك قائداً للهجوم ، وكان رجاله مستعدين حينئذٍ لمواصلة قتل عشرين زيادة على ذلك العدد من الذين كانوا يتعاقبونهم .

في أعقاب هذا الهجوم الذي مات فيه ثمانية برتغاليين ، غادر "أفونسو دي البوكيرك" في يوم السادس والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٥٠٧م ، وتوجه نحو مكان آخر من مملكة هرمز يسمى "صحار" ، والتي كان يوجد فيها قلعة أخرى ، هذه التي قد ذهب قبطانها إلى هرمز وترك في مكانه زوج أخته ، الذي عند معرفته ما قد فعله "أفونسو دي البوكيرك" في الأماكن الأخرى ، استسلم بشكل سلمي وأصبح تابعاً ورعية لملوك البرتغال .

من هنا ذهب "أفونسو دي البوكيرك" إلى بلدة تنتمي إلى ملك هرمز تسمى "خورفكان" ، التي كانت محمية بالأسوار المنخفضة المنصوبة فوقها المدافع ، كانت بلدة منظمة بشكل حسن ، ذات مباني رائعة من الحجر المطلي بالجير الأبيض ، ومنازل ذات طوابق عليا وأسقف مسطحه ، وعلى الرغم من أنه كان هناك قبطان من طرف ملك هرمز كحاكم ، ذلك الذي كان قوياً ومتدرباً جيداً على فن القتال .

كان سكان البلدة خائفين جداً ، وحين أبصروا سفننا تلقي مراسيها ، بدأوا يفرون في الحال في تلك الليلة نفسها ، حاملين كل مؤنهم وأثاث بيوتهم التي كانت هناك .

عندما اكتشف هذا "أفونسو دي البوكيرك" ذهب تقريباً مسافة "فرسخ" واحد دون أن يجد أية مقاومة فيما عدا تلك التي تعود إلى عدد قليل من الخيالة الذين واجهوه ، ولكنهم فروا حينئذٍ حتّى لا يستطيع أن يصل إليهم . بينما كان الجميع هادئاً وكان رجالنا

متعبين ، رجعوا عائدين إلى البلدة مع اثنين وعشرين رجلاً وامرأة من الذين قد أسروهم .

كان "أفونسو دي البوكيرك" في البلدة لمدة ثلاثة أيام ، وأمر بأن يتم تجميع غنيمة كبيرة جداً بقدر المستطاع ، هذه التي كان من بينها قطع مدفعية ومسحوق بارود ، وبمجرد أن تم تنفيذ هذا واستولوا على الامدادات اللازمة ، أمر بحرق البلدة .

كانت هذه آخر بلدة على الساحل العربي تخص ملك هرمز ، بعد ذلك بدأ الإبحار إلى الجزيرة الحقيقية (هرمز) حيث عاش الملك معظم الوقت لكي يرى ماذا يمكنه أن يجد هناك .

## الفصل الثاني والثلاثون :

## عن جزيرة هرمز ، المدينة ، وعادات أهلها ، وعن استعدادهم للحرب مع "أفونسو دي البوكيرك" .

تقريباً تقع جزيرة هرمز التي أسماها بطليموس "آرمارو" ، إلّا أن المقيمين أسموها "جيروم" Gerum في المدخل الذي ينتمي للبحر الفارسي .

يبلغ محيطها أربعة فراسخ ، وتقع على بعد مسافة عشرة "فراسخ" من الساحل العربي وثلاثة فراسخ من بلاد فارس . تمتلك عدداً كبيراً من المدن والبلدات والقلاع والمناطق المسطحة ، وتوجد جزر مجاورة لها .

إنها جافة جداً وتنقصها كل أنواع الطعام التي يجب أن يتم جلبها من جزيرتي "قشم" و"لارك" الأخريتين ، وكذلك أيضاً من

"موغيستان" التي هي على البر الرئيس مواجهة لـ هرمز . من الصحيح أن تقول نفس الشيء بالنسبة للمياه ، حيث توجد هناك ثلاثة آبار فقط التي تمد بمياه الشرب والتي هي على مسافة "فرسخ" واحد من المدينة في مكان يسمى "كورومباكا" "Corombaka" . علاوة على هذا ، فإن إمداد المياه هو من الخزانات والآبار المالحة قليلاً .

توجد سلسلة جبال صغيرة على سطح الجزيرة في أحد جوانبها طبقة رسوبية من الكبريت ، وفي الجانب الآخر منجم ملحي ، من هناك تحمل السفن الملح من مينائين اثنين ، اللذين يمتلكان مرسى صالحاً جداً لسفن "الناو" الكبيرة ، أحدهما في الجانب الشرقي والآخر في الغرب .

شيئاً فشيئاً تم بناء مدينة في موضع بين المينائين بسبب السفن العديدة التي تأتي إلى هناك من بلاد العرب ، وبلاد فارس ، والهند وأماكن أخرى ، وأصبح هذا الميناء هاماً جداً وسُميت هرمز ، أنها مدينة مسطحة ، وممتدة بشكل جميل جداً وذات مباني فخمة من الحجر الكلسي والجص ، وبها عدد كبير من البيوت ذات طوابق عُليا وشرفات ، وحيث يمتلك الملوك قصوراً مبنية مثل القلاع ، وحيث تكون اليابسة حارة جداً فإن كل البيوت لديها مداخن "براجيل" ذات فتحات للتهوية التي تبرد أماكنهم الداخلية .

تأتي القوافل إلى المدينة من أماكن عديدة مثل "ماراكانت" و"تبريز" و"قشم" ، ومدن فارسية وعربية أخرى ، وهم يجلبون منتجاً

أكثر وفرة وعدداً كبيراً من الخيول التي تؤخذ من هناك إلى الهند ، حيث يتم بيعها بثمن مئتين أو ثلاثمائة أو أربعمائة أو خمسمائة أو ستمائة "باردواس" ، والبعض بثمن أكثر .

سكان هذه المدينة في أغلب الأحوال هم عرب وفرس ، يتمتعون بالعيش ، وأكثر حماية لنسوتهم ، وبشكل له ما يبرره ؛ لأنهن نسوة أكثر جمالاً ، هؤلاء اللاتي عندما يخرجن من البيت يغطين وجوههن حتّى لا يمكن التعرف عليهن .

الرجال مُهذبون وخيالة رائعون جداً ، يوجد أكثر من مئتين من الخيول التي يمتلكها السكان ، الذين يمارسون أثناء اللعب شكلاً من لعبة البولو ، لعبة هم بارعون فيها جداً بشكل يدهش الأجانب الذين يأتون للعب معهم ، وهم أيضاً ذوو موهبة موسيقية ويحبون الغناء ، أنهم أناس حسنو الملبس ، يرتدون ثياباً مصنوعة من الحرير وشعر الإبل و"البروكار" الموشي بالقصب والقطن ، وهم دائماً يحملون أسلحة خطيرة في حالة السلم والحرب على السواء .

يبيع التجار ، الذين يعتبر عدداً كبيراً منهم أغنياء وأقوياء بضاعتهم بالوزن ، حتّى قماش الكتان ، ويتم معاقبة أي فرد يغش في الميزان أو المكيال بدون رحمة ، هذه الجريمة المنظور إليها على أنها كبيرة جداً للحد الذي يتم فيه مَقْتُها فوق كل الأشياء الأخرى ، مثلما يقال إنها ضد مصالح الدولة .

يوجد عدد كبير جداً من الأهالي مهتم بتحصيل العلم لدرجة أنه

تم بشكل خاص بناء بيت القراءة في المدينة ، حيث يأتي يومياً إليه أديب ؛ لكي يقرأ سجلات وتاريخ "الإسكندر" و"داريوس" "Darius" وآخرين قدماء ومحدثين معاً ، وكذلك أيضاً كتب العقيدة .

كما يأتي عدد كبير من الرجال من كبار وصغار السن ؛ لكي يستمعوا إلى تلك القراءات التي هي الأكثر جدارة بالثناء ، ويبدو أن أبناء البندقية قد تبنوا الفكرة أو ربما أخذو الفكرة من أهل البندقية ، كما في البندقية ، التي هي ليست بعيدة بأكثر من خمسة فراسخ عن "بادوا" ، تلك الجامعة المشهورة ، حيث يتم فعل نفس الشيء مع قراءتين يتم القيام بهما في الأماكن العامة ، واحدة في الفلسفة والأخرى في العلوم الإنسانية والتاريخ .

لقد سمعت عدداً كبيراً من هذه القراءات عندما كنت في تلك المدينة ، وكنت مندهشاً من تحصيل العلم للرجال الذين رآهم المرء هناك ، الذين كان عدداً كبيراً منهم قد بلغ من العمر خمسين أو ستين أو سبعين سنة ، ومعظمهم أعضاء لدى مجلس وحكومة الدولة ، وبعد انتهائهم من القراءة يذهبون حينئذٍ إلى مجلس الجامعة أو إلى أماكن أخرى لتنفيذ عملهم الوزاري .

لكن هيا نعود إلى "أفونسو دي البوكيرك" ، فبعد مغادرته "خورفكان" وصل إلى رأس مسندم ، حيث يبدأ خط الساحل البري الرئيس لبلاد العرب وتنتهي مملكة هرمز على مسافة خمسة عشر فرسخاً من بلاد فارس ، وهنا توجد بعض الجزر ، التي منها

الجزيرة الكبرى "جيروم" ، حيث تقع مدينة هرمز ، وهذا هو المكان حيث كان يجب على "أفونسو دي البوكيرك" أن يأتي إليه كانت محكومة كما كانت المملكة بأكملها من قبل مخصي مسلم ، والذي كان خيالاً بارعاً جداً من "البنغال" يسمى "خواجا عطّار" ، حكم نيابة عن الملك والذي كان اسمه سيف الدين ، ولم يكن عمره أكثر من اثني عشر عاماً .

حينما تم إعلام "خواجا عطّار" أن "افونسو البوكيرك" كان قادماً إلى مدن هرمز التي كان يحكمها ، أدرك أنه مضطر إلى أن يعلن الحرب التي خطط أن يقوم بها بستين سفينة كانت ترسو حينها في ميناء هرمز ، حيث كانت هناك واحدة تسمى "ميرى" "Meri" ، تعود إلى ملك "كامباي" ، بلغت حمولتها ثمانمائة طن ، وحملت عدداً كبيراً من الجنود من رأس فرتك وبلاد الحبشة .

كما كانت هناك سفينة أخرى تعود في ملكيتها إلى أمير "كامباي"، والاثنتان كانتا مسلحتين تسليحاً جيداً بذخائر كثيرة . بالإضافة إلى هذه الستين سفينة ، توجد مراكب شراعية عديدة تسمى طرّادات ، والتي يتم استخدامها لحمل الإمدادات والماء من الداخل وجزر أخرى تنتمي إلى هرمز .

وضع مدفعية كثيرة وجنوداً عديدة في كل من هذه السفن وتلك التي يمتلكها التجار وذلك بعد أن بدأ في جمعهم بمجرد أن سمع بمجيء "أفونسو دي البوكيرك" . كان لدى "خواجا عطّار" تماماً عشرة آلاف رجل في الأسطول البحري في المدينة .

وصل "أفونسو دي البوكيرك" إلى ميناء هرمز في يوم الخامس والعشرين من سبتمبر .

## الفصل الثالث والثلاثون :

## عن ماذا فعل "أفونسو دي البوكيرك" عندما وصل إلى مدينة هرمز .

بمجرد أن عرف "أفونسو دي البوكيرك" أين كانت السفن المسلمة راسية ، أمر كل قباطنة الأسطول بالمجيء إلى سفينته وعقد معهم مجلساً ، والذي في أثنائه تم تقديم خطط عديدة .

أخيراً تم الاتفاق على أنه ، إذا فرضت الحرب هناك ، فإنهم يجب أن يحاربوا السفن المسلمة قبل أن يتحولوا إلى المدينة ، وأن على "أفونسو دي البوكيرك" أن يهاجم السفينة "الميري" التي تنتمي إلى ملك "كامباي" ، بينما على "جواو دا نوفا" أن يهاجم سفينة "الأمير" و"فرانسيسكو دي تافور" ، السفينة الباقية من تلك السفن التي بدا أنها الأحسن تسليحاً مع القباطنة الآخرين الذين يضطلعون بالمهمة الباقية .

ما إن أرسا الأسطول ، حتّى وجّه "أفونسو دي البوكيرك" رسالة قصيرة إلى الملك طالباً منه أن يأتي ويتفق مع ملك البرتغال سيده على السلام والصداقة ، وأن يضع مدينته تحت أمره ؛ لأنه لو كان قادراً على أن يدخل بسلام ، لأمكن أن يسمح له بالبقاء في دولته وأمكن أن يترك السكان يعيشون بحرية تامة ، مثلما قد فعلوا حتّى ذلك الوقت .

فضلاً عن هذا ، وعد أن يدافع عن المدينة وكذلك أيضاً المملكة

كاملة والأراضي ضد أولئك الذين يمكن أن يهددونهم ، وعد أيضاً أن يفعل كل القباطنة الآخرين لدى سيده الملك نفس الشيء .

رداً على هذه الرسالة ، أرسل الملك رجلاً مسلماً والذي جاء مؤخراً إلى هذه المملكة ، يسمى "خواجا بيرم" ، برسالة موقعة من قبله هو و"خواجا عطّار" ، تم استقبال الرجل المسلم من قبل "أفونسو دي البوكيرك" باحتفاء شديد ، ولكنه لم يقبل أياً من الهدايا التي أرسلها الملك ، قائلاً إنه لا يمكن أن يقبل شيئاً من الرجال الذين لم يصبحوا بعد أصدقائه ، وإنه إذا كان كل الذي قد وضعه في رسالته فيما يتعلق بالسلام والصداقة صحيحاً ، فإنه مستعد لإرسال رسالة في اليوم التالي تنص على كيف أنه رغب في أن يضع هذا في موضع التنفيذ .

رجع "خواجا بيرم" عائداً بالرد على هذه الرسالة قائلاً : إن الملك أراد السلام وأن البرتغاليين يستطيعون أن يذهبوا في أمان في مدينتهم وأن يفعلوا ما أرادوه ، ولكن شاكياً لـ"أفونسو دي البوكيرك" عن المعاملة السيئة التي قد تلقاها في تلك المناطق من مملكته التي مرّ بها .

قدم "أفونسو دي البوكيرك" اعتذاراته عن هذا وأرجع المبعوث ، ولكن الملك أعاده بمزيد من الرسائل ، لكن كل ذلك كان خططاً (تكنيكات) تأخيرية مستخدمة من قبل "خواجا عطّار" ، الذي كان منتظراً أسطولاً إضافياً في تلك الليلة والذي وصل بعدد كبير من الرجال من البر الرئيس والذين يمكن أن يساعدوه في الدفاع عن المدينة .

شعر بالاطمئنان كثيراً من هذا لدرجة أنه أمر بأن يعلن أنه يجب

ألا يقتل أحد أي برتغالي ، بل أنه يجب أن يتم إلقاء القبض عليهم وهم أحياء لكي يستخدمهم الملك في الحرب .

في تلك الليلة أمر بأنه يجب أن يتم وضع جميع مراكب "الناو" الكبيرة على طول الشواطئ لكي تدافع عن المدينة ، وبالإضافة إلى هذا أمر بأنه إذا رفعت سفننا مراسيها وأقلعت لمهاجمة أسطوله العربي ، فإن الطرّادات التي وضع فيها مدافع كثيرة ورجالاً يجب أن تحيط بهم في البحر حتّى أنهم بمجرد أن يتم تطويقهم جيداً ، يكون من غير الممكن لهم الدفاع عن أنفسهم .

في صباح اليوم التالي ، عندما ظهرت السفن المعادية في هذا التشكيل ، رأى "أفونسو دي البوكيرك" أنهم كانوا مستعدين للقتال ، ولذلك أمر على الفور برفع مراسي تلك السفن المرابطة على طول الساحل وأشرعتها .

عندما رأى "خواجا عطّار" هذا تحرك في الحال من الشاطئ مع جميع الطرّادات في خط مستقيم وبدأ في تطويق أسطولنا ، ثم بدأوا يحركون سفن "الناو" التابعة لهم ، وفتحوا نيران مدافع سفنهم ، التي لم تستخدم حتّى ذلك الوقت ، وبدأوا هجوماً شديداً بالقنابل ، وكذلك بالمثل كانوا يطلقون عدداً كبيراً من السهام والرماح على سفننا ، وهي مفتوحة .

قبل أن يبدأ إطلاق النار من القوارب المسلمة ، أمر "أفونسو دي البوكيرك" أن يتم إطلاق مدفع من نوع "كميللو" على السفينة

"الميري" ، والتي أطلق عليها قذيفة قد أحضرها من خارج الأسوار والتي قتل بها وجرح عدد كبير من المسلمين ، وعندما نشبت المعركة بين الأسطولين ، بدأ "خواجا عطّار" يقترب من أسطولنا .

بمجرد أن التف حولنا ، أمر بأن يتم إطلاق المدفعية ، ثم تحت غطاء من الدخان الذي أحدثته نيران مدافعه ومدافعنا ، أمر سفنه أن تتحرك داخل مدى المرسى ، أطلق سهاماً كثيرة جداً على سفننا لدرجة أنها ملأت السماء مصيبة كثيرين بالأذى ، ومع ذلك ، استمرت هذه المعركة فترة قصيرة من الوقت ، لأن مدفعيتنا أغرقت طرّادات كثيرة جداً للحد الذي بدأ فيه الآخرون في الانسحاب ، وكانت الأغلبية متراجعة نحو البحر الرئيس .

ذهب "خواجا عطّار" إلى الملك ، الذي كان يشاهد المعركة من العريش[أ] ، كانت المعركة شرسة جداً للحد الذي فرّ فيه عدد كبير من المواطنين إلى داخل الجزيرة ، وتراجع عدد كبير من النسوة الحوامل من ضوضاء إطلاق نيران المدافع .

كانت الفوضى كبيرة مثلما كان أيضاً الخوف في أفراد العدو لدرجة أنهم فروا دون الانتباه إلى السهام ، لذلك قتل كثيرون على أيدي رجالهم ، وكانت أجسادهم طافية على سطح الماء لمدة ثلاثة أيام ، وكان رجالنا قادرين على جمع غنيمة كثيرة من هذه الحرب .

(أ) كان العريش نوعاً من البيوت مبني على أعمدة مغطاة بأوراق النخيل .

نفذت سفن "الناو" التي لدى العدو مهامها بصورة حسنة في المعركة المستمرة ، عندما طوّق "خواجا عطّار" وهاجم أسطولنا ، هاجم رجالنا سفينة أمير "كامباي" ، مغرقين إياها بوابل من القذائف الضخمة من سفينة "الناو" المسماة "كيرين" . كان وراءها سفينة من أحسن السفن تسليحاً ، التي تعود إلى "ملك عياض" حاكم "ديو" ، والتي تمت أصابتها في نفس الهجوم .

لقد علّق ملك هرمز كل آماله على تلك السفن ، وكان الرجال الذين بداخلها يطفون على سطح الماء ، وعندما رأى الرجال في السفن الأخرى هذا ، مدركين أنهم كانوا مهزومين ، ألقوا بأنفسهم في المياه لكي يسبحوا إلى بر الأمان .

عندما رأى "أفونسو دي البوكيرك" هذا أمر رجاله في قوارب "الباتيل" أن يذهبوا نحو اليابسة ويقتلوا عدداً كبيراً من هؤلاء الرجال بقدر استطاعتهم ، الأمر الذي نفّذوه بكل بسرور ، إلّا أن أولئك الذين على ظهر السفينة "الميري" "The Meri" لم يهجروا سفينتهم ؛ لأنه على الرغم من أنه قد تم تدميرها بواسطة مدفعيتنا ، فقد كان القبطان رجلاً مهذباً وحصل على عدد كبير من الرجال المهرة معه .

حينما رأى رجالنا هذا ذهبوا لكي يهاجموا "الميري" في بعض قوارب "الباتيل" التابعة لأسطولنا ، وكان بين هؤلاء الرجال "جورج باريتو دي كاسترو" و"جورج دا سيلفيرا" و"أيريس دي سوسا شيشرو" و"ديودارت دي سوزا" و"نيكولاو دي أندراد" "Nicolao de Andrade"

و"أنطونيو داكوستا" و"ليزيورت دي فريتاس" و"أنطونيو دي سا" و"أنطونيو فراجوسو" "Antonio Fragoso" و"جواو إستام" ، كاتب الأسطول ، و"جيم تيكسيرا" و"لورينزو دا سيلفا" ، رجل نبيل "قشتالي" و"نونو فان دي كاستلو برانكو" و"جواو تيكسيرا" و"ابن جواو بيكانها دي ألينكر" و"جاسبر ديان" وحامل الراية "أفونسو دي البوكيرك" و"جان مينديز بوتيلهو" و"لورينزو داسيلفا" و"جونزالو كيمارو" و"جان مينديز" من جزيرة "بيرو كاو" ، وآخرين ، بينهم "بيرو غونسالفيس" مرشد السفينة ، والذي ذهب إلى خارج البلاد لأول مرة .

بالصدفة لم يجدوا أية مقاومة ؛ لأنه عندما أبصرهم أفراد العدو ، مقتربين من السفينة ، خائفين من أنهم يمكن أيضاً أن يلقونهم في البحر ، أخفى كل منهم أنفسهم تحت سطح السفينة ، لذلك ظهر لمرشد السفينة عندما تسلق على ظهرها أنه لا يوجد أحد عليها ، وأبلغ أولئك الذين كانوا في قوارب "الباتيل" بهذا ، ولذلك قروا عدم الصعود على ظهر السفينة فضلوا ملاحقة السابحين إلى حد ما والذين كانوا في الماء .

لكن عندما رأى الناس على ظهر السفينة المرشد والبحار "بيرو فيرنانديز" ، وحامل الراية "جاسبر ديان" ، والذي قد صعد وراءهم ، خرجوا من تحت السطح وبدأوا يطلقون السهام على البرتغاليين ، الذين هربوا بصعوبة شديدة ، صائحين على أولئك الذين في قوارب "الباتيل" لكي يساعدونهم ، لأن السفينة كانت مملوءة بالمسلمين ،

لكنهم لم يكونوا قادرين على فعل هذا بسرعة ، لأن السفينة كانت ذات سطح عالي ، وشعروا بالخوف أن يجدوا الثلاثة رجال مصابين بصورة سيئة .

مع ذلك عندما صعدوا على ظهر السفينة ، انتشروا حول قوارب النجاة ، حيث كان المسلمون مختبئين تحت قلع السفينة وتجمعوا في المؤخرة التي كانت مغلقة بواسطة أحد طرفي عارضة الشراع الأفقية والشراع ، وبهذه الصورة أرجعهم رجالنا لفترة من الوقت ، وعلى الرغم من أن المسلمين دافعوا عن أنفسهم بشراسة بالسهام ، والرماح ، والنبال ، فقد تم إجبارهم على الرجوع بالقوة .

مات بعض منهم ، حيث ألقى الأغلبية منهم بأنفسهم في البحر ، وتبعهم رجالنا في قوارب "الباتيل" قاتلين الكثير منهم .

عام آخر وتمت ملاحقتهم بواسطة رجالنا من قوارب "الباتيل" التابعة لنا ، وكانت المياه حمراء مخضبة بالدم . ترك "جورج باريتو" ، الذي كان قائد أولئك الذين ذهبوا المهاجمة السفينة "الميري" ، بعض البرتغاليين على ظهر السفينة بمجرد أن طهّرها من المسلمين ، وبعد ذلك أمرهم أن يهاجموا المدينة بالمدافع التي كانت على ظهر السفن ، الأمر الذي نفذوه بإرادتهم .

حينما لم يجد رجالنا أحداً آخر لكي يقتلونه في المياه ، أشعلوا النار في بعض طرّاداتهم والتي قد استولوا عليها أثناء القتال ،

وأسروا جميع سفن "الناو" المسلمة ، أمرهم "أفونسو دي البوكيرك" أن يشعلوا النار في تلك السفن التي كانت أكثر بعداً عن أسطولنا ، وأما التي كانت قريبة أن يتم إحراقها وإغراقها .

في نفس الوقت ذهب مع قاربين من نوع "إسكيف" و"باتيل" إلى العريش ، حيث كان الملك و"خواجا عطّار" ينظران ، وقد أفزعهما أن يبصرا ذلك الدمار ، فرجعا في الحال عائدين إلى المدينة .

أتى قارب "الإسكيف" قريباً جداً من العريش ، لدرجة أن الذين كانوا هناك أطلقوا السهام على "أفونسو دي البوكيرك" وآخرين حيث أصابوهم بجراح . كان الشخص الأكثر جرحاً بصورة سيئة هو "إيمانويل تيليس" الذي أصيب في الوجه .

من هناك أسرع "أفونسو دي البوكيرك" على طول النهر ، آمراً بأن يتم قطع حبال أكثر من ثلاثين قارباً شراعياً وإشعال النار فيها ، فحملت الريح هؤلاء إلى الساحل على الجانب الفارسي .

استمر في سيره ووصل إلى مرسى للسفن حيث كانت هناك مائة وأربعين سفينة مطلية بالقار معدة للإبحار ، وأصدر أمراً بأن يتم إحراق تلك السفن وكذلك أيضاً قرية صغيرة قريبة كان يوجد فيها مسجد جميل جداً .

في ذلك الوقت كان رجالنا متحمسين جداً للحد الذي يمكنهم أن يدخلوا المدينة نفسها من ذلك الجانب إذا لم يوقفهم "أفونسو دي

البوكيرك" ؛ لأنه وجد هناك عدداً كبيراً جداً من الرجال المقاتلين بالداخل ، وعدداً قليلاً جداً من رجالنا ، خوفاً من هذا ، جعلهم يعودون إلى قوارب "الباتيل" لكي يتمكنوا من ضرب مرسى السفن بالقنابل من هناك إذا خرج الرجال الذين هم في المدينة لإشعال النيران .

دامت هذه المعركة ثماني ساعات ، ومات فيها عشرة برتغاليين بينما جرح أكثر من خمسين ، كان بينهم "جاسبر ديان" ، الذي فقد يده اليمنى التي قطعت في سفينة "الميري" بضربة من رجل مسلم بسيفه ، وسقطت تحت قدميه ، أعطاه "أفونسو دي البوكيرك" مبلغ عشرة آلاف ريال مرتباً مدى الحياة بسبب إصابته .

مات تقريباً ألفا رجل مسلم ، كانت الصدمة قوية والحزن شديداً بين أولئك الذين في المدينة بسبب السفن التي أحرقت ، لأن هؤلاء كانوا يعتبرون السفن الثروة الأعظم التي امتلكوها .

لذلك أرسل الملك "خواجا عطّار" ، بناء على نصيحة "ريس نور الدين" ، الذي كان الوزير ، "خواجا بيرم" ورجل مسلم آخر يسمى عبد الله ، الذي يمكن أن يتحدث لغة "قشتاليه" جيدة ، ليطلب من "أفونسو دي البوكيرك" السلام .

كان أول شيء قالاه له هو أن الملك الذي كان آخر من يقع عليه اللوم بسبب عمره ، قد طلب ممراً آمناً لسكان المدينة لكي يذهبوا إلى مرسى السفن ليطفئوا النار في السفن ، وأنه مستعد ؛ لكي يقسم يمين الطاعة لملك البرتغال مع كل الشروط التي تبدو عادلة

بالنسبة له ، وأنه يمكن أن يتقبل نصيحة ملك البرتغال كما لو كان والده ، وتوسل إليه أن يتولى هذا المنصب من الآن فصاعداً .

ردّ "أفونسو دي البوكيرك" أنه بإمكانه أن يقول ذلك في وقت مبكر جداً لكي يتم التمكن من تجنب الخسارة ، وفيما يتعلق بالسفن والمدينة فلقد استطاع الرجال أن يخرجوا بأمان ليطفئوا النار ، ويجب عليه أن يرسل على الفور بعض الأشخاص المهمين من البلاط لكي يتفقوا على شروط السلام .

احتفظ "أفونسو دي البوكيرك" بعبد الله وأرسل "خواجا بيرم" عائداً بالرسالة ، بينما رجع الأسطول مع قباطنته الآخرين ، حينما عاد "أفونسو دي البوكيرك" إلى سفينته ، رجع "خواجا بيرم" بعد وقت قصير مؤخراً قائلاً : "حيث إن الوقت كان في الحقيقة متأخراً جداً ، فإن الملك يطلب أن ينتظروا حتّى الصباح ، عندما يستطيع أن يرسل الأشخاص الذين يجب أن توقع معهم الاتفاقية واعداً بشرفه أن يفعل ذلك..." الوعد الذي أوفي به .

كان بين أولئك الذين أرسلهم "ريس نور الدين" "الجوازيل" الوزير الأكثر أهمية ، وبعد تعديلات عديدة تم توقيع معاهدة السلام بالطريقة التالية :

"**بند** : أن يصبح الملك سيف الدين المعروف بملك هرمز ، تابعاً للملك "عمانويل" ملك البرتغال ، دافعاً له جزية سنوية بمبلغ ألف وخمسمائة "أشرفي" من الذهب ، وأن يتم دفعها بالذهب والفضة واللؤلؤ .

بالإضافة إلى هذا ولكي يسدد التكاليف التي حدثت أثناء الحرب كذلك أيضاً أجور العمال ، فإنه يجب أن يتم دفع مبلغ خمسة آلاف "أشرفي" نقداً على الفور ، وأن يقوم بدفع البقية عيناً عن طريق المقايضة .

**بند :** إن الملك يسمح لـ "أفونسو دي البوكيرك" بالتموضع في أي جزء من المدينة يتفق عليه الأخير معه ، حيث يستطيع أن يبني عليه قلعة ، وأنه حتّى يتم إكمال هذه بإمكانه أن يعطي بيوتاً في المدينة على نفقته لكي يمكث البرتغاليون هناك .

تم إصدار نسختين لبيان رسمي من هاتين الفقرتين ومن الفقرات الأخرى المتضمنة في الوثائق ، وتم تدوينهما على الورق بأحرف زرقاء وذهبية ، واحدة باللغة الفارسية لـ "أفونسو دي البوكيرك" والأخرى باللغة العربية ، لكي ترسل إلى الملك "عمانويل" ، كانت الأخيرة محفورة على لوحة من الذهب بحجم صفحة من الورق ومثبته بمسامير من الذهب ، تم توقيع النسختين من قبل الملك و"خواجا عطّار" و"ريس" .

## وفي العام نفسه (١٥٠٧م)

**جاءت الأحداث اللاحقة لاحتلال هرمز ، كما تم وصفها في كتاب : "عقود آسيا" "Da Asia Nova" ، للمؤرخ البرتغالي "جواو دي باروس" "Joao de Barros" العقد الثاني ، الكتاب الثاني ، الفصل الخامس :** (٥)

بشأن الحرب التي أعلنها "أفونسو دي البوكيرك" "Afonso de Albuquerque" على مدينة هرمز حتّى انشق عنه ثلاثة من قادته من الذين كانوا برفقته ، وذهبوا إلى الهند ، كذلك حول ما قام به مؤخراً وذهابه لقضاء فترة الشتاء في "سوقطرة" .

كان "أفونسو دي البوكيرك" قد رد على هذه الرسالة التي تلقاها من الملك ، وقد لوحظ تكرار بعض الكلمات من كلا الطرفين ، وكذلك من جانب "خواجا عطّار" ، وكان كل منهم يعرض قضيته ، بحيث

(٥) رقم الوثيقة والهامش.

أدى احتدام الغضب في الصدور إلى تعطيل كامل ، وكانت الضربة الأولى التي سددها "أفونسو دي البوكيرك" قد تمثلت في إقدامه على إصدار أمره بالإيعاز لكل من "أفونسو لوبيز دا كوستا" و"أنطونيو دي كامبو" و"جواو دا نوفا" بأن يأخذوا رجالهم في مراكب صغيرة إلى جزء قصي من المدينة للقيام بمحاولة للقبض على بعض المسلمين .

كان هذا الأمر قد قصد به إنذار الموجودين في المدينة ؛ لأنه في ذلك الوقت علم من أحد المسلمين ، وهو "خواجا إبراهيم" وهو من ألد خصوم "خواجا عطّار" ، أن المدينة بكاملها تتوق للسلام ، بينما ثبت أن "خواجا عطّار" وحده من يرغب في الحرب ؛ ولهذا السبب هو من أقدم على هدم سور منازل الملك .

عموماً ، بما أن جميع القادة كانوا قد وقفوا ضد فكرة "أفونسو دي البوكيرك" في هذا الانقطاع ، فقد كان من أرسلهم "أفونسو" في هذا العمل غير مرتاحين ، وبالتالي لم يفعلوا أكثر من بث الخوف في نفوس المسلمين ، ولم يقصدوا بأن يكبدوهم أية أضرار ، ولعل الشيء الوحيد الذي فعلوه لتنفيذ مهمتهم هذه بعد أن جاؤوا باثنين من المسلمين ، بل أنهم اضطروا إلى حملهم على أكتافهم نظراً لكبر سنهم ، إذ كان قد ترتب عليهم أن يأتوا بهم راجلين مشياً على أقدامهم .

بعدما رأى "خواجا عطّار" أن النار قد أخمدت ، وأدرك قلة عدد رجالنا الموجودين في السفن ، كان قد أمر في تلك الليلة أن تشعل النار في السفينة الشراعية التي أمر "أفونسو دي البوكيرك" ببنائها ،

والتي لم يتبق على إكمال عملية بنائها لتدخل الخدمة غير ثلاثة أيام فقط ، وبالفعل فعندما بدأت النار تتأجج وارتفعت ألسنتها ، سمعت صرخات من السور بلغة برتغالية تنادي : ""أفونسو دي البوكيرك" أسرع برجالك الأربعمائة لإنقاذ سفينتك ، وستجد هناك سبعمائة من الرماة في انتظارك" .

مع هذه الكلمات سمعت كلمات أخرى مماثلة صادرة من هذا الرجل الذي سبق أن هرب من صفوف رجالنا ، وأنه عندما رأى السفينة تحترق وأخبروه بما قاله ذلك المسيحي الرديء الذي أراده أن يذهب ، استشاط "أفونسو" غضباً ، وعرف كل ما تسبب فيه أولئك الخمسة الأشرار الذين ارتضوا ربط مصيرهم بالمسلمين ، وبخصوص هذا الأمر .

بمجرد شروق الشمس أرسل "فرانسيسكو دي تابورا" مع بعض الرجال في سفينة ، وأمرهم بالذهاب لإشعال النار في بعض المراكب التي تم بناؤها ، والتي سبق أن أمر بحرقها عندما أعلنت الحرب ، لكن تم إنقاذها لأن النيران لم تحدث النتيجة المطلوبة .

عندما مر "فرانسيسكو دي تابورا" أمام مساكن الملك ، أطلقت رصاصة فأصابت بمقتل قبطان السفينة الذي كان برفقته في المركب الصغير ، ولو كان قد تأخر كثيراً في ذلك المكان لكان قد لقي حتفه ، لأن تلك الرصاصة لم تكن الأخيرة ، إذ بعد ذلك تلتها مجموعة من الطلقات التي صوبت نحوه .

كان تأثر "أفونسو" بتلك الحادثة عميقاً ، والآن أصبح أكثر غضباً إزاء عدم احترام المسلمين لشخصه والتقليل من أهميته .

مرة أخرى أمر قادته بالذهاب إلى بعض المنازل الفخمة التي توجد خارج المدينة ، حيث اعتقد بوجود أفراد نبلاء في هذه المساكن ، وإنه عندما يعتقلهم فسوف يتمكن من استبدالهم بالرجال الخمسة .

لكن لم يوفق القادة الذين أرسلهم في هذه المهمة وباءت مساعيهم بالفشل ، إذ خرج لمواجهتهم ثلاثمائة محارب من بينهم مجموعة كبيرة من فرقة الخيالة ، الذين أجبروهم على الانسحاب الذي نفذوه برغبة كبيرة وسرور أكثر من رغبتهم في أداء تلك المهمة التي أرسلوا لتنفيذها .

وبدأ تصرفهم كتصرف أناس جبناء وليس كأشخاص يسعون للثأر والانتقام ؛ لأنهم قد رأوا أن "أفونسو" ما يزال مستمراً وعازماً على الحرب ، لكن لأسباب انفعالية فقط ، وليست لأسباب منطقية عقلانية ، وحتى ولو كان قد فعل لكان عليه أن يتظاهر إلى أن يتمكن من أن يجعل القلعة في وضع ربما يمكنه من شن الحرب ، وقد كان دافعهم جميعاً أن يروا المسلمين مضطرين لاحترامه ، وكان في مقدورهم أن يؤذوهم أثناء سحب المراكب ، لكنهم تظاهروا معه كمجموعة استشعرت وطأة الحرب .

أخيراً ، تبين بكل وضوح أن رجالنا وكذلك رجال المدينة لا يحبذون هذه الحرب ، ولا رغبة لهم فيها باستثناء "خواجا عطّار" الذي تدفعه رغبته الجامحة للجري وراء مصالحه ، و"أفونسو دي

البوكيرك" برغبته في الانتقام ، فضلاً عن ذلك ، فلكي يستعيد الخارجين فإنه قد أراد كبح رغباتهم لأن القادة كانوا قد عتبوا على "أفونسو دا البكوكيرك" وانتقدوا إصراره ذلك ، حيث وجد العذر لنفسه بقوله إن إصراره على هذا الأمر ليس بسبب هروب الرجال ؛ لأن ما معه يعتبره كافياً للاستغناء عن الهاربين وذلك ليس بالأمر الهام ؛ لأنه لا يقيم لهم أي وزن ، لكن لأنه لا يريد أن يكون ذلك دافعاً ومشجعاً للمسلمين كي يقدموا على محاولة شيء آخر أكبر .

لقد عرف كيف تمكنوا من هدم سور منازل الملك ، وعليه لم يعد مناسباً أن يكتموا أسرارهم ويتظاهروا أمامه بالاستعداد إذا ما كان في مقدورهم فعل شيء رسمي ، ولديهم القوة التي ستمكنهم من التنفيذ ، وفي ظل هذه الأسباب وغيرها التي قدمها "أفونسو دي البوكيرك" في خدمة الملك ، فقد ألزم الجميع بمهاجمة المدينة ؛ لأن المدينة كانت تحرس من جهة البر الرئيس ، حيث لا شيء هناك سوى المياه والخضروات والفواكه ، وهذه ترد إليها في كل يوم من هناك .

قد أرسل "مانويل تيليز" و"أفونسو لوبيز دا كوستا" و"أنطونيو دو كامبو" لكي يرابطوا في مختلف الأماكن حول الجزيرة حتّى يتمكنوا من منع وحظر دخول أي شيء يراد تزويدها ، به وبهذه الطريقة ستجد المدينة نفسها تحت ضغط كبير ، وبغض النظر عن حاجتهم لهذه الأشياء ، فقد أمكنهم القبض على بعض الطرّادات والمراكب الصغيرة ، فجدعوا الأنوف وقطعوا الآذان وبتروا الأيدي للمسلمين

الموجودين فيها ، ومن ثم تركوا هؤلاء الرجال على الشاطئ الذين دخلوا المدينة نصف أحياء ، حيث استشعر أهل المدينة رعباً عظيماً .

لما كان عدد الناس كبيراً وهم يشاهدون هذه الأحداث ، لم يعد يتجرؤوا سواء في النهار أو الليل على الذهاب للبر الرئيس ، خاصة لطلب الماء الذي كانوا في أمس الحاجة إليه ، وكان هناك بعض الناس قد خرجوا ليلاً بحثاً عن المياه في واحدة من الآبار الثلاث في منطقة من الجزيرة تعرف باسم "تورمباكا" "Totompaka" على بعد أكثر من فرسخ من المدينة بجوار الشاطئ .

كان "خواجا عطّار" قد وضع حامية ، قوامها مائتان من الرماة وخمسة وعشرون من الخيالة بقيادة أحد القادة لحراستها خشية أن يذهب إليها رجالنا ، ولكي تقوم هذه المجموعة بتوزيع المياه على السكان دون أن يتنازعوا في الحصول عليها .

عندما علم "أفونسو دي البوكيرك" بذلك ، أرسل "جورج باريتو دي كاسترو" في مركب من سفينة العلم ، "أفونسو لوبيز دا كوستا" و"جواو دا نوفا" بمراكبهم ، وبرفقتهم مجموعة من الرجال تتضمن بعض النبلاء ؛ وذلك كي يقوموا بإغلاق تلك الآبار ، وقد أنجزوا مهمتهم تلك بشكل سليم ، وكانوا قد وصلوا إلى المنطقة المعنية قبل الصبح ، وفي طريقهم تمكنوا من القبض على ترجمان أسرّ لهم بأن الرجال الموجودين هناك غير مستعدين ، وبسبب عدم جاهزيتهم تلك وحالة النعاس تم قتلهم جميعاً .

لم يقتصر القتل على المسلحين منهم والذين كانوا يقومون بمهمة الحراسة ، وإنما شمل أيضاً الذين خرجوا ليلاً يبحثون عن المياه ، وبتلك الطريقة أغلقت الآبار بجثث القتلى والخيول التي أخذوها إلى هناك .

عندما ابتعدوا عن المسرح ، تمكن قائد المجموعة المكلفة بحراسة الآبار من جمع بعض الرجال الذين هربوا من هذه الكارثة ، لكن واجهته كارثة أخرى أدت إلى قتله .

في هذا الوقت وصل "دون أنطونيو دي نورونها" في زورق مع رجاله لتقديم المساعدة لبقية القادة ، وكان الموقع الذي التقى فيه "دون أنطونيو دي نورونها" بقائد مجموعة الحراسة منطقة ضيقة تقع بين البحر وأحد التلال ، ويعتبر أفضل مكان للهجوم عليه ؛ وكان قد دعا "دون أنطونيو" أن يذهب إلى الشاطئ كي يتقاتل معه ، ولقد فعل ذلك ، وتمكن من قتله ، ومعه عشرة أو اثنا عشر من الرماة ، أما بقية رفاقه فقد تركوه وهربوا خوفاً على حياتهم .

عندما سمع "أفونسو دي البوكيرك" بنجاح هؤلاء القادة ، اتجه فوراً إلى هناك خوفاً من أن يأتي المسلمون بقوة من رجالهم لتنظيف الآبار ، وعلى الرغم من إن ذلك كان على نقيض ما رآه القادة الذين استاءوا من هذه الحرب ، إلّا أنه ما يزال مصمماً على إرسال "أفونسو لوبيز" لكي يبقى في ذلك المكان بمركبه ، حتّى يتمكن من نصب مدفع في الممر الذي يهبط منه الرجال الذين ينشدون الحصول على المياه ، وكان يقع على قمة أحد التلال .

كان المدفع الذي نصب هناك مدفع "بيركو" ووضعت فرقة من الرجال تحت قيادة "لورينسو دا سليفا" وهو "نبيل صقلي" يقوم بالإشراف عليهم في حراستها .

عندما عرف السكان العاديون في المدينة ما جرى بشأن الآبار التي يعتمدون عليها في الحصول على المياه ، عصب حياتهم ، خرجوا يتجولون ويصرخون بأنهم يحبذون الأسر بدلاً من الموت عطشاً ، وكان هذا الأمر مؤسفاً أن يعتبر إغلاق هذه الآبار وحرمان الناس من الحصول على المياه ؛ لذا فقد اقتضت الضرورة أن يخرج الملك نفسه ، ومعه "خواجا عطّار" ومجموعة كبيرة من الفرسان الخيالة والرماة على أرجلهم ، لكي يقوموا بفتح تلك الآبار التي يعتمد عليها السكان في حياتهم اليومية .

أيضاً هرع "أفونسو دي البوكيرك" إلى المكان ، وفي تلك الحادثة ففي هذا الجانب وكذلك في الجانب الآخر أريق من دماء البشر ما يفوق مخزون تلك الآبار من المياه ، فقد قتل أحد غلمان "أفونسو دي البوكيرك" ، وعندما حاول دون "أنطونيو دي نورونها" و"جورج دا سيلفيرا" والنبلاء الآخرون إنقاذه تعرضوا لبوابل من السهام ، لكنهم كانوا يضعون دروعهم الواقية لحماية أجسادهم وفي هذا الاشتباك كان "قونسالو كويمادو" حامل لواء "أفونسو" ، قد فقد إحدى عينيه ، حيث أصابه سهم هشم حاجبه .

أخيراً ، وبالرغم من أن هذه المعركة لم تشمل (في حقيقة الأمر)

شخص الملك أو "خواجا عطّار" ، وإنما فقط الريس "ديلاميشا" جامع الضرائب الذي خرج بهيئة الكشاف ، إلّا أنها كانت من الخطورة بمكان ، بحيث إن "أفونسو دي البوكيرك" نفسه كان على وشك أن يفقدها مع كل رجاله الذين دفع بهم فيها وكانوا قد انسحبوا بعيداً عن الشاطئ ، بحيث إنه عندما أراد أن يلجأ إلى مكان يحميه برغم أمره وتوجيهاته لـ"أفونسو لوبيز دا كوستا" و"أنطونيو دو كامبو" بتأمين السفن وتجهيزها لهم ، تبين أن الموقع الذي أراد أن ينزل فيه قد استولى العدو عليه .

عند النزول إلى الشاطئ ، حيث المراكب هناك ، يوجد تل صغير ، ولما كان رجالنا مواجهين من قبل الرماة ، وكانوا قلقين بشأن استعادة أنفاسهم داخل المراكب ، لم يحاولوا الالتفاف حول التل للوصول إليهم ، وإنما سلكوا طريقاً مختصراً فوق التل ، وبعدها رموا بأنفسهم من علٍ وتساقطوا بعضهم فوق بعض في أسفل الشاطئ ، وحقيقة فعلوا حسناً عندما كانوا حذرين وتجنبوا مغبة الاصطدام برماح بعضهم حتّى لا تخترق أجسادهم .

حقيقة لم يكونوا قد نزلوا جميعاً عندما شرع المسلمون في رميهم بالسهام ، وكان بعضهم في كمين تغطيهم بعض المراكب ، والآخرون من فوق قمة التل حيث أعيقت حركتهم في النزول بسبب الانحدار الشديد ؛ وعلى الرغم من ذلك ظلوا يطلقون سهامهم نحو رجالنا الذين تجمعوا وانضموا إلى بعضهم البعض ، وبالتالي فشلوا في أحداث أي ضرر لهم ، أثناء وجودهم في هذه المنطقة الخطيرة ،

كان "أفونسو دي البوكيرك" قد وصل قادماً من الجانب الآخر ، وقد حدث أن أطلقت قذيفة من مدفع "بيركو" على المراكب التي أرادوا الصعود فيها ، فأصابت قائد الرماة الذي كان يهدد رجالنا ، وكان على صهوة جواده على التل .

كان شاباً أنيقاً في ملابس رائعة ومسلحاً تماماً ، وهو قائد يعرف كيف يوجه ويأمر رجاله ، وكانت القذيفة قد أصابته في وركه ، بحيث جعلت جواده الذي أصيب أيضاً يفر هارباً ويجره على الأرض ، وكان يقف خلفه الرماة وكانوا قد أبصروا ما حل بقائدهم الذي سقط على الأرض فاتجهوا نحوه ، وبالتالي أدى ذلك لتهيئة الفرصة لرجالنا حتّى يصعدوا ببطء في مراكبهم . كان الملك قد حزن كثيراً لموت قائده ، نظراً لأنه كان يتولى مسؤولية جمع الضرائب كما قلت .

لما اكتمل العمل في ذلك اليوم مرة أخرى عاد "أفونسو دي البوكيرك" للاحتماء بالسفن ، وعموماً كان القباطنة قد وجهوا له اللوم ؛ لأنه جازف بنفسه بالإبحار في تلك السفينة الحربية في أمر ليس له أهمية لخدمة الملك .

بالرغم من ذلك ، عاد ليأمر القادة الثلاثة "مانويل تيليز" و"أفونسو لوبيز دا كوستا" و"أنطونيو دو كامبو" بالذهاب إلى منطقة ما في الجزيرة ، كان قد اختارها وخصصها كمركز مراقبة لمنع وصول أية إمدادات أو مؤن أو مساعدات للمدينة ؛ وبعدما استمروا في الحراسة والمراقبة لعدة أيام ، علم "أفونسو دي البوكيرك" من بعض

المسلمين الذين قبض عليهم في أحد المراكب كيف تمكن بعض الرجال من الوصول إلى جزيرة صغيرة باسم "لاشا" تقع قريباً جداً من هرمز ، ومعهم بعض المؤن محاولين أخذها ليلاً إلى المدينة ، وقد أمر "أفونسو دي البوكيرك" هؤلاء الثلاثة لتقصي هذا الأمر .

عندما وصلوا هناك لم يجدوا شيئاً يذكر سوى مكان لصيد الغزلان والطيور ، كان ملوك هرمز قد أمروا بإيجاده حتّى يتمكنوا من الذهاب إليه في بعض الأحيان لقضاء فترة من الراحلة والاستجمام ؛ وعندما انتهى القادة من الصيد دار بينهم نقاش مطول ، حيث بحثوا فكرة تخليهم عن "أفونسو دي البوكيرك" والتوجه إلى الهند .

كانوا قد تصوروا أنه عندما يعلم بأنهم قد ذهبوا إلى الهند فإنه سوف يغادر فارس ويحذو حذوهم ، وعندما يجدون أنفسهم أمام نائب الملك "دون فرانسيسكو" ، فسوف يقدم كل واحد منهم أسبابه ، وسوف يوضحون سبب مجيئهم إلى الهند ، ذلك الجدل الذي دار بين القباطنة وأشخاص من ذوي الاعتبار كانوا مبحرين معهم وكان كما يلي :

السبب في تلك الحرب وتطورها يعزى لغضب "أفونسو دي البوكيرك" ، وهو السبب الأساسي لاشتعال تلك الحرب .

إن الضرر الذي سببوه للمدينة ومنع وصول المؤن والغذاءات من هناك ، انعكس أيضاً على الأسطول الذي بدأ يعاني أيضاً نقص المؤن ؛ لأن حاجته لها مثل حاجة المدينة المحاصرة .

وكما يعرف الجميع فإن برميلاً من المياه يكلفه إراقة الكثير من

الدماء ، لكن كان "خواجا عطّار" قد قام بتخصيص بعض رجاله لحراسة المناطق التي توجد فيها آبار المياه في البر الرئيس ، حيث اعتاد الناس الذهاب إلى هناك للحصول على المياه .

أيضاً كانوا قد أضافوا أشياء أخرى حدثت لـ"أفونسو دي البوكيرك" ، وكانت في بداية الفترة التي أكملت فيها الاستعدادات للحرب ، حيث أخبروه بوجهة نظرهم وإنهم يعتقدون أن ذهابه لهذا الحرب يُعد أمراً خطأ ، كما أخبروه أنه من الضروري أن يتجاهل ظاهرة اختفاء الرجال الخمسة إلى حين اكتمال عملية بناء القلعة التي يعملون فيها .

لكي يجبروا "خواجا عطّار" على تسليمهم من موقعهم الآمن ووضع حد لتصرفه المزعج ، تمكنوا من تزويده بورقة اتخذت شكل طلب تم توقيعه بواسطة جميع القادة والنبلاء في الأسطول في وقت كان "أفونسو" موجوداً في موقع العمل بالقلعة .

في هذا الطلب كانوا قد ضمنوا جميع الأشياء المذكورة أعلاه ، وأشاروا فيه بأنهم غير ملزمين بطاعته فيما يختص بالأمور ذات الصلة بأوامر الملك ، وهي الذهاب بالأسطول على طول ساحل البلاد العربية ومدخل البحر الأحمر ضد السفن القادمة من مكة ، والتي تدخل وتخرج بشحنات التوابل ، وبدلاً من ذلك كان قد سمح لنفسه بأن يتواجد هناك لبناء القلعة .

في أحد جوانب تلك الجزيرة يوجد مسلمون في ساحل فارس وفي

الجانب الآخر سكان البلاد العربية ، وهم من أنبل الشعوب في جميع مناطق الشرق والذين بوسعهم بعدما غادر "أفونسو" من هناك أن يحتلوا القلعة في ظرف يومين فقط ، والشيء نفسه ينطبق على المدينة نفسها ، فهم كثر ، ومن دون إرسال مساعدة لتلك القلعة بسبب بعدها من الهند ومن مرور السفن القادمة من مملكة البرتغال التي يمكنها تقديم بعض المساعدات ، يمكنهم أن يستولوا على القلعة .

هذا الطلب تم رفضه بواسطة "أفونسو دي البوكيرك" ، وعندما تلقاه أخذه بين يديه قائلاً إنه سوف يرسل الرد ، وعندما انصرفوا بعيداً ناوله عامل البناء الذي يقوم بإكمال بناء البوابة في القلعة ، وأوصاه بأن يستخدمه كمرتكز أو حجر العقد ، وأن يغطيه جيداً بالحجارة والكلسيوم لكي يبدو كرد ولقد أراد بذلك أن يرى من يملك الجرأة والشجاعة على الأقدام لهدم بوابة قلعة سيده الملك ؛ لكي يعرف كيف كان رده على تلك المطالب .

كان ذلك بمثابة إهانة كبيرة وجرح لمشاعر جميع الذين قاموا بالتوقيع على تلك الورقة .

أيضاً كان قد حدث أمر آخر استاء له القادة والنبلاء كثيراً وأثار حفيظتهم ، فقد كان كل واحد منهم يأمل ويمني نفسه بأن يبقى قائداً على القلعة عندما يكتمل بناؤها ، لكن كان هذا المنصب قد أعطي للكابتن "جورج باريتو دي كاسترو" ، سيما وأنه كان يحمل ترخيصاً من جلالة الملك بمنحه قيادة بعض القلاع ، وبالفعل كان "أفونسو دي

البوكيرك" قد منحه قبطانية هذه القلعة بشرط يلزمه بالبقاء هناك إلى حين وصول ابن أخيه "دون أفونسو دي نورونها" ، قادماً من "سوقطرة" ولما كان "جورج باريتو" لا يريد أن يقبل بهذا الشرط ، فقد قام "أفونسو دي البوكيرك" بإعطاء المنصب إلى دون "أنطونيو دي نورونها" .

الذي وافق على البقاء هناك إلى حين وقت وصول شقيقه ، عندما يشرع في الذهاب إلى "سوقطرة" ، وقد تبين لكل فرد أن هذه الخطة ليست سوى مكيدة دبرها لكي يساعد أبناء إخوته في الحصول على القلعتين ، ونظراً لرابطة الأخوة فلا يجب أن يفترقا عن بعضهما البعض .

هكذا كان ذلك هو التقرير الذي قدمه القباطنة الثلاثة إلى رجال القيادة في سفنهم ، وقد تمكنوا في الليلة التالية من إقناعهم برفع أشرعة سفنهم والشروع في الإبحار إلى الهند ، وأثناء خروجهم من مدخل الميناء حالفهم الحظ بحيث ألقوا القبض على اثنتين من السفن ، كانت الأولى قادمة من "كامباي" والثاني من شول ، وكلاهما كانتا محملتين بالسلع والبضائع وبتلك الغنائم كانوا قد وصلوا إلى الهند قبل وصول نائب الملك "دون فرانسيسكو" .

عندما شعر "أفونسو دي البوكيرك" بأنه قد مضى على غيابهم يومان ، أمر "ديوقو فيرناندز بيريرا" وهو رئيس مركبه بأن يذهب إلى الجزيرة التي كان قد أرسلهم إليها ، وعندما وصل إلى هناك لم يجد سوى شخص واحد ، يبدو أنه قد ترك هناك بمحض الصدفة في البر عندما غادروا إلى السفن ، ولقد علم "أفونسو دي البوكيرك" منه عن

رحيلهم والأسباب التي استدعت ذلك ، وجاء رد فعله أن أمر بأن تؤخذ الوثائق التي تتعلق بموضوع تسليم المدينة عندما ذهبوا إلى هناك ؛ لكي ترسل إلى الملك في هذه المملكة ، وأشياء أخرى لكي يخفي غضبه الذي ملأ جوانحه .

في ظل تقليله من شأن المساعدة الضئيلة التي تلقاها من جانبهم ، فإنه لم يتوقف عن الاستمرار في إحكام الحصار ، بحيث شدد على ألا تصل أية مساعدات للمدينة ، وبعض مضي عدة أيام على رحيل القادة كان قد حدث أن أمر للقائدين اللذين آثرا البقاء بوقفهما عن مزاولة أعمالهما ؛ لأنه لما أحس بالإهانة التي ألحقت به من قبل الآخرين لم يعد قادراً على تحمل أية إهانات أخرى .

كان أولى الأمور التي لها علاقتها بالمدعو "جواو دا نوفا" ، هي أوامر "أفونسو دي البوكيرك" له بمرافقة "فرانسيسكو دي تابورا" والذهاب ليلاً إلى البر الرئيس في الجانب الفارسي لجلب المياه من مكان يعرف باسم "نايباند" .

عندما حانت ساعة مغادرتهم لم يبد أية رغبة في تنفيذ هذا الأمر ، وتلا ذلك تبادل رسائل كثيرة بين الطرفين ، إلى أن اتجه "افوصو دا البوكيرك" إلى سفينة "جواو دا نوفا" ؛ حيث اكتشف وجود تمرد البحارة الذين أخبروه بأنهم غير ملزمين بالانضمام للأسطول ، سيما وأنه مخصص للإبحار ونقل تجارة التوابل ، وإنهم لا يرغبون في المجازفة بحياتهم بالغرق ؛ وإذا ما أراد القباطنة إنقاذ شحنة التوابل فيه ، فيمكن تفريغه من حمولته ونقلها إلى السفينة التي أتى بها

"أنطونيو دا سالدانها" ، لكنهم أيضاً يريدون إنقاذ أرواحهم ، أضف إلى ذلك أنه ليس في مقدورهم أن يظلوا يجدفون المراكب طيلة اليوم ، ثم العمل في المضخات بشكل مستمر لتفادي غرق السفينة ، وهم يكابدون مشقة الجوع والعطش .

كانت هذه الكلمات وغيرها من الألفاظ التي رد بها البحارة على "أفونسو دي البوكيرك" كافية لإرباك "أفونسو" (سيما وقد كان هؤلاء البحارة على صواب في كثير منها) ، ولذلك حول هذا الرد إلى "جواو دا نوفا" ، معاتباً إياه على هذا الوضع .

أخيراً وبعدما تبادل معهم الحديث وضع يديه على "جواو دا نوفا" كدلالة تنم عن تقليل الشأن ، خاصة وأن الأخير لم يكن من الذين يمكن أن يقال عنهم أنه من طبقة النبلاء ، ومن ثم أُخذ إلى سفينة "أفونسو دي البوكيرك" الذي لم يتأخر كثيراً في إيقافه عن العمل ، وكذلك "فرانسيسكو دي تابورا" بسبب رغبته في الذهاب إلى الهند .

عموماً بعدما خفت حدة هذا الانفعال ، عاد هذان القائدان إلى سفينتهما ، ومن ثم رافقهما إلى جزيرة "قشم" لإنجاز عمل ما ، وتقع جزيرة "قشم" هذه بالقرب من البر الرئيس على مسافة ثلاثة فراسخ من هرمز ، نفصّل هذا الموضوع كالآتي :

من خلال فئة من المسلمين كان "أفونسو دي البوكيرك" قد علم أن المراكب التي يستخدمونها في الإبحار يومياً من البر الرئيس إلى هرمز ، ومن جزيرة البحرين إلى "قشم" ، ينقلون بها الناس والمؤن

الغذائية التي يقومون بتجميعها في منازل الملك في جزيرة "قشم" ، ومن هناك يقومون بنقلها ليلاً إلى هرمز .

لكي يوقف هذا الدعم للجزيرة ، وعلى الرغم من أنهم شاهدوا أسطول المسلمين ، وإن جميع السفن كانت شبيهة بالمراكب وتبحر بشكل سريع مستخدمة الأشرعة والمجاديف ، فقد أفلتت منهم ، ولما كان "أفونسو دي البوكيرك" قد اعتقد أنه ربما يجد في منازل الملك تلك شيئاً من المؤن للمدينة وبعض الغنائم ، فقد أصابه الأسف لأن تلك المراكب سوف تصل بسلام بحمولاتها .

لذلك فقد اتجه براً إلى حيث توجد تلك المنازل ، وهناك وجد أكثر من ثلاثمائة حارس ، ويتضمن هذا العدد الكبير من الحراس حوالي ستين من الخيالة ، وهناك وجد منهم مقاومة عنيفة ، ولما كان "جواو دا نوفا" يتسلق على أحد السلالم تمكنوا من قتل أحد رجاله أمامه ، وأصيب آخر بجروح ، كما أنهم أسقطوه أرضاً بعدما أصابوه بجراح ، وحينها هرع كل من "قوميز تكسييرا" و"جواو تكسييرا" و"نونو فاز دي كاستيلو" وآخرون لنجدته وتحريره من قبضتهم .

في هذا الاشتباك قتل قادة هذه الكتيبة التي تقوم بحراسة هذه المنازل ، وتفرق جمع المسلمين بعدما سيطر رجالنا على الموقف ، وتبين وجود ثمانين من القتلى داخل المنازل ، وبعدما وردت أخبار مماثلة تفيد بقدوم مجموعة تحمل المزيد من المؤن ، اتجه "أفونسو دي البوكيرك" إلى مكان ما في جزيرة "قشم" يعرف باسم "ملوال" ،

وهناك واجه أيضاً مقاومة عنيفة ، إذ كان عدد الأعداء هنا أكثر من خمسمائة من الرماة ، بينما عدد رجاله لا يتجاوز الثمانين محارباً .

كان ملك "لار" قد أرسل تلك المجموعة من المسلمين بهدف تقديم الدعم والمساعدة إلى هرمز ، وكان اثنان من أبناء أخوته يتوليان قيادة هذه المجموعة ، وكانا قد دافعا عن المكان بشراسة حتّى قتلا مع مجموعة كبيرة من رجالهما ، ونظراً لأنهما من علية القوم ، فقد أمر "أفونسو دي البوكيرك" بوضع جثتيهما في مركب برفقة أحد رجال الدين المسنين وقد كلفه بتسليم رسالة إلى "خواجا عطّار" يقول فيها :

"إنه يرسل له المدافعين الذي قدموا لنجدته ، وإن رجل الدين هذا سوف يخبره كيف لقي هذان القائدان مصيرهما ، وكيف قتلا مثلما قتل رجالهما" .

عندما تم حرق المكان ، كانت أثمن غنيمة هي سجادة المسجد التي بسبب كبر حجمها تغطي مساحة المسجد بالكامل ، حيث عجز أربعة من الرجال على تحريكها ، ولما كانت جاهزة مع الغنائم لنقلها مع بقية الغنائم وصل "أفونسو دي البوكيرك" حيث اشتراها لنفسه ، ومن ثم قام مؤخراً بإرسالها إلى سانتياغو لكي توضع في منزله ، بحكم أنه فارس في تلك الإخوانية محتفظاً بها كتذكار لذلك النصر .

عندما رأى "أفونسو دي البوكيرك" رجاله منهكين جراء مشقة الأعمال التي يقومون بها ليل نهار في تلك المهام ، بالإضافة إلى تجوالهم المستمر في كل مناطق الجزيرة ، وكذلك عجز سفينة "جواو

دا نوفا" "فلور دي لامار" عن الطفو بسبب كميات المياه الضخمة التي تسربت إلى داخلها ، قرر أن يذهب إلى "سوقطرة" لقضاء موسم الشتاء ، خاصة وقد اقترب الموسم .

بالتالي كان قد سمح بذهاب "جواو دا نوفا" إلى الهند ، لكي تتم صيانة سفينته لكي تكون جاهزة لتحميلها بالبضائع ، والمجيء إلى هذه المملكة ؛ وبالمثل "جورج باريتو دي كاسترو" و"قاسبار دياز" بصفته حامل لوائه بسبب فقدانه يده عند دخوله السفينة "ميري" .

في بداية شهر مارس غادروا هرمز متجهين مباشرة إلى مسقط وبما أن "جواو دي نوفا" قد حاز على سماح "أفونسو دي البوكيرك" عندما أراد وداعه فإنه لم ينتظر كثيراً هذا الوداع ، وبالتالي غادر ليلاً ووصل بسلام بفضل الرب وعنايته ، أيضاً وصل "أفونسو دي البوكيرك" إلى "سوقطرة" .

بسبب الوقت الذي قضاه في أداء تلك المهام في تلك الجزيرة ، أيضاً وقعت أحداث أخرى في كل من القاهرة والهند ، حيث كان هناك أسطولان يعود تاريخ صنعهما إلى عامـي ١٥٠٧م و١٥٠٨م قد أبحرا من هذه المملكة إلى تلك المناطق ، وســوف تقدم تقريراً عن تلك الأحداث في الفصل القادم ، حسب حدوثها .

## وفي العام نفسه (١٥٠٧م)

## دوّنت شروط معاهدة السلام التي أبرمها "أفونسو دي البوكيرك" "Afonso de Albuquerque" مع ملك هرمز[أ] ، سبتمبر عام ١٥٠٧م : [٦]

---

(أ) مادة : الاتفاقية الأولى والعقد الذي أبرمه "أفونسو دي البوكيرك" في مدينة هرمز مع الملك "تروشا" ورئيس وزرائه ريس نور الدين ، لم أجده في دفاتر السجلات في المحطة التجارية المذكورة ، وقد أفدت أنا فقط وأكد لي أن "أفونسو دي البوكيرك" المذكور ، والذي أبرم الاتفاقية مع الملك المذكور ورئيس وزرائه ونبلاء البلاد ، بأن يسلمه عن الملك "دوم مانويل" ، سيدنا ، مملكة هرمز ، حتّى ومن خلاله أو من خلال الحكام للملكة المذكورة ما يطلب منه من تلقاء نفسه ، المنصوص عليه من ضريبة وجزية قدرها خمسة عشر ألف "أشرفي" عند حلول كل عام من النفقات التي صرفت في المدينة المذكورة .
مادة : علمت بالمثل ، من خلال معلومات معينة من أشخاص يعلمون بذلك جيداً ، إنه ومنذ أن أبرم "أفونسو دي البوكيرك" العقد المذكور الذي ورد ذكره ، انقضت خمس سنوات ، ذهب إلى مدينة هرمز المذكورة "انطونيو دي سالدانها" كقائد أول للأسطول ، واتفق مع الملك المذكور "تروشا" أنه وعلى أساس الصداقة التي يشعر بها سيدنا الملك تجاهه ، وبسبب النفقات العديدة التي تحملتها الأساطيل الكبيرة التي قادها "السنيور إلى تلك الأنحاء ، فإن على الملك المذكور "تروشا" أن يدفع مبلغاً إضافياً قدره عشرة آلاف "أشرفي" كل عام بجانب مبلغ الخمسة عشر ألفاً التي كان يدفعها في السابق ، ويصل المبلغ بذلك إلى خمسة وعشرين ألف "أشرفي" . وقد وافق الملك على كلٍ ذلك ، وأقر بأدائها كجزية للملك سيدنا "دوم مانويل" ، الذي كان يحكم في ذلك الوقت ، وكانت تجمع دائماً في : وثائق بيت الهند ، بواسطة "سيماو بوتلهو" ، ص ٧٠ .

---

(٦) رقم الوثيقة والهامش.

أن يستعيد ملك هرمز من يدي القائد المسؤول المملكة والسيادة على هرمز ، والتي كان القائد المسؤول قد نزعها منه بقوة السلاح .

أن يجعل من نفسه تابعاً لملك البرتغال ، وذلك بأداء ، من الآن فصاعداً ، كجزية سنوية مقدارها عشرون ألف أشرفي ، بقيمة لكل أشرفي تعادل قيمة "كروزادو" واحد .

عن المصروفات التي كلفتها تلك الحرب ، وبالمثل أن يؤدي أجور الرجال الذين جاء بهم القائد المسؤول ، على ملك هرمز أن يؤدي له في الحال خمسة آلاف "أشرفي" لكل "أشرفي" ، نفس القيمة كالأخرى .

أن على ملك هرمز منح موقع خارج المدينة ، بناء على اختيار القائد الأول ، لتشييد قلعة ومحطة تجارية تخزن فيها البضائع .

في خلال مرحلة تشييد القلعة على الملك أن يسمح ، وعلى نفقته ببناء بعض المنازل على أفضل ما يكون بالقرب من موقع القلعة ، بحيث يكون من ضمنها المحطة التجارية .

مع كل ذلك تم إعداد مرسومين ، أحدهما باللغة الفارسية ليبقى مع القائد المسؤول ، والآخر باللغة العربية يرسل إلى ملك البرتغال .

وقد كتبت ذلك على صفيحة من الذهب بحجم صفحة من الورق ، كانت الحروف محفورة عليها في شكل نقاط وضعت في وعاء فضي على شكل كتاب ، تغلق بثلاث مشابك .

قد وقع على المرسومين بواسطة الملك و"كوجيتار" وريس

نورالدين ، وعلى كل منها ختم ناتئ ، الجزء في المنتصف كان من الذهب ، وكان هذا ختم الملك مع حافتين من الفضة ، الذي في الناحية اليمنى كان "لكوجيتار" والذي على الجانب الأيسر لريس نورالدين .

المرسوم الذي باللغة الفارسية كتب على ورقة بحروف من ذهب ونقاط زرقاء ، وهذا الصك أيضاً غلف داخل علبة مصنوعة من الفضة ، عليها نفس الأختام كالمرسوم السابق(أ) .

(أ) حاشية : كتبت رسالتان عن هذه الاتفاقية ، إحداها على شريحة من الذهب بحجم الورقة صنعت بمثل صفحات الكتاب وكتبت بالعربية بحروف محفورة مع مشابك من الذهب بثلاثة أختام تنفصل عنها بسلاسل ؛ أي أحدها للملك ، والآخر "لكوجيتور" الحاكم ، والثالث ختم المدينة .

كانت رغبة الملك أن يكتب الرسالة الأخرى باللغة الفارسية ، وهي اللغة المحلية المتداولة في البلاد ، وقد كتبت على ورقة بحروف من ذهب ونقاط زرقاء ، وقد بعثت الرسالتان من قبل "أفونسو دي البوكيرك" موضوعين على صناديق فضية إلى الملك "دوم مانويل" ، والتي يجب أن تكون ضمن (Torre do Tombo) (ما لم بسبب الإهمال أن تكون وثيقة أثرية كهذه سمح بضياعها ، وهي جديرة بأن تذكر دائماً) .

تحت نفس الشروط قدم "أفونسو دي البوكيرك" صكاً آخر إلى ملك هرمز ، وقد أعده "جواو جاستاو" محامي الأسطول ، بمقتضى السلطات التي منحها له الملك ، "دوم مانويل" ، في رسالته التي وقع عليها وختمها بختم الملك . (أنظر : "دوم أفونسو البوكيرك" ، الجزء الأول ، الفصل ٣٦) .

## وفي العام نفسه (١٥٠٧م)

## تمت اتفاقية السلام بين "أفونسو دي البوكيرك" "Afonso de Albuquerque" وخواجا العطّار ، هرمز ، في العاشر من شهر أكتوبر عام ١٥٠٧م : (٧)

الترجمة ظهرت في : "كاستانهيدا" "Castanheda" ، التاريخ ، الجزء الأول والثاني ، ص ٣٤٩-٣٥٠ ، ملاحظة في دفتر العلاقات :

معاهدة سلام بين "أفونسو دي البوكيرك" و"خواجا عطّار" . إن أبيات "كامويس" التالية يرجع أصلها إلى كتاب (تاريخ) "فيرناو لوبيز دي كاستانهيدا" ، (الكتاب الثاني صفحة ٣٥٠) ، والذي يشير إلى "المعجزة" التي ظهرت خلال الاستيلاء على هرمز عام أكتوبر ١٥٠٧م ، وفي أثناء القيام بتلك الاتفاقات في اليوم الثالث بعد المعركة شاء إلهنا بأن تحدث المعجزة التي أعددناها في تلك

(٧) رقم الوثيقة والهامش.

المعركة ، قد بدأ ظهور العديد من جثث المسلمين على سطح البحر ، وكان بها عدة طعنات من السهام .

عندما علم القائد بذلك دهش وأمر بأن يتم انتشال عدد من الجثث إلى سطح السفينة ، وقد علم بعد ذلك أنها لأولئك المسلمين ، كانت السهام كالتي يرميها المسلمون في المعركة .

كان يبكي من الفرح ، وأخبرهم أنهم خلال كل ذلك سوف يعرفون عن المعجزة التي حققها لشعبنا وان السهام ذاتها التي رماها المسلمون قد عادت إليهم لتقتلهم ، لذلك يجب أن يشكروه كثيراً وقد قاموا بذلك ، وقد كان القائد أول من ركع على قدميه" .

عندما رفع "البوكويرك" الأعظم
أعلامك بفخر
على شواطئ فارس ، وقد حصل على
النصر من تلك الأمم البعيدة .
إنها قصة رائعة ، كيف أنه
بقدرة الله ، إن السهام
القادمة من الأقواس في هرمز قد عادت
لتطعن صدور من قاموا بإطلاقها .
"كامويس ريماس"

**وفي العام نفسه (١٥٠٧م)**
**حدث اختلاف بين "أفونسو دي البوكيرك" وضباطه ، فرحلوا عنه ، وتمّ التماس وشكوى للمغادرة والرحيل إلى الهند من الضابط "جواو دا نوفا" "Joao da Nova" ، مسقط ، السابع والعشرين من شهر أكتوبر ، عام ١٥٠٧م[٨] : [أ]**

في الثاني عشر من شهر سبتمبر عام ١٥٠٧م ، كان "أفونسو دي البوكيرك" يقوم بمشاورات مع كل الضباط النبلاء في الأسطول ، وهو نبيل من أهل بيت الملك سيدنا ، وهو القائد الأعلى للأسطول ، وهو يقوم بحراسة المضائق في فارس وهرمز ، وقد أعلن لهم أنه يرى

(أ) وجدت هذه الوثيقة بحالة سيئة جداً ، لذلك كان من الضروري استعادة بعض الكلمات . لذلك يجب علينا أن نذكر ان عملية الاستعادة بخصوص الجزءان اللذان قد تم إضافتهما ، وهما الالتماس والشكوى من "جواو دا نوفا" وامر "تريستان دا كونها" ، وهما ليسا حدس؟؟؟ . وجدت نسختان طبق الأصل من تلك الوثائق في "كاديرنو" مصنفة تحت رقم ٥٦ في ماكو رقم ٧ من الجزء الأول من "كوربو كرونولوجيكو" ١٤ و١٦ بالتعاقب .

(٨) رقم الوثيقة والهامش.

من المناسب ومن مصلحة الملك أن يبحر "جواو دا نوفا" مع تلك الناو ومع طاقمه والقائد الأعلى عندما يسمح الطقس بذلك ، إلى هرمز أو "كامباي" حيث يمكن خدمة مصالح الملك على أكمل وجه .

في غضون ذلك ، قام "جواو دا نوفا" ، ضابط "فلور دا لا مار" والذي كان حاضراً في المجلس ، بتقديم التماس وشكوى إلى القائد الأعلى من خلال كاتب الناو المذكور ، يدور مضمونه كما يلي : وبالنسبة للالتماس والشكوى الذي قمت أنا ، "جواو دا نوفا" ، ضابط "ذلن الناو" و"فرول دا لا مار"[أ] ، بتقديمه إلى عظيم القدر "سينهو أفونسو دي البوكيرك" ، القائد الأعلى لذلك الأسطول ، سوف تقوم بإعطائي أنت .

كاتب هذا "الناو" ، سند رسمي أو عدة سندات إذا لزم الأمر ، إلى الملك أو نائب ملك الهند ، وفارس والمنطقة العربية ، حيث نحن موجودون الآن ؛ لأنه في حقيقة الأمر أن الطريق من "موزمبيق" إلى الهند مع "تريستان دا كونها" قائد الأسطول ، كنت سوف أخذ "فلور دا لا مار" المذكور إلى نائب الملك السالف ذكره .

عندما وصلت مع القائد "تريستان دا كونها" في جزيرة سوقطرة ، طلب "افونسو دي البوكيرك" من القائد في عدة مناسبات بأن تبقى "فرول دي لا مار" والتي كنا نسافر بها ، في الخلف مع الأسطول الذي كان يبحر معه .

---

(أ) "فلور دي لا مار" . ملاحظة المترجم : في تلك الوثيقة يتم عرض الكلمات المتكررة أو المقطع بخط مائل ، مما يوحي أنها مفقودة في النسخة الأصلية . وأحياناً تظهر علامة (؟) او كلمة (Sic) بعد كل كلمة . ولم يكن من الممكن دمج هذا مع الترجمة .

لم يرغب "ترسيتان داكونها" بالقيام بذلك ، وادعى أن الملك في تعليماته حرم عليه أن يترك لـ "أفونسو دي البوكيرك" بعد الآن أي من السفن التي جاءت معه وأمر بأن تبحر في البحر الأحمر . بالإضافة إلى ذلك ، فإنه منذ أن حرم الملك عليه القيام بذلك ، لم يكن لديه أي هدف في ترك أي شيء لـ "أفونسو دي البوكيرك" ؛ لأنه في نفس الجزء في تلك التعليمات ، قال الملك أنه يريده أن يذهب إلى الهند مع باقي الأسطول ؛ لان نائب الملك أراد كل الأسطول لإكمال كل ما أمر القيام به .

لاحقاً عند مغادرة "سينهور تريستان دا كونها" إلى الهند في السابع والعشرين من شهر يوليو اللاحق ، توسل "أفونسو دي البوكيرك" والتمس بأن يعيرها القائد لمدة شهر ، بما أن "تريستان دا كونها" لم يرد أن يغادر الناو معه كي يصطحبه إلى "ديو" وإلى ساحل "كامباي" ، حيث كان يرسله الملك للمراقبة والتجارة والحفاظ على السلام .

بينما كان ذلك في طريقه ، ولم يتدخل في رحلة الناو إلى الهند ، قام "أفونسو دي البوكيرك" بالتوسل إلى "تريستان دا كونها" كنوع من الفضل ، حيث إن نائب الملك لم يكن في حاجة "النوا" ، كي يسمح له في الذهاب معه بها ، وبالتالي لن يضيع الوقت مني في رحلتي .

عندما أدرك "تريستان دا كونها" أن الوقت لن يضيع مع سفينة "نوا" ، أعطى الأمر لي للإبحار مع "أفونسو دي البوكيرك" بامتداد الساحل إلى

"ديو" و "كامباي" حتّى الوقت الذي أرى أنه يمكن أن يصل فيه "تريستان دا كونها" إلى الهند ، وقد يحتاج فيها نائب الملك السفينة .

بما أن "أفونسو دي البوكيرك" لم يكن لديه أية مؤن للأسطول ، فقد كان مضطراً لتجميعهم على ساحل هرمز ، وقد وصلت معه لأساعد في تجميع تلك المؤن وكي أخدمه هو والملك ، وهو الآن في ميناء مسقط ، ويوجد معه مؤن تكفي لعامين ، وقد أراد الذهاب إلى هرمز من هنا ، وقد أراد ن يأخذني معه ، إذا ذهبت إلى هناك ، لن أتمكن من أن أكون في الهند في الوقت الذي أمرني فيه القائد "تريستان دا كونها" ، ولن أتمكن من أن أكون هناك في خدمة سموه نائب الملك ، والذي أكون خاضعاً له ومرتبطاً به .

لذلك ، طلبت من "أفونسو دي البوكيرك" ، باسم الملك ونائب الملك ، كي يمنحني الإذن بالمغادرة من هنا إلى الهند ، كي أكون هناك في الوقت المناسب لخدمة الملك ونائب الملك ، والذي جئت تحت أمره ولا زلت .

سيدي ، عندما لم يرد أن يمنحني الإذن المذكور ، وقد اعترضت أن سموه ، نائب الملك ، قد أمره بالقيام بذلك ، وسوف يعتبر مسؤولاً عن أي خسارة أو ضرر أو أذى لسيدنا الملك .

لن أقول أكثر من ذلك ، لأن "فينويل كونتينهو" ، الذي كان مسافراً مع "تريستان دا كونها" ، قال إنه في "مقاديشيو" أخبره أحد ربابنة الناو الذي جاء من الهند أن ألفي مسلم قد توفوا في "جانانو" ،

وهو شيء من المستحيل تنفيذه بدون خسارة كبيرة لأسطولنا الذي يقوم بالحراسة هناك ، ومن دون أن تكون الهند مستعدة للقتال .

لذلك ، فانه بسبب كل تلك الأسباب ، فأنا أقوم بذلك الالتماس ، ومع أو بدون جوابه ، فقد كتبت أنك سوف تقوم بإعطائي الوثيقة المذكورة ، وأكثر من ذلك إذا لزمت الحاجة ، لذلك ، يجب عليك أن تضع هنا نسخة من طلب ترك "تريستان دا كونها" لي .

أنا احتج أيضاً لأن كل الخسارة والضرر الذي حل بممتلكاتي وسمعتي قد نتج عن ذلك . كتب بواسطتي ، يوم السبت الحادي عشر من شهر سبتمبر عام ١٥٠٧م .

أنا "تريستان دا كونها" ، عضو في مجلس الملك ، وقائد أسطوله ، آمرك "جواو دا نوفا" أحد نبلاء أهل بيت الملك والذي وصل الآن كضابط مع "فرول دي لا مار" ، آمرك بأن تصطحب "أفونسو دي البوكيرك" قائد الأسطول المستقر هنا حالياً .

إنه ذاهب إلى "ديو" و"كامباي" وبامتداد الساحل ، ذلك للقيام بعدة أمور في خدمة الملك ، سوف تحترمه وتقوم بكل ما يأمر به كقائد لك ، لذلك سوف تبحر معه إلى أن ترى أنه لديك وقت للذهاب إلى الهند ، وسوف تأخذني معك .

عندما ترى أنها اللحظة المناسبة للمغادرة إلى الهند ، سوف تغادر مع البضائع التي أعطاك إياها كي تحملها على تلك السفن ، ولأن

ذلك من مصلحة الملك ، فانا آمرك باسم جلالته أن تقوم بما ذكر سابقاً . كتب بواسطتي "اندري رودريجاز" كاتب الأسطول المذكور ، في الواحد والعشرين من شهر يوليو عام ١٥٠٧م .

هذا أمر "تريستان دا كونها" ، رد "أفونسو دي البوكيرك" ، قائد هذا الأسطول على التماس "جواو دا نوفا" ضده ، ونصه هو كالتالي :

لدى "سينهور دا كونها" طلب دقيق لتقديم هذا الالتماس إذا أراد ذلك ، كوني قائد الملك وأتصرف باسمه ، فأنا لديّ كل الحق إذا كان ذلك يخدم مصلحته كي أسيطر على أي "ناو" تصل إلى ذلك الميناء ، خاصة التي يقوم "تريستان دا كونها" بتسليمها مع تسعين رجلاً ، ليشكلوا الأربعمائة الذين أمر الملك بتركهم .

إلّا أنه يحق لي فقط أن أحصل على تلك السفينة ؛ كي يمكن للملك ونائب الملك الذي يمثله في تلك المنطقة والذي أتصرف أنا تحت سلطته ، أن يكونوا مدركين للمضائق والمشكلة التي تركني بها "تريستان دا كونها" ، أنا أؤكد أنه عندما غادر "تريستان دا كوناها" أرسلت "جوا نيستاو" كاتب الأسطول تحت القسم الذي أخذ على الإنجيل ، كي يتأكد إذا كانت سفن الأسطول لديها خبز أو خمر أو دقيق .

لقد تم سؤال أيضاً رئيس التموين البحري تحت القسم إذا ما كانوا يخبئون أي من تلك المواد الغذائية ، وقد وجد أنه لا يوجد ما يمكن أكله في سفن الناو أو حتّى في "فرول دي لا مار" ، وأن القلعة سقرطة ، والتي تقع تحت مسؤوليتي ، قد كانت أيضاً في حاجة شديدة .

عندما وجدت نفسي في ذلك المأزق ، وكان الأسطول بدون مؤونة ، وبها مائة وعشرون رجلاً مريضاً لا يوجد لديهم ما يأكلوه ، بالإضافة إلى ذلك كان هناك مائة رجل قد أمرني الملك بأن أتركهم ، كان من واجبي أن أمنع خسارة الأسطول والحصن عن طريق تغيير خططي ، وترك طريق "كامباي" والذهاب للبحث عن المؤن في مضائق هرمز . أن تموت كالرجال أفضل من أن تهيم موتاً من الجوع حتّى أن تهلك مع سفننا .

طلبت من الضباط عقد اجتماع ، وقد أعجبهم ذلك الاقتراح ، وأمرت بعد ذلك أن يتم تقسيم كمية قليلة من الخبز كانت لا تزال لدي بين الجميع ؛ لأني أردت أن أجرب الحرمان ذاته الذي يعانيه أصحاب الطبقات المنخفضة .

إن الله منحنا تلك الرياح المبشرة وذلك التقدم ، حيث اكتشفنا أراضي جديدة واستولينا على أماكن من المسلمين ، وقتلنا العديد منهم وحرقنا العديد من سفنهم والكثير من ممتلكاتهم ، وقد أحضرنا مؤن إلى سفن ناو وقلعة سقرطة ، حيث أوصانا ملكنا بالهبوط .

كان "سنهور جواو دا نوفا" على وشك أن يقوم ببعض الأشياء أو أن يتخذ قراراً حيال وقت مغادرته ، وعندما رآني بعيداً عن هرمز ، كان ذلك حدث مدهش للغاية لدرجة أنه أسر إلهنا ليتغاضى عن ذنوبنا ، وأن يجعل من الممكن لنا تقديم الجزية وطاعة الحاكم لملكنا . في كل الأحداث ، لم ترد سفينة "فرول دي لا مار" من أخذ المؤن التي يمكنها نقلها بسهولة .

عندما رأيت ما يحدث أخذت على الفور كل من طاقمها وطاقمي لحمل مؤن الأرز والتمر والزيت وبراميل الأسماك وأشياء أخرى صغيرة ، لقد قمت بذلك بنفسي كي أتجنب إعطاء أوامر غير مستساغة إلى "جواو دا نوفا" ، وأن أعامله باهتمام شديد وكياسة ، كما سيؤكد ذلك ، وهذا هو ما سار عليه الأمر .

لقد فضّل أن ينشر إشاعات خبيثة ، وقام بترتيبات للرحيل ، وقد دعمه طاقم سفينة الناو الخاصة به .

إلّا أنه في الأمور التي تخص خدمة الملك بشكل قريب ، ليس من المناسب إخفاء كل شيء ، بل جعل الأشياء واضحة بشكل موسع ، لذلك أمرت الضباط بأن يجتمعوا ، وأن يطلبوا النصيحة للتأكد إذا ما كانت الناو والطاقم سوف يختارون الذهاب معي إلى هرمز ، وقد قالوا جميعاً أنه يجب عليّ أن آخذ عشرين سفينة إذا كانوا معي هناك[أ] لذلك قمت بأخذ الناو وقمت بتسليم الوثيقة الخاصة بسجنه إلى "جواو دا نوفا" ، قائلاً أن يجب عليه أن يتبع طريقي .

لقد قام بتسليمها مرة أخرى لي موقعة ببصمته ، ولقد أمرت ضباط الناو وربان السفينة والمرشد البحري والكاتب بأن يقوموا بالشيء ذاته . بعد استلام تلك الكلمات والنصائح ، قال "سنهور

---

(أ) قال له الضباط : بما أن نية "البوكيرك" كانت الذهاب إلى هرمز لتدمير كافة الأماكن في الطريق كيلا يجعلوا أنفسهم خاضعين لملك البرتغال ويجب أن تكون العشرون "ناو" التي لديه هناك أن تقوم بذلك معه . إن "فلور دي لا مار" لم تشارك في ذلك . (تعليقات "دو جران أفونسو دي البوكيرك" الجزء الأول ، الفصل ٢٧) .

جواو دا نوفا" بعض الأشياء الوقحة لي ، وقد تحملتهم بسببه ؛ لأنه قد قام أيضاً بخدمة الملك بشكل جيد جداً عندما كان برفقتي ، والذي يجب تحمل كل شيء من أجله ، لا يوجد أي شك ، عندما أقول : "إنني استلمت" ؛ لأن ذلك قد حدث بالفعل .

أنا "جواو نيستاو" ، أحد نبلاء أهل بيت السيد المذكور ، وأنا كاتب الأسطول ، قد قمت بكتابة تلك الوثيقة وهذا الرد من أجل القائد . كتبت في السابع والعشرين من أكتوبر عام ١٥٠٧م . "جواو نيستاو" .

أمر القائد بأن تؤخذ تلك الوثيقة إلى سيدنا الملك ؛ لأن "جواو دا نوفا" لم يرد استردادها

(في الخلف) إلى سيدنا الملك .

**وفي العام نفسه (١٥٠٧م)**

**بعث "أفونسو دي البوكيرك" "Afonso de Albuquerque" برسالة من هرمز إلى "دون فرانسيسكو دي الميدا" "Don Fransisco De Almeida" ، نهاية أكتوبر - بداية نوفمبر عام ١٥٠٧م ، يبرر تصرفاته بعد أن كثرت عليه الانتقادات :[٩]**

موجز عن فحوى الخطاب البرتغالي الجديد المكتوب من الهند من قبل "ألفونسو دي البورتو جيتو أفونسو دي البوكيرك" ، قائد الأسطول الحربي البحري التابع لملك البرتغال . لقد كان موجه في البداية إلى نائب ملك الهند ، الذي يمثل جلالته في ذلك المكان . لقد وصلت في منطقة "تشولكونار" في الهند .

قد غادرت مع الأسطول الحربي إلى مضيق هرمز ، وقد منحني

(٩) رقم الوثيقة والهامش.

الله ذلك النصر الخارق على أعدائنا ، ويبدو أن تلك المؤن والغنيمة الفخمة تعود إلى معجزة إلهية وليس إلى قوتنا .

لم تكن تلك الأحداث مثل التي كانت مرسومة على الجدران المزخرفة أو على الرسومات ، ولكنها حدثت بفعل معجزة إلهية وبقدرة إلهنا وليس بفعل أي شيء آخر ، وقد حدثت على أرض يابسة ، وكان هناك العديد من الرجال على أرجلهم وممتطين للخيول ، وكان معهم رماح في أيديهم ودروع على صدورهم .

لقد تم أخذ العديد من القلاع الكبيرة والقوية جداً وكذلك البلدات والمدن ، وذلك من خلال قتالنا وبقوة أسلحتنا ، وقد قمنا بمعارك مع كل أعدائنا في كل المدن المذكورة ، أحياناً لمدة ثلاثة أيام ، وأحياناً لمدة ستة أو ثمانية أيام ، أينما كان لدي الشجاعة للقيام بذلك . لقد قمنا بأخذ كل المؤن والبضائع التي كانت في تلك الأماكن ، وقد قمنا بقتل كل شيء حي .

قد استمريت حتّى مملكة هرمز وربحت كل تلك القصور ، والبلدات والقلاع ، حتّى وصلت إلى المدينة المرجوة والمذكورة هرمز ، وهي في غاية الجمال ، والتي كان ينتظرني الملك بها ، ومعه مئتا سفينة "الغليون" الشرعية ، وعدد مطلق من الرجال والمدفعيات ، وكذلك مائة وخمسون سفينة مسلحة ، وكان من ضمنهم سفينة تابعة لملك "جانبازي" وبها حوالي ألف وستمائة "بوتي" (برميل ، وهو وحدة لقياس الحجم) ، وقد كانت تحمل آلاف من الرجال المقاتلين .

على عكس السفن الأخرى ، فقد أراد عدد كبير من طاقم وسلاح مدفعية السفينة ، الذين قد أحضرتهم على متن السفينة ، أرادوا القيام بالسلام معهم ، وخاصة مع كافة المواطنين المسلحين الذين اجتمعوا عند الميناء ؛ لأننا اعتقدنا أنه ما لم يكن الله في عوننا من خلال معجزة ، فلن نكن قادرين على مواجهة مثل ذلك الجيش الكبير والقوة البحرية .

قد أحاطوني فجأة بسفن "الغليون" ، عندما رأيت ذلك ، أمرت سفننا التي تحمل المراكب الشراعية بأن ترفع الشراع ، وقلت لهم بأن يذهبوا باتجاه سفن الأعداء ، ولقد رسوت بالقرب من سفينة ملك "جانبازي" ، وظللت في ذلك الموقع حتّى منتصف اليوم بانتظار أي رد يمكن أن يأتي من أي جهة يمكن أن يأتوا منها ضدي ؛ لأنهم قد أحاطوني حتّى يكونوا في أنسب موقع .

عندما لاحظت أنني قد حوصرت من قبل قوى العدو (وأنه لم يأت أي رد من المدينة) ، والذين كانوا يلوحون بسيوفهم مهددين ، وكانوا مسلحين بالدروع وغيرها من الأسلحة ، وكانوا يصدرون أصواتاً بالأبواق والطبول ، محدثين ضجة كبيرة مع الصرخات العالية كي يخيفوني والآخرين ، بطريقة فظيعة لدرجة أنه عندما أردنا التواصل بين سفننا لم نستطع سماع بعضنا البعض بسبب الضجة التي كانوا يحدثونها .

عندما أدركت ذلك ، لم أرد الانتظار أكثر من ذلك أو أن استمر

في تحمل محاولات العدو لإخافتنا أو إرهابنا بتصرفاتهم ؛ لأنه بدا لي أن الوقت قد حان لإيقاف التظاهر والبدء في القتال ، وقد منحنا أنفسنا جميعاً لسيدنا عيسى المسيح وإلى الحواري "سانت جيمس" في "جليقيا" ، وأخذنا عهد بأن نموت كفرسان ، قدّرنا عدد الرجال على سفن العدو ووصل إلى ثلاثين ألفاً .

بعد المرور بالمقدمات المذكورة سابقاً ، ولم يكن هناك بديل سوى القتال ، أمرت بأن تبدأ المعركة ، وكانت البداية عن طريق تنبيه كافة ضباط سفننا بقراري ، وأمر كل واحد بما عليه القيام به بمجرد أن يدخل في المناوشات في المعركة مع الأسطول الحربي للعدو ، وبمجرد أن رأيت كل رجالنا مسلحين وفي مواقعهم ، أمرت سفننا بإطلاق المدافع الكبيرة ، وقد قاموا بذلك .

قد أغرقت الطلقات الأولى سفينتين مع عدد كبير من الرجال ، وقد كانوا مسلحين جيداً ومنظمين بشكل جيد ، وكانوا مجهزين بشكل أنيق ، وكانت سيوفهم مزينة بالفضة وكانت أسلحتهم تلمع . انطلقت تلك السفن إلى الأمام ، كما قام معظم الرجال ، وظل الباقون على السطح .

كانت هناك معركة كبيرة بين سفن الأعداء وسفن "الغليون" وبين سفننا ، التي قد أحاطتهم ، واستمرت من منتصف النهار حتّى الليل ، عندما حل الليل ، أشرت إلى السفن وقد أسقط بنفسي سطح سفينة ملك "جانبازي" ، وكانت المعركة بين سفني

وسفنه شرسة جداً لدرجة أنهم في النهاية لم يقدروا على الاستمرار ، وألقى جميع الرجال داخل السفن بأنفسهم إلى البحر ، وقد حارب ضباط السفن الأخرى الذين كانوا برفقتي بشكل جيد جداً ذلك اليوم لدرجة أن جميع سفننا قد دمرت وأهلكت السفن و"الغليون" التي اشتبكت معها في المعركة .

قد شارك الملك بنفسه في المعركة . "كويتشاتار" "Kuitchatar" ، الذي كان وصي عرش وحاكم تلك الأرض ، (لأن الملك الذي كان يحكم تلك الأرض كان صبي عمره اثنا عشر عاماً) ، وقد بدأ "كويتشاتار" والملك الموجودين في سفينة "غلياس" الحربية بمهاجمة سفن "الغليون" وبأن يعترضوا طريقهم ، وقاموا بإرجاع بعض الرجال .

قد جاؤوا بين سفن القادس الخاصة بنا ، ولأن عدداً كبيراً من رجالهم قاموا بإلقاء أنفسهم في البحر (وقد كان ذلك شيء مرعب) ، ولأن رجالنا الموجودين في المراكب الشراعية قد قاموا بقتل عدد كبير في الماء ، وقد غرق عدد كبير بسبب وزن الدروع التي كانوا يرتدونها ، في الحقيقة كان من بيننا رجال قاموا بقتل ثمانية مسلمين في البحر ذلك اليوم .

لقد تم مهاجمة بعض سفنهم ، التي قد ظلت على الشاطئ ، وذلك من قبل الرجال الذين كانوا على سطح مراكبنا الشراعية ، وقد ألقى طاقمهم بأنفسهم إلى البحر وغرقوا ، وقد قتل البعض منهم بسبب ضربات رماح رجالنا ، والذين قد قتلوهم أيضاً في البحر ،

وبذلك هرب البقية ، وبالنسبة للغليون التي كانت تحمل حاكم المملكة ، عندما كانت بالقرب من البحر ، ألقى رجالها بأنفسهم من على متنها ، وتركوا العديد من الأسلحة ، والسيوف المرصعة بالفضة والعديد من الأشياء الثمينة التي يأخذونها للحرب .

كان على متنها العديد من النبلاء ، وقد هرب بعضهم بشكل مدهش ، ومن بينهم "كويتشاتار" الحاكم ، وبالرغم من أننا قد هزمنا ذلك الأسطول الحربي ، فقد تبعنا بعض سفن "الغليون" التي كانت تهرب للوصول إلى البر الرئيس ، وقد أخذنا ثلاثين واحدة منها ، وقتلنا عدداً كبيراً من الرجال ، وأشعلنا النيران في سفن "الغليون" ، وتركناها تنجرف مشتعلة في البحر .

قد قررنا الهبوط وإشعال كل المنطقة الساحلية ، وقد أشعلنا النيران في أكثر من مائة وثلاثين سفينة ، والذين كانوا في حوض جاف ومن ثم مخزن الأسلحة على اليابسة ، وبعد أن عدت إلى سفينتي ، أرسلت رجال لنزع سلاح العديد من سفن المسلمين وقاموا بإشعالهم ، وبالتالي انجرفت بعيد عن سفننا ، وابتعدت محترقة في البحر .

لكن السفن قد أعادتها بين سفننا ، ولم يكن أمامي خيار سوى إغراقها ، قتها قام سكان المدينة برفع علم على سارية فوق منزل الملك وأرسلوا لي "الالماديا" ، وهو قارب كبير ، وبه أهم مواطنين في المدينة ، لكنني قد ذهبت بالقارب لتوجيه قصف منطقة الرسو في المدينة ،

وأسقط كل الرجال الواقفين هناك ، ومع نية دخول المدينة في اليوم التالي مع العدد القليل من رجالي ، وأن أضع مرة أخرى ثقتي في نعم الله وفي عملية انتصارنا ؛ لأنني أردت أن أربح مرة أخرى ، بالرغم من أننا لم نكن أقوياء كفاية للنجاح في مثل تلك المغامرة .

لكنني لا أريد أن أنسى المعجزة العظيمة التي حققها الله في ذلك المكان ، والتي شهدها عد كبير من رجالنا ، وهي أنه بعد ثلاثة أيام من المعركة ، طافت جثث حوالي تسعمائة مسلم أمامنا ، وكان معظمهم مصابين بالسهام في ظهورهم وأرجلهم ، ولم يصبهم أحد من رجالنا ؛ لأنه لم يكن هناك أي نوع من السهام على سفننا .

قد وجدنا العديد من النقود مع تلك الجثث ، وكذلك السيوف المرصعة بالذهب والفضة والمجوهرات ، وكان من بينهم العديد من النبلاء و"الكونتات" والأسياد .

لقد استمرت عملية الانتشال تلك من قواربنا لمدة ثمانية أيام ، وأخذ العديد من رجالنا منها الكثير من الأشياء التي وجدوها مع تلك الجثث ، وقد ترك العدو عشرة أو اثنتي عشر سفينة لنا إذا احتجنا لذلك ، بمعنى آخر سفينة "غليون" لكل واحدة من سفننا .

قد أخبرني رجلان ممن قد جاءا لرؤيتي كما ذكرت سابقاً ، أن الملك و"كويتشاتار" أرادو الاستسلام لي الآن ، وقد ربحت المدينة وبلدات مملكة هرمز ، وقد أراد الله أن يمنحني الآن المدينة وأنني إن أردت أن آخذها بسلام كان عليَّ أن أعطي حكومة المملكة لأي

شخص أريد ، قد يستغرق الرد الذي أعطيته إياه وقت طويل كي أقوله ، وقد أتركه إلى وقت لاحق ، وسوف أكتبه بتفصيل أكثر عندما يكون لدي وقت أكثر كي أحكي ما حدث .

أما الآن ، فأريد أن أقدم لك نصيحة عما تبدو الأشياء لي ، أنا لا أعرف إذا ما كانوا سوف يأتون إلى إشعار جلالتك بطريقة أخرى ، وقد طلبت من الرسل فقط تسعة رجال من بين قادة المدينة ، وبما أن الجميع قد هرب فقد أرسلوا لي أربعة فقط ، ومعهم بدأت معاهدة سلام بالشروط التالية : بأن تستسلم كل المملكة لي ، وأن آخذ مكتب الحاكم ، وقد تم ذلك .

قد أعدت المملكة إلى الملك نفسه ، وكذلك أعدت منصب الحاكم إلى "كويتشاتار" بعد معرفة أن الملك سوف يحكم تحت اسم سيدنا ملك البرتغال ، وسوف يتولى السلطة إلى أن ينصحه سيدنا الملك بشيء آخر ، سوف يكون من دواعي سروره أن المملكة المذكورة وحكومتها وقتما يأمره جلالته بذلك ولأي شخص أمر به ، وذلك نيابة عن جلالته ، أو وقتما أريته سلطة الملك .

قد ألزمت ملك هرمز بأن يدفع إلى جلالته خمسة عشر ألف "سيراف" ذهبية كل عام كجزية ، على شكل ذهب وفضة ولؤلؤ ، وأن يدفع هذا من عائدات المملكة ، وأن أي شيء يتبقى سيتم استخدامه في دفع الرجال الذين يقومون بحراسة المدينة والمملكة ، ثم سألته بأن يدفع خمسة آلاف من السراف الآن ؛ كي يدفع أجور الرجال

الموجودين في السفن ، بالإضافة إلى إعطائنا منزلاً للوكلاء التجاريين لدى أكثر ملوكنا هدوءاً ، وذلك من أجل تجارتهم وبضائعهم ، وقد طلبت أن تعفى البضائع القادمة من البنغال من الضرائب وألا يدفعوا أي رسوم ، وأن يستثني ذلك مما قاموا بشرائه في الأماكن المذكورة التي يجب أن يدفعوا بها الضرائب وفقاً لجمارك المدينة .

قد قمت بالعديد من الشروط الأخرى والنقاط الهامة ، وقد وافق الملك عليها ، وقد كتبنا وثيقتنا تتضمن البنود المدرجة في الأعلى ، وأحدها عبارة عن ورقة كبيرة مطوية مثل الكتاب ومزينة بشكل رائع من الخارج بنحت دمشقي مزخرف .

كانت الحروف التي كتبت عليها منفذة ببروز رائعة جداً ، وكان بها ثلاثة أختام في النهاية على شكل ثور ، واحدة للملك وواحدة للحاكم وواحدة للمجتمع ، وهي المدينة ، وكانت متصلة بثلاثة سلاسل ذهبية صغيرة .

كان معها أيضاً علبة مجوهرات فضية صغيرة ، حيث يضعون بها تلك الوثائق مع الامتياز الخاص بالوثيقة ، كتبت الوثيقة باللغة العربية ، وكتبت الأخرى بالفارسية على ورقة ملونة بالأوراق اللورد وبحروف من الذهب ، وهي موضوعة أيضاً في علبة مجوهرات فضية أخرى ومختومة بنفس الأختام التي قد وصفتها . أستطيع أن أرسل الوثيقة الذهبية إلى ملك البرتغال مع ثلاثة سفراء ، وخمسة عشر ألف "سيرافا" كجزية وبعض المجوهرات .

أتمنى أيضاً أن أرسل التي سيسافر بها السفراء المحملة بالحرير وسلاسل الخرز مصوغة بعدة أشكال ، وكذلك المسك والطلاء ، واللؤلؤ ذو الأسعار المختلفة ، وكذلك عدة أشياء أخرى صغيرة . يجب ألا أعطي جلالتك تفصيلاً عما أصبحت عليه مدينة "تشالدازار" تحت سيطرة سيدنا الملك ، وقد أعطانا كل المؤن التي نحتاجها بدون دفع .

أن أقدم لك تفصيلاً عن دمار مدينة كوريات ، التي استمرت ثلاثة أيام ضدنا ، حتّى أحرقناها مع السفن التي كانت تنشرها ، وعن المعارك التي كانت مع تلك المدينة ، وكيف أنني قد نهبتها ثم دخلتها ، ولن أكتب عن مدينة "كوار" ، كيف نهبتها هي وقلاعها ، وهي مبنية بشكل جيد وقوي وبها عدد كبير من الأبراج كالتي توجد في مدينة البرتغال ، بالإضافة إلى عدد كبير من الرجال ممتطين للخيول ومرتجلين .

يجب أن أقيم في السفن التي قررت أن أتركها على الشاطئ كي أقوم بالمعركة ، وأخذت المدينة بقوة الأسلحة ، ولم ينتظروا حتّى يتم إحاطتهم ، ولكن أتى الحاكم ليستسلم بنفسه لي وقام بتسليم القلعة ، ثم أرسلت بعد ذلك رجال للاستيلاء على القلعة ورفع أعلام ملكنا على القلعة ، وكان معهم مستشارينا لتحرير الوثائق والمراسم الضرورية .

عدت إلى القلعة إلى الحاكم ورجاله ؛ لأنهم كانوا جنوداً لملك هرمز . حددت قيمة الجزية التي ستدفع من قبل المدينة وسكانها

كأجور لرامي السهام والضباط الذين كانوا يحرسون القلعة ، وقد أرسلت لهم أيضاً أعلام القلعة ، وبالمثل أوكلت لهم مهام أعلام ورايات سيدنا الملك والبروتوكولات والمعاهدات المعنية بطاعة المدينة والقلعة لسيدنا الملك ، وقد تم كل ذلك بجدية شديدة .

يجب ألا أكتب لجلالتك عن كيفية قتالنا لمدينة "مازيجاتو" وكيف اخترقنا الجدران بقوة السلاح ، وقتلنا العديد من الرجال ، وكيف أنني بعد ذلك أقمت لنفسي معقلاً داخل المدينة ، وظللت هناك بالرغم عنهم لمدة ثمانية أيام ، وكانت تلك فترة كافية لتحميل السفن بما يبدو لي أفضل شيء في المدينة .

قد أشعلت أيضاً النيران في كل سفنهم ، وأخذنا الكثير من المدافع الرائعة منهم ، وحرقنا المكان عمداً ؛ لأن كل تلك الأماكن والمدن تحتوي على بيوت مبنية من الأحجار . يجب ألا أكتب لجلالتك عن مدينة "هورفاتشيم" "خورفكان" ، لقد دخلت بقوة السلاح ، وقتلنا العديد من الرجال . أرسلت أحد أبناء عمي ، وهو "دون أنطونيو" ومعه مائة رجل لإيقاف هروب هؤلاء الرجال .

ثم تبعته مع كل ضباطنا ورايتنا ورجالنا . بدأ ابن عمي مناوشات مع العدو ، والذي ضم عدداً كبيراً من الرجال على أرجلهم أو على ظهور الخيول ، وقد هزم الأخيرون بعض رجالي ، ولكن أمسك ابن عمي بالعديد من النساء والقليل من الأطفال والكثير من الممتلكات التابعة لهم ، وقتل أو جرح الكثير من الأشخاص .

قد قتل بعض المسلمين رجال النشابية ، الذين كانوا مع ابن عمي الذي قام بقتل الكثير من خيولهم ، ولرؤية ذلك ، أحضرت جميع رجالي وجعلت بنفسي لي معقلاً في المدينة ، وظللت هناك ثلاثة أيام بينما حملت السفن بالبضائع التي أرى أنها الأفضل ، ثم أوصلت الماء إلى السفن ، وأبحرت باتجاه شرق الجنوب الشرقي بامتداد الساحل وداخل خليج فارس ، تاركاً الخليج خلفنا .

وصلت عند قناة "مندي" ، في نفس تلك الليلة وصلت إلى جزيرة هرمز مع ضباطي ، وفرساني ، والربابنة التابعين لي ورجال آخرين ذوي كفاءة ، قد حاربنا بشجاعة وكنا منتصرين في معركة ضد ملك هرمز ، وقد استوليت على المدينة ، والتي دخلت تحت رايتنا في ذلك اليوم وتحت حكم سيدنا ملك البرتغال والسادة الخمسة .

هناك تم تصليح السفن لي ، وفحص هياكلها في الحوض الجاف ، وكانت في حالة جيدة وكأنها كانت قد غادرت البرتغال في ذلك الشهر ، لقد حصلت على مؤن تكفي لمدة رحلة من عامين للسفن ، ولمدة عامين آخرين لحصن "شوشودور" . أود أن أرسل مؤناً من هنا لمدة ثلاثة أعوام أخرى إلى حصن هرمز ، حيث أود أن أرسل مائة فارس وأتركهم هناك ، وسوف تدفع لهم المدينة .

جاءت إلى تلك المدينة قوافل بها بضائع للتجارة من "تاوريس" (تبريز) ، من "شوسون" (كاشان) "Kashan" ومن كافة مدن مملكة فارس ، والتي جلبت كميات هائلة من البهارات والكثير

من المسك ، وعشبة "الراوند" والحرير بكافة أنواعه ، والكثير من البضائع التجارية .

تأتي أيضاً إلى تلك المدينة تجارة من أماكن أخرى ، ومن مدينة أخرى تسمى "أريون" "Ariana" (أريانا = جنوب شرق إيران) ، إن تلك المدينة (هرمز) كبيرة جداً ومليئة بالسكان ، وبها بضائع كثيرة ثمينة ، وبها كل ضروريات الحياة ، وبها أيضاً إقليم على البر الرئيس يمتد إلى تسعة أميال ، كل يوم تأتي مئتان أو ثلاثمائة سفينة إلى المدينة محملة بالمؤن ، تحمل سفن أخرى المياه .

إن السوق منظم جداً ويتم بيع كل شيء بالوزن ، ولديهم أنواع مختلفة جداً من الفاكهة ، جيدة كالتي توجد في البرتغال : كالعنب ، والدراق ، والتين الممتاز ، والرمان ، والسفرجل ، وأنواع مختلفة من التفاح ، والليمون والبرتقال ، كالموجود في بلادنا ، (وكل ذلك بكميات هائلة) ، واليقطين ، والشمام والبطيخ ، وكل نوع يمكن أن تذكره من خضروات الحديقة . يوجد في المدينة مخزون كبير من القمح ، وتجارة واسعة من كافة أنحاء العالم تحدث هناك .

يوجد لديهم مياه تبعد مسافة ميلين أو ثلاثة عن المدينة في مكان يسمى "توربراي" ، حيث توجد ثلاثة آبار عملاقة بها الكثير من الماء ، والتي قد ذهبت لرؤيتها ، ويوجد أيضاً صهاريج داخل المدينة يجمعون فيها مياه الأمطار ، ولكنها غير كافية لكل هؤلاء السكان في تلك المدينة .

تأتي كافة مياه الشرب في الصهاريج من جزيرة تبعد ستة أميال عن هرمز تسمى "تشيسورن" ، وهم يربون الكثير من الحيوانات في تلك الجزيرة ، وكذلك كافة أنواع المواشي ، ويزرعون الحنطة ، وحبة الدخن ، ونبات "السرغوم" ، هي جزيرة كبيرة جداً ، وهناك أماكن فخمة ، يزورها الملك عندما يذهب للصيد .

هناك ميناء آخر على البر الرئيس على بعد ثلاثة فراسخ ، تسمى "نيباندا" ، ومن هناك يأتي المراكب "الطوافة" بالمؤن ، وكذلك مؤن المياه إلى المدينة ، وهناك أيضاً موانئ أخرى كثيرة على البر الرئيس ، ومنها تأتي الأخشاب ومؤن أخرى كثيرة وبالتالي فإن المدينة مزودة جيداً بالمؤن .

يوجد في المدينة ألف وخمسمائة رجل ممتطين للخيول ، بالإضافة إلى العديد من الفرسان ، وهناك العديد من التجار يأتون من الهند ، ولأنني أكتب ذلك إلى جلالتك بسرعة ، نظراً لأن السفينة يمكن أن تغادر في أي لحظة ، وبسبب واجباتي في الحصن ، فأنا أضع أول شيء في النهاية :

الشيء الرئيس ؛ إن الشيء الرئيس جلالتك هو أنني بدأت في احتلال مملكة هرمز ومدينة "جابارات" ، عن طريق الإمساك بكل القصور والبلدات والحصون ، قبل الوصول إلى مدينة هرمز ، والتي تم احتلالها بقوة السلاح ، وذلك بفضل نعمة سيدنا عيسى المسيح ، كما ذكرت .

لذلك ، فأنا لا يمكن لي نسيان أفعال سيدنا عيسى المسيح ومعجزاته ، ويجب أن أكتب لسموك عن المعجزات العظيمة التي

حدثت في مدينة "نازيتشات" "Nazichat" ، وقد أرسلت ثلاثة رجال مدفعيين لتدمير دعائم المساجد ، والتي تحمل كل حمولة الأسقف المزخرفة ، وقد بدأوا في اختراق الأعمدة حتّى سقط المبنى تماماً على المدفعيين ، وقد تم دفنهما مع أعمال البناء والخشب والجص .

ظننا أنهم لابد أن يكونوا ماتوا ؛ لأنه إذا كان هناك ستة آلاف رجل ، يجب أن يكونوا جميعهم قد ماتوا بسبب الدمار الشديد الذي حدث للمبنى ، ولكن خرج الجميع بشكل أعجوبي بدون مساعدة من تحت الأنقاض والأحجار والأخشاب ، بخير وسلام ، ووقف بقيتنا مندهشين ، شاكرين إلهنا عيسى المسيح لرؤية تلك المعجزة .

دعني أخبرك أنه قد وصل إلى تلك المدينة ، من البر الرئيس ، ثلاثون فارساً والذين قد جاؤوا من "كيراتشي" (كراتشي) بأمر من ملك "كيراتشي" لطلب جزية من ملك هرمز ؛ لأنهم قد سمعوا بالفعل كيف أننا قد احتللنا وانتصرنا على تلك المملكة ، وقد أخبرني حاكم المدينة عن ذلك ، وقد أعددت على الفور أعداداً كبيرة من الصخور من أجل القصف الثقيل ، وكذلك "باسافو لانتي" (وهو نوع من المدافع) ومدفعيات أخرى من سفننا والكثير من المدافع .

قد أمرتهم بأن يظهروا أنفسهم للفرسان الذين قد جاؤوا من أجل الجزية ، وجعلهم يفهمون أن تلك هي الجزية التي أردت أن أعطيهم إياها كضابط للملك مانويل ملك البرتغال سيد الهند ومملكة هرمز الحالية . بمساعدة الله ، أتمنى إذا كان الحصن مجهزاً جيداً بالمؤن ،

وقد أريتهم ما أقوم به في هرمز ، وأنني سوف أذهب وأطردهم من دولتهم ، وأنني سأجعلهم يدركون أنني سوف آخذهم بالقوة من أجل خدمة سيدنا ملك البرتغال .

قد جعلت حاكم مدينة هرمز يكتب لهم باسمي وأن يرد عليهم أنني سوف أعاقبهم بشدة ، وبذلك خرجوا من المملكة بشكل خاضع .

إنهم رجال يرتدون قبعات حمراء وهم أتراك ، وهم أمة من الفرسان الذين تحركوا نحو احتلال الدولة ، وقد ربحوا بمدن "تاوريس" (تبريز) و"تشاسون" (كاشان) وأماكن أخرى عبر فارس .

التي تدفع لهم الجزية ، وهم يرتدون أقمشة من الكتان على رؤوسهم ملتفة حول تلك القبعات بالطريقة التركية ، ولها نفس الشكل الذي يرتديه الترك ، وهم يقاتلون مرتدين تلك الملابس ، وهم رجال متناسقين جداً ، وهم بيض البشرة مثلنا ، وهم يقولون إنهم لا يؤمنون بمحمد ، ولكن بقانون زوج ابنة محمد (علي) ، ويومهم المقدس هو الجمعة ، وهم يقيمون شعائره جيداً .

**وفي العام نفسه (١٥٠٧م)**

**قـــدم قــباطنـــة أسـطــول "أفــونســـو دي البوكـيرك" "Afonso de Albuquerque" التماسـاً مـن هرمـز ، بتاريخ الثالث عشر من شهر نوفمبر عام ١٥٠٧م :** (١٠)

يستعرض هذا القسم الاستيلاء على هرمز التي أصبحت تحت سيادة ملكنا ، وتعهدت بدفع الجزية له . إن احتجاج أربعة من القادة لهو ضد تشييد القلعة من قبل "البوكيرك" التي ارتفعت تكلفة بنائها وتسببت في الضرر وخسارة الأموال (للملك البرتغال) ووضعت الرجال والمدفعية أمام مخاطر جمة .

أخذت تلك الاقتباسات من الطبعة الأولى عام ١٥٥٧م ليوميات "أفونسو دي البوكيرك" من غير الممكن ربطها بما جاء في الترجمة الإنجليزية التي وضعتها جمعية "هاكليوت" "Hakluyt"

(١٠) رقم الوثيقة والهامش.

والتي يحتفظ بها سموه في مكتبته . تمت الترجمة للإنجليزية عن الطبعة البرتغالية الثالثة .

## وفي العام نفسه (١٥٠٧م)

**ورَد خطاب من ملك "كانانور" "Cananor" إلـى "دوم مانويل الأول" "Dom Manuel I" ، "كانانور" ، السادس من شهر ديسمبر عام ١٥٠٧م مقدماً له الولاء والطاعة :** [١١]

أنا ، راجا "كانانور" ، أخبر أكثر ملوك البرتغال شأناً وأقواهم وسيدي ، أنه في بداية اكتشاف ساحل "مالابار" عندما جاء أهالي دولتك وسفنك إلى "كاليكوت" من أجل التجارة ، سرق الرجال وقتلوا هناك ، وعبرت سفنك واتجهت إلى "كوتشين" .

كان عمي ، "الراجا" الحاكم مدركاً لما كان يحدث ، ولكن لم يرد ممالك أجنبية تقول بأن ملوك "مالابار" كانوا أشراراً وكاذبين ، وعلى الفور أرسل رجاله إلى "كوتشين" ليتوسلوا إليهم كي يسلكوا طريقهم إلى هنا .

---

(١١) رقم الوثيقة والهامش.

إن "بيدرو ألفاريز" ، الذي كان ضابطاً في ذلك الوقت ، جاء من دون أن يحدد سعراً أو أن يتحدث عن الدفع ، وأمر بأن يتم تحميل السفن ببهارات القرفة وكل شيء آخر كانوا بحاجته . أمر الضابط رجاله بأن يدفعوا جيداً ، وأمر أنه يجب أن يعلنوا رغبته العارمة للتعامل في ميناء "كانانور" .

لاحقاً خلال السنة التالية ، تم إرسال سفينة "ناوس" "Naus" إلى "كاليكوت" ووصلوا من دون أن يعلموا بما كان يحدث هناك ، وقد أخبرتهم بالحقيقة ، وبدأوا بالتحميل .

قد كان استقبالهم بكل كياسة ولطف ، لذلك قام عمي بشكل طارئ بترتيب لبعض الرجال للبقاء ، وهو شيء قد أراد القيام به جيداً بلا شك ، وقد أمر بأن يتم معاملة هؤلاء بشكل جيد وأن يتم إسكانهم على أرضه ، حتّى وصل الأميرال الذي كان يتفاوض في التجارة معنا ، وقام بترك وكيل تجاري وبضائع ، ثم أبحر بعد ذلك ببضائعه محملة .

بعد ذلك ، سألنا الوكيل التجاري عن مكان ؛ كي يقوم بإنشاء محطة تجارية بعيدة عن المسلمين ، وقد حصل على ما قد طلبه ؛ لأنه كان من دون حماية أمامهم ، وقد تم إعطاؤه كل الموارد التي طلبها حتّى وصل نائب الملك ، وهو ما أسعدنا جداً ، بسبب بعض الخلافات التي تحدث بين رجالكم .

بمجرد وصول عمي "راجا" ، قابل الوكيل التجاري في المكان

الذي قد أعطاه إياه ، وقام بكل اتفاق ممكن وصداقة أبدية ، وقد ابتهج لفكرة أنها ستكون للأبد ، وقد سأله نائب الملك كي يسمح له ببناء قلعة في نفس المكان من أجل مواطنيه ، كي يكونوا في أمان أكثر ، ولأنه أراد أن يترك أكثر النبلاء شرفاً هناك كي يكونوا ضباطاً كي يعتنوا بالأمور هناك .

على الفور أعطاه عمي المكان ، وقد أمر بأن يتم تزويده بكل شيء أراده من أجل ذلك ، ثم ترك الملك الذي تم ذكره مسبقاً هناك مع الرجال ، وانطلق إلى "كوتشين" .

لقد كان في ذلك الوقت ، عندما قتل الوكيل التجاري في "كيلون" هو ومن كانوا معه ، ومن بين هؤلاء من قاموا بحرق ست سفن "زامبوكس" كبيرة تابعة لمملكتي ، وكانت إحداها تحمل الأفيال والأخرى محملة بكمية كبيرة من البضائع القيّمة ، وقد كان المسلمون ، أتباعي وبعض التجار غاضبين بشدة بسبب الخسارة الكبيرة التي تحملوها .

في النهاية تناقشنا إذا ما كانت القلعة سوف تكون الأغلى سعراً ، وقد وضعنا حارساً حاسماً على سكانها ، وقد أمرنا بمعاقبة عدد من المسلمين الذين كانوا غاضبين بسبب ذلك ، وفقاً لعادات أرضنا ، وبتلك الطريقة قمنا بتهدئة عدد لا بأس به ، ولكن حزن خسارتهم كان لازال باقياً في قلوبهم للأبد .

عند تلك المرحلة ، أبحر البرتغاليون في سفن "الناو" التابعة لهم

داخل الميناء ، بنية تحميل السفينة لتاجر مسلم ، وهو تابع لي ، قد جاء من هرمز بالخيول ، قائلاً إنه لم يقم بإحضار "الكارتاز" الخاصة به ؛ لان التجارة الرئيسة في ذلك الميناء هي دائماً في الخيول من هرمز .

قد كان عمي حزيناً جداً لذلك ؛ لأننا يمكن أن نرى جيداً أن ذلك سوف يدمر العقد ، وهو ما حدث بالفعل ، وقد فقدنا حقوقاً مهمة . بعد ذلك قام المسلمون بنيتهم الشريرة لإحراجنا بقتل مسيحي شاب متحول عن دينه ، وهو أحد السكان الأصليين لتلك الدولة .

أمر "الراجا" بقتل مسلم للثأر ولانتزاع بعض أشكال العدالة الأخرى ، وهو شيء عادي في دولتنا .

في ذلك الوقت ، توفي عمي "الراجا" ، وتوليت أنا الحكم ، وحاولت أن أعامل الناس بإخلاص ونية صافية ، كما كان يقوم هو دائما ، لذلك كان هناك احترام وسعادة في مملكتي ، وقد قمت بجمع الناس وأعلنت الأمر لهم ، وقد كان الأمر هكذا قبل أن أُتوَّج .

قبل أن تغادر أول "زامبوكو" أبحرت في عهدي ، من مملكتي من الميناء ، استولى البرتغاليون عليها مني ، عندما كان ضابطها على الشاطئ ، مع "الكارتاز" التابعة للضابط "لورينسو دي بيرتو" ، والتي حملها كي يكون قادراً على الإبحار .

عندما أخذوها بتلك الطريقة ، وصل الضابط المذكور ، مع تلك "الكارتاز" ، وقد أمسكوا به وقتلوه مع الأناس الآخرين ، وأخذوا

"الزامبوكو" إلى "كوتشين" ، وقد اشمأزّ أتباعي من ذلك ، ومن أحداث أخرى قديمة ، قبل أن أستطيع منعهم حيث إنني لم أكن قد تم تتويجي بعد وهي عادة تلك الدولة ، قاموا بإحداث الدمار وهاجموا قلعتك .

بعد ذلك كما تعلم ، أرسلت ضباطي الذين قاموا بإجبار سكان القلعة على الانسحاب . عندما وصل الضابط ، كانت الحرب قد اشتعلت بالفعل بسبب عدد من الموتى ، لذلك أصبحنا في الحرب لمدة أربعة أشهر ، خلال تلك الفترة قتلوا البعض من مملكتي ، وقد أرسلت لاحقاً رسالة إلى نائب الملك في "كوتشين" قائلاً إنني أردت أن أحقق السلام معه ، ورد بأن عليّ أن أرتب ذلك مع الضابط "لورينسو دي بريتو" ، وأنه سيكون مسروراً لذلك .

بعد ذلك ، أقسمت مع الضابط المذكور سابقاً على صداقة غير منقطعة وسلام دائم ، مع كافة المعاهدات والاتفاقيات التي حدثت قبل ذلك ، دائماً بنفس الإخلاص الكبير من كلا الجانبين ، بسبب ذلك الاتفاق فإن الضابط لديه خطابي وأنا لديّ خطابه ، أنا مسرور لتلك الأمور ، فيما عدا حقيقة أن بضائعك وبضائعنا تتبع لسعر ثابت ، لذلك لا يمكن تحميل الناو هنا ؛ لأنه عبر بضائع العالم تختلف الأسعار وفقاً لتقلبات الطقس والظروف غير المتوقعة .

أود أن توافق جلالتك على الطريقة التي يمكن أن نتعامل بها ؛ لأن بضائعك أحياناً تساوي أكثر مما تم الاتفاق عليه ، وأحياناً أقل ،

وكذلك الحال بالنسبة لنا ولبضائعنا ، وهناك شيء آخر ، أود لو أن بعض الناس في مملكتي ، وهم من عبيدي ومن "الناير" التابعين لي ، حيث إن هناك نوعان من الناس ، وهم "تايفز" و "ماسوهاس" ، أود ألا يصبحوا مسيحيين ، أو "ناير" أو "برهميين" ؛ لأنه إذا أصبح هؤلاء العبيد مسيحيين سينشب شجار بين أتباعي ورجالك ، لأن العبيد يمثلون (دخل) "الناير" في أرضي ، وهم شيء لا يريدون خسارته .

من الآن فصاعداً ، وبمساعدة الله ، أود أن أقدم لك الإخلاص والصداقة الراسخة التي يستحقها ذلك السيد العظيم . يجب أن أكون عدواً لمن يعاديك ، وصديقاً لمن يصادقك ، وبما أن "ساMورين كاليكات" مدرك دائماً لذلك ، فقد أبدا دائماً كرهاً شديداً لي وكذلك أنا له ، لذلك أتوسل لك بأن تأمرني دائماً ؛ كي أحافظ على شرفي ؛ وكي تزداد مملكتي وأن تأمر رجالك بأن يتصرفوا كأصدقاء جيدين في حماية واحترام لأتباعي .

لقد أرسلت إلى قائد الأسطول الذي يصل الآن ، عن طريق "تريستاو دا كونها" ، هدية صغيرة إلى الأمير ابنك ، عسى إلهنا أن يمنحه النجاح وأن يطيل في عمره .

كتبت في "كانانور" في السادس من شهر ديسمبر ، عام ١٥٠٧م .
(في الخلف) خطاب من "راجا كانانور" إلى جلالة الملك .

**وفي العام نفسه (١٥٠٧م)**

**قـــدّم ضبـــاط أسـطـــول "أفـــونسو دي البوكـــيرك" "Afonso de Albuquerque" ، مـن هــرمـز ، التمـــاســاً لتصرفاتهم ، في أواخر شهر ديسمبر عام ١٥٠٧م :** [١٢]

بخصوص الالتماس والاحتجاج الذي قدمناه نحن : "مانويل تيليز باريتو" و"فرانسيسكو دي تافورا" و"أفونسو لوبيز دا كوستا" و"أنطونيو دو كومبو" ، ضباط الملك سيدنا : قدمنا إلى "سينهور أفونسو دي البوكيرك" القائد الأعلى ، فإنك ، "جواو نيستاو" كاتب هذا الأسطول ، سوف تعطي كلاً منا وثيقته القانونية وأكثر من ذلك إذا لزم الأمر . مؤكداً أنه من الحقيقي أن نقوم بالتماس إلى القائد الأعلى .

لذلك فإننا كتابعين مخلصين للملك سيدنا ونعاني من أجل خدمته ، من أجل شرف البرتغال نقوم بتقديمها له ، كي يمكنه أن

(١٢) رقم الوثيقة والهامش.

يذهب إلى البحر الأحمر ، حيث تقع معظم مصالحك ، وأيضاً أنه يجب أن يرسل الجزية إلى نائب الملك في "فرول دي لا مار"[أ] ، وإنه يجب أن يذهب ويقوم بإمداد قلعة "سوقطرة" ، كما أُمر من قبل جلالته ، وأن يقوم بأشياء أخرى كانت متضمنة في الالتماس .

لقد قمنا بهذا الالتماس له لأن القوت كان ينفذ ، وأكبر إخفاق كان من الممكن أن يعانيه الملك سيدنا في تلك المنطقة هو أن يضيع منه الوقت .

بعد استلام ذلك الالتماس ، انقلب القائد كلية ضدنا ، قد اتهمنا بالخيانة من أجل تقديم ذلك الالتماس ضده ، وقد أهان كل واحد منا باستمرار من أجل ذلك ، وقد سجننا داخل سفينة "الناو" الخاصة بنا ، وحرمنا من الحرية ، وبالنسبة للإهانة والخيانة التي اتهمنا بها لتقديم ذلك الالتماس ، فقد احتججنا من تلك الطريقة للملك سيدنا أو نائب الملك ، كي نستعيد شرفنا على أكمل وجه ، لذلك يجب تعويضنا عن الإهانة ؛ وذلك لمكانتنا كضباط ، من قِبل مرتكب ذلك الفعل وهو القائد "البوكيرك" .

بالنسبة للالتماس الذي قدمناه له فقد أجبت أنت "جواو نيستاو" أنك لم تكن مجبراً لأن تعود لنا ؛ لأن القائد الأعلى قد منعك من القيام بذلك ، وبالنسبة للالتماس ، فإننا نطلب منك ومنه ، باسم الملك ونائب الملك ، أن تعطي كلاً منا وثيقته ، مع جواب القائد

---

(أ) فلور دي لا مار .

الأعلى أو بدونه إذا لم يرد أن يسلمها ، إذا كان متردداً للقيام بذلك ، فإنه يجب أن تعطينا أنت ، "جواو نيستاو" الوثائق المذكورة ، وقد كافحنا أنه في تلك الحالة يجب على الملك أو نائب الملك أن يقوموا بفرض عقاب ملائم على الكاتب الذي أهمل واجبه ، وإذا وافق ، نعد بأن نقوم بالرد .

تمّ في ميناء هرمز ، وتمّ توقيعه من قبل الجميع ، في الثامن من شهر ديسمبر ، عام ١٥٠٨م ، إن هذا الالتماس تم توقيعه من قبل "أفونسو لوبيز دا كوستا" و"مانويل تيليز" و"فرانسيسكو دي تافورا" و"أنطونيو دو كومبو" .

## وفي العام نفسه (١٥٠٧م)

**بعث "دوم فرانسيسكو دي الميدا" "Dom Fransisco De Almeida" نائب ملك البرتغال في الهند ، برسالة إلى ملك البرتغال ، من "كانانور" "Cananor" ، في شهر ديسمبر عام ١٥٠٧م مبرراً تصرفات "أفونسو دي البوكيرك" :[١٣]**

سيدي في هذه الوثيقة التي قمت بكتابتها عما اطلعت به عن "لورنزو مورينو" "Lorenco Morino" ، فإن سموك سيرى ما يتعلق بـ "تريستاو دي كونها" ، هذا أمر أدهشني كثيراً ؛ لأنني أطعت أوامرك بجعله يأخذ آلافاً أكثر بكثير من "كروزادو" التي يجب أن يحصل عليها ، وفي تعاملاتي معه تحدثت وتصرفت وكأنه شقيقي ، لا أتحدث عن أولئك الذين يخصونك ؛ لأن ذلك هو ما أمرت به ، ظل معي لأربعة شهور مع أهله وآخرين ، كان يخبرني دائماً أنه

(١٣) رقم الوثيقة والهامش.

صديقي المخلص ويدين لي بالكثير ، وأخبرني بكل صراحة عن كل ما يتعلق بخدمتك وتقديري وشرفي .

أطلع سموك بذلك ولا أقدم ثقة أكثر ما يتوقعه سموك . أنا هنا في مدينة "كالكتا" مع ثماني سفن ومع "دوم" (....)؟؟؟ الثماني الأخرى .Fo .1v إذا سارت الأمور على خير فسأظل هنا حتّى يذهب لقضاء الشتاء في "كوتشين" .

أعتقد أنه في حالة الساحل ما زال تحت تأثير أوضاع "باناني" ، فإنهم لن يغامروا بالخروج لمحاربتنا .

يقال هنا أن "أفونسو دي البوكيرك" قد كسب معركة عظيمة في هرمز وأجبر المدينة بأن تدفع جزيرة ضخمة لسموك ، ولذلك أقدم شكري وتقديري لله ، فهو (الربّ) يعلم أن كل ما يتم في خدمتك يسرني كثيراً ، للآخرين ولنفسي ، أرجو من الله أن نستمر مع تلك (cabroyns) حتّى يظل اسمه محموداً دائماً وتقدماً لسموك جليل الخدمات .

قد تعتقد أنه إن كان الرجال الذين معي مسلحين فلن تكون هناك أي سفن في هذا الساحل ، لكن الكثير يهاجمنا ونحن قلة قليلة .

يرغب دوم الفارو في الذهاب لتقديم العون لشقيقه ؛ لأنه لم يكن مستعداً بطريقة جيدة . آمل أن أقدم له سفينة أو سفينتين مع كل الأشياء الضرورية بنهاية يناير (...)؟؟؟ الملابس سوف (....)؟؟؟ إلى "سوفالا" (....)؟؟؟ لن أذهب إلى "كوتشين" مع (...)؟؟؟ fo .2 "مانويل بارزاتها" .

أرجو أن أُذكّر سموك بأنني أرسلت مرتين رسالة إلى "جواو سـيراو" بواسطـة "جاسـبار بيريرا" بأن عليه عدم التفاوض مع "candaora" ولا أي هندي آخر نيابة عن نفسه أو نيابة عن الآخرين ولا أن يتسلم رسالة منهم ، وستكون عقوبة ذلك الموت .

قال إنه سينصاع ذلك ، وان كان هناك أي شيء استجد فإن عليَّ أن أصدّر الأوامر بقطع رأسه ، وقد قام بكل ما تضمنته الوثيقة . يجب على سموك ألا تبالي بالمشورة أو النصيحة ، لكن عليك أن تسمي نفسك الإمبراطور ؛ لأن ليس لأي أمير الحق في أن يستحق ذلك .

كنت أود أن أعين "لوبو كابريرا" وكيلاً تجارياً على "كوتشين" ، لكنه لم يكن يرغب في ذلك قائلاً إنه يعلم بأن سيغادر قريباً ... إلى آخره .

بناءً على نصيحة "تريستاو دا كونها" فقد أمرت أن يعمل "اندريه دياز" في تلك المحطة التجارية ؛ لأنه كان الأكثر قدرة من أولئك الذين هناك ، وليس "ديبجو فيجويرا" الذي يعمل في وظيفة رئيس كتبه ؛ لأنه ممتاز ومخلص لكن ليس (....)؟؟؟ ليكون موظفاً رسمياً ؛ لأنه غير كفء وشخصاً غير مقتدر .

(....)؟؟؟ رسالة كتبت بينما كنت راسياً بسفينتي في (....)؟؟؟ في انتظار "جوب كويمادو" عندما (....)؟؟؟ حضر الرسل لمقابلتي fo.2v "نتيوجا" الذي جاء في السفينة الشراعية خاصته من هرمز حاملاً هذه الرسالة من "أفونسو دي البوكيرك" .

يعلم الله كم سررت ؛ لأني رأيت أن الرب برحمته أمر أن تتوسّع عظمتك في كل الأنحاء . فكرت لبعض الوقت في أن كل ذلك سيمر على خير .

أرسلت في العام الماضي "دوم لورنزو" إلى هناك مع خمسة مراكب ، الـ "taforeia" والسفينة الصغيرة ذات المجاديف ومركب شراعي ، لكن أولئك الرجال السيئين الذين حكم عليهم بالذهاب إلى هناك وآخرين أرسلتهم لزيادة العدد تسببوا في اضطرابات مما دفعه للعودة مرة أخرى .

كل ما يقدّره الرب هو لما فيه الخير ، والرب يعلم أن "أفونسو دي البوكيرك" هو بمثل مكانة ابني مثل "دوم لورنزو" ، وأنني يجب أن أفرح أنه يقوم بعمل الخير في خدمتك . مغادرة "دوم الفارو" إلى "سوكوترا" ليست بالضرورية كما يقول "أفونسو دي البوكيرك" ، حتّى أن السفن ذات المجاديف والمراكب الشراعية (....)؟؟؟ سعدت كثيراً بذهاب "دوم لورينزو" ، لكن كما (.....)؟؟؟ .

**وفي العام نفسه (١٥٠٧م)**

**قام "أفونسو دي البوكيرك" "Afonso de Albuquerque" بالرد على "فرانسيسكو دي تافورا" "Fransisco De Tavora" أحد خصوم القائد "أفونسو دي البوكيرك" ، هرمز ، الحادي عشر من شهر ديسمبر عام ١٥٠٧م :[(١٤)]**

ليعلم كل من يقرأ تلك الوثيقة أنه في الحادي عشر من شهر ديسمبر في عام سيدنا عيسى المسيح ١٥٠٧م ، في ميناء مدينة هرمز ، قام "فرانسيسكو دي تافورا" ، ضابط ملكنا العظيم بتقديم التماس يأمرني بأن أعطيه الوثائق مع جواب القائد "أفونسو دي البوكيرك" ، وفحواها هو كالتالي :

بالنسبة للالتماس والاحتجاج الذي قدمته أنا "فرانسيسكو دي تافورا" ، أحد نبلاء سيدنا ومن أهل بيت الملك ، وضابط سفينة

(١٤) رقم الوثيقة والهامش.

"الناو ري جراندي" ، الذي قد رفعته لك ، "جوا نيستاو" كاتب أسطول الملك ، سوف تعطيني ذلك ووثائق أخرى إذا كان ضرورياً ، مع الإقرار القانوني للشهود المدونين من قبلي يؤكد حقيقة أنه في يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر نوفمبر ١٥٠٧م ، أبحرت في المركب الشراعي التابع "للناو" الخاص بي مع كل طاقمي ، كي أبحث عن حجارة للقلعة التي بُنيت في مدينة هرمز .

بمجرد أن تمّ تحميل المركب الشراعي بالحجارة ، ولتعجيل الأمر أبحرت عائداً إلى الميناء كما كنا نقوم عادة ؛ لأنه يبدو ذلك في مصلحة الملك ، وبمجرد أن أبحرت ، صرخ "سينهور أفونسو دي البوكيرك" عليَّ كي أعود ، وقد أطعت أمره كونه القائد الأعلى وعدت .

لم يقل القائد أي شيء لي عندما عدت ، ولكنه ذهب إلى التنزه بامتداد الشاطئ مع الوكيل التجاري "بيرو فاز دي أورتا" ، وفي النهاية عاد إلى قاربه ، والذي كان محملاً ، وأبحرنا داخل البحر ، وبينما كنا بعيدين عن الشاطئ ، التمسناه أنا وكل الضباط ؛ كي نغادر من هناك إلى "رأس غارادافوي" للقيام بما أمر به الملك في تعليماته .

بالإضافة إلى ذلك ، كي نرسل "الفرول دي لا مار" (١)؟؟؟ إلى الهند مع الجزية التي دفعتها تلك المدينة ، ولتحميل البهارات والذهاب إلى البرتغال ، وأنه يجب على القائد الأعلى إرسال رسالة إلى نائب الملك عما قام به ، وقد كرهني القائد بسبب الالتماس

المذكور الذي قمنا به ، كشخص يريد أن يؤذيني ، فوجّه إليّ كل الكلمات المهينة التي أرادها ، قال لي :

إنني أحد النبلاء المنحطين ، وإنني خائن ، وإنه سوف يملأ فمي بالبراز ، وقد زعم أنه عندما كنا نتقاتل أمام المدينة ، هربت من "كيرامي" عندما أراد القائد الاستيلاء على سفينة "باراو" ، وقد قال أشياء كثيرة مشابهة لي ، ووصفني بالخائن ، وأجبرني على ركوب قاربه ، وأمسكني بغضب ، ليس كقائد بل كعدو وشخص يريد إيذائي .

تحداني أن أذهب إلى الشاطئ ، وإنه سوف يعلمني أن كل شيء قاله هو الصحيح ، وإنني كنت كاذباً كشخص خائن ونبيل منحط ، كونه غير راضٍ عن ذلك ، فقد أمر بأن يتم أخذي إلى الناو الخاصة به ، حيث قالَ لي من قبل كل ما أراده ، ومن هناك حوّلني كسجين إلى "الناو" الخاصة بي ، وأمر ربان السفينة والمرشد البحري وكل الطاقم ألا يطيعوني أو يقوموا بأي شيء آمرهم به .

لقد كنت مطيعاً جداً لكل شيء قاله لي ، بهذه الطريقة ، حيث إنه قائدي .

أفضل أن أخسر مائة ألف "كروزادو" ذهبية ، وألا يُقال لي ما قد قيل سابقاً . أنا أحتج أنه قد تمّ الحكم عليَّ من قبله ، هو القائد الأعلى ، ولأنه أهانني بتلك الطريقة ، وأحتج مرة أخرى أن الملك يجب أن يعاقبه ؛ لأنه في تلك الحالة يستحق ذلك ؛ لأنه ناداني بالخائن ، وقال بأنني هربت أمام "كيرامز" ، وقد قلت له أنه لا يجب

أن يهين نفسه وألا يخسر ما قد ربحه من الشرف ، وأنه يجب عليه أن يقفز إلى الشاطئ ليقاتل .

لذلك فإن مسقط ، وهي إحدى المدن التي استولينا عليها من مملكة هرمز ، هي أكثر الأماكن التي حققنا فيها أكبر هجوم ، وقد كنا أنا وطاقمي من سفينة "النو" أول من هبطنا إلى الشاطئ ، لذلك فإنه في كل الأماكن التي استولينا عليها ، قمت بخدمة الملك كنبيل مخلص وشريف كما أنا وليس كخائن ، كما قال الضابط .

لذلك أيها الكاتب ، فأنا أتوسل إليك باسم الملك ، بأن تعطيني الوثائق المذكورة ، مع إقرار الشهود المدونين من قبلي ؛ كي يكون الملك سيدنا أو نائب الملك مدركين لكل شيء ، وأن يقوموا بما هو العدل مع دعوتي ضد القائد ، وأن يدفع لي عشرة آلاف "كروزادوساً" من ممتلكاته كتعويض لي عن الإهانة ، وأن يحصل هو على العقاب الذي يرى الملك سيدنا أو نائب الملك أنه يستحقه في تلك الحالة .

برده أو بدونه ، سوف تقوم أيها الكاتب بإعطائي الوثائق المذكورة ، مع دعوى النفقات والرد ، إذا وافق .

في الثامن عشر من شهر ديسمبر عام ١٥٠٧م ، أعطاني "أفونسو دي البوكيرك" القائد الأعلى أنا الكاتب رده على ذلك الالتماس ، وهو كالتالي :

كان من السهل أن أتجنب الرد على هذا الالتماس الذي قدمه "سينهور دي تافورا" لي... أو الوثائق التي طلبها ضدي ، بخصوص

الأخطاء التي قمت بها في حقه ، في تلك الحالات فإنه لا يطلب مني أي وثائق أو ردود مني .

المطلوب هو استجواب الشهود ، وهو ما طلبت القيام به لاحقاً . إلّا إنني تعمدت أن أجاوبه ؛ لأن الملك سيدنا يمكن أن يعاقبه عندما يرى أن ذلك من مصلحته .

من الحقيقي أن هؤلاء الضباط الأربعة الذين بعثهم الملك معي من البرتغال ، قد أقسموا على أنفسهم ، وقد حاولوا جميعهم مداولة على أن يحبطوا أعمال الملك قدر الإمكان ، وأنا منشغل مع التماس مخادع وخالي من الاحترام ضدي .

قد صرخوا هم ورجالهم ونشروا الإشاعات في المدينة ، وقد تسببوا في اضطراب وإزعاج لأسطولي ولاستقرار الأمور في هرمز ، لأني خشيت أن أعاقبهم بقسوة شديدة ، كما يستحقون . في وقت ما ، سوف أخبر الملك لماذا لم أقم بذلك ، إلّا أنني قمت باستفسارات حول الأمر برمته ، وكتبت بذلك تقريراً رسمياً .

رداً على مطالبة وشكوى "فرانسيسكو دي تافورا" بأنني أظهرت عدائية نحوه فيما يتعلق بالشكوى والعريضة التي قدموها لي ، فلا أعتقد أنه أو أي شخص آخر غيره ، يعترف أو يحس بذلك العداء من طرفي . في الرد الذي أمرت أن يتم إعطاؤه إليه شفهياً من خلال "جوان نيستاو" ، سوف يُرى كم كان قلبي مملوءاً بالكراهية نحوه . على العكس .

توسلت إليه كفضل منه أنه يجب أن يتم الاحتفاظ سراً بهذه المسائل التي كنا مشغولين بها حتّى لا يعرف عنها المسلمون ، فهم يجب ألا يعرفوا أن القباطنة كانوا متورطين في هذه الخلافات معي .

في كل مرة كثيراً ، حينما يتم استدعائي في خدمة الملك ، يبدد كل نوع من الهدوء والتوافق في هذا الأسطول محتاج إليه ، بما فيه الكل متحد وعلى وفاق تام مع قائدهم الذي يعتمد عليه الجميع ، ولأننا حملنا شحنة قيمة جداً على ظهر السفن .

إن القلق الوحيد الذي يوجد لدى المسلمين هو أن يُبصرونا جميعاً مخلصين وصادقين ، مشاركين في رغبة واحدة وإرادة واحدة . فضلاً عن ذلك ، لو حدث أنهم سألوا "ما هو هذا الجدل الذي يكون القباطنة منغمسين فيه مع قائدهم؟" ، فإنني أعطيت تعليمات لكي يقولوا إنه كان حول قوارب "الناو" التي قد أعطيتها إلى "فرانسيسكو دي تافورا" ، والتي لعبوا بها دوراً ، والتي كانوا مسيئين لها .

إلا أن المسلمين كانوا أكثر اطلاعاً وعلماً بها للحد الذي عرفوا فيه أن القباطنة كانوا يحاولون أن يتجنبوا بناء قلعة في هرمز ، وأن يُبعدوني من هناك في شهر نوفمبر أو ديسمبر ؛ لكي يجعلوني أفقد الأسطول ، هكذا كان "فرانسيسكو دي تافورا" يُرتب لكي يأخذ مني مائة رجل ، ويرسلهم إلى الهند في السفينة الحربية "فرول دي لامار" .

كان هناك مسائل أخرى بغيضة ذات منفعة قليلة للملك وضعوها في التماسهم (عريضتهم) ، هذه التي تمّ إعلام المسلمين

عنها بشكل جيد جداً . بهذه الطريقة ، بذريعة أنه من أجل مصلحة الملك ، بذلوا قصارى جهدهم لكي يلحقوا الضرر بشؤون هرمز من خلال جرح كرامتي .

أما فيما يتعلق بزعم "فرانسيسكو دي تافورا" ، في نفس العريضة بأنني تمنيت له الأذى ، فهو يعرف جيداً أنه هو الذي رآني ، أكتشف أن القباطنة أرادوا أن يرفعوا التماساً إليَّ والذي وقّع عليه ، أجبته ضاحكاً وبدون غضب بسؤاله : هل يبدو صحيحاً بالنسبة له أن يفعل هذا ، وأن يشعر بالسرور والبهجة في أدائه؟!

بعد هذا ، تحدثت إليه في مناسبات عديدة على انفراد ، أعطيته نصيحة صائبة جداً ، مقترحاً أن المسألة كانت بسيطة جداً .

في محادثتي ، دائماً ما أظهرت له علامات التقدير والصداقة ، ولكنني لم أتمكن من إبعاده من التأثير والنصيحة السيئة الذي لدى "أفونصو لوبيز دا كوستا" و"أنطونيو دو كومبو" و"جواو دا نوفا" ، إنهم استحقوا أن يوقع بهم العقاب لأن العريضة المذكورة مملوءة بالكراهية والغش ، للأسباب التي أقدمها فيما يلي :

أولاً : إنهم لم ينتظروا حتّى يعرفوا قراري ، مني ، وما كنت آمل أن أحققه ؛ لأنهم إذا عرفوا دوافعي ، فمن الممكن أن يكونوا قادرين على أن يفعلوا ما أرادوه بأمانة أشد .

شيء آخر ، أنه لا يوجد لديهم رغبة في أن يعاملونني بنفس التقدير

والاحترام الذي أظهرته لهم ، عندما كان هناك شيء ما يؤثر في مصالح الملك ، استدعيتهم جميعاً إلى اجتماع للمجلس ، بالإضافة إلى بعض النبلاء الآخرين ، وباستدعاء المجلس بهذه الطريقة ، طبقاً لعادتي رجوتهم أن يعطوا آراءهم في حضور كاتب ، وأن يوقعوا على بياناتهم ، ولذلك ، بدا مفيداً لكل من آمن بالله والملك ، حيث إنه من واجب القباطنة المطيعين لقائدهم أن يثقوا في الأشياء التي أمره الملك أن يفعلها وبمشورته .

نقطة أخرى ، منذ ثلاثة أيام قبل أن يتقدموا بهذه العريضة إليَّ ، استدعيتهم إلى المجلس ، كان "جواو دا نوفا" و"أنطونيو دو كامبو" غائبين ، وقلت لهم :

"أيها السادة ، أعطوني رأيكم ، هل من الأفضل لنا ومن مصلحة الملك كثيراً أن ندور حول "رأس جاردافوي" أم نعتني بشؤون هرمز؟" أعطى كل فرد هناك رأيه ، وأعطيت لهم رأيي . أراد "جورج باريتو" وأنا أن نهتم بمصالح هرمز ، بينما أراد أولئك القباطنة أن يدوروا حول الرأس ، بعد الاستماع إليَّ ، اتفق بعضهم في الرأي معي ، بأنها كانت فكرة أصوب أن نهتم بشأن هرمز ، مع القلعة التي تمّ القيام ببنائها .

قلت بعد ذلك : "أيها السادة ، إن هذه العملية هامة جداً للحد الذي يبدو فيه من المناسب فقط أن نحصل على المشورة الحسنة ، فكروا بعناية في هذا ، أنني سوف أستدعي القباطنة الآخرين الذين

ليسوا هنا وبعض الأشخاص الآخرين إلى المجلس ، وسوف نفعل ما هو أفضل من أجل مصلحة الملك" ، ثم ودّعتهم بعد ذلك .

لم يرغب أولئك السادة في الانتظار ، ولم يبد لهم أن قراراً صائباً يتم اتخاذه بهدوء وتعقل في مسائل متعلقة بخدمة الملك . بعد مرور ثلاثة أيام على ذلك ، مع خططهم اللامعقولة ، تقدموا بعريضة إليّ كما لو كنت صاحب دكان ، لم أرد عليها ؛ لأنهم لم يُظهروا لي تفويض الملك لكي يفعلوا هذا .

كانت العريضة من أجلي ، لكي اتّبع كل شيء في تعليماتي . ضمّنوا فقرات منها في عريضتهم ، مطالبين إياي أن أفعل الأشياء طبقاً للمسائل الخاصة بملكه العالي ، مُتمنين المجد لنجاحه الذي يجب أن يساعدوا فيه ، وألا يعوقونني .

هذه كانت إجابتي على العريضة التي استأنفوها ضدي : فيما يتعلق بكل شيء بقوله "فرانسيسكو دي تافورا" عن الذهاب إلى المحجر ومغادرته ، وما فعله هناك ، والحقيقة بأنه بدا له أنه من مصلحة الملك أن يقرر المغادرة مع طاقم قاربه ويتخلى عني ، مثلما يعترف ويُبين ، أقول إنه من الصحيح أنني أرسلت أمراً إلى "فرانسيسكو دي تافورا" لكي يستعد من أجل الحصول على بعض الحجارة ، وأخذت قارب "الباتيل" الخاص بي وجهزّته بالشراع ؛ لكي يذهب أيضاً على المحجر .

أقسم "فرانسيسكو دي تافورا" مع الآخرين أن يظهر كل حالة من

عدم الاحترام نحوي ، ولكنني كما هي عادتي تحملت خُبثه بصبر . انطلق بقاربه في اتجاه المحجر ولم يرد أن ينتظرني ، وصلت بعد قليل إلى المحجر حيث هو الآن ، ولكن لم أقل له شيئاً ، وبالأحرى كنت منفتحاً جداً معه ، ضاحكاً وهادئ المزاج ، حينما كنا نتمشى في نزهة في ذلك الاتجاه .

في تلك اللحظة ، وصل الوكيل التجاري براً على ظهر حصان ؛ لكي يناقش قضية الملك ، واصطحبني جانباً فيما وراء صخرة . حينما رجعت إلى القارب بعد أن ودّعته ، ذهب "فرانسيسكو دي تافورا" في وقت سابق مسافة ليست بعيدة بقاربه ، بدون أمري ، تاركاً إياي وحيداً هناك ، ناديته وأمرته أن يعطيني إشارة .

لم يُرد على حد ما الرجوع لفترة من الوقت . استمريت في إصدار الأوامر إليه لكي يعود .

عندما رجع لم أقل له شيئاً وبقيت صامتاً تماماً ؛ لأنني عرفت لبعض الأيام عن بذور الاستياء وعدم الرضا التي قد بذرها "أنطونيو دو كامبو" في قلوب القباطنة ، مدعياً أنني قد أطلعته على رسالة كنت كاتبها إلى نائب الملك ، التي كنت حارمهم فيها من تكريمهم ، ولذلك فإن بعض النبلاء والوجهاء في الأسطول كانوا يستشيطون غضباً مني .

في تلك الأثناء استدعيت كل القباطنة ، وأطلعتهم على الرسائل ، مقدماً مبررات عديدة وكلمات حسنة ، أوضحت لهم أن ما كان "أنطونيو دو كومبو" مستمراً في إخبارهم به لم يكن صحيحاً ، إنهم لا

يزالون مستمرين في عدم التوقف عن التصرف نحوي بوقاحة وعدم احترام ، ومع ذلك بدا صحيحاً لـ"فرانسيسكو دي تافورا" أن يغادر ويتركني وحيداً ، ومن ثم دخلت في قاربي وجئنا سوياً مع الحجارة .

في الطريق ، قلت بصوت عالٍ : "يا سنهور "فرانسيسكو دي تافورا" ، إنني كنت متوقعاً لطفاً أكثر واحتراماً منكم عندما جئتم من أجلي .

هل أنتم مضطرون أن تتركوني بين الصخور في أرض معادية وأن تغادروا بدوني أو بدون إذني"؟ وقف "فرانسيسكو دي تافورا" ساباً الإله ومريم العذراء ومُتلفظاً بكلمات بذيئة ومسيئة إليَّ ، قائلاً :

"إنك لن تعاقبني ، ولا تمتلك السلطة لكي تفعل هذا ، إنني أخذت السفينة ، أو بالأحرى انطلقنا في الإبحار لكي نهرب منكم" .

أخبرته بعد ذلك أن يتحول إلى قاربي ، وأن يتذكر أنه كان رجلاً نبيلاً فقيراً متزوجاً حديثاً ، بكلمات طيبة ونصيحة حسنة أضفت : أنه إذا لم يرغب في أن يفقد مكانة عند الملك ، يجب عليه أن يتوقف عن كونه فظاً ، أجاب بأن لديه أكثر مما فعلته ، ولا يريد شيئاً من الملك سوى أن يرحل إلى "قشتاله" .

هذه هي الطريقة التي حدثت بشكل تام . إن بقية ما يقوله في حجته هو اختلاق محض . حينما تمّ التخلص من الحجارة ، رجعت معه إلى سفينتي ، وأمرت بأن يتم استدعاء القباطنة ؛ لأنني استطعت

أن أرى أنهم كانوا ناقمين على كل المشكلة والقلق لدى حلقة هرمز ، لذلك بدا لي أنه من مصلحة الملك أن نتخذ خطوات لكي نتحقق من أن مشكلتنا لم تصبح معروفة للمسلمين ، لأن مسألة القباطنة التي كانت ضدي وضد خدمة الملك كانت فعلاً واضحة لدرجة أنه لا يمكن حلها سوى بسيف عدالة الملك أو بصبر أيوب .

لذلك ، نظراً لهذا ، استدعيتهم وأخبرتهم جميعهم بما هو غير ضروري لكي أوضح هنا ، لأنني استدعيت "جواو نيستاو" ، كاتب الأسطول ، لكي يدونه كاملاً .

أمرتهم جميعهم بأن يستريحوا ويقضوا وقتاً طيباً على ظهر قارب "الناو" ، ولكن إذا أرادوا أن ينزلوا إلى الشاطئ ، فيجب عليهم أن يعلمونني ؛ لأنه إذا وقع لهم حادث ما (لا سمح الله) بينما نحن في أرض العدو ، فإنني أحتاج إلى أن أعرف بأن لي قبطاناً على الشاطئ .

أما فيما يتعلق بالاضطراب في الحصن من أجل طمأنينة أهلنا ، فإنني عفوت عن هؤلاء الرجال بسبب القلق الذي أحدثوه هناك ، والذي لم يكن شيئاً مشابهاً لما كانوا يفعلونه ضدي في كل يوم ، على أية حال ، لأن "فرانسيسكو دي تافورا" قد هدد بالفرار ، أعطيت تعليمات بأنه يجب ألا يتم اعتباره مسؤولاً عن قارب الناو أو طاقمه في الوقت الحالي .

أجبت على هذا لكي يرى سموكم كيف بدأت الأمور . أما بالنسبة لما يؤكده "فرانسيسكو دي تافورا" في مستنده بأنه ذهب إلى المكان حيث كنت لأنه بدا له كثيراً من أجل مصلحة الملك ، فإنني

أضع أمامه هذا السؤال : "ألم أكن أنا هنا الوزير وقاضي الشؤون المتعلقة بخدمة الملك ، الشخص الذي هو يبوح له بهم أولاً"؟

حسناً ، حيث إنه يزعم أنه بدا له أنه من مصلحة الملك ومع ذلك غادر ، ينبغي لسموكم أن تفهموا هذه المشكلات التي إن شاء الله لا تنشأ عنها المشكلات الأسوأ .

بالنسبة للكلمات التي يزعم في مستنده بأنني وجهتها إليه ، فإنه ليس من عادتي أن أتفوّه بكلمات جارحة للسادة الذين يعملون تحت سلطتي ، ولكن بكلمات التوبيخ والتأنيب المناسبة والصريحة ، بأنه يجب أن يأمروهم أن يُنفذوا أي شيء يخص خدمة الملك في الوقت المناسب .

فيما يتعلق بإصراره على أنني تحديته ، فلا توجد أية حاجة لي لكي أتحدى فرداً ما من الأفراد الذين تحت سلطتي لكي أصحح أخطاءهم ، لكي تتأكدوا ، فإنه قال أشياء لي لدرجة أنني قد وضعتها بإرادتي على جانب صفتي الرسمية والسلطة التي أمتلكها عليه ؛ لكي أبين له أنني على الرغم من أنني لست القائد العام ، إلّا أنه يجب عليه ألا يتكلم إليَّ بهذه الطريقة .

بالنسبة للوقت الذي يعترف فيه بأنه قال لي أمام "الصيرم" "The Cerome" (العرش المصنوع من جريد النخل) أنه لن يعمل على فقرات كل التكريم الذي قد حصل عليه ، ولكننا يجب أن نقفز إلى الشاطئ ونقاتل ، في الحقيقة هو رجل وجيه كهذا ، قد خدم

الملك بشكل حسن جداً لدرجة أنه يستحق كل التكريم والتقدير الذي يمكن إعطاؤه .

ربما قال ما يزعمه ، ولكنني لم أسمعه يقوله ، أو بالأحرى إنني قررت أن أرغم المسلمين بالقوة من خلال البوابات أو في داخل القلعة .

حينما كنت مبحراً في قارب "مانويل تيليس" ، صحت بصوت عالٍ على قارب "فرانسيسكو دي تافورا" وعلى السفينة الحربية "فرول دي لامار" بأنهما يجب أن يسحبا مقدمتي سفينتيهما تجاه الشاطئ مع قاربي .

أمرت بعد ذلك القارب الذي كنت مُبحراً فيه إلى الشاطئ أمام العريش "الصيرم" وبوابات القلعة ، حيث قتلت عدداً كبيراً من المسلمين ، أجبرتهم على البقاء داخل القلعة وتخلوا عن العريش "الصيرم" .

كان "أنطونيو دو كامبو" عندئذ معي في قاربه ، ولكني لم أر أحداً آخر . من هناك أبحرت بعيداً على الفور في مقابل سفن "الغليون" التي كانت هاربة ، ثم تبعتني جميع سفن "الباتيل" .

اشتبكت معهم هناك لدرجة أنهم أصابوني بجراح أنا و"مانويل تيليس" ونبلاء آخرين كانوا معي في القارب .

أما فيما يتعلق بزعمه أنه كان أول من قفز إلى الشاطئ ، فهو واحد من أولئك الناس الذين بينما نصل إلى موضوع الهجوم دائماً ما يتفاخرون بأنهم من بين الأوائل فيه . على أية

حال ، أنه يمكن أن يكون ضد تعليماتي وأمري الملزم لكل فرد أن يغادر أولاً .

هذا من أجل وضعي الوظيفي لكي أتصرّف ، ولأنه يوجد لديَّ جنودي الذين يشكلون فرقة بحرية ، ولا يستطيع أي فرد منهم أن يذهب حيث يشاء ، أو ينزل من السفينة حيث ومتى يروق له . إنني آمر "جواو نيستاو" أن يحتفظ بمستند "فرانسيسكو دي تافورا" .

لكي أتجنب إثارة ضجة حول موضوع صغير لا توجد هناك حاجة لكي أعطيه ردي ، أو من أجله لكي يعطي تنفيذه ، إنني أعطيه فقط العدالة التي يلتمسها في مستنده ، وأنا في ردي أمام الملك سيدنا الذي فوضني صلاحيته وسلطته القضائية وجعلني قائداً عاماً للأسطول ، ولأنه هكذا يكون من أجل خدمة الملك ، فإنني "جواو نيستاو" كاتب الأسطول كتبت هذه الرسالة (الموقع) "جواو نيستاو" :

أنا "جوان نيستاو" ، أشهد بأن إفادات الشهود ليست متضمنة هنا ؛ لأنهم لم يعطوني إياها ولم يعينوني من أجلها (الموقع) "جواو نيستاو" (على ظهر الوثيق ، في كتابه حديثة العهد) :

هرمز في يوم الحادي عشر من شهر ديسمبر ١٥٠٧م) . مُستند من "فرانسيسكو دي تافورا" ، ورد "أفونسو دي البوكيرك" فيما يتعلق بالنزاع الذي حدث طرفه مع القباطنة الذين تخلوا عن مرافقته .

**وفي العام نفسه (١٥٠٧م)**

**تم انتصار "أفونسو دي البوكيرك" "Afonso de Albuquerque" المزدوج على هرمز ، جاء ذلك فيما كتبه : "أنطونيو دياز فارنها" "Antonio Dias Farinha" ، بتاريخ عام ١٥٠٧م :[١٥]**

إن اقتحام البرتغاليين للمحيط الهندي كان هدفه إحلال طريق "ليفانت" ، الذي كانت تأتي البهارات ومنتوجات أخرى عبرة إلى أوروبا ، بآخر يقود إلى ميناء "لشبونه" عبر "رأس الرجاء الصالح" .

تطلب هذا المشروع وجود أسطول تجاري قادر على نقل البضائع لمسافات طويلة وأسطول بحري قادر على حماية ذلك الاحتكار الذي كان يؤمل في إقامته .

كانت السفن ستحتاج إلى دعم من المحطات على اليابسة ، وحيث المحطات التجارية يمكن إنشاؤها في مناطق متحالفة ، أو

(١٥) رقم الوثيقة والهامش.

في سوق محلية وبناء القلاع عبر الحوارات ، أو عن طريق القوة أو محاولة احتلال المناطق أوسع أو أقل ، وإخضاعها لسلطة ملك البرتغال ؛ مما قد يتسبب في مشاكل .

إن الوجود البرتغالي ، قد يتخذ شكل مشاركة تجارية بسيطة بضوابط محدودة بالبحر وبعض الموانئ أو الجزر ، أو قد يتخذ أبعاد استعمارية .

إن افتتاح الطريق حول إفريقيا ، أفرز تغييراً في طرق الحياة في أوروبا وفي الشرق عبر الاتصال بين الشعوب المختلفة ، وتكييف المصالح الاقتصادية بين الأقاليم التي تبعد عن بعضها عبر رحلات بحرية تستغرق شهوراً أو سنين ، وهي عوامل حتمية لشروق فجر هذا العصر الجديد والحديث .

المؤرخ "جواو دي باروس" يصف الشكوك والمخاوف التي انتابت البرتغاليين ، عند التفكير في المسافات الطويلة التي عليهم قطعها في سفن صغيرة وهشة والمخاطر والصعوبات التي عليهم تجاوزها ، حتى يصلوا إلى الشرق :

"عندما شاهدوا على لوحات وخرائط الملاحة طول الساحل والتغييرات العديدة في الاتجاهات ، استحضر تصورهم وخيالهم صوراً مخيفة أزعجت ، وأربكت تقديراتهم وأحكامهم .

إصرار الملك والوزراء المتنفذين في بلاطه ، أكدوا انتصار فطرة التوسع ونتج عن ذلك إرسال الأساطيل سنوياً ، وفي الحالة لتأسيس

علاقات تجارية وجمع المعلومات للدراسة في "لشبونه" المتعلقة بحقيقة سياسة "مانويل" على الخرائط وتعليمات الملك وإجابات وكلائه ، كان أكيداً وجلياً أن القصد كان بلا شك هو البقاء في الشرق ، وكان الاختيار يتوقف فقط بين الوسائل في تحقيق وتوطيد ذلك الأمر .

الاتصال مع شعوب على مستوى عال من الحضارة والاستعداد بتجارة طويلة الأمد يتطلب تحسيناً في وسائل تجارة البرتغال ، التي كانت مقصورة على التجارة مع ساحل إفريقيا والتكيف مع معابر بحر العرب والمحيط الهندي ؛ حتى تشيع متطلباتهم الاقتصادية .

على أي حال فقط إخضاع التجار للسلطة البرتغالية يمكن أن يضمن احتكاراً في ذلك الإقليم ، الذي لا يصطدم بصورة خطيرة بالاستهلاك العادي لأولئك الناس ، الذين يتزودون من مناطق إنتاج البهارات والأدوية .

طغت على الأنشطة البرتغالية الجهود المبذولة في تحريك ونقل إنتاج مناطق الشرق عبر العبور حول جنوب إفريقيا ، والصراع مع السفن التي تأتي وتذهب في مضايق هرمز والبحر الأحمر ، ومحاولة إنشاء تجارة عبر الإقليم ، والتي تزيد في حجمها عن تلك التي تتدفق على طول طريق "ليفانت" وتشمل حتى المرور على الممر الجديد الذي فتحه "فاسكو دا جاما"[أ] . تبادل البضائع في

(أ) تسبب البرتغاليون في خلق مضايقات في طريق "ليفانت" لكن لم يغلقوه كلياً . انظر "جودينهو" .

الشرق بشكل الأرباح الضخمة لمكاتب الجمارك مثل مكتب جمارك هرمز ، الذي يحني له (الملك) وللموظفين فائدة لكل البرتغاليين على طول الحافة الساحلية لبحر العرب والمحيط الهندي ؛ مما بذر أصل الوجود البرتغالي النشط في أقاليم جنوب آسيا .

وصل البرتغاليون إلى الشرق دون خطة محددة عن كيفية تحقيق أهدافهم التي وضعوها ، ولم تبق حتى سياساتهم صامدة في وجه أول النتائج الإيجابية . رسمت محاولة لتنظيم الأمور في الهند بناء على الأوامر السارية ، وقدمت "للدوم فرانسيسكو ألميدا" في العام ١٥٠٥م .

اشترطت تلك الأوامر على سياسة تحكم على البحار ، وإنشاء قواعد على الجزر القريبة من المراكز الرئيسة ذات الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية على الساحل الغربي للهند (انيجيديف) "Angediva" ، وفي البحر الأحمر وفي الخليج في هرمز . اقترحت رسالة الملك "مانويل" في سنة ١٥٠٦م لنائب الملك جزيرة "سوقطرة" كموقع مراقبة قريب من مضيق باب المندب .

جزر هرمز "سوقطرة" أماكن ذات إشكاليات تتعلق بالوجود السكاني نتيجة للمناخ الحار والرطب والحاجة للمياه والزراعة . تقع كلاهما على الطريق الذي تعبره السفن في طريقها للمناطق الخليج والبحر الأحمر .

حظوظ البرتغاليين المختلفة في كل منها يجب ربطها ؛ نتيجة لاختلافها في الأهمية فيما يتعلق بنظام التجارة على المستوى الإقليمي .

إن تفضيل هرمز الذي أبداه "أفونسو البوكيرك" في العام ١٥٠٧م ، كان اختياراً يفسر بهذه الطريقة الأوامر الملكية التي تتطلب منه حراسة المضائق القائمة على الحاجة ؛ لضمانه توفير المؤن والزاد لأسطوله الصغير ، ورغبته في ضبط شبكة التجارة بـ هرمز .

لتمركز جهوده في جزيرة الخليج هذه اتبع "البوكيرك" هدفين :

كان يريد كسب التحكم في أحد خطوط طريق "ليفانت" ، وتأمين قاعدة التجارة الإقليمية المتبادلة بين الجزيرة العربية وفارس في ناحية ، وبين الهند والشرق الأقصى في الناحية الأخرى .

إن بداية التاريخ البرتغالي في الشرق مع إشارة خاصة لأعمال الحكام الأوائل الاثنين ، قد تمت دراستها باهتمام شديد ، ونشر الكثير عنها في تلك الفترة .

الانتصاران اللذان اكتملا على هرمز من قبل "أفونسو دي البوكيرك" في العام ١٥٠٧م و١٥١٥م أسستا أحد الأحداث الهامة والرئيسة في إرساء وجود البرتغاليين في آسيا ، وتحقيق هندستها المعمارية الرئيسة . الوثيقتان اللتان نشرتا كملحقين هنا من الأرشيف الدولي الخاص بـ "تورو دو تومبو" تضيفان المزيد من المعلومات لهذه الفترة ذات الأهمية التاريخية العظيمة[أ] .

(أ) التصنيف الذي أعد من قبل دكتورة (ماريا جوزيه دا سيلفا ليل) سهل الوصول إلى "Fragmentos" حيث توجد وثائق ذات أهمية كبرى . الرسالة من "بيرو دي ألبويم" في وضع سيئ وقد تم حفظها بواسطة دكتورة "ماريا دو كارمو" والتي قدمت العون على تفسيرها .

الوثيقة الأولى عبارة عن رسالة موقعة بإمضاء "دوم فرانسيسكو دي ألميدا" للملك "مانويل" ، كتبت عندما كانت سفن "تريستاو دا كونها" تعد نفسها للمغادرة من الهند والعودة إلى البرتغال في ديسمبر عام ١٥٠٧م . مخطوطة أصلية واحدة فقط من نائب الملك الأول كانت معروفة مسبقاً ، والتي أكدها "أنطونيو باياو"[أ] والتي تقدم لهذه الوثيقة أهمية إضافية .

تعيين نائب ملك للهند وصفه اللورد التي أضافها الملك "مانويل" للقبه كملك البرتغال ، ومنافسة المناصب الإسبانية مثل لقب الأميرال التي منحت "لفاسكو دا جاما" أثارت العديد من الأسئلة عن التاج . أحد تلك المناصب كانت تتعلق بالطبيعة السياسية ، والتشكيل القضائي للسلطة البرتغالية في آسيا .

في رسالة من "فرانسيسكو دي الميدا" للملك في ديسمبر عام ١٥٠٥م ، أمل : "أنه في فترة مسؤوليتي أن تصبح إمبراطوراً لهذا العالم هنا الذي هو أفضل من هناك" .

مذكرة بخط يده أضيفت إلى رأيه"..... معظم الألقاب هي ألقاب فارغة مثل ملك فرنسا الذي يسمي نفسه ملك القدس ، وتلك التي في "كاستيل واراجون" ، "اثينا" و"نيوباتراس" . . إلخ وملك "انجلترا" الذي يسمي نفسه ملك فرنسا . . إلخ ، لهذا أي

(أ) Historia da Expansao Portuguesa no Munda . Vol . II . Lisbon, 1939, pp . 105ff .

مساوئ والتي لا أظن أنها كذلك ولا أعرف عنها أي شيء ، فإذا أنت ملكهم ، لأن ملوك "كيلوة" و"ممباسا" أن تركتها وأولئك في "ماليندي" و"موقاديشو" ، اعتقد "فسيسمونك" سيدهم وأنهم رعاياك إن طلبت منهم ذلك ، الآخرون فعلوا ذلك حالياً وملوك صغار آخرون مثل ملك "زانزبار" . إلخ ، في الساحل الآخر لديكم قلاع ملكية مسالمة .

لا أحد يسافر عبر البحر دون إذنك حتى يسافر في أمن وسلام ... "بهتكال" و"هونوار" وعدوني بأنهم سيكونون من رعاياك ويدفعون لك جزية ولهذا الغرض ، فقد أرسلت "للدوم لورنزو" أسطولاً حتى لا يكون هناك من أمر أكثر عدلاً ولا استحقاقاً من أن يتلقى سموك هذا اللقب .

بعد سنتين من الخطاب المنشور هنا ، كشف نائب الملك عن الإصرار في الشك نحو لقب السيادة البرتغالية ، وهي المشكلة التي تشير إلى الرغبة في تدعيم شرعية السلطة ، وتوضيح طبيعة نظام "إمبراطورية الشرق" ، ورفع شأن (المحظوظ) "مانويل" وسلالته .

فأجاب : "على سموك عدم الاهتمام للنصيحة ، لكن أدع نفسك الإمبراطور ، وذلك لعدم وجود أمير له الحق في أن يكون كذلك" .

لم يذكر تاريخ على رسالة "فرانسيسكو دي الميدا" ، ويبدو عند قراءته أنه لم يكتب كله في وقت واحد .

يبدو أن الفقرة الأخيرة ، أضيفت بعد تلقي رسالة "أفونسو دي البوكيرك" ، التي يصف فيها هزيمة هرمز التي حدثت في نهاية سبتمبر من العام ١٥٠٧م .

اعتاد نائب الملك أن يكشف لسكرتيريه الوصف التفصيلي للأحداث ، لكنه أعطى أهمية هنا لأمور تمت معالجتها هنا (الاتهامات ، التعيينات ، تقييم الموظفين) ، من الممكن افتراض أنه ترك كتابة تلك المذكرات السرية ؛ حتى آخر الأيام قبل مغادرة الأسطول المتجه إلى "لشبونه" ، وكتب عبر أكثر من واحدة في حالة ضياع بعضها عند تحطيم سفينة أو لأي سبب آخر ، ثم تأريخها وختمها وسلمت على مسؤولية قباطنة سفن عديدة . سنحت للملك "مانويل" الفرصة ليؤنب نائب الملك على إرساله معلومات غير كافية للبرتغال .

طبقاً "لكاستانهيدا" فإن السفن غادرت خلال رياح "المونسون" لعام ١٥٠٧م ، تحت قيادة القائد "تريستاو دا كونها" إلى الهند في السابع من شهر ديسمبر ، أو طبقاً "لباروس" في العاشر من الشهر .

غادر الأسطول دون أن يكتمل ؛ لأن بعض السفن تأخرت بينما كان "فرانسيسكو دي الميدا" ، قد كتب في الرسالة للملك أنه كان ينتظر "جوب كويمادو" (....) وصل مرسال من "تيموجا" على ظهر سفينة تجارية تابعة له من هرمز ، ومعهم هذه الرسالة من "افونسو دي البوكيرك" ، فأضاف نائب الملك ذلك في نهاية الرسالة التي نشرت هنا .

عندما وصلت السفن بقيادة "تريستاو دا كونها" البرتغال في يونيو عام ١٥٠٨م ، وتلك التي كانت تبحر مع "جوب كويمادو" ، وصلت في يناير عام ١٥٠٩م ، وانتشرت أخبار الانتصار على هرمز "عن طريق الإشاعة" من أول تلك التواريخ ، اعتماداً على رسالة "البوكيرك" الطويلة المسهبة في بداية السنة التالية .

مصير الرسائل التي وردت من "فرانسيسكو دي ألميدا" و"أفونسو دي البوكيرك" والإسهاب ونشر أكثر محتوياتها أهمية أعطى بعض المؤشرات على بطء البريد في ذلك الوقت ، وكان لعنصر الخط دخل في استلام وتوصيل الرسائل ، وكانت الرغبة للأخبار من الشرق كانت ضمن اهتمامات البرتغال وأوروبا .

إن التاريخ للأحداث الرئيسة عن حملة "البوكيرك" إلى خليج عمان ، بينما كان "تريستاو دا كونها" = بعد أن ساعد في إنهاء الحصار على "كانانور" وتدمير مدينة "بوناني" يستعد لتحميل سفنه من أجل العودة إلى "لشبونه" ، يمكن إكمال ذلك التاريخ بدراسة وتمعن رسالة نائب الملك .

إن تقلبات ومتغيرات رحلة العودة ورد فعل "دوم فرانسيسكو دي ألميدا" لمآثر هرمز ، والتي كانت معروفة وساهمت في تعريف الأطار الذي بواسطته اتخذ الملك "مانويل" قراراته في بداية عام ١٥٠٩م ، وعلى وجه الخصوص الرحلة البحرية التي قام بها "المارشال فيرناندو

كوتنهو" الذي كان يمتلك سلطات مهولة ، وقد أعفى عن السلطة كقائم بمهمة القائد المسؤول للهند .

انتصر "البوكيرك" على هرمز خلال الأيام الأخيرة من سبتمبر من العام ١٥٠٧م ، في نهاية الرحلة التي استسلمت فيها "قلهات" و"صحار" دون قتال ، ومن ثم قام بمهاجمة "قريات" ومسقط و"خورفكان" .

أصبحت أخبار تلك المآثر والانتصارات معروفة في الهند من خلال تجارة المسلمين عبر الإقليم ، ووصلت إلى مسامع نائب الملك بهذه الطريقة ، وأيضاً عبر بحارة تلك السفن قبل أن يبحر "تريستاو دا كونها" .

الرسائل للبرتغال والمعلومات من أولئك الذين يغادرون على متن سفن الأسطول العائد يمكن فقط أن تنقل الإشاعات ، وملاحظة نائب الملك هي المثال على ذلك :

"يقال هنا أن "أفونسو دي البوكيرك" قد شن معركة على هرمز وأجبرها على دفع مبالغ ضخمة من الجزيرة لسموك" .

وصلت أنباء هزيمة هرمز "لشبونه" في الأول من يونيو عام ١٥٠٨م ، وكان مهماً أن يعرف ذلك في البرتغال ، لأن هرمز كانت تعتبر أهم شيء ومكان في تلك الأنحاء ، ولها أكبر شهرة وسمعة برهن النصر أن اختبار الملك "لأفونسو دي البوكيرك" كحاكم ثان للهند كان

اختياراً ممتازاً[أ] . لم يفت "مانويل" في عام ١٥٠٨م فرصة مدحه كقائد بحري "أحد سادة أهل بيتنا ، الأكثر استحقاقاً لمثل هذه الرتبة لشجاعته وخبرته في البحار" .

طلب الملك في التاسع عشر من شهر يونيو عام ١٥٠٨م ، من كبير أساقفة "براجا" أن يقيم موكباً مهيباً ؛ تقديراً وعرفاناً للأفضال التي قدمها للهند ، ويقول إن تلك الرسالة :

"قبل مغادرة "تريستاو دا كونها" للهند ، جاء المسلمون بالأخبار أن هرمز قد استسلمت "لأفونسو دي البوكيرك" وأصبحت خاضعة لدولتنا ، كإحدى أهم المدن في تلك الأنحاء بحيث كان من غير الممكن للكثيرين أن يبحروا فيما عدا في أوقات معينة في كل اتجاه ، تلقى المسلمون هذه الرسالة عبر البر[ب]" .. نص هذه الرسالة لكبير الأساقفة تؤكد أن المعلومات عن هزيمة هرمز لم تكن متوفرة في "لشبونه" في التاريخ الذي كتبت فيه ، وكانت قاصرة فقط عما ذكره المسلمون .

انتظر "أفونسو دي البوكيرك" حتى نهاية مباحثات السلام مع ملك هرمز وبداية بناء القلعة من قبل أن يكتب لنائب الملك ؛ ليقدم له بياناً بالأحداث التي كان هو بطلها وزعيمها .

استخدم أحد المسلمين كرسول ، قائد لسفينة تجارية تعود

(أ) اقسم "افونسو دي البوكيرك" للملك بالوفاء له في التعيين السري لحكم الهند في ٢٧ فبراير عام ١٥٠٦م .

(ب) رسالة أخرى بنفي مماثل أرسلت لمدينة "ايفورا" في نفس التاريخ ومدن أخرى وشخصيات .

ملكيتها لملك "هوناوار" "Honawar" طبقاً "لبراس دي البوكيرك"(أ) ، الذي يصفه نائب الملك أنه ينتمي "لتيموجا" القائد القوي الذي كان أحد أقارب ملك "هوناوار"(ب) .

عرفت هذه الرسالة من الترجمة الإيطالية المعاصرة وأكيد أنها كتبت في نهاية أكتوبر وبداية نوفمبر من العام ١٥٠٧م(ت) .

وصلت رسالة "البوكيرك" لنائب الملك بعد إبحار "تريستاو دا كونها" بعد أسبوع ، وكانت تحمل الوثيقة الغالية ، وأيضاً رسالة نائب الملك ، التي أعلن فيها هزيمة هرمز في الفقرة الأخيرة منها ، لكنه يبدي امتعاضاً كان يشعر به ؛ لأن ابنه "دوم لورنزو" لم ينجح في تحقيق هذا النصر في السنة الماضية .

"جوب كيومادو" ابن "فاسكو كيومادو" ، مالك السفينة "سيتوبال" "Setupal" ، كان القائد في سفينته الخاصة ، وقد أحدقت برحلة العودة التي قام بها للبرتغال بالكثير من الحوادث المؤسفة والحظ العاثر . وصل إلى "موزمبيق" في السابع عشر من شهر يناير عام ١٥٠٨م ، بعد أن غادر "تريستاو دا كونها" في ذلك الوقت الجزيرة مبحراً من هناك في الحادي عشر من شهر فبراير ، لكن كان مجبراً على العودة لإجراء الإصلاحات التي يحتاجها .

---

(أ) Commentarios de Afonso de Albuquerque part I chap . 39 .

(ب) V .below,doc . I .to .2v .

(ت) Jean Aubin, Vol . I . pp 137- 144, Mare Luso –indicum .

غادر مرة ثانية في التاسع من مارس عام ١٥٠٨م ، وبينما هو مبحر دون رفقه مع سفن أخرى كان صيداً سهلاً للقرصان الفرنسي "موندراجون" . على سفينة يملكها "جواو دا فيجا""Joao da Vea" ، و"جوب "كيومادو" بلا سفينة وصل إلى "لشبونه" في يناير عام ١٥٠٩م ، بعد ثلاث سنوات تقريباً منذ مغادرته في طريقه إلى الهند .

أخيراً وصلت رسائل "أفونسو دي البوكيرك" و"فرانسيسكو دي ألميدا" إلى البرتغال . عمل الملك على أن تنشر الأخبار بسرعة قصوى عن طريق إرسال رسائل للجميع ، فكتب للقاضي وأعضاء مجلس البلدية ووكيل التاج في "اليفاس" في الثلاثين من شهر يناير عام ١٥٠٩م ، وقد أوصاهم بالاشتراك والالتحاق بالموكب المهيب الذي طلب من الأسقف القيام بإعداده ؛ لتقديم الشكر للنتائج الرائعة للأحداث التي تكفل كامل سيطرته على الشرق .

الترجمة الإيطالية لرسالة "البوكيرك" كانت الوسيلة الوحيدة المتوفرة لمعرفة شكلها الأصلي ، وكانت دليلاً على الاهتمام الكبير الذي اتبعه الأجانب في القيام بالمغامرات البحرية التي قام بها البرتغاليون .

في هذه الحالة ، فإن التجربة قد تمت في وقت السرقة التي قام بها "فوندراجون" ، وعلم الملك بها بطريقة أخرى عبر نشر عام لما حدث فيها وتفاصيلها ، لأن سياسة "مانويل" كانت للفت انتباه أوروبا لما حققه في آسيا ، أو لعلها كانت بسبب التجار الإيطاليين الذين شكلوا جزءاً من أسطول "تريستاو دا كونها" .

كان معبر هذه الإمبراطورية الشرقية مهدداً بسبب الخلافات بين الشخصيتين الرئيستين ، "دوم فرانسيسكو دي الميدا" و"افونسو دي البوكيرك" الذي كان سيخلفه كحاكم عام في نهاية العام ١٥٠٨م ، كان رد فعل نائب الملك واضحاً في رسالته للملك "مانويل" :

"يعلم الرب أنني في غاية السعادة ، فلقد اعتقدت لبعض الوقت أن هذا من الممكن أن يمر بسلام ، وقد آمن بأن أي شيء يقضي به الرب هو للأفضل ، والرب يعلم أن "أفونسو دي البوكيرك" ، هو ابني بنفس القدر مثل "دوم لورنزو" ، وأنني يجب أن أفرح بأنه يقوم بكل ما هو رائع في خدمتك[أ] .

بعد فترة وجيزة من الكتابة للملك أبدا "دوم فرانسيسكو دي الميدا" امتعاضه ضد "أفونسو دي البوكيرك" بسبب انتصاره على هرمز :

"أرى بوضوح أن استيلاءك على المملكة والمدينة يستحق أن تملأ به الكتب ، وأن على سموه أن يضيف للشرف الذي حققته الكثير من الجوائز والمنح ؛ ذلك لأن حالياً يضيف الكثير لهيبته واحترامه ، وسينتشر عبر العالم ، لكنني لا أعلم أي مصلحة يمكن أن تجني منها (....)[ب] .

كانت الأوقات مناسبة "لافونسو دي البوكيرك" ، فقد أجبرت

---

(أ) V .below, doc . I fo . 2v .

(ب) Castas de Affonso de Albuquerque, Vol .III, p . 242 .

أخبار الانتصار على هرمز صدور القرار الملكي بأن يوكل إليه وظيفة الحاكم العام للهند .

بعد أكثر من شهر قليلاً بعد وصول رسالة "البوكيرك" في الثاني عشر من شهر مارس عام ١٥٠٩م ، بعث الملك بأسطول قوي إلى الهند تحت قيادة "المارشال دوم فيرناندو كوتينهو" ، لعله قد حذرته الإشاعات التي انتشرت في ذلك الحين بأن شيئاً ما من المتوقع أن ينفجر بين "أفونسو دي البوكيرك" ونائب الملك بخصوص تسليم حكومة الهند(أ) .

ألقى الملك "مانويل" بسلطات كبيرة على "المارشال" وأعفاه من الخضوع للقائد الأعلى للهند .

وصول خطابين من أكثر شخصيتين هامتين في الشرق البرتغالي لم يكن ليتم في وقت أكثر مناسبة لتبديد شكوك الملك ، وحثه لدعم خطط "البوكيرك" الطموحة في جنوب آسيا .

إن عائد القصة الطويلة للأسطول الذي غادر في طريقه للهند في عام ١٥٠٦م ، تحت قيادة "تريستاو دا كونها" ، وانتهى بعودة آخر المسافرين في عام ١٥٠٩م ، قد أعيد ذكرها من قبل "جيل فيسنتي" "Jill Vicente" ، في "Auto da India" عندما سألت "كونستانسا"

(أ) Joao de Barros, Decada II, bk .3 . chap . IX .

"Constansa" ، هل كانت السفينة التجارية محملة بأكثر مما يلزم؟ أجاب زوجها "كانت قادمه فارغة جداً رافعة كل أعلامها!"(أ)

الانتصار الأول على هرمز كان قد أحبط من قبل قباطنة بعض السفن التابعة لأسطول "أفونسو دي البوكيرك" ، الذين تركوه واتجهوا للهند بحثاً عن الدعم من نائب الملك .

غادر "البوكيرك" هرمز وأبحر في اتجاه "سوقطرة" حيث كان يعتزم قضاء الشتاء وهو يجوب مياه البحر الأحمر .

اشتكى القباطنة "لفرانسيسكو دي ألميدا" من سلوك قائدهم ، وقبل نائب الملك جدالهم ، وقد أثاره نجاح منافسيه في الخليج بالرغم من أن عملهم ، قد تسبب في تعدي خطير ضد الانضباط العسكري ، وتعرض "البوكيرك" لمساءلة بسبب خططه ومبادراته من قبل نائب الملك ، الذي دخل في اتصال مباشر مع حاكم هرمز .

بعد قضاء شهور عدة في منطقة باب المندب ، عاد "البوكيرك" إلى الخليج في عام ١٥٠٨م ، قبل أن يتجه نحو الهند ؛ حيث إن عليه مباشرة حكمه . اكتشف أن قادة هرمز فاتهم ملاحظة السيادة البرتغالية وامتدادها بالطريقة التي يرغب فيها ، لكنهم كانوا يتابعون الوقت حتى نتيجة المنافسة بين البرتغاليين ، ومعادلة ميزان القوى في البحار الهندية لحين أن تتضح .

---

(أ) (Obras completas), Gil Vicente ، Banha de Andrade, op .cit . Vol . V . P . 116, P .119 .

أظهرت تلك الأحداث هشاشة أو لعله الفشل لسياسة الثقة في أن تتم السيادة على البحار بدعم من الجزر الفقيرة مثل "سوقطرة" و"انجيديف" ، ولا حلفاء من حين لآخر مع القليل من الحكام والملوك .

أدرك "البوكيرك" أن وجوداً عسكرياً كان ضرورياً في تلك الأنحاء ، التي لعبت دوراً مركزياً في توزيع شبكة عمل لتجارة إقليمية بينيه في الشرق ، وعليه إذاً أن يهزم ، ويحصن هرمز ، "مالاكا" وموقعاً مركزياً في الهند (الذي حدد أن يكون "غوا") وعدن .

تولى "البوكيرك" مقاليد الحكم في الهند في نهاية عام ١٥٠٩م ، عند وصول أسطول "المارشال دوم فيرناندو كوتينو" ، وبدأ بإرساء ممارسة المشاريع التي كان يعدها خلال انتظاره الطويل المكتظ بالمشاكل ، بالرغم من أنه قرر هزيمة "غوا" إلا أنه تردّد في العام ١٥١٠م ، بين المغادرة أو العودة إلى هرمز .

السنوات التالية كثر الانشغال فيها لاحتلال "غوا" وأيضاً بالاستيلاء على "مالاكا" والحملة إلى عدن ، وذلك هدف لسياسة "مانويل" ، يتم الإصرار على تحقيقه بشده في الشرق .

أرسل "بيرو دي البوكيرك" في العام ١٥١٤م ،ليستكشف الخليج حيث طبقاً لمؤلف الـ "Comentarios" ، فإنه ذهب بعيداً حتى جزيرة "لولوتيم" بالقرب من دولة البحرين الحالية .

تمكن "البوكيرك" أخيراً في فبراير عام ١٥١٥م ، من تجميع الأسطول الذي اعتبره ضرورياً حتى يكمل مشروع هرمز .

الاحتلال الثاني للمدينة المشهورة تحقق بسهولة بسبب تفاوت القوة وإرباك المنافسين للسيطرة البرتغالية .

كتاب الدوريات التاريخية المعاصرة تركوا بيانات مفصلة للأحداث ، مثل "جاسبار كوريا" الذي كان شاهد عيان لموت الريس حامد ، في رسالة بتاريخ الثاني والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٥١٥م ، كتب "البوكيرك" بنفسه :"أنه ليس أمراً صغيراً ، سيدي ، لنصل نحن وفي أيدينا هرواة ، وعلى هرمز أن تعطينا مائة وعشرين ألف "أشرفي" نقداً مع الجزيرة التي يدينون بها ومع القليل من البضائع التي أحضرناها من الهند مع القليل من المشقة" .

رسالة "بيرو دي ألبويم" "Pero de Albuyim" للملك التي نشرت هنا تقدم وصفاً مختصراً عما حدث في المدينة أثناء فترة انتصار "البوكيرك" الثاني .

يقدم وزير خارجية الهند معلومات وافرة عن طبيعة الأمور السياسية والاقتصادية التي كانت وعلى وجه الخصوص في غاية الأهمية للبلاط الملكي في "لشبونه" ، وهو يشير أيضاً للمرض الذي كان يعاني منه الحاكم :

"كان مريضاً قرابة العشرة أو الخمسة عشر يوماً" بسبب واجباته الرسمية وتمتعه بثقة "البوكيرك" ، فقد كان "بيرو دي البويم" في موقع متميز ليعرف ويدرك الخيارات المفتوحة لمن أوجد دولة الهند البرتغالية في نهاية حياته ، لتلك الأسباب وبسبب التاريخ الذي

كتب فيه رسالته ، فإنه أمراً عظيم الأهمية لقصة الاستيلاء على هرمز ، فهي توضح بصورة مختصرة الأحداث الرئيسة ، والعلاقة مع زعماء هرمز والإجراءات السياسية والإدارية ، إنشاء القلعة والاتصالات التي جرت مع الملوك المجاورين وشخصيات من الجزيرة العربية وفارس .

تشكل إصرار "البوكيرك" للاستيلاء على هرمز من مدة طويلة قبل مغادرة هذا الأسطول في فبراير عام ١٥١٥م ، وقد قدم خططه ؛ لينتظر فيها من معاونيه كما جاء في مذكرات "بيرو دي البويم" :

"غادر القائد الهند لمدينة هرمز هذه ، حيث هو الآن بناء على نصيحة كل القباطنة الذين في الأسطول ، بالرغم من تصميمه الذي قرره مسبقاً بأن يأتي إلى هرمز كما كتب بذلك لسموك[أ]" ، ويصف فيما بعد وصوله إلى مسقط والأنباء التي جاءت من هرمز بخصوص تمرد وثورة الرئيس حامد بمساعدة أشقائه وأقربائه ضد سلطة الحاكم الريس نور الدين فالي[ب] .

عندما وصلوا إلى هرمز كسب البرتغاليون دعم الملك والحاكم الذي سلمهم القلعة التي بدأ بناؤها في العام ١٥٠٧م .

جاء الاعتراض من "الريس حامد" الذي قتله بعض ضباط

---

(أ) أنظر الهامش أدناه ، وثيقة ٢ ، ص١ .

(ب) عن ريس نور الدين فالي أنظر :

J . Aubin Le royaumes d, Ormuz au debut du xvi siecle, op . cit,p . 148.

"البوكيرك" ، بذلك بدأت فترة حكم البرتغاليين في مملكة هرمز ، والتي شملت عدة جزر في الخليج وبعض البلدات على ساحل الجزيرة العربية وفارس والسيطرة على طرق الملاحة البحرية على المناطق المجاورة للبحر على حدود البصرة .

أثار موت الريس حامد ردة فعل قوية بين اتباعه الذين هددوا بثورة أخرى .

وقوف ملك هرمز إلى جانب "البوكيرك" هدأ من روع عدد كبير من سكان هرمز ، بالرغم من أن أشقاء حامد وأقربائه لجأوا إلى قلعة الملك ؛ مهددين بأن معهم أطفال الملك سيف الدين ، وأن بحوزتهم الخزينة والسلاح والمدفعية ، وأن على الملك والقائد أن يفهموا بأنهم سيرشحون ملكاً آخر وسيحتمون في القلعة ، عند دخولهم إليها قاموا بتجهيز كل المدافع .

بدأوا مفاوضات مع ملك هرمز ، ريس نور الدين ، إبراهيم بيك ، وهو ضابط مهم ، ويقدر كثيراً ويتبع للشيخ إسماعيل ، وحتى السفير الفارسي للقائد قام بدور الوسيط .

غادر الداعمون وأتباع ريس حامد في نهاية الأمر المدينة بسلام .

إن سلوك "البوكيرك" الاسترضائي في عام ١٥١٥م ، يحتاج إلى تأكيد بسبب المقارنة بينه وبين تصرفاته في العام ١٥٠٧م ، عندما أشعل النيران في العديد من مدن تلك المنطقة ، ووضع أهلها تحت

رحمة السيف . منذ اللحظة الأولى استخدم القوة والتخويف ؛ ليمنع أي معارضة للوجود البرتغالي ، لكن في النهاية بحث على أن يدرج التعاون البرتغالي على قائمة الحماية البرتغالية المحلية على المدينة والإمبراطورية التجارية الملاحية التي زرعت في البحار والمناطق الساحلية للمحيط الهندي .

أخبر "بيرو دي ألبويم" الملك ببناء القلعة والاهتمام الذي وجه لإعداد مدفعيتها الخفيفة والثقيلة :

"إنّه أمر رائع أن تشاهد القاذفات النحاسية والحديدية التي صنعت بطريقة لم أر مثيلاً لها من قبل (...) وأيضاً بنادق "falcoes" النحاسية وخزانات الطلقات التي بها والمواسير الطويلة التي صممت بها بطريقة ممتازة .

اتبع ذلك بيان وصف فيه الإجراءات الإدارية التي اتخذها في هرمز .

هناك مقارنة أخرى هنا بين سلوك "البوكيرك" تجاه شاه فارس ، حيث إنه في عام ١٥٠٧م ، أبدا التمثيل الدبلوماسي والعسكري المعد جيداً ، وبعد ثماني سنوات ، ها هو يستعد لإرسال "فيرناو جوميز ليموس" ومعه "جواو دي سوزا" كسفراء للملك ، ومعهم هدايا قيمة .

التعريف السياسي والقضائي للسلطة الجديدة استمر في خلق

إشكالات للعقلية البرتغالية بحيث لم يثمر التقرير بين أن تكون إمبراطورية ملكية وسيادة ، كما كان ذلك بين التجارة والملاحة إلى أوروبا أو مصالح التجارة الإقليمية وفوائدها ، التحكم في البحار واليابسة ، التعاون مع السكان المحليين .. أو يصبح الأمر احتكاراً برتغالياً وإيجاد هجين نقي العرق ، الحرب أم السلم .

بعد أن غادر مؤيدو الريس حامد هرمز ، وعادت المدينة لأجوائها الآمنة ومنح الملك لقب الفارس ، أخبر "بيرو دي ألبويم" الملك "مانويل" أنه :

"من ذلك اليوم ومستقبلاً أصبح الملك تحت سيطرة القائد حتى أنه لم يفعل أي شيء مرة أخرى أو (bulio consiguo) دون أن يطلع القائد أولاً" .

ينهى تقيمه للوضع بمثال : "أؤكد لسموك أنه عندما ذهب للصلاة في المسجد يوم الجمعة ، أرسل أولاً يطلب الإذن (...) وهذا تصرف من رجل حكيم لأنه كان قد قلد ملكاً في ذلك الوقت (....) للمملكة من يد سموك .

عندما تقدم بطلب قيام حلف إلى شاه فارس ضد سلطان مصر ، أضاف "البوكيرك" لألقاب الملك البرتغالي بعد "سيد غينيا والنصر (...)" اسم الممتلكات التي استولى عليها وكسبها من الحرب : "ومملكة وسيادة هرمز ومملكة وسيادة "غوا" " .

اقتراح "دوم فرانسيسكو دي الميدا" بأن يسمى "الإمبراطور" تبعه استشراف عملي للحاكم "أفونسو دي البوكيرك" كسيد عظيم للشرق .

# دليل الباحثين

**الوثيقة رقم : ١**

مغادرة رئيس الضباط "أفونسو دي البوكيرك" "Afonso de Albuquerque" مع أسطوله من "سوقطرة" إلى هرمز وصولاً إلى "قلهات" "Kalhat" ، وما الذي فعله هناك ، بتاريخ عام ١٥٠٧م .

**(صفحة رقم ٩)**

**الوثيقة رقم : ٢**

أحداث عام ١٥٠٧م مع بعض الإضافات كما جاء في كتاب : "عقود آسيا" "Da Asia Nova" ، للمؤرخ البرتغالي "جواو دي باروس" "Joao de Barros" .

**(صفحة رقم ١٢١)**

**الوثيقة رقم : ٣**

أحداث اكتشاف وفتح الهند بواسطة البرتغاليين ، كما كتبه "فيرناو لوبيز دي كاستانهيدا" "Fernao Lopes de Castanheda" ، بتاريخ عام ١٥٠٧م .

**(صفحة رقم ١٧٤)**

**الوثيقة رقم : ٤**

ذكر الأحداث السابقة في عام ١٥٠٧م ، كما جاء في كتاب : سجل أحداث تاريخي للملك السعيد "دوم إمانويل دامياو دي جويز" "Dom Emanuel Damiao de Goes" .

**(صفحة رقم ٣٥٢)**

**الوثيقة رقم : ٥**

الأحداث اللاحقة لاحتلال هرمز ، كما تم وصفها في كتاب : "عقود آسيا" "Da Asia Nova" ، للمؤرخ البرتغالي "جواو دي باروس" "Joao de Barros" ، بتاريخ عام ١٥٠٧م .

**(صفحة رقم ٣٧٥)**

**الوثيقة رقم : ٦**

شروط معاهدة السلام التي أبرمها "أفونسو دي البوكيرك" "Afonso de Albuquerque" مع ملك هرمز ، سبتمبر عام ١٥٠٧م .

**(صفحة رقم ٣٩٤)**

**الوثيقة رقم : ٧**

اتفاقية السلام بين "أفونسو دي البوكيرك"

"Afonso de Albuquerque" وخواجا العطّار ، هرمز ، في العاشر من شهر أكتوبر عام ١٥٠٧م .

**(صفحة رقم ٣٩٧)**

**الوثيقة رقم : ٨**

ذكر الاختلاف الذي حصل بين "أفونسو دي البوكيرك" وضباطه ، فرحلوا عنه ، وتمّ تقديم التماس وشكوى للمغادرة والرحيل إلى الهند من الضابط "جواو دا نوفا" "Joao da Nova" ، مسقط ، في السابع والعشرين من شهر أكتوبر ، عام ١٥٠٧م .

**(صفحة رقم ٣٩٩)**

**الوثيقة رقم : ٩**

بعث "أفونسو دي البوكيرك" "Afonso de Albuquerque" برسالة من هرمز إلى "دون فرانسيسكو دي الميدا" "Don Fransisco De Almeida" ، نهاية أكتوبر - بداية نوفمبر عام ١٥٠٧م ، يبرر تصرفاته بعد أن كثرت عليه الانتقادات .

**(صفحة رقم ٤٠٨)**

**الوثيقة رقم : ١٠**

قدم قباطنة أسطول "أفونسو دي البوكيرك" " Afonso de Albuquerque" التماساً واحتجاجاً من هرمز ، بتاريخ الثالث عشر من شهر نوفمبر عام ١٥٠٧م .

**(صفحة رقم ٤٢٤)**

**الوثيقة رقم : ١١**

خطاب من ملك "كانانور" "Cananor" إلى "دوم مانويل الأول" "Dom Manuel I" ، "كانانور" ، السادس من شهر ديسمبر عام ١٥٠٧م مقدماً له الولاء والطاعة .

**(صفحة رقم ٤٢٦)**

**الوثيقة رقم : ١٢**

في أواخر شهر ديسمبر عام ١٥٠٧م قدم ضباط أسطول "أفونسو دي البوكيرك" " Afonso de Albuquerque" ، من هرمز ، التماساً لتصرفاتهم .

**(صفحة رقم ٤٣٢)**

**الوثيقة رقم : ١٣**

بعث "دوم فرانسيسكو دي الميدا" "Dom Fransisco De Almeida" نائب ملك البرتغال في الهند ، برسالة إلى ملك البرتغال ، من "كانانور "Cananor" ، في شهر ديسمبر عام ١٥٠٧م مبرراً تصرفات "أفونسو دي البوكيرك" .

**(صفحة رقم ٤٣٥)**

**الوثيقة رقم : ١٤**

قام "أفونسو دي البوكيرك" "Afonso de Albuquerque" بالرد على"فرانسيسكو دي تافورا" "Fransisco De Tavora" أحد خصوم

القائد "أفونسو دي البوكيرك" ، هرمز ، الحادي عشر من شهر ديسمبر عام ١٥٠٧م . **(صفحة رقم ٤٣٩)**

**الوثيقة رقم : ١٥**

تم انتصار "أفونسو دي البوكيرك" "Afonso de Albuquerque" المزدوج على هرمز ، جاء ذلك فيما كتبه : "أنطونيو دياز فارنها" "Antonio Dias Farinha" ، بتاريخ عام ١٥٠٧م . **(صفحة رقم ٤٥٤)**

# هوامش المجلد الثاني

1- Gaspar Corroea, Lendas da India (Lisboa: Academia Real das Sciencias de Lisboa, 1862) vol. 2, Chapters: 2-7, pp. 792-856.

2- Da Asia Nova, ed. vols, Barros Joao de and Diogo Couto, (Lisboa, Na Regia Officina Typografica, 1777-1788, Deacade 2, Book 2, chapters 1-4.

3- History of the Discovery and Conquest of the Indies by the Portuguese, Fernao Lopes de Castanheda, 1554, vol. 1, Book 2, Chapters: 36-74.

4- Chronica do Felicissimo Rei Dom Emanuel, Damiao de Goes, 1566-1567, Francisco Correa, Lisboa, 1566-1567, Part II, chapter XXXI, 112-80-142-114 fols.

5- Da Asia Nova, ed. vols, Barros Joao de and Diogo Couto, Deacade 2, Book 2, chapter 5.

6- TT, Biker's Portuguese (Indian) Treaties, 1507-1615, I/3/160, 1507-1542,

- Tombo of the State of India, Simao Botelho, fl 70.

7- History of the Discovery and Conquest of the Indies by the Portuguese, Fernao Lopes de Castanheda, vol. 1, Book 2, pp. 349-350,

- Chronica do Felicissimo Rei Dom Emanuel, Damiao de Goes, 1566-1567, Francisco Correa, Lisboa, Part II, p. 114,

- Tratados, Bartolome de las Casas, Fondo de Cultura Economica, 1965, vol. I, pp. 1-2.

8- Arquivo Nacional da Torre do Tombo (TT), Lisboa, Cartas de Afonso de Albuquerque Maco unico (CA) III, pp. 278-282,

- TT, Corpo Chronologico (CC), Parte I, Maco 6, Document No. 63.

9- Florence, Bibl Riccardiana MS 1910, fols 125a-130a, Letter of Afonso de Albuquerque to the Viceroy D. Francisco de Almeida, Mare Lusicum, pp. 137-144.

10- TT, *Comentarios I*: Comentarios de Afonso Dalboquerque, capitao geral e governador da India, colegidos por seu filho Afonso Dalboquerque das proprias cartas que elle escreuia ao muyto poderoso Rey Do Manuel o primeyro deste nome, em cujo tempo governou a India. Vam repartidos em quatro partes segudo os tempos de seus trabalhos. Com privilegio real. [Lisboa, por Joao de Barreira, 15571], fols. 75v-76r,

- TT, CA III, pp. 283-285,

- TT, CC, Parte I, Maco 7, Document No. 56.

11- TT, CA II, pp. 400-402,

- TT, CC, Parte I, Maco 6, Document No. 68.

12- TT, CA III, pp. 286-287,

- TT, CC, Parte I, Maco 7, Document No. 56, f. 120.

13- Arquivo Nacional da Torre do Tombo (ANTT), Lisboa, Fragmentos, Cx. Mo.1, No. 67.

14- TT, CA III, pp. 287-294,

- TT, CC, Parte III, Maco 3, Document No. 37 and No. 38.

15- Afonso de Albuquerque's double conquest of Ormuz, Antonio Dias Farinha, Studia Revista No. 48, Lisboa, 1989.

ISBN 978-9948-721-90-1
9 789948 721901
www.alqasimipublications.com